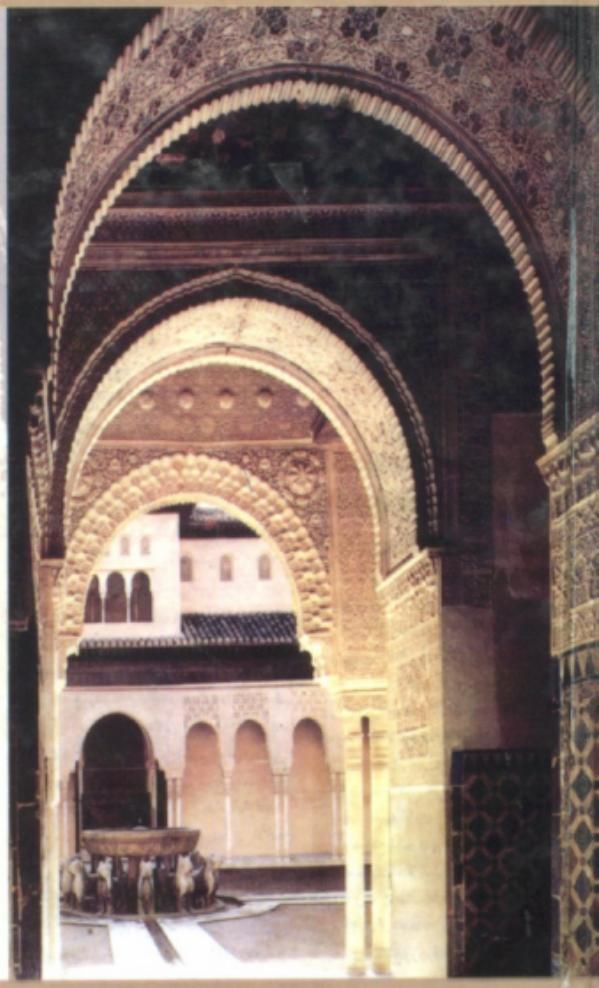


تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي
حتى سقوط الخلافة
في قرطبة



وديع أبو زيدون



تاریخ الأندلس

من الفتح الإسلامي

حتى سقوط الخلافة في قرطبة

وديع أبو زيدون





الأهلية للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nels.jo

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان - وسط البلد - خلف مطعم القدس
هاتف 4638688 4657445 فاكس
ص. ب 7772 عمان - الأردن

لبنان - بيروت - بشر حسن - شارع المصايرات
هاتف 01/824203 - 01/824203 مقسم 19

تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة

وديع أبو زيدون

الطبعة العربية الأولى - 2005
حقوق الطبع محفوظة

الصف الضوئي
ایمان خطاب
079 5 349 156

تصميم الغلاف
النسيم للتصميم
06 461 26 76

All rights reserved. No part of book may be reproduced
in any form or by any means without the permission of
the publisher

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي
جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بذن خطّي مسبق من الناشر

موجوعات الكتاب

13	المقدمة
الفصل الأول	
19	إسبانيا في التاريخ القديم
21	القائل الجرمانية وبداية العهد القوطى
26	الدولة القوطية بعد اعتزال الملك (واما)
27	دولة القوط تحت حكم غيطة، 700 م
29	الملك لذرق ونهاية حكم القوط في إسبانيا
31	أحوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي
39	الأصل اللغوي لإسبانيا والأندلس
41	لحة عن جغرافية إسبانيا
الفصل الثاني	
47	كلمة لا بد منها
48	الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب
51	لحة عن تاريخ المغرب
55	مراحل الفتوحات العربية
55	البداية الأولى
56	برقة أول خطوة للفتوحات

57	استئناف الفتوحات في العهد الراشدي
58	واقعة سبطنة
59	فتحات العصر الأموي
62	عهد الفتوحات المظمة
56	أبو المهاجر الأنصاري ودوره في قيادة الجيش الإسلامي
67	ولادة عقبة بن نافع الثانية
72	فتحات الأمويين في عهد آل مروان
79	جيوب المقاومة
79	بناء قاعدة بحرية
81	موسى بن نصیر (86 هـ / 770 م - 90 هـ / 711 م)

الفصل الثالث

89	أسباب الفتح ومقدماته
92	هل كان فتح إسبانيا مغامرة؟
95	مراحل الفتح
95	1- مرحلة الاستكشاف
97	2- حملة طارق بن زياد
100	حكاية سفن يليان وعبر المسلمين
102	إحراق السفن
105	خطبة طارق بن زياد
108	وقائع طارق بن زياد الحربية
112	فتح قرطبة
114	3- موسى بن نصیر
118	فتح أشبيلية
119	فتح ماردة
122	4- فتوحات عبدالعزيز بن موسى

الفصل الرابع

127	عصر الولاة
130	نهاية عبدالعزيز بن موسى
131	قرطبة عاصمة للأندلس
131	ولاة الأندلس في زمن عمر بن عبدالعزيز
134	مرحلة الاضطرابات
135	ولاة الأندلس بعد عمر بن عبدالعزيز
135	عنابة بن سحيم الكلبي
136	عذرة بن عبدالله الفهري
136	يجي بن سلامة العاملي (الكلبي)
137	عبدالرحمن الغافقي
138	عبدالرحمن الغافقي وميرة التورفات
139	معزكة بلاط الشهداء
141	أسباب خسارة المسلمين في معزكة بلاط الشهداء
143	ولاة الأندلس بعد المجزعة
143	عبدالمللک بن قطن الفهري
145	عقبة بن الحجاج
148	يوسف بن عبدالرحمن الفهري
150	أحوال المجتمع الأندلسي في عصر الولاة
151	الأحوال السياسية والإدارية
151	الأصول الاجتماعية
152	الأحوال الدينية

الفصل الخامس

155	عصر الإمارة الأموية
155	سقوط الدولة الأموية في الشرق

العباسيون يتعقبون أفراد العائلة الأمورية 157
الأمير الطريد 158
كيف وصل الأمير إلى المغرب ؟ 161
خطبة عبد الرحمن بن معاوية لدخول الأندلس 163
عبد الرحمن في الأندلس 168
محاولة لاختواء خطر عبد الرحمن 170
الاستعدادات للقتال 172
معركة المصارة 174
حوادث مهمة قبل دخول عبد الرحمن إلى قرطبة 177
مصير يوسف النهري والصميل 178
عبد الرحمن الداخل أميراً على الأندلس 180
مؤهلات عبد الرحمن الشخصية 182
إنجازات صقر قريش 183
نماذج من ثن وشعر عبد الرحمن الداخل 186
أماء قرطبة بعد عبد الرحمن الداخل 191
الأمير هشام الرضا 191
شخصية الأمير هشام 192
حركة المقاومة في عهد الأمير هشام 195
ظاهر الحضارة الحجازية 196
الأمير الحكم بن هشام الريسي 198
شخصيته 198
التحديات التي واجهها 199
ثورة الريض الأولى والثانية 202
غزوات الحكم 205
الحكم شاعراً 208

الأمير عبدالرحمن الأوسط 209
سياسة الأمير الإدارية 210
قرطبة وحضارة العراق 212
الفتن في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط 215
نهاية الأمير المؤله 218
عصر الاضطرابات 218
الأمير محمد بن عبدالرحمن الحكم 218
الأمير المنذر بن محمد 219
الأمير عبدالله بن محمد 219
موجز للمشهد السياسي في عصر الاضطرابات 221

الفصل السادس

الأمير عبدالرحمن الثالث (الناصر) 225
عبدالرحمن الثالث خليفة في قرطبة 227
سياسة عبدالرحمن الثالث 230
الخطير النورماندي 230
الخطير الفاطمي 232
الخطير المسيحي الإسباني 236
علاقات الخلافة مع الدول الأوروبية 238
المظاهر الحضارية في قرطبة 239
الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) 249
الأخطراريي واجهت قرطبة 252
الخطير الفاطمي 252
الخطير النورماندي 256
علاقة الخلافة مع الدولة الإسبانية 258

الفصل السادس

263	الخلیفة هشام الثاني وأقول الخلقة
265	لمحة عن تاریخ بنی عامر
267	عهد المنصور ابن أبي عامر
273	سياسة المنصور العسكرية
280	منجزات المنصور العمرانية والإدارية
283	نهاية عهد المنصور
284	عبدالملک بن المنصور (المظفر)
287	عبدالرحمن بن المنصور ونهاية الدولة العاشرية
292	المهدي وعهد الفتنة
297	المستعين بالله خلیفة قرطبة
299	عودة المهدي إلى قرطبة
301	المستعين يعود إلى قرطبة وخلافة هشام الثالثة
303	عهد آل حمود
303	علي بن حمود ملکاً على الأندلس
306	القاسم بن حمود المأمون
307	يجي بن حمود المحتلي بالله
309	عبدالرحمن بن هشام المستظہر بالله
311	محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله
313	هشام بن محمد المعتمد بالله ونهاية الخلقة الأموية
315	آراء المؤرخين في نهاية عهد الخلقة الأموية في الأندلس

الفصل الثامن

321	أباب سقوط الخلقة في قرطبة
328	العالم الحضاري في الأندلس

329	العمران الديني
329	1- المساجد
320	جامع قرطبة
324	جامع عمر بن عيسى
335	مسجد الباب المردوم
336	العراني المدنى
336	القصور
339	الأسوار والمحصون والقلاع
340	القناطر والجسور
342	الحمامات
343	صور وخرائط
361	مصادر الكتاب



**مَكْتَبَةُ
لِسانِ الْعَرَبِ**

www.lisanarb.com

مقدمة

يُعد التاريخ الإسلامي في الأندلس من المقول الخصبة التي شغلت المؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً. لما يمثله هذا التاريخ من ثرة لتلاق الحضارات، ونقطة التقاء المشرق بال المغرب. ولقد كان هذا المشهد أكثر من وجهة نظر في قراءة وفهم الأحداث التاريخية التي امتدت من بدايات الفتح الإسلامي لإسبانيا وحتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة - وهي الفترة الزمنية التي يتناولها في كتابنا هذا.

لقد آثرنا أن ندخل إلى هذا الحقل الحصيف بمنهج قوامه أن التاريخ واقعة نصية تخضع للتشير والتاویل وفقاً لمجموعة من القوانین والعوامل التاريخية والواقعية، لا أثر للمسار النبی في حدوثها ونضوجها وسقوطها.

فالتاريخ ظاهرة بشرية، تخضع لقوانين أدوار استحالتها الخاصة في الشّوء والارتفاع والانهيار. ومن هذا الفهم انطلقنا لقراءة التاريخ الإسلامي في الأندلس، ولم تخضع في حساباتنا الانتصار إلى عامل واحد حاسم في صياغة التاريخ، وإنما نظرنا إلى مجموعة العوامل والمؤثرات الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاعلة في تحرير مسار الأحداث بشمولية كلية. مع الأخذ بنظر الاعتبار غلبة عامل على آخر في ظروف معينة حسمتها الظروف الذاتية والمضروبة لإنضاج هذا العامل ليكون متقدماً في أهميته لصياغة أحداث مرحلة ما.

لم ندخل للدراسة هذه الحقيقة التاريخية المهمة بمنطق البراءة والدهشة التي وفرتها الكثير من المصادر التاريخية المعاصرة والتي انساقت إلى دور الخيال المؤدي إلى صناعة

الخرافات ودورها الحاسم في تفسير التاريخ. لقد كان الشك دليلاً فيتناول كل حلقة من حلقات التاريخ موضوع دراسته، لذا فقد اطلعنا على الكثير من المصادر التاريخية والمعاصرة، ولم يدهشنا اسم هذا المؤلف المثير أو ذاك، ولا الإجماع المسبق على استنتاج معين بخصوص حادثة ما في التاريخ.

ليس جائزاً في الاختلاف فقط - رغم مشروعيته - ولكن لإعطاء الواقعية التاريخية حقها الكامل وبشفافية تضمن لجميع المواعظ والظروف الدخول إلى قاعة المحكمة. لأن غياب أي مؤثر س يجعل التاريخ يظلم مرتين، مرّة عندما يكتبه الغالب وأخرى عندما يكتب الغلوب كما يقال حفناً.

ورأينا أن تتجنب الواقع في مستنقع أحادية الفروض والبراهين والقناعات السابقة في دراسة أية ظاهرة أو حدث في موضوع دراستنا. كما سعينا للامتناع الراوية من معطيات مناهج الدرس التاريخي المختلفة.

وازاء الكم الهائل من المراجع والمصادر والدراسات والبحوث القديمة والمعاصرة، بذلك الجهد الوفير لرصد المعلومة من مختلف المصادر وتبويبها للوصول إلى استنتاج مناسب حول كل حدث تاريخي موضوع دراستنا.

وكان من أهم ما خططنا له الخروج بدراسة موضوعية وجادة تستمر كل الإمكانيات المتاحة بما فيها الحواشي والإشارات الدقيقة في بعض المصادر الموثوقة لدينا، وقراءة ما بين السطور في البعض الآخر سعياً لإكمال بعض التغرات في الصورة الكلية للوقائع التاريخية.

ومن أجل استكمال هدف دراستنا الموضوعي والجاد، تخربنا الانساق وراء العاطفة والحماسة الزائدة والتي كانت فخاخاً وقع فيها بعض الباحثين في ملاحقة الأحداث، يكتفين بما قدم إليهم من روايات في متون ومراجع التاريخ اللامعة والأثيرة لديهم.

وإذا جاز لنا أن نقتبس من رجال علم الحديث مصطلح (الخبر الضعيف). فإننا سمعنا إلى هذا الخبر بهم شديد لقناعتنا أن الخبر الضعيف في مصاديقه يشكل لدينا الجسّ الأول لفحص الظاهرة أحياناً، ودون الاعتماد الكلي على الأخبار المتفق عليها مسبقاً. لأننا رأينا العجب والعجب في اختلاف المصادر التاريخية حول مختلف الأحداث وصل الحال بهذه المصادر إلى الاختلاف الشديد في تحديد زمن حملة عسكرية إسلامية بل إنها اختلفت في قائد هذه الحملة والكثير من التفاصيل التي سترث قطعاً على الاستنتاج العام.

على وفق تصورنا في قراءة أحداث التاريخ الإسلامي في الأندلس قمنا بتقسيم الكتاب إلى ثمانية فصول، بحيث في الفصل الأول لمحة عن تاريخ إسبانيا القديم والأقوام التي توالت على الحكم، ثم تطرقنا إلى أحوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي، ومررتنا على الأصل اللغوی لإسبانيا والأندلس وختمنا الفصل بلمحات عن جغرافية إسبانيا. ولم يكن بالإمكان القفز على التاريخ المغربي لأنه يشكل حلقة مؤثرة في فتح إسبانيا، فقد جاء الفصل الثاني للإشارة إلى الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب، وللمحة عن تاريخ المغرب ومراحل الفتوحات العربية للمغرب منذ البداية الأولى وحتى عهد موسى بن نصير. أما الفصل الثالث فقد بحثنا فيه فتح إسبانيا وأسبابه مروراً بمرحلة الاستكشاف وحلة طارق بن زياد إلى فتوحات عبدالعزيز بن موسى بن نصير. وجاء الفصل الرابع للحديث عن عصر الإمارة الأموية، بعد سقوط الدولة وخصصنا الفصل الخامس للحديث عن عصر الإمارة الأموية، بعد خلافة الإمامية في الأندلس بتفاصيلها منذ إعلان عبدالرحمن الثالث خلافته لقرطبة وحتى خلافة الحكم الثاني - المستنصر بالله. وكان الفصل السابع وهو من أطول الفصول حيث عُطِّل الأحداث التي بدأت في خلافة هشام الثاني وأُنْهِيَتُ خلافة هشام، إلى عهد هشام بن محمد المعتمد بالله ونهاية الخلافة الأموية في قرطبة.

وجاء الفصل الثامن والأخير للبحث في أسباب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، كما رأينا أن نختم الكتاب بالحديث عن المعالم الحضارية في الأندلس. يشقيها: العمران الديني والذي تضمن المساجد والعمران المدني الذي اشتمل على التصور والأسوار والمحصون والقناطر والجسور والحمامات.

وديع شامخ

أبو زيدون

عمان - 8/2004

الفصل الأول

- إسبانيا في التاريخ القديم
- القبائل الجرمانية وبداية العهد القوطى
- الدولة القوطية بعد اعتزال الملك (واما)
- دولة القوط تحت حكم غيطة، 700 م
- الملك للريرق ونهاية حكم القوط في إسبانيا
- أحوال المجمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي
- الأصل اللغوی لإسبانيا والأندلس
- لمحه عن جغرافية إسبانيا

الفصل الأول

إسبانيا في التاريخ القديم

يشكل الآيبيريون الذين هاجروا من أفريقيا، والكلت والأقوام الهندو - أورية الذين عبروا جبال البرت^(١) - (والتي تعرف عند بعض الباحثين خطأ بجبل البرانس) - أساس سكان شبه الجزيرة الآيبيرية. لقد شهدت شبه الجزيرة عبر تاريخها القديم سلسلة من الهجرات والغزوات الأجنبية وذلك لما تتمتع به هذه البلاد من الثروات المعdenية والإنتاج الزراعي الوفير، إضافة إلى مختاره المزدهرة. فقد أنس الفينيقيون في القرن العاشر ق. م. عدّة مستعمرات على السواحل الشرقية والجنوبية لشبه الجزيرة، كما أنشأ الإغريق بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة وأطلقوا على سواحلها اسم آيبيريا، الذي يسميه عبد المنعم الحميري في (الروض المعطار في خبر الأقطار) باسم إبارية^(٢). ثم ما لبث اسم آيبيريا أن أطلق على شبه الجزيرة باكملها. ومنذ القرن الخامس ق. م. خضعت شبه جزيرة آيبيريا إلى حكم القرطاجيين، فازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة (كرتاجونوفا) الذين اتخذوها عاصمة لهم.

بهذا تكون شبه الجزيرة منذ عام 535 ق. م. وحتى عام 205 ق. م. قد وقعت تحت تأثيرين هامين، الأول: أوروبي وهو التأثير الكلتي والميوناني. والثاني: آسيوي أفريقي هو التأثير القرطاجي. لكن التحول الحاسم في تاريخ شبه الجزيرة كان في عام 205 ق. م.

(١) د. حسين مزنن، فجر الأندلس، ص 3. نفح الطيب للنقري، ج ١ / 126.

(٢) الروض المعطار، ص 6.

إذ جاء تأثير لاتيني أوروبي وهو الغزو الروماني الذي أنهى حكم القرطاجيين. وبسط الرومان سيطرتهم على مناطق واسعة في شبه جزيرة إيبيرية، ولكن إخضاع السكان الأصليين تطلب حروباً مقطعة استمرت نحو 200 سنة، استطاع الرومان من البطة على شبه الجزيرة وقسموها إلى خمس مقاطعات. وتغيرت شبه الجزيرة تحت سيطرتهم بالرخاء الاقتصادي والغزو السياسي والتأثير الفكري.

وبهذا أصبحت شبه جزيرة إيبيريا إقليماً رومانياً، إذ تسلّم عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة من الأباطرة الذين ولدوا في شبه الجزيرة، والتي كانت مسقط رأس للعديد من الفلاسفة والأدباء أمثال (سينيقه ولوقان وكولوميليا). وواصلت الإمبراطورية الرومانية اوج عظمتها في المئتين الأولى والثانية الميلاديتين عندما أكملت سيطرتها على كل سواحل البحر الأبيض المتوسط وإسبانيا وفرنسا وجنوب إفريقيا، فيما كانت أغلب الملوك خلف هذه الرقعة الشاسعة تابعاً لروما أو حليفاً لها. وعندما حلَّ القرن الرابع الميلادي كانت روما تسيطر على العالم القديم وكانت الحضارة الرومانية تسط مجدها على العالم، ولكن هذا القرن شهد أيضاً في أواخره أفال إمبراطورية الرومان، بفعل أسباب عديدة، تعلق أولاً في البنية الداخلية للنظام الروماني، الذي كان نهباً للفساد والقمع. وما عجل في نهاية الإمبراطورية الرومانية هو الاتساع الشاسع لملكها، والتي صارت عيناً كبيراً على جد الإمبراطورية⁽¹⁾، ففي الوقت الذي كانت الإمبراطورية الرومانية تعاني من التناكل الداخلي، جاءت القبائل الجرمانية في موجات متلاحقة لتفرض كيانها المترهل أصلاً.

ففي عام 384 و 235 اعتلى عرش روما 60 إمبراطوراً معظمهم من قادة الجيش مما أحدث اضطراباً واسعاً، عظُم تفاقمه ازدياد هجمات البربر على السواحل الشمالية للإمبراطورية، وعلى الرغم من نجاح أباطرة مثل ديوكليان⁽²⁾ (248-305) في تثبيت دعائم الإمبراطورية، إلا أن هذا النجاح كان محدوداً ومؤقتاً، إذ استأنفت الإمبراطورية من بعده تقهقرها. وأنا أذهب إلى تأيد بعض الباحثين في كون نهاية الإمبراطورية الرومانية

(1) عادل بنتاري، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 39 وما يليها.

بدأت على يد الإمبراطور قسطنطين (307-337)، عندما نقل عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة عام 330 م واختار لها اسم القسطنطينية، نسبة لاسمها. وبدأت هذه العاصمة بالنمو على حساب روما⁽¹⁾.

وتذهب بعض الروايات إلى تأكيد الدور الروماني في حياة شبه الجزيرة إلى أن الرومان استطاعوا نشر حضارتهم وقوانيئهم وفنونهم بعد أن قصوا على نفوذ القرطاجيين، وإن المجتمع الإسباني قد استجاب لهذا النمو الاجتماعي وتاغم معه بفضل الديانة المسيحية⁽²⁾. كما أن الرومان أنسوا مدينة (طالقة) وجعلوها أهم مراكزهم العرمانية في جنوب إيبيريا. لكن عهد الإمبراطور ثيودسيوس⁽³⁾ (عام 395) قد شكل نهاية العهد الروماني على شبه جزيرة إيبيريا بشكل كامل.

القبائل الجرمانية وبداية العهد القوطي

يبدو أن الرومان حتى في لحظة انهيارهم قد استهزأوا بالقبائل الجرمانية الغازية، لأنهم لم يفهموا لغتهم والتي كانت تشبه (ثاء الغنم) (baa, baa) ومنها جاءت كلمة برابرة، وأطلق الرومان كلمة برابرة على سائر الأقوام التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهر الراين والدانوب شاملين بذلك الجerman المفترعين من شجرة النب التي ضمت القرط والوندال والأنجلو والسكسون وغيرهم.

فما الذي فعلته هذه الأقوام في تاريخ إسبانيا؟

إن المعلومات التاريخية عن دور القبائل الجرمانية في تقويض الدولة الرومانية غير واضحة تماماً⁽⁴⁾، إلا عندما استقر القوط الغربيون في أواخر القرن الرابع الميلادي في القسم الغربي من الدولة الرومانية بقيادة الأريك. وبعد القوط الغربيون من أهم فروع

(1) د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص. 63.

(2) انظر: الدكتور سيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندرس، ص. 54.

(3) يرى د. إبراهيم طرخان أن غزوات الجerman كانت بسبب زيادة عددهم وفلة إنتاجهم الزراعي مع غنى الدولة الرومانية. راجع: إبراهيم علي طرخان، دولة القوط الغربيون، ص 21 وما بليها.

الجرمان الشرقيين. وكانت سيطرتهم على الجزء الغربي من شبه الجزيرة في عهد الإمبراطور الروماني تيودوسيوس، فلما توفي هذا الإمبراطور سنة 395 م أصبح للأريك الرئاسة على القوط الغربيين.

وقد أصبح الأريك أعلى شخصية في وسط أوروبا وغرتها، واستطاع أن يتولى على اليونان عام 396 م، ثم يدخل إيطاليا ويحاصر روما سنة 409 م، ويفرض شروطه على الإمبراطور هونريوس القاضية بعزله وتولي الإمبراطور برسكوس أناطوس مكانه. ولما تولى الإمبراطور الجديد منصبه عين الأريك قائداً عاماً للجيوش الرومانية كما عين آطاولوف قائداً للحرس الإمبراطوري⁽¹⁾، لكن الأريك اختلف مع أناطوس وعزله سنة 410 م. ثم سار إلى روما واستطاع احتلالها وأشاع فيها الخراب والدمار وقامت جيوشه بسلب روايتها المدنية والحضارية، ولما توفي الأريك سنة 410 م خلفه على زمام القوط الغربيين صهره آطاولوف (415-410)، وكان هذا القائد يتطلع إلى الأجزاء الغربية للدولة الرومانية وهي غالطة وإسبانيا، كما نجح آطاولوف في الحصول سنة 412 م على اعتراف من هونريوس يمنحه منطقتي أريونة وطركونة من أراضي شبه جزيرة أيبيريا، ولقد أصبحت هاتان المقتضان نواة لدولة القوط الغربيين⁽²⁾، التي اتسعت جنوب غالة وشمال إسبانيا. وكان آطاولوف طموحاً جداً أراد أن يكون إمبراطوراً للدولة الرومانية فتزوج من جالا بلاسيديا أخت الإمبراطور.

كانت إسبانيا تعاني في ذلك الوقت من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة، التي تدفقت عليها منذ عام 409 م، وبعد صراع طويل مع قبائل الوندال والألان والسويف استطاع القوط الغربيون من السيطرة على إسبانيا، ويسقط نفوذهم واتساع ملكتهم خاصة في عهد تيودوريد (451-420) فقد تحالف مع الرومان لصد هجوم قبائل الهنون التي تدفقت على غالطة سنة 450 م، ونجح في هزيمتهم في موقعة شالون سيرمارن عام 451 م، ولكنه توفي في هذه

(1) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين، ص 77.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 52.

الموقعة، وظلّ مصیر دولة القوط متازماً منذ عام 451 وحتى بداية عهد الملك أليوريك الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربين في إبارة وغالة. إذ تکن من مدّ نفوذه على إقليم لشادنة الذي كان يحکم الألان، وبذلك خضعت له كلّ أيبيريا ما عدا الجزء الذي كان يحکم السويف في جليبة. كما تکن من بسط نفوذه جنوب غالا، إذ استولى على آرل ومرسيلا وكليرمون وبوردو. إلا أن نفوذ القوط الغربين المخسر في حلوة إسبانيا بعد أن هزّهم الرعيم الإفرنجي كلوفيس عام 507 م، وفيها قتل الملك الأرييك الثاني، ومع ذلك فقد ظلّ القوط الغربين محفوظين يأقلم سمبانيا المتاخم لجبال البرت من الشمال، ويعتد شرقاً حتى وادي الرون، ولم يستمر احتفاظ القوط بهذا الإقليم طويلاً بعد أن طردهم الفرنجة منه عام 531 م. وفي عهد الملك القوطي توديس (548-531 م) اقتصرت دولتهم على إسبانيا فقط، وهكذا ظهرت إسبانيا منذ أوائل القرن السادس الميلادي كدولة موحدة، وحدة سياسية للمرة الأولى في التاريخ، لأن الإغريق حين أتوا إليها لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب، ولأن الرومان إيان غزوهن لها، كانوا يقسمونها إلى ولايات مختلفة لا علاقه بين بعضها بعض⁽¹⁾. ثم اختار القوط عاصمة داخلية يتکون فيها من بسط نفوذهم علىسائر أنحاء البلاد، فاختاروا ماردة أولًا في عهد الملك أجيلا (555-549 م). ولكن ذلك لم يجد نفعاً، لهزيمته أمام جيش الكاثوليک القرطي، مما أدى إلى ثورة نبلاء القوط على الملك أجيلا بسبب هزيمته هذه، ثم استولى أناخيلد على الحكم القرطي بعد أن استعن بالإمبراطور البيزنطي جستينيان واستطاع أن يستولي على إقليم باطقة وجزء من إقليم قرطاجنة. وهنا نقل أناخيلد عاصمه من الجنوب إلى الشمال، فاختار مدينة طليطلة لما كانت متاز به من موقع جغرافي واستراتيجي هام. ولقد بلغت طليطلة ذروة مجدها في عهد أناخيلد، حتى سميت بالمدينة الملكية وزينت بآثار جليلة من قبل الملوك الذين جامعوا بعده، ولقد حدث تحول هام في تاريخ إسبانيا القوطية بعد أن تحول الملك ريكارد من المذهب

(1) حين مؤنس، فجر الأندلس، ص 6.

الدين الأريوسي في المجمع الديني الثالث بطليطلة سنة 587 م إلى الكاثوليكية⁽¹⁾، ولقد جاء في قرار التحويل الذي اخذه مجلس طليطلة باسم الله المقدس، إن كنيسة القديس ماري قد جعلت بطريركية كاثوليكية في أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافيوس ريكاريد، وعمد ريكاريد على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس⁽²⁾.

إذ أصبحت إسبانيا بعد هذا التحول المذهبى مقللاً من أمنع معماقي الكاثوليكية، وكان لهذا أثر بعيد في حياة الإسبان وفي مجرى تاريخهم كله⁽³⁾، وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللغة اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد، وتوقفت صلات إسبانيا بالبابوية، وأصبحت طليطلة لستة يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه، ومن هنا تفهم السر في أن نفوذ أسقف طليطلة الذي يحظى بتأييد الشعب الروماني والأبييري، لم يقل في فترة من فترات التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملوك⁽⁴⁾. ويرى البعض أن هذا التحول يمثل ضعف القوط وصولهم صاغرين أمام المحافظ الكنيسة لقاء القوة العسكرية التي كانت تعوزهم⁽⁵⁾. ومن المقيد أن ذكر أن المذهب الأريوسي (الأرزي) كان يقوم على رفض الوهية المسيح ولا يعترف للقاوسية بحق الوساطة بين الله والناس، ولا يجعل لنعذراء مريم مكاناً مهماً في العقيدة، وكان لمعتنقي هذا المذهب أسلوب خاص في العبادة⁽⁶⁾.

(1) كان الملك ريكاريد على خلاف أبي لونيفيلد (586-567) الذي قضى حياته يحارب الكاثوليك في جليقية وجنوب إسبانيا، فقد كان عبّاراً للسلام، لذلك أراد وضع حد لظاهر الاضطراب التي سادت في عهد أبيه. (انظر: د. السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس).

(2) إبراهيم طرخان، دولة القرطاجيين، ص 162.

(3) حسين مؤنس، فجر الأندلس.

(4) د. صالح أبو دياك، الر吉ز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 142.

(5) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 56.

(6) د. صالح أبو دياك، الر吉ز في تاريخ المغرب والأندلس.

بعد موت الملك ريكاريد، خلفه عدة ملوك وكانت الملكية القوطية تعتمد على نظام الانتخاب وأن كبار أهل الملكة والأمراء يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار خلفاً له، وقد مهد هذا النظام بروز ظاهرة التنافس بين الأمراء وكبار القوتوط، مما أتى بأهم المؤشرات والمحروب والاغتيالات أن تقدم كظاهرة في المجتمع الإسباني. لكن هذا لا يعني من ظهور ملوك أقوىاء أمثال شبرت⁽¹⁾ (612-621 م)، الذي حارب البيزنطيين وأجلهم عن بعض مواقعهم في السواحل الجنوية، وهو أول من اقرَّ مبدأ اضطهاد اليهود، وكذلك الملك سوتيله⁽²⁾ (621-631) الذي أخضع البشكنس وسكان قنطرية، كما ظهر إسبانيا نهايةً من الاحتلال البيزنطي عام 624 م⁽³⁾. لكنه استَدَ بالحكم في أواخر أيامه فُيُعزل عام 631 م، فجاء بعده الملك سستاند (631-636 م) وكان من أهم قرارات هذا الملك هو إقامة الملكية عن طريق الانتخاب حصراً في أيدي النساء والقاوسة، وجاء بعده للحكم شنادستو الذي ألغى الفرقنة بين أجناس الشعب، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سَطَه الملك ألاريك الثاني والقانون القوطى الذي وضعه يورك⁽⁴⁾ بما قرر السلام بين أهل المملكة وجنتها المصاعب والخلافات.

لكن من أبرز ملوك القوط هو واما⁽⁵⁾ (672-680 م)، الذي افتح عهده بمحاربة البشكنس وقضائه على ثورة باولس في سبانيا، وكان هذا الملك حكيناً وحازماً أحب الناس حتى بلغ جهنم له ما يشبه الأسطورة، وقد أنهى حياته السياسية بالاعتزال والاعتكاف في أحد الأديرة في إسبانيا متفرغاً للعبادة⁽⁶⁾.

(1) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربين.

(2) امتدح الرازي الملك واما وقال إنه كان ملكاً حسناً وعادلاً.. انظر: حين مؤنس، فجر الأندلس.

(3) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج 2، ص 4، (انظر: صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 143).

الدولة القوطية بعد اعتزال "واماها":

لقد أثّرَ اعتزال الملك واباً على مسرح الأحداث السياسية في الدولة القوطية، إذ بلغ الاضطراب ونفاق الأوضاع الفوضى على أشدّه، ولقد استمرت هذه الأوضاع حتى سقوط دولة القوط بيد المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروففال^(١): إنَّ الثلاثين سنة التي سبقت الغزو الإسلامي، وهي السنوات العجاف بالنسبة لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية، تبدو لنا في الواقع غاية في الفوضى والاضطراب، رغم قلة ما أمدتنا به المصادر الإخبارية. من هذه الفترة القصيرة التي تبدأ منذ اعتزال الملك واباً العرش سنة 680 م مشحونة كلها بالنزاع والصراع المثير للقلق، فمن مناقشات دموية بين المرشحين للعرش، ومن ثورات محلية، ومن دسائس يقوم بها البلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التخلف في الشؤون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل. كل ذلك كان أكثر من دليل لا يُنفي، إنما يشير بوضوح إلى أنَّ البلاد الأيبيرية كانت تقدم نفسها في طليعة القرن الثامن الميلادي فريسة سهلة لأي غازٍ سواء كان هذا الغازي من الشمال أو من الجنوب.

وأمام هذه الحالة المزرية والتي لم تجد لها علاجاً لضعف الملوك وتغيردهم من مظاهر التزم والقيادة الحكيمية، كما أنَّ ضعف الروح الحرية لدى القوط كان يضاعف حالة الفوضى هذه، حينما تقادم العهد بهم في البلاد، ويتغروا بمنيراتها الرفيعة ومالت نفوسهم إلى الدعوة، ومن ثم أوكلوا أمور الحرب إلى عيدهم، حتى زاد عدد العييد على الأحرار في الجيش، وكانت كثرة العييد في الجيش من أسباب ضعفه، لأنَّهم كانوا ناقعين على الدولة، يتحيّنون الفرصة للتخلّي عنها وتركها لمصيرها^(٢).

(١) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم، ص 57.

(٢) د. عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 28. مؤنس، فجر الأندلس، ص 27-28.

دولة الغوط تحت حكم غيطة (1) (700 م):

لقد تولى الملك غيطة Witza الحكم عماولاً إصلاح الأمور وتحقيق الأثر السيني الذي تركه أبوه إنجيلا، ولقد شهد القسم الأول من حكمه عاولات جادة إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القرطاج، وقام بتطبيق الأحكام العادلة، وأخرج عن المجرمين، وسمح للممغرين بالعودة إلى ديارهم، وتعويضهم عن أملاكهم المصادرية، وقام برفع القيود عن اليهود. فكرهه النبلاء ورجال الدين، الذين أبعدهم عن مراكز القوة، وحرمهم من بعض امتيازاتهم وفرق شملهم. فأخذوا يثرون عليه وباليون الناس ضده في كافة نواحي البلاد.

والحق أن المعلومات التاريخية عن الملك غيطة التي وصلتنا بدت متفاوضة أشد التناقض (2)، لذلك فقد عدَه بعض المؤرخين مسؤولاً عن التسبِّب والفرضي اللذين سادا في أواخر أيامه وبعد موته. في حين يذهب البعض إلى اتهامه بالتساهل وعدم القدرة على حسم الأمور مما شجع الطامعين في التربص به وإطاحت.

وذكر عدد من المؤرخين أنه لم يمض على ولادته سبع سنوات حتى عدل عن سياسة التي كانت سبباً في عجب الشعب الإسباني له، فقد رخص للقاوسنة بالزواج، وقتل نافلة ونفي ابنه بلاي، وسلم عني دوق قرطبة (3)، كما أمر بهدم أغلب حصون وأسوار إسبانيا، وتختلف الروايات حول موقفه من اليهود وخصوصاً في أيام الأخيرة، إذ يرى بعض الباحثين (4) أنه قام بتعذيبهم لأسباب متعددة، كاتهامهم بالخيانة ومخالفتهم للعقيدة الأرثوذكسية، في حين يقول آخر أنه سمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا ومارسة شعائرهم الدينية دون نقيد، بعد أن كانوا موضع اضطهاد أبيه إنجيلا (5).

(1) هو الاسم الذي يطلقه العرب على الملك القرطي (وتيزا) Witiza.

(2) د. حكمت علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث الهجري، ص 10.

(3) كان هذا الدوق مقيماً في قرطبة، فاتهه الملك غيطة بالتأمر على العرش، فقام بسل عبي.

(4) صالح أبو دياك، الوجيز، ص 143.

(5) السيد عبدالعزيز، تاريخ المسلمين، ص 58.

وكما كانت حياته موضوع خلاف شديد بين المؤرخين فإن عزل هذا الملك أيضاً حدث فيه اختلاف، فالبعض يرى أنه خُلع من العرش على أثر ثورة قام بها أنصار لوذريرن الملك الذي سيحل بدلاً عنه. ويرى آخرون أن مجلس طليطلة أفتى بخلع غيطة عندما أقدم على تولية ابنه الطفل وفاته من بعده ولادة العهد. وتنصيبه حاكماً على ولابتي أريونة وطركتونة تحت وصاية أخيه غيطة (رخشدش) وكان تنصيب أخيه الصبي⁽¹⁾ بتأثير من زوجته. وكان هذا التعيين حافزاً للنبلاط وكبار القوط على مضايقة العمل للقضاء على غيطة وأركان نظامه. ومهما يكن من شأن هذه الاختلافات في الكيفية التي تم خلع الملك غيطة، فإن المؤرخين اتفقوا على أن غيطة توفى بظروف طبيعية ولكنهم مختلفون في عام وفاته، فمنهم من يرجع عام 708-709 م، وآخرون يرجحون عام 710 م، والأمر المهم عندنا هو أنه مات مخلفاً الطامعين على اعتلاء العرش من داخل عائلته أو من النبلاء ووجهاء القوط. فقد ترك غيطة أرملة طموحة، وثلاثة بينهم (وقلة أو أخيلا والمند وأربطاس)، وأخرين كان أحدهم أسفقاً لأأشيلية، والآخر وصياً على الصبي أخيلا الذي كان مرشحاً لوراثة العرش بعد الملك غيطة. ولكن كبار القوط لم يرغبو في الخضوع إلى حكم صبي، بالإضافة إلى عدائهم السابق لأبيه ورفضهم المسبق لقرار ولادة العهد للصبي أخيلا، ومن ثم تخوفهم من استبداد الوصي بالحكم⁽²⁾. لذلك امتعوا عن الامتثال لأمر خلافة الصبي أخيلا. ويتوحد صالح جميع المعارضين، استطاع كبار القوط وأعيانهم في طليطلة أن يوحدوا جهودهم ضد أخيلا وعممه الوصي وأن يعهدوا بالعرش إلى أحدهم ويدعى رودريكو للوريق. ويبدو أن عملية تنصيب ملكاً على العرش لم تكن خلافاً على العرش فقط، بل كانت تعبر عن استياء الشعب لحكم غيطة والوصي على العرش أخيه رخشدش.

(1) يسمى بعض الباحثين *أخيلا Achila* أيضاً.

(2) المقري، فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج ١، ص 265. مؤنس، فجر الأندلس، ص 12-16.

الملك لذریق ونهاية حكم القوط في إسبانيا

يبدو أن الفترات المصيرية في حياة الشعب تفرز أوضاعاً شديدة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري. ويدب الخراب الشامل في كل مفاصل الحياة فيما الذي يستطيع فعله ملك مثل لذریق جاء في عصر كانت إسبانيا تلفظ أنفاسها الأخيرة، فبالإضافة إلى الاختلاف على نسبة وهي عادة يخلفها المؤرخون لإضفاء المزيد من الغموض والغوص على تحديد الأسباب الحقيقة لزوال الحكومات والممالك، إذ كان لذریق محظوظ اختلاف في نسبه، فالمصادر اللاتينية تقول إنه سليل بيت أحد ملوك القوط السابقين، بينما يذهب المؤرخون العرب بأنه كان رجلاً حكيماً وشجاعاً ولكنه لا يتسمى بـ*بيت الملك*، وإنما كان فارساً وقادراً⁽¹⁾.

وقد أجمع النصوص التاريخية كلها⁽²⁾ على أن جماعة من كبار القوط وأعيانهم هي التي قررت ولادة العرش لذریق، وإنهم كانوا يرونون بهذا الإجماع أن يقتدوا بدولة القوط من الآنبار. وكانت مبايعة هذا الملك في قربة 710 م ولم يذهب لذریق إلى العاصمة طليطلة مباشرة بعد تنصيبه ملكاً، وإنما جمع أعيانه وأنصاره للقاء الطامع الأكبر في العرش وهو رخشندش. وعندما اكتملت عنده لذریق العسكرية سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلانه ملكاً على رأس جيش كبير أكثرهم من قادة القوط وبنائهم، أدى إلى هزيمة جيش رخشندش وقتله في هذه المعركة. وبقي لذریق عدو آخر لا يستهان به وهو أولاد غيطة الذين فروا من البلاد إلى إفريقيا فصادر الملك أملاكه يعتبراً لياهم ثأرين على العرش، والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش.

ويبدو أن هذا الملك ظلّ يخشى طيلة أيام حكمه عودة أبناء غيطة إلى البلاد والثورة عليه واستعادة عرش أبيهم بمساعدة أنصارهم الكثريين، ولذلك حرص على أن يصور ببالغة كبيرة للناس أعمال غيطة ونعته بالظلم والطاغية، وقد ساعدته في ذلك

(1) ابن القوطية، *فتح الأندلس*، ص. 2. ابن عذاري، *اليان المغرب*، تحقيق كولان، ص. 2.

(2) مؤنس، *فجیر الأندلس*، ص. 16.

القساوسة، لأن غيطة كان لا يحبهم ولا يقر بهم إلّه. وقد صور معظم المؤرخين الإسبان اللاتين^(١) صوراً بغيضة جداً لغيطة وأولاده وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء اضمام أولاد غيطة إلى المسلمين وتعاونتهم على فتح البلاد فيما بعد. لكن بعض المؤرخين الإسبان دافعوا عن غيطة وأولاده من جانب وجبوا لنزير من كل عيب وصوروه كبطل وطني جاهد من أجل بلاده ضد الغزوة المسلمين.

والواقع أن لنزير كان يشعر باضطراب الأمر عليه، وقد ظل طوال حياته خائفاً من تهديد أعدائه الكثرين. لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطة وحدهم، بل كانوا في واقع الأمر جميع الشعب الأبييري الروماني ومعهم اليهود، أي معظم أهل البلاد التي فتحها القوط وهذا ناتج من أن لنزير لم يكن يستقر له الأمر حتى مضى بُرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطة بكل الشر، وقد استجاب رجال الدين طلبه، ولذلك ترى ما حفلت به مجتمعهم الديني في هذا العصر من قرارات تحدث بسوء كبير واتهامات مختلفة لغيطة واليهود.

إن لنزير وطوال أيام حكمه القصير ظلّ يحارب الثنائيين عليه من كل ناحية، كما قام بحملات متابعة على الشكّن في الشمال، وطوانف من الثنائيين في الشرق والجنوب، كانوا من أنصار أولاد غيطة.

كما أن عهد غيطة الذي تميز بكثره الحروب أُنقذ كأهل الميزانية، وكان لنزير بمحاجة ماسة إلى المال وهذا يدل على سوء إدارته لبلاد غني مثل إسبانيا، وهذه الحاجة إلى المال قد دفعته إلى السطو على الذخائر الثمينة التي كان ملوك القرط قبله قد أودعوها في كنستي سان بندرو وسان بابلو، وكان من عادة كل ملك أن يوضع في إحدى الكنيتين تاجه وبعض ذخائره، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيتين، ولقد حذره القساوسة من هذه الفعلة، ولكنه لم يصغ إليهم،

(١) مؤنس، فجر الأنجلوس، ص 18، وما يليها.

فتح متودع الدخان، ويدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوامير، ولرقة المكان فإنه لم يبرأ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعت من أن يتقدّم أحد، وصار لهذه الحادثة حكايات تناقلها الناس حتى أصبحت أسطورة رواها العرب بصورة طريفة وخرافية^(١).

وقد استطاع للرريق أن يقضي على كل أمل لأبناء غيطة وأنصارهم في العودة إلى الحكم بعد أن استمر بغيرهم بصورة متابعة، مما دفع باولاد غيطة لراسلة المسلمين الذين فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الرقاق. وهم يتطلعون إلى فتح المزيد من البلاد ودعوا أولاد غيطة المسلمين إلى القدوم إليهم. وهكذا كانت نهاية حكم القوط الإسباني^(٢).

احوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي:

لقد مر المجتمع الإسباني كما رأينا بمخزونات و مجرارات متعددة على طول تاريخه الممتد من القرن العاشر ق. م. إلى نهاية دولة القوط وسقوط إسبانيا. ولقد تفاعل الإسبان مع هذه الهجرات والغزوan على الماط مختلفة من التلاقي في الأوجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والتي شكلت طبيعة المجتمع في كل حقبة من التاريخ الإسباني العريق. وبما أن غرض دراستنا لا يشمل تاريخ إسبانيا فقد مررتنا فيه بشكل سريع سابقاً ونود أن نستعرض ملامح المجتمع الإسباني في ظل دولة القوط الغربيين فقط لصلتها بالفتح الإسلامي لإسبانيا.

يبدو أن القوط عند استلامهم عرش الحكم في إسبانيا لم يندمجوا مع الشعب الإسباني، وإنما شكلوا طبقة أرستقراطية حاكمة تستأثر بثروات البلاد^(٣) بالتحالف مع البلاء والأشراف ورجال الدين، وقد انقسم المجتمع إلى طبقات متعددة^(٤):

(١) انظر: فتح الطبع، المفري، ج ١، ص 231. مؤنس، فجر الأندلس، ص 20.

(٢) ستفصل هنا الأمر في الفصول المتعلقة بفتح إسبانيا.

(٣) د. عصام الدين عبد الرزوف المفري، تاريخ المغرب والأندلس، ص 35.

(٤) د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 29.

- طبقة النبلاء ومنها الطبقة الحاكمة.
- طبقة رجال الكنيسة، التي تشارك النبلاء في الامتيازات المادية وذلك لدعمهم الديني للعرش.
- طبقة التجار والزراع والملاك الصغار، الذين يتحملون الضرائب المختلفة.
- طبقة عبيد الأرض، الذين يتبعون مالكها ويستقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر.

وهناك طبقة جديدة⁽¹⁾ نشأت بعد إقبال المقربين واستيلائهم على أراضي الدولة التي آلت إليهم، وبهذا تعرض حق الزراعة للأحرار في أراضيهم للضياع، فلجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقلبين، وشاعت هذه الطريقة وعمت، فنشأت طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة (البوتولاري) أي طبقة المحميين، وكانت في نظر القانون أحراراً ولكن التزاماتهم جبال الأغبياء الحامين لهم جعلتهم واقعياً في مرتب العبيد.

فلم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الروماني، فقد ظلت الأرستقراطية الرومانية على عهدها من النفي والسيطرة على الناس. ولقد تختلف الأغنياء ورجال الدين مع القوط لكي يحافظوا بأملاكهم ومرابطهم الاجتماعية، علماً أن القوط لم يشكلوا الأغلبية ولم يكن لهم ميل إلى الاشتغال في الصناعة أو الزراعة، فظلوا عرباء تقريباً عن أهل البلد ولم يخلعوا فيه الكثير من الآثار الذي يمكن أن تقارنها بما خلفه الفرغونية في فرنسا مثلاً. ولم تعم بلاد إسبانيا في حكم القوط بنصيب وافر من الأمن والرخاء الاقتصادي، لأن العصر كان مضطرباً كلّه، فالفرضي عمّت أوروبا بآجمعها، وليس في إسبانيا وحدها، فسقطت في غرب أوروبا قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم الذي كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الأرياف، ويقوم الأغنياء بتأجيرها إلى الفلاحين الذين يزرعونها مقابل ريع مالي للأغنياء، وكان معظم الأراضي تابعة للدولة، فكانت تزرع بواسطة الفلاحين العبيد والأحرار، فصارت علاقة الفلاح

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 22

بالأرض لطول زمن زراعتها أشبه بالملكيّة. ولكن هذا النّظام انهار تماماً وأضطرّ بعامة الناس وأدى إلى نشوء تغيير في الطبيعة للمجتمع الإسباني كما أشرنا قبل قليل من حدوث طبقة جديدة هي طبقة المحبوبيّن.

وعند النظر إلى الشهيد السياسي الإسباني السادس في فترة القوط منتجده مشوشاً إلى حد كبير. فمملوك القوط ورغم تحولهم إلى الكاثوليكيّة، إلا أن الامتزاج الحضاري ظلّ مفقوداً، ذلك لأنّ موطن القوة الذي اعتمده القوط في بناء دولتهم، كان هو القانون السادس⁽¹⁾ حتى نهاية هذه الدولة. فهناك تناقضات أصابت جميع جوانب الحياة الإسبانية العرقية والمذهبية، فضلاً عن الاضطهاد الديني والصراعات السياسيّة الأخرى التي كان مسرحها الأسرة المالكة نفسها.

وأمّا هذا الشهيد الفوضويّ نستطيع أن نلمس بسهولة طبيعة المجتمع القرطي في إسبانيا في ذلك الوقت، الذي هو بالضرورة انعكاس لسياسة ملوكهم التي فشلت في تحقيق مجتمع موحد في المصالح والاتمام.

ولعل أكثر الفئات معاناة من جراء سياسات الملك كانت فئة التجار وصغار الملاكين المزارعين، فهؤلاء كان عليهم فقط أن يتحمّلوا عبء الضرائب الثقيلة، التي لم تكن في أغلب الأحيان تناسب مع ضعف وهزالة إنتاجهم، على أن أوضاع هذه الفئة كانت أفضل بكثير من أوضاع العبيد المرتبطين بالأرض مع عوائلهم والمتقلّبين منها من مالك آخر، فضلاً عن العبيد المعدمين الذين استغلّوا أسوأ أنواع الاستغلال، ومن الديهي أن نشير إلى هؤلاء جميعاً لما كانوا مستحرين لرفاهية الفئات الحاكمة من البلاط والأسرة الحاكمة التي احتكرت في يدّها كل المناصب الرسمية والأراضي الزراعية الخصبة ومعهم رجال الدين الذين أصبح لهم شأن كبير بعد أن تحول القوط إلى الكاثوليكيّة، فكانوا طبقة كبيرة غنية وقوية، كبيرة لتغلّبها في المجتمع الإسباني وغنية لأنّها كانت تملك الكثير من الأراضي المغفأة من الضرائب، وقوية لأنّها كانت تسيطر

(1) د. إبراهيم يضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 64-66.

روحاً على المجتمع الإسباني⁽¹⁾، كما كان لهذه الطبقة (رجال الدين) الكثير من الأديرة والسجون. وكانت لا يعملون إلا لصالحهم الذاتية، ولم يعترضوا على تصرفات الحكام والأغنياء من استبداد الضعفاء والإكثار من العبيد.

وكانت إسبانيا القوطية تنقسم إلى عدة أقاليم، يحكم كل إقليم منها (دوق)، وكل إقليم يشتمل على عدة مدن، يحكم كل مدينة (كونت)، ولقد استعان مؤلاء الحكام بطائفة من الموظفين يقومون بكل ما تحتاج إليه الحكومة الإقطاعية في الشؤون المالية والقضائية والخربية⁽²⁾، وكان الملك يصدر القوانين ويفندّها كما يشاء، على الرغم من وجود مجلس النبلاء. وأقدم مجموعة قوانين أصدرها ملوك القوط هي مجموعة إبوريلك وطبقت على القوط، في حين ترك الرومان يطبقون قوانينهم الخاصة بهم.

وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من بين طبقة النبلاء، إذ لم يكن نظام الوراثة مطبيقاً في إسبانيا، وكانتوا يشتّرون في اختيار الملك أن يكون قائداً شجاعاً⁽³⁾، وكان من عيوب هذا النظام أنه دأباً يفوز بالعرش من يكون الأقوى، ولذلك فقد أدى هذا إلى كثرة الدسائس التي تحاك من قبل النبلاء طمعاً في العرش، لذلك كان انتقال العرش من ملك إلى ملك يقتربن في الكثير من الأحيان بمؤامرات دائمة، ولا يجتمع المجلس (مجلس طليطلة) إلا إذا دعا الملك لانعقاده، وكانت قرارات هذا المجلس تزلف القانون المدني لدولة القوط، وكان مجلس طليطلة هو القوة الكبرى في الحياة السياسية والدينية في العهد القوطي. وكان أصل مجلس طليطلة ديناً يتالف من كبار رجال الكاثوليك ويعقد للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها، ولكن بعد اعتناق القوط للكاثوليكية، أصبح هذا المجلس رسمياً يعقد بأمر الملك، وبمحضه كبار رجال الدولة، ثم تحول على مرّ الزمن إلى مجلس سياسي وديني في آن واحد.

(1) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 64.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 21.

(3) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين.

يصدر القوانين والأنظمة في مختلف القضايا، ثم انتُخِب سلطانه وأصبح محكمة عليا ويضم مجلس البلاء إلى هذا المجلس الديني فأصبح جلساً أعلى للدولة^(١).

فمن الناحية النظرية كان مجلس طليطلة هو السلطة العليا ويعتزل مرجعاً ومراقباً للملك، أما من الناحية الواقعية، فقد كان سندًا مهمًا لسلطة الملك وبخاصة بعد أن تحول القوط إلى الكاثوليكية، حيث أصبحت الكتبة في إسبانيا على علاقة وثيقة بالبلاط.

ويمكن أن نشير إلى دور مجلس طليطلة الإيجابي وتأثيره الجيد في المجتمع الإسباني من خلال سعي أعضاؤه لسن قانوناً شاملًا يضمن حريات الناس ويساوي بينهم جميعاً قوطاً ولابيرين وهو المسمى *Fuero Juzgo* أي القانون القروطي، وقد تكونت هذه القوانين على مدى قرن من الزمان، والتي بدألت في عهد الملك يوريلك، ثم أضاف إليها خلفه الأريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية كما يعزى إلى الملك شداثفتور الفضل في مزج المجموعتين معًا وتكوين مجتمع متافق يُطبق على الناس جميعين. ولو طُبقت هذه القوانين لكانت سيرة القوط في إسبانيا ذات شأن آخر.

ولكتنا نستطيع تلمس الخلاف الشديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القروطي، فمعظم المؤرخين الإسبان متخصصين لهذا العصر، ويلهبون إلى التأكيد على أن الناس في هذا العصر يتمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة، وأن القطاعات الزراعية والمصناعة كانت مزدهرة وأن هذا العصر هو عصر نهضة إسبانية مسيحية، وهذا الرأي من قبل مؤرخي الإسبان إنما يمثل ردة فعل ضد القول الشائع بأن حدوث نهضة إسبانيا كان في ظلال الإسلام، ويؤكد الإسبان على أن فضل نهضتهم لا يعود إلى الإسلام وحده، وإنما كانت البلاد أصلاً سائرة في طريقها بهذا الاتجاه. ويؤكد المؤرخون الإسبان أيضاً أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأن الدولة الفرعية في عهد الكارولنجيين لو

(١) مزنس، فجر الأندلس، ص 23.

لم يفتح العرب بلادها ويجعلوا بينها وبين إدراك هذه الغاية⁽¹⁾. لكن بعض المؤرخين الإسبان يرون أن الحال الذي وصلت إليه إسبانيا من الرفاهية والرقي جاء بعد أن تحملت الحضارة الإسلامية في إسبانيا وأصبحت أوضح من أن تُحجب معالها الحضارية الفوضى والاضطراب الاجتماعي التي كانت سائدة في المجتمع الإسباني في عهد القرط. ونرى أن من الطبيعي أن لا يستطيع القرط إنشاء مجتمع جديد أفضل من المجتمع الروماني، إذ لم يكن لهم أنفسهم نظام اجتماعي معقول قبل أن يدخلوا للدولة الرومانية ويستقرروا في أرضها ويستيروا نظمها، مع أن القرط قد انعشوا المجتمع الروماني المضمحل وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشطة توجهها توجهاً جديداً. وينهض الراهب باولوس أوروزيوس إلى أن القرط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس⁽²⁾. ولكن هذا القول لا يتوخى على محمل الجد الكامل، لأن الراهب كاتب كنسي، وكما أشرنا إلى أخيه رجل الكنيسة إلى القرط، وعلى طريقة هذا الراهب يؤكد أحد الرواة الإسبان، وهو سلفيان المرسيلي، من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرابة في عهد القرط على ظلم الرومان، ولكن كلّمه هذا يبدو أنه منصب على حكم القرطيين لأنّه عاش في ظل حكمهم، وكان القرط الشرقيون في واقع الأمر أفضل من الغربيين بكثير. ويجب أن نذكر للقس ماسونا الدور الكبير الذي لعبه للتبرير بالدينية المسيحية في إسبانيا، فقد قضى هذا القس حياته كلها يبشر باليسوعية في التواحي الغربية وإقليم ماردة على الخصوص، وهو الذي أوصل المسيحية إلى السوق وإلى تواحي جليقة. كما كان الراهب لياندرو مثّراً وكانتا وموزّعاً، وبفضلهما يرجع ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من أحوال وثبات وقومة في نفوس المسيحيين الذين لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون من حكمه في إسبانيا.

(1) مؤنس، نهر الأندلس، ص 24.

(2) المصدر السابق، ص 25.

وأخيراً نرى من الفيد أن تطرق إلى الحالة الثقافية للمجتمع الإسباني. فقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وعلم وفن، فقد وضع الفينيقيون الأساس الأول وجاء الرومان واليونان ليضيفوا على هذا الأساس من كافة النواحي الحضارية. ثم أقبلت المسيحية فأنبعثت الازدهار الحضاري وسارت في البلاد خطوات إلى الأمام، وهذا ما يفسر أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا⁽¹⁾، على قلة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والمتوسطة في العالمين الإسلامي والمسيحي. لقد ضربت المسيحية بجذورها في إسبانيا بشكل سريع. ففي مطلع القرن السادس اخذت إسبانيا تشهد إقامة الأديرة بشكل واسع النطاق ويعي فيها الرهبان للدراسة والتبشير، كما كانت الكنائس قائمة ويديرها قساوسة يهتمون الكتابة والتاليف، وكما سبق الإشارة على القس القوطى ماسونا⁽²⁾ ودوره الكبير في نشر المسيحية وتزعمه الإنسانية واجتهاده في تهذيب التبريرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم، وبعد القديس لياندرو⁽³⁾ دارساً عبته، وقد ترك آثاراً فكرية رائعة⁽⁴⁾. وأكبر شخصيات هذا العصر مكانة في مستقبل إسبانيا الثقافي هو القديس ليزودور الأشلي، ولم يكن قوطياً وإنما من الآييريين الرومان، ولم يكن كاتباً دينياً فقط، بل كان مصنفاً موسوعياً، حاول أن يجمع في كل كتابه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان بتعديلات مسيحية، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين، بل إنه أكبر آباء الكنيسة، وكتاباته تحور نفس غط كتابات القديس أوغسطين، ومن أعظم وأشهر كتبه الباتية هو كتاب أصول الكلمات، وهذا الكتاب يُعد موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية.

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 28.

(2) توفي عام 571 م.

(3) توفي عام 603 م.

(4) من آثاره رسالة صوفية مسيحية تشبه كتابات القديس أوغسطين، مادتها مقتبة من الإنجيل وقد كتبها وهو متزوج في نواحي ماردة وقد كانت آنذاك قراء لا يسكنها إلا القلائل.

والفلسفة المسيحية الأولى⁽¹⁾ وهو يعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة: النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلكلور، والجزء الرابع خصصه للطب؛ والخامس للقانون والتاريخ. وأما الجزء السادس فجعله للإنجليز وغيره من الكتب الدينية. وهكذا فقد خص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء، ولم يهم الفنون اليدوية كالتجارة والهندسة والموازنات والمكابيل والألعاب. مما جعل هذا الكتاب موسوعة غنية بكل غريب وطريف، تدل على أن جميع ألوان المعرفة الإنسانية التي كانت موجودة قد وصلت إلى إسبانيا وعرفها المجتمع الإسباني ودرسها، إذ أن العرب المسلمين الذين فتحوا إسبانيا قد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً رائعاً⁽²⁾.

ومع القديس إيزودور الأشيلي عدد عظيم من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى، منهم باولوس أو روزيوس قس لوزيتانية، ولم يكن من أصل إسباني وإنما كان صقلياً وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونة، أخذ عن العلم وتشبع بأدائه وهو لهذا يكتب على غراره، يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله. وما عدا الآداب من الفنون، فإن القوط لم يختلفوا ثروة معمارية مثل ثروتهم الأدبية، فكانت فقيرة، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دباتيوس التي بنيت في عصر رخشدش وجزء من كنيسة سان بدور دثاراسا وبعض الأعمدة الباقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برسلونة، وكذلك العقد المخمس.

وهنا يجدر بنا القول في أن تاريخ إسبانيا في عهد القوط الغربيين لم يكن شريراً كله كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب، وكذلك لم يكن خيراً كاملاً مثلاً أوضحتنا بعض آراء الإسبان المتعصبين، ونستطيع أن نلاحظ أن الجوانب الاجتماعية ضعيفة جداً لأنها تعد من امتدادات العصر الروماني السابق، ولأن القوط أنفسهم

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 29.

(2) وهو عكس ما يتبعه معظم الكتاب العرب من سوء أحوال المجتمع الإسباني على كافة الأصعدة، وإن إسبانيا كانت على قدر كبير من الفوضى والخلاف الفكري والسياسي والاجتماعي.. الخ.

قبائل بربرية لا تملك الأسس الاجتماعية لتجعلها تقيم تنظيماً في بلد واسع كإسبانيا المختلفة الأعراق، أما من الناحية الفكرية فقد كان للأسبان الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بآفكارها وفلسفتها أثراً كبيراً في ازدهار الحالة الفكرية والأدبية كما أشرنا. ولا عجيب أن يظهر في إسبانيا البلد البعيد رجال من طراز إيزودور الأشبيلي وبابلوس ولياندرو، لأن إسبانيا كانت موطن حضارة فكرية وفلسفية باقية الأثر من عهد الرومان، ولقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها من هذه الناحية^(١).

الأصل اللغوي لإسبانيا والأندلس

يبدو أن الالتباس لم يحصل في وقائع التاريخ الإسباني واستنتاجات الباحثين حوله، بل إن الأمر شمل المسيرات العديدة التي أطلقت على شبه الجزيرة هذه، فقد عرفت في التاريخ القديم بشبه جزيرة إيبيريا أو (إيباريا) حب التعبير العربي.

وعندما جاء الرومان أطلقوا اسم (أشبانيا) أو (إسبانيا)^(٢) وقد تحول هذا اللفظ في لغة القرون الوسطى الرومانية إلى (Espana) ومنها اخذت العرب هذا الاسم إسبانيا. وينذهب أحد الباحثين^(٣) إلى أن المدلول والحقيقة والمداول حتى اليوم يقصد به جزء فقط من إسبانيا، وهو ذلك الجزء المتندل إلى الجنوب ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية في أيام العرب مثل قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة وغيرها، فلم يكن العرب يتداولون سوى لفظة الأندرس في التعبير عن إسبانيا. وتحمل إلينا كتب التاريخ معلومات مهمة أحياناً وأسطورية تارة أخرى في تفسيرها لهذه الأسماء. فأشيانة يعتقدون أن لها مدلولاً جغرافياً يعني البلاد الواقعة إلى الغرب،

(١) مؤنس، نهر الأندرس، ص 31.

(٢) البكري، جغرافية الأندرس وأوروبا، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص 58.

(٣) إبراهيم بيرون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 62.

أو أنها مشتقة من (إسبان) الاسم الأول لأحد ملوك الأندلس القدماء⁽¹⁾. أما أيبيريا فيعتقدون إنها لشعب شارك في استيطان هذه البلاد فُعرفت باسمه.

كذلك عرفت شبه الجزيرة ببرينابكة، وكذلك أطلق اسم أوفيوسا، بلد الحيات، وكانت هذه التسمية الأخيرة معروفة لدى الرومان وهؤلاء أطلقوا عليها اسمًا جديداً (هبابيا) وهذه التسمية جاءت من الأصل الفينيقي (اصفایتم) التي كانت تعني بلغتهم (شاطئ الأرانب). وفي نهاية حكم الرومان لتلك المنطقة قلَّ استعمال كلمة شبه جزيرة أيبيريا وحلَّ محلَّه مصطلح إسبانيا وهي التسمية الشائعة إلى اليوم.

ويرى المقري⁽²⁾ إذ أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون.. قوم يعرفون بالأندلش - معجمة الشين - بهم سُمي المكان، فُعِربَ فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا هم الذين عمروها وتناسلاها فيها، وتدالوا روا ملكيها دهرًا على دين التمجس والإيمان والإفساد في الأرض. ثم أخذهم الله بنذريهم.. فهلك أكثرهم، وفرَّ من قدر على الفرار منهم، فاقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة ويضع عشرة سنة.

كما ينقل المقري عن ابن سعيد تفسيرًا أسطوريًا لهذه التسمية إذ قال بأنها سميت نسبة إلى الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لأنَّه نزلها⁽³⁾.

كما أطلق المسلمون لنظرة الأندلس على معظم أجزاء شبه الجزيرة الأيبيرية التي حكموها⁽⁴⁾، إذ لم يبقَ خارج حكمهم آنذاك إلا بعض المناطق الشمالية الغربية التي تعتبر جزءًا من استوريس وجليقية.

(1) دائرة المعارف الإسلامية، 3/35.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 130.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 125.

(4) أحد غثار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 19.

ولقد أخذ المسلمون هذه التسمية من قبائل الوندال الجرمانية الذين حكموا جنوب إسبانيا، فسميت هذه المنطقة فندليا نسبة إليهم، وحرفها العرب إلى الأندلس، وقد مررت هذه الكلمة بمراحل صوتية ثلاثة: الأولى (فندلس) كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية، وكما يدل كذلك النطق الإسباني للكلمة Vandulos والمراحلة الثانية (وندلس) كما يدل عليهما نطق الكثريين للكلمة بالواو بدلاً من القاء المجهورة التي يرمز إليها عادة بالحرف (V). والمراحلة الثالثة هي نطق المسلمين لها حيث قالوا (أندلس) بإيدال الهمزة بالواو كما هو مأثور في اللغة العربية^(١).

لقد أردنا من خلال طرح هذه الآراء المتباينة حول الأصل اللغوي لكلمة إسبانيا والأندلس ووصولها إلى العربية بهاتين الأسمين، أن نزيح بعض الالتباس الذي يحصل عند ذكر إسبانيا مفترضة بالأندلس أو العكس. وكما بتنا أن كلمة الأندلس قد استخدمها العرب بعد الفتح الإسلامي فيما كانت إسبانيا هي التعبير العربي عن شبه جزيرة أيبيريا.

لمحة عن جغرافية إسبانيا

تفع إسبانيا في الجنوب الغربي من القارة الأفريقية، أي في غرب العالم العربي وتبلغ مساحتها (600.000) كيلو مربع^(٢)، وتشكل إسبانيا الحالية خطة أسداسها في حين تشكل البرتغال سدسها الباقى. يحدها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب مضيق جبل طارق^(٣) وجزء من البحر المتوسط الذي يحاذيها متداً إلى الشرق، أما في الشمال فتحدها فرنسا التي كان العرب يطلقون عليها بلاد الفرنجة.

(١) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 13-14.

(٢) حاملة، محمد عبد، ملامح حضارية في الأندلس، ص 182.

(٣) نسبة المفهوم هذه جاءت بعد الفتح الإسلامي لإسبانيا.

ونفصل بين شمال إسبانيا وفرنسا سلسلة جبال البرت، وكانت تسمى بالجبيل الحاجز، لصعوبة مسالكها⁽¹⁾. وفي أقصى الشمال الغربي تند سلسلة جبال كتبريان، ويرتفع في وسطها وشمالها هضبة (سر)⁽²⁾ أي سلسلة جبلية باللغة الإسبانية وينبع منها نهر دويرة، ونهر تاجة الذي تقع عليه مدن طليطلة وشترن واثبونة ويصب هذا النهر في المحيط الأطلسي، وينبع نهر شقر ونهر الوادي الكبير من جبال شقرة، الأول يصب في البحر الأبيض المتوسط، والثاني في المحيط، وعليه تقع المدن الكبيرة قرطبة وقرمونة وأشبيلية. ويفصل الجنوب والجنوب الشرقي عن وسط البلاد وشمالها سلسلة جبال نيفادا⁽³⁾، ويطل هذا الجبل على مدينة غرناطة، ومن جبال نيفادا ينبع نهر حدارا وسنجل اللذان يشقان غرناطة.

ولقد عرف المؤرخون العرب بعد فتح شبه الجزيرة أيبيريا (إسبانيا) من قبل المسلمين. إن هذه البلاد لها وجهان في اختلاف هبوب رياحها ومواعيدها أمطارها وجريان أنهارها (أندلس) غربي و (أندلس) شرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط⁽⁴⁾، والشرقي ما صبت أوديته في البحر الرومي (وكان يسمى ببحر الشام وهو البحر الأبيض المتوسط). وذلك ما بين مرسيه وسرقسطة. فالشرقي منها يمطر بالرياح الشرقية، أما الغربي فيمطر بالرياح الغربية، وجباله هابطة إلى الغرب جيلاً بعد جبل، وأوديته تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال⁽⁵⁾. ويضيف بعض المؤرخين إلى هذا التقسيم قسماً ثالثاً هو وسط (الأندلس) وكان يضم من المدن المهمة مثل طليطلة وقرطبة وجيان، وغرناطة والمرية ومالقة⁽⁶⁾.

(1) عبد العزيز عتيق؛ الأدب العربي في الأندلس، ص 11.

(2) أطلق المسلمون عليها بعد الفتح اسم جبل الشارات.

(3) والتي عرفت في المهد الإسلامي بجبل الثلج، أو جبل ثلث، لأن الثلج لا يارح قمها صيفاً وشتاء.

(4) هو المحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات، ويسمي الأقنيوس.

(5) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص 195.

(6) المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 128-129.

ومن المدن المهمة في شرق إسبانيا هي: مرسية، وأويول، ودانية، وشاطبة،
وبالنسبة، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وسرقسطة. ومنها في الغرب إشبيلية،
وماردة، واشونة، ومثليب.



الفصل الثاني

- الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب
- خطة عن تاريخ المغرب
- مراحل الفتوحات العربية
- البداية الأولى
- برقة أول خطوة للفتوحات
- استئناف الفتوحات في العهد الراشدي
- واقعة سبيطلة
- فتوحات العصر الأموي
- عهد الفتوحات المنظم
- أبو المهاجر الأنصاري ودوره في قيادة الجيش الإسلامي
- ولاية عقبة بن نافع الثانية
- فتوحات الأمويين في عهد آل مروان
- جبوب المقاومة
- بناء قاعدة بحرية
- موسى بن نصیر



الفصل الثاني

كلمة لا بد منها

لا يمكن للباحث في التاريخ الإسلامي والعربي في الأندلس، أن يهمل مفصلًا حيوياً في مسيرة الزحف الإسلامي من الشرق إلى الغرب. والذي تمحض عن إزالة أهم عقبة في طريق المسلمين للوصول إلى إسبانيا (الأندلس فيما بعد) وهو فتح بلاد المغرب، التي تعتبر البوابة الرئيسية لنشوء دولة الإسلام في شبه الجزيرة هذه. إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الصعوبة البالغة التي واجهتها الجيوش الإسلامية في فتح هذه البلاد، والذي يرجع تاريخها إلى العهد الراشدي وعلى عكس ما حدث في جهات الشام والعراق ومصر، فضلًا عن الانهيار السريع للإمبراطورية الفارسية في أقل من عشر سنوات، خد أن المغرب تخرج من هذه القاعدة العسكرية الإسلامية التي تميزت بالحرب الخاطفة في وقت يسير وجيوش متراضية العدد. فقد أصيَت الجيوش الإسلامية بنكبات متلاحقة قبل أن يتم لها فتح المغرب، وذلك يرجع إلى أسباب عديدة أهمها الصراعات الداخلية في جسد الدولة الإسلامية⁽¹⁾ والطبيعة الجغرافية ذات الأرض الوعرة والقبائل البربرية التي عُرِفت بشدة الباس في القتال وعسكريها بطبيعتها القبلية التقليدية، واحترافها لأساليب الحرب الخاطفة والتي تفوقوا فيها على العرب الذين يجيدون هذا النوع من القتال، كما أن معرفتهم الدقيقة بجغرافية أرضهم وتتنوعها قد سَبَّبت للعرب والمسلمين متاعب ظهرت واضحة بطول فترة استكمال الفتح الإسلامي للمغرب والتي استمرت سبعين عاماً على حد تقدير المؤرخين العرب، كما أن تدخل العناصر الأجنبية مثل الدور الذي قامت به المراكز البحرية

(1) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 21.

البيزنطية على الساحل الأفريقي⁽¹⁾ كان هو الآخر سبباً لإعاقة الزحف الإسلامي لفتح بلاد المغرب.

كما أن غموض المعلومات التي قدمتها المصادر التاريخية وتطرف بعضها إلى حد جعلنا نتجه منحىً أسطورياً في تفسير سبب الانتصارات الإسلامية في زحفها على بلاد المغرب، جعلنا نتوقف عند تاريخ هذه الحقبة المهمة من تاريخ الحملات الإسلامية نحو فتح إسبانيا.

الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب

يرجع تسمية المغرب إلى وقوعها في مغرب الشمس وهو مصطلح جغرافي عام يطلق على البلاد الواقعة في اتجاه الغروب، مثلما يطلق على المشرق الواقع في اتجاه شروقها، كما يطلق اسم المغرب عادة على الأراضي الواسعة والبعيدة التي تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسي، بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط في الشمال، وترغله في عمق الصحراء الكبرى إلى الجنوب. ومدلول الكلمة جغرافياً هو تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى، ولكن الاختلاف في وضع المغرب في هذا الإطار الجغرافي كان واضحاً، فمرة يتناول (اسم المغرب) كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقي بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب (باسمها الحالية)⁽²⁾، ومرة يستثنى منه ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة، هذا إذا لم تتوسع ليبيا أحاجاناً بين مصر وتونس فتجد برقة إدارياً إلى مصر بينما تتجه طرابلس إلى تونس⁽³⁾.

(1) نفس المصدر، ص 15. انظر أيضاً: الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 25.

(2) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 3.

(3) عبد الحميد العبادي، الجمل في تاريخ الأندلس، ص 20.

وإذا كانت كلمة المغرب قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتمالها على تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف بالمغرب العربي الكبير، فإن مدلولها التاريخي منذ القرن السابع الميلادي كان يتناول⁽¹⁾ كل الأقاليم الواقعة بين مصر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب⁽²⁾.

ولقد نهج أغلب المؤرخين على تقسيم بلاد المغرب إلى أربعة أقسام وذلك ضمن المفهوم الإداري الذي اقتضته إجراءات الدولة في ذلك الزمن:

1- برقة وطرابلس.

2- المغرب الأدنى أو أفريقيا (تونس حالياً وبعض المناطق الشرقية من الجزائر) وكانت القبرون العاصمة السياسية لهذا الإقليم في أيام الأمويين، ثم تغيرت مع التغيرات في النفوذ السياسي فأصبحت (المهدية) في أيام الفاطميين و(تونس) في أيام الحفصيين.

3- المغرب الأوسط (الجزائر حالياً)، وكانت (نامرت) أشهر مدنه حيث اتخذها الخوارج الأباخرون عاصمة لدولتهم الرستمية، وتلمسان عاصمة بني زيان، وأخيراً الجزائر عاصمة بني مرغنة.

4- المغرب الأقصى (المملكة المغربية الحالية)، وهو الإقليم الواقع في أقصى الولاية الأفريقية الذي يطل على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً، وكان المغرب الأقصى أرضاً خصبة، أكثر من أي إقليم آخر. ومن أشهر مدنه (فاس) عاصمة الدولة الإدريسية (مراكش) عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وحالياً (الرباط) عاصمة مملكة المغرب.

ويحдел المغرب العربي موقعًا جغرافياً وحرياً متميزاً بين البلاد العربية، فهو على صلة مع أفريقيا وأوروبا. ويتكون بلاد المغرب بآفاقها الأربع وحدة جغرافية

(1) حسب ما أورده مصدر المؤرخين والجغرافيين القدامى.

(2) انظر: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 13-14.

مستقلة عن غيرها، فقد كانت وما تزال ترتبط جيّعاً بروابط طبيعية وسكانية وثيقة. وإذا نظرنا في الطبيعة الجغرافية لل المغرب لوجدنا أنها تشكّل كتلة واحدة مشابهة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ، وحتى الظروف الاجتماعية، فهناك سلاسل جبلية ضخمة تختنق البلاد من الغرب إلى الشرق، تربط ما بين المغاربة الأقصى والأدنى، حيث ترتفع في الشمال سلسلة جبال الريف من الحبيب إلى تلمان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة وهي جبال متوسطة الارتفاع⁽¹⁾ وتعرف هنا بأطلس العظيم، لأنها الجزء الأكثر ارتفاعاً وضخامة من هذه السلسلة. ثم يتفرع منها قسم جنوبى متوسط الارتفاع أيضاً يُعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء، وقسم شمالى له نفس الارتفاع تقريباً، يعرف بأطلس الوسطى.

أما السهول فتقع غالباً على ساحل المحيط الأطلسي وساحل العدوة والبحر الأبيض المتوسط، وأشهرها سهل (شاوية ودكالة وعبدة) في المغرب الأقصى، أما السهول الداخلية في المغرب الأدنى فكاد لا تذكر لضيقها، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسي، وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهر، منها سهل (ماكنة وسهيل زيق بوهران) وسهيل (وادي شليف) في المغرب الأوسط، وسهيل (وادي عبردة) في المغرب الأدنى، وسهلا (فاس ومكناس) في المغرب الأقصى، وكل هذين السهلين مرتفع، كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية: الأولى تند من مصب نهر تسيفت إلى وادي ملونة، ويشتمل على السهل المطل على المحيط وسهول سبو، وحرب نازة وسهول ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين أطلس والمغرب الأوسط، والثانية تشمل على سهل الحوز الذي يخترقه نهر تسيفت ثم تنخفض تدلاً، أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات⁽²⁾. وتقوم كل هذه السهول برفد الأراضي الزراعية بالماء، وتشكل سواحل المغرب أهمية كبيرة لما تحتويه من موانئ وموهات وثروة سمكية.

(1) صلاح الدين الشامي، الوطن العربي، دراسة جغرافية، ص 71-72.

(2) د. سيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم، ص 16.

وأما الصحراء الشرقية فهي تكون مع جبال الأطلس الشرقية امتداداً يمتد إلى تونس، بينما تواли الصحراء الامتداد لتهيي عند نهاية الحدود المصرية الشرقية، والصحراء الجزئية التي شهدت بدورها تقلبات خطيرة طبيعية وبشرية واقتصادية، كما كانت ذات نشاط اقتصادي، يظهر جلياً في منطقة (سجلماسة) التي شهدت تجمع تجاري من العراق والشام إلى جانب التجار الحملين منذ القرن الثالث للهجرة.

ولقد كان للطبيعة الجغرافية لبلاد المغرب دورها المؤثر على طبيعة السكان الذين عرفوا بصلابتهم ومهاراتهم في القتال، والتي أشرنا إلى أنها كانت السبب في تأخر فتح المسلمين لبلاد المغرب⁽¹⁾.

لكرة عن تاريخ المغرب

قبل أن نستعرض طبيعة سكان المغرب وظروف حياتهم، نود أن نخرج على الشعوب التي مررت على هذه المنطقة منذ خضوعها للروماني حتى الفتح الإسلامي، ففي أعقاب الاضطراب الذي أصاب الإمبراطورية الرومانية وانقسامها إلى إمبراطوريتين⁽²⁾، حيث شهد القسم الغربي منها اهتزازات داخلية عنيفة منذ مطلع القرن الخامس الميلادي، بدأت باقتحام قوات البرابرة والتي انتشرت في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرومانية بشكل خاص، تلك التي امتد تأثيرها على سواحل المغرب ولا سيما قبائل الوندال، التي سيطرت على إسبانيا حتى مجيء القرطاجيين، الذين أبعدوهم إلى المناطق الساحلية الممتدة من طنجة غرباً إلى طرابلس شرقاً. وكان لابد للبربر أن يدعوا السواحل مرة أخرى لمؤلاء الغزاة الذين عرّفthem ذلك المنطقة من البحر المتوسط بأنهم أكثر شعوب الجerman صلافة وجراوة، ولكن ذلك لن يتجاوز القرن من الزمان (إذ استعاد البيزنطيون المغرب من الوندال سنة 534 بقيادة بليزاريوس). وعادت المغرب إلى دائرة الإمبراطورية الرومانية التي أصبحت

(1) د. بيفرن، الدولة العربية في إسبانيا، ص 15.

(2) أحدهما في الشرق اخذت من القسطنطينية مركز لها، والثانية ظلت في روما العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية.

تحمل اسمها الشرقي وهو الإمبراطورية البيزنطية. وهذه هي صورة الوضع البشري لل المغرب قبل الفتح الإسلامي حيث يشكل سكان الداخل من البربر وهم الأغلبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا عادةً من أصحاب الثروة والقوة. ومن الملاحظ أن هناك نوعين من السكان:

- ا) الوافدون من البيزنطيين، وهم الذين ورثوا ممتلكات الرومان على سواحل البحر الأبيض المتوسط ومنها هذه المنطقة، وقد ساروا على نهج أسلافهم بإقامة قواعد بحرية محصنة على السواحل وهم يشكلون نسبة ضئيلة من مجموع سكان المغرب.
- ب) السكان الأصليون الذين عرفوا بالبربر وكانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من سكان البلاد.

وبالإضافة إلى هاتين الفتنتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة الهوية بالتحديد وإن كان المؤرخون يطلقون عليهم (الأفارقة وهم على ما يبدو خليط من سكان السواحل القدماء ومن بعض الشعوب المستعمرة وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطي⁽¹⁾).

ولقد اختلف المؤرخون وعلماء الأنساب في تحديد هوية البربر، أهي حامية أم سايبة أم خليطاً من الاثنين؟ وقد اختلفوا كذلك على المصدر الأساسي الذي جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب. يذكر بعض المؤرخين بأنهم أي البربر وندوا من آسيا في وقت مبكر، وبنיהם من يرى بأنهم أوربيون في الأصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة⁽²⁾.

ورغم اختلاف المؤرخين وعلماء الأنساب في الاتساع العرقي والجغرافي للبربر فإنهم متتفقون على ترتيبهم في مجموعتين كبيرتين، لكل منها ثنيت حاتي ميز مرتبط بعوامل اجتماعية محددة:

(1) ابن عبد الحكم، شرح مصر والمغرب والأندلس، ص 34.

(2) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير ص 133.

أ) البرانس، وهو البربر الذين يسكنون في الأراضي الخصبة ويمارسون أعمال الزراعة وبعض الأعمال الحرفية الأخرى، وقد نالوا بفضل هذه المزايا واتصالهم مع الشعوب الأخرى نصيب وافر من التطور، وقد أطلق عليهم اسم (البربر الحضر).

ب) البار، وهو سكان البوادي والخيام وهم بدو رحل احترفوا الرعي واشتهروا بالغزو على مناطق الحضر.

ولكن هذا التقسيم لا يمكن الجزم به بشكل مطلق وذلك لأن قبيلة زناته البرية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة و عمراناً⁽¹⁾ ولذلك يجعل هذه القبيلة فرعاً مسؤلاً عن باقي البربر.

وأصل كلمتي (برانس وبتر) كما يشير بعض المؤرخين جاء من شكل الملابس التي يرتديونها، فالبرانس نسبة إلى (البرنس) وهو لباس أبيض عادة يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين، الذي كانوا يرتديونه. أما البار فيرتديون هذا اللباس دون غطاء الرأس أي مبتور ومنها جاء اسم البار، ولا نعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الطريف كما يشير أحد المؤرخين⁽²⁾، كما يذهب البعض إلى أن هذا تفسير لغوياً لا يقوم على أساس متين فليس شرطاً أن يكون البرنس مرتدياً للبرانس والأبيتر عارياً منه⁽³⁾. ولا يمكن الجزم كذلك بصحة النظرية التي تقول إن البرانس والبار يمثلان عرقياً فتنين مختلفتين وهذا الوفادة والعناصر الأصلية⁽⁴⁾. ويمكن ترجيح اقسام البربر إلى عوامل اجتماعية أكثر من أية عوامل أخرى، إذ أن هذا الترجيح للعوامل الاجتماعية سيقود إلى استبعاد الاختلاف العرقي بين المجموعتين وكما يتبناه بعض الباحثين⁽⁵⁾.

(1) د. السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وأثارهم، ص 19، والخاتمة رقم (1).

(2) العابدي، الجمل في تاريخ الأندلس، ص 31.

(3) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 19.

(4) حسن عمود، قيام دولة المرابطين، ص 21.

(5) إبراهيم يسون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 20.

وينقسم البربر (البرانس) إلى سبع قبائل هي: أورنة، وصنهاجة، وكتمة، ومصمودة، وعجيبة، وأوريغة، وأزداجة، وقيل عشرة قبائل إذ يضيف إليها بعض المؤرخين قبائل لطة، وهكورة وجزولة، كما هي عند ابن خلدون. وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى قدّروها بثلث سكان جمجمة البربر، وكان منهم بنو زري بن مناد، والملشمون (المرابطون)، وقد عرفت قبيلة صنهاجة بطاعي البداؤة وتفرق في أنحاء كثيرة من المغرب، وأن أكبر فروع صنهاجة في المغرب هي قبيلة زناتة التي تعيش على جبال أطلس المتوسط، جنوبى نازة حتى منطقة بني ملال. واحتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً هاماً من إقليم الريف. بينما سكنت قبائل أخرى منها في منطقة آزمور.

أما قبيلة كتمة، فقد لعبت دوراً هاماً في قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وتعتبر مصمودة من أهم قبائل ببر البرانس، حتى أن بعض المؤرخين جعلها فرعاً قائماً بذاته. ومن قبيلة مصمودة، غمارة التي تحتل منطقة العدوة من الريف، وبرغواطة أهل تامستا، وأهل جبل درن، وكانتا يعيشون فيما بين بورجوج وأم الريح. ومن المصامدة المستقرتين في السهول (دكالة) جنوب وادي أم الريح، وبرجرحة على وادي تسيفت، وجميع المصامدة متحضرن، قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن.

أما ببر البر، فيقسمون إلى أربع قبائل هي: ضريرة، ونفوسة، وأداسة، وبنو لواي أو لوانة، وتقسم ضريرة إلى مكتابة وزناتة، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته⁽¹⁾ ومن زناتة جراوة ومغاربة وبنو يفرن، وبنو زيان، وبنو مرين.

وينقسم البربر من حيث الجنس إلى نوعين مختلفين:

الأول: والذي يؤلف الغالبية الساحقة من سكان بلاد المغرب يتميز بلونه الأسود، وشعره الجمود ورأسه المستدير وخديه البارزين، وأنفه القصير وجهه المقوسة، وهي صفات تتوفّر في سكان جنوب إسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

(1) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 20.

الثاني: يقتصر على سكان الريف والشلوج في المغرب الأقصى وسكان جبل جرجرة في المغرب الأوسط، ويتميزون بشقرة لون الشعر، وزرقة العينين، واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطع الجبهة⁽¹⁾.

ونكتفي بهذا القدر من دراسة الجوانب الجغرافية والسكانية والعرقية لبلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي.

مراحل الفتوحات الإسلامية في المغرب

يمكن اعتبار فتح المغرب هو التحول المهم في تاريخ الإسلام العسكري، لأنّه شهد عمولاً في استراتيجية الإسلام الخربية والتي كانت تعتمد على نظام الحرب الخاطفة واستخدام عدد قليل من الجنود كما كان يحدث في الفتوحات الإسلامية في الشام والعراق، وحتى مع الإمبراطورية الفارسية التي انهارت في أقل من عشرة أعوام.

فتح المغرب كما بيتاً كألف المسلمين ضحايا هائلة في الأرواح وقد استغرق حوالي سبعين عاماً، وقد كانت الطبيعة الجغرافية وصلابة البربر هي من العوامل الأساسية التي حالت دون الزحف السريع للجيوش الإسلامية، ناهيك عن المتابع الداخلية في مركز الخلافة الإسلامية، ولقد تم للملميين فتح بلاد المغرب على مراحل سوف نحددها بالأتي:

البداية الأولى

تذهب المصادر التاريخية على أن البدايات الأولى للتفكير في فتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول للهجرة بعد سيطرة القائد عمرو بن العاص على مصر. ولأن عمرو بن العاص كان قائداً عسكرياً متمراً فقد رأى أن من الضرورة أن يؤمن حدود دفاعية تقي مصر من هجمات خارجية، وذلك لأهمية مصر

(1) محمد عيي الدين المشرقي، أفريقيا الشماة، ص 26.

في تاريخ الفتوحات الإسلامية⁽¹⁾، (وهذا يؤكد وجهة النظر التي تذهب إلى أن فتح المغرب كاملاً وبالتالي فتح إسبانيا كان من ضمن خطط مدرروس من قبل القيادات الإسلامية)⁽²⁾. لذا فقد سارع عمر بن العاص إلى متابعة المسير غرباً إلى برقة أو ما كان يعرف قديماً (أنطابليس) ولمعنى اليوناني لها، المدن الخامسة⁽³⁾، وتشير بعض المصادر إلى أن عمرو بن العاص لم يتضرر حتى ينتهي من فتح مصر، وتفرغ لفتح برقة، فبادر إلى إرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة، ويبدو أن عمر بن العاص قد اطمأن على تقرير عقبة بن نافع عن الوضع في برقة، فعمّل بفتحها⁽⁴⁾. وهنالك عامل يدعم وجهة النظر التي تؤيدها في عدم وجود خطة استراتيجية لفتح المغرب كاملاً، وهو أن الخليفة عمر بن الخطاب كان متشددًا في أوامره لعدم التوغل بعيداً في بلاد لا تزال مجهولة على المسلمين بعد فتح مصر، وضرورة الاكتفاء بوجود قواعد لتأمين السيادة على مصر وضمان عدم تهديدتها من أي اعتداء خارجي.

برقة أول خطوة للفتوحات

بعد أن اطمأن عمرو بن العاص على سهولة فتح برقة، والتي كانت حينذاك أشبه بولاية بيربرية مستقلة عن الإمبراطورية البيزنطية⁽⁵⁾ في حين يرى بعض الباحثين أن برقة كانت تابعة من الناحية الإدارية لمصر منذ زمن الإمبراطور موريقس⁽⁶⁾. ويدو أن الرهبة التي أصابت أهل برقة من جراء فتوحات المسلمين في مصر قد ساعدت في استسلام هذه المدينة التي عُرفت بصلابة أهلها وتزوعهم إلى الاستقلال، كما ظهر

(1) يفسون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 21.

(2) هذه النظرية لا تؤيدها تماماً، وتنتفق مع الباحثين الذين رفضوا هذه الفكرة من الأساس.

(3) عبد النعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، 1/ 244.

(4) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 1، ص 8.

(5) د. السيد، تاريخ المسلمين، ص 26.

(6) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ الأندلس ص 64.

ذلك من خلال مقارعتهم للبيزنطيين وإجبارهم على الاعتراف بسيادتهم على برقة، فقد دخل عمرو بن العاص برقة (بوابة المغرب الرئيسية) دون مقاومة تذكر وافتتحت له السيادة مقابل ضريبة سنوية حددت بثلاثة عشرة ألف دينار.

ومن هذه المدينة تابع عمرو بن العاص زحفه بمحاذاة الساحل إلى طرابلس، وهي مدينة مختصة بالأسوار البيزنطية من كافة الجهات باستثناء الجهة المطلة على البحر، ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها، وذلك بفضل الخطبة العسكرية التي أوجبت مهاجتها من جهة البحر وخياح المسلمين في إنجاز مهمتهم. وبهذا الانتصار العسكري في برقة وطرابلس اكتفى موقع الخلافة الإسلامية بهذه النجاحات. وأمر قائد الحملة عمرو بن العاص بالعودة إلى مصر وفي هذه الأثناء، إذ لم يمر سوي عام واحد حتى قُتل الخليفة عمر بن الخطاب، واستلم الحكم الخليفة عثمان بن عفان، فعزل القائد عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعيّن قريباً عبد الله بن سعد بن أبي سرح⁽¹⁾، ولقد عمل القائد الجديد بعد استقراره في الفسطاط على بعث كتاب استطلاعية لدراسة الموقف لاستئناف الفتوحات وكان يراسل الخليفة عثمان بشأن إمكانية القيام بحملات جديدة⁽²⁾. ويدوّن أن الخليفة كان متربداً أول الأمر وذلك لرفض عمر بن الخطاب التوغل في بلاد لا يعرف عنها المسلمون الكثير إذ أمر قائده عمر بن العاص بالتوقف كما رأينا من قبل.

استئناف الفتوحات في العهد الراشدي:

لم يطل تردد الخليفة عثمان طويلاً، إذ أنه كان بمراجعة مائة إلى فتوحات إسلامية جديدة لزيادة هيبة دولة الخلافة التي كانت تعاني من مشاكل عديدة، وبعد التشاور مع الصحابة الكبار والاستئناس برأيهم، قرر الخليفة إرسال كتاب عسكريه من المدينة على رأسها الحارث بن الحكم ومعه عدد كبير من زعماء المدينة ومنهم مروان بن

(1) هو أخ الخليفة في الرضاعة.

(2) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 37.

الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عباس وغيرهم⁽¹⁾، وعندما وصلت القوة إلى مصر أكملت بعزيزات إضافية من حامية الفسطاط فارتفع عدد المقاتلين إلى نحو عشرين ألفاً. وبهذا الجيش الكبير توجه عبد الله بن أبي سرح إلى المغرب الأدنى قائدًا عاماً لقوات المسلمين، وقد اتخذ الطريق الساحلي لسير القوات⁽²⁾، والذي أصبح الطريق التقليدي لحملات المسلمين العسكرية إلى المغرب، إذ تخانوا الصحراة في الداخل وتمدوا اتخاذ الخط الساحلي حيث المدن والمواضر العمرانية.

واقعة سبيطة

بعدما وصلت أخبار تقدم الجيش الإسلامي إلى حاكم أفريقيا البيزنطية (جريجوريوس)⁽³⁾ والذي كان حكمه يمتد ما بين طرابلس وطنجة، وكانت عاصمة قرطاجنة، فبدأ بالاستعداد لمواجهة المسلمين فاستغرق كل قواته التي بلغت مئة وعشرين ألف مقاتل كما تشير المصادر التاريخية، كما استطاع تالib مدينة طرابلس على العصيان والثورة على المسلمين في محاولة لإنهاك جوشهم وهي في طريقها إلى سيطرة الذي كان القائد البيزنطي قد حشد قواته هناك. ولكن القائد الإسلامي رفع الحصار عن طرابلس وأثر التوجه إلى مركز السيادة البيزنطية مباشرة، وبهذا أفشل القائد البيزنطي، ولقد دارت في سيطرة معركة تعد من أعنف المعارك في تاريخ الحروب العربية - البيزنطية وقتل فيها القائد جريجوريوس وعدد كبير من جنوده ولاذ الآخرون بالفرار. ولقد استطاع المسلمين من الحصول على غنائم كبيرة، حتى أن عبد الله بن أبي سرح كما يذهب أحد الباحثين بأنه قُتل ببحر الغنائم⁽⁴⁾ واقتصر مجد الانتصار الكبير ورجوع إلى مصر بعد غياب ستة أشهر. ويمكن أن يكون عبد الله قد

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 462.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 246.

(3) يطلق عليه العرب (جريج).

(4) ختار العبادي، الجمل في تاريخ الأنجلوس، ص 26.

تحب من طريق البيزنطيين لجيشه وهو بعيد عن ولائه، ومع هذا الانتصار العسكري في هذه الواقعة فإنها لم تسفر عن أي تغير في الصراع على التفود في المنطقة بعد رجوع جيش المسلمين إلى مصر. ولكن من جهة أخرى كان خذله الواقعة أثر كبير أصاب معنويات البيزنطيين في الصعيد وكان عليهم منذ الآن أن يجربوا بدقة لكل مواجهة مع المسلمين ويرى أحد الباحثين أن موقعة سبيطة لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه بحدده الخط المتد من سيطرة إلى سوسة من الشمال، ثم من سيطرة إلى قصبة جهة الشرق، وشريط ساحلي ضيق فيما بين قابس وشط الجريد من الجنوب⁽¹⁾. ولقد كانت حلة عبد الله بن سعد إلى أفريقيا مثل العمل العسكري البارز في عهد الخليفة الراشدي⁽²⁾، باستثناء بعض العمليات الصغيرة على الأطراف الجنوبية من مصر لم يحدث أي تحرك حقيقي وجاد على هذه الجبهة. وبعدها شغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع عنها من اضطرابات أدت إلى مقتل عثمان في سنة 38هـ واستخلفه علي بن أبي طالب، ولم تشهد فترة حكم الخليفة الجديد والتي بلغت خمس سنوات آية فتوحات خارجية جديدة، لانشغاله بالحروب الأهلية.

فتوحات العصر الأموي

بعد أن انتهت المواجهات بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية في واقعة صفين واستقرار الأمر أخيراً إلى معاوية بن أبي سفيان، قرر إعادة عمرو بن العاص⁽³⁾ على ولاية مصر ثانية، فقام عمرو باستئناف غزواته السابقة على برقة وطرابلس، تمهيداً لغزو أكبر، دون الاشتباك مع البيزنطيين في معارك كبيرة. ولكن عمرو بن العاص قد توفي سنة 44هـ (665م). فرأى معاوية أن يفصل المقرب عن ولاية مصر، ويعيدها ولاية تابعة إلى الخليفة الأموية مباشرة، وأصدر معاوية أمراً بتعيين حاكماً

(1) حسين مؤنس، فتح العرب المغرب، ص 99.

(2) د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 27.

(3) مكافأة له لدوره الخامس في التحكيم في واقعة صفين لصالح معاوية.

على الولاية الجديدة وهو معاوية بن خديج وأمره بالسير عام 45 هـ إلى برقة لبشرة عمله، ومهما أواصر باستئناف التحرّكات العسكريّة في المغرب، وعند دخول معاوية بن خديج إلى الفسطاط استطاع أن يتعرّف على التفاصيل الدقيقة للموقف، في الوقت الذي كانت الدولة البيزنطيّة في عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني تستعد لإعادة سيطرتها على أفريقيا بعد الهزيمة الكبيرة التي وقعت جليّوها في واقعة سبيطة كما أوضحتنا سابقاً، فأخذ البيزنطيون يجذّب قوات عسكريّة كثيفّة لاستعادة مواقعهم القديمة، ورغم تضارب آراء المصادر التاريخيّة في تحديد زمن الحملة التي قادها معاوية بن خديج⁽¹⁾، فالراجح أن هذه الحملة قد ثُمت بعد عدة سنوات من انتقال الحكم إلى الأمويين، ولقد شارك في هذه الحملة التي كان قائدها العام معاوية بن خديج. أسماء معروفة كثيرة مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من كبار قريش، وكان المقاتلون الذي اشتراكوا في هذه الحملة التي قوامها عشرة آلاف مقاتل من النخبة التي لها خبرة ومعرفة في الشؤون الأفريقيّة⁽²⁾.

ولقد اتّخذ معاوية حملته إلى المغرب المسار التقليدي البري للوصول إلى برقة ثم إلى طرابلس دون أن يتعرّض إلى مقاومة بيزنطيّة لأنّ الحكم الإسلامي قد شهد استقراراً في هذه المناطق بفضل جهود عقبة بن نافع، حتى توقف الجيش البيزنطي (تففور) قوبية التي تقع إلى الجنوب من قرطاجنة. وقد كان على قيادة الجنابيّ (تففور) الذي أرسل كحاكم على أفريقيا بعد الخسائر التي مُني بها القوات البيزنطيّة هناك، ولكن القائد البيزنطي (تففور) لم يستطع حسم الأمور لصالحه، فبعد سلسلة من المواجهات البسيطة استطاع الجيش الأموي بقيادة عبد الله بن الزبير أن يتخذ من جبل القرن موقعًا عسكريّاً له ويقوم القائد مع مجموعة من الفرسان بهجوم خاطف على

(1) د. بيرون، الدولة العربية، ص 29.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، 1/16.

موقع الجيش البيزنطي قرب مدينة (سوسة)⁽¹⁾، فاستطاع بهذا المجرم المخاطف والجريء من إحداث الرعب والاضطراب في صفوف القوات البيزنطية، فلاذوا بالفرار إلى سفههم التي رجعت بهم إلى قاعدتهم (চقلية) في البحر الأبيض المتوسط دون أي مواجهة مع الجيش الأموي. وبعد هذا النجاح، أرسل معاوية بن خديج مجموعة أخرى من المقاتلين المسلمين بقيادة عبد الملك بن مروان لمهاجمة أحد الخصون البيزنطي لهمة وهو حصن (جلولاء) الذي يبعد مسافة نحو عشرين ميلًا عن القيروان، فتمكن القائد وجنوده من إسقاط الحصن دون مقاومة تذكر⁽²⁾.

ولقد كان للقائد معاوية بن خديج عمليات عسكرية أخرى مثل هجومه على بعض المدن الساحلية في الشمال ومنها مدينة نبرة⁽³⁾، أو هجومه على جزيرة صقلية متبعاً آثار القائد البيزنطي المتقهقر، إلا أن هجوم صقلية هذا يثير الكثير من الريبة والشك في حدوثه⁽⁴⁾، خاصة وأن الوقت الذي تم فيه الهجوم كان في سنة 46 هـ إذ لم يكن سلاح البحرية لدى العرب قد اكتفى إطاره المكافئ مع سلاح البحرية البيزنطي وكذلك لم يكن العرب قد أنشأوا قاعدة قادتهم الأفريقية ف تكون أمر المطاردة في البحر سهلاً، فضلاً عن ذلك أن حلة معاوية بن خديج كانت بريئة وسلكت طريقاً برياً كما أشرنا، ومن ثم عسكرت في مكان يبعد عدة أميال عن البحر، بهذا نستطيع أن نتفق مع رأي د. إبراهيم بيضون من أن أمر حلة صقلية مجرد تصور خاطئ عند بعض المؤرخين التقليديين على حد تعبيره مثل الطبراني والبلاذري، وأبن عذاري مثلاً اعتبر إلى عدد من المعاصرين إلا أن بعضهم وصل إلى نفي قاطع لهذه الرواية كالمؤرخ حسين مؤنس في كتابه فجر الأندلس. وبالرغم من نفي حلة صقلية فقد كان

(1) مدينة ساحلية قرية من القيروان.

(2) يقال أن عامل الصدقة ساعد العرب بهذا النصر عندما سقط فجأة أحد أسواره، ومهد الطريق أمامهم إلى اختراقه. ابن عبد الحكم، ص 261.

(3) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 130.

(4) بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 31.

للالنتصارات التي حققها القائد معاوية أثراً كبيراً بدفع سيرة الفتح الإسلامي للغرب خطوات واسعة إلى الأمام، فقد كانت هزيمة البيزنطيين والواقع العسكرية المهمة التي فقدوها بداية للاحتلال في موازين القوى بين المسلمين والبيزنطيين في أفريقيا، إلا أن معاوية قد ارتكب خطأً عند عودته دون القيام بإجراءات عسكرية أو إدارية للمناطق التي فتحها والتي تضمن استمرارها في ظل الحكم الإسلامي. ولم يستمر معاوية في منصبه وقتاً طويلاً يتيح له فتح أفريقيا، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة 48 هـ وقيل سنة 50 هـ وولى القائد عقبة بن نافع مكانه.

عهد الفتوحات المنظمة

يذهب المؤرخون إلى وصف قيادة عقبة بن نافع للجيوش الإسلامية هو بداية لعهد الفتوحات المنظمة، إذ لا شك أن اختيار الخلافة الأموية لعقبة بن نافع يُعد مؤشراً لنطوير جديد في استراتيجية الفتح في المغرب⁽¹⁾ لما يتمتع به القائد عقبة بن نافع من الكفاءة والنبرغ في الحقل العسكري، وبدأت قيادة عقبة جيوش المسلمين في عام 49 و 40 هـ للجبهة الغربية. والتي كان له دور سابق كقائد في فتوحات عمرو بن العاص الأولى بأفريقيا، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن أبي سرح.

لقد استهل عقبة عملياته العسكرية بالقيام في سلسلة من الحملات التاجحة إلى (غدامس) وهي من أرض سرت حيث ترك قوة هناك على رأسها القائد زهير بن قيس البلوي كمؤشر للاستراتيجية الجديدة القاضية بالاحتفاظ بالأرض وليس فقط الغزو كما كان يحدث في السابق⁽²⁾، وسار بعدها بصحبة 4000 مقاتل حتى وصل إلى مدينة ودان ففتحها ثم إلى جرمة⁽³⁾ ومنها إلى فزان وعاصمتها زويلة بالإضافة إلى عدد من المدن المهمة في المغرب الأدنى. وقد كان لشخصية عقبة بن نافع الشديدة والعنيفة أثراً فاعلاً في نفوس البربر الذين تهيأوا من بطن هذا القائد فأقرروا بالخضوع له.

(1) يفسون، الدولة العربية، ص. 32.

(2) يفسون، الدولة العربية، ص. 33.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح أفريقيا، ص. 62.

وكانت الصفحة التالية من الاستراتيجية العسكرية بعد ضمان الاحتفاظ بالأرض وإبقاء قوات كافية للدفاع عنها، تمضي في الشروع في ترسين البداية الإسلامية على أرض الواقع لضمان ثبات تلك المكاسب، فكان أن اتجه تفكير عقبة بن نافع إلى إنشاء قاعدة في مركز البلاد التي تمت السيطرة عليها. وهو يتحقق في هذه الفكرة هدفين: الأول يتمثل في إيجاد قوة حابة كافية وتابعة تغطي عمليات المجموع في أطراف المغرب من جهة، وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم الإسلامي من جهة أخرى، والثاني أن تكون مركز استقطاب لكل الأعمال البشيرية في أفريقيا وركيزة لصناعة جيال مستقبلية من البربر تنشر مع العرب في إطار واحد هو الإسلام⁽¹⁾.

ولقد تهيأت للملمين في هذا الظرف عوامل معايدة لنجاحاتهم في الفتح وهو أن البيزنطيين اشغلا بمعاجلة محاكمهم الداخلية بعد مقتل الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي عُرف بشدة عدائه للإسلام، ومن ثم تفرغ خليفته إلى مقاومة حركة التمرد التي ثارت في صقلية⁽²⁾. بهذا كانت الظروف ملائمة لبسط النفوذ الإسلامي في تلك المنطقة، إذ أن مواجهات البيزنطيين قد توقفت في حين كان البربر أكثر ميلاً للملمين لا سيما وأن البربر لم يتاثروا عقائدياً أو حضارياً في البيزنطيين وكانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة عسكرية سطحية، وهذا أمر طبيعي لما نعرفه عن البربر من الترس في القتال ونزعتهم إلى العنف وال الحرب، لهذا كان ميلهم إلى المسلمين المتصرفين أثراً فيهم شهية القتال بجانبهم ضد البيزنطيين المنزهين.

وبعد أن نجح عقبة بن نافع في تنفيذ خطوات الفتح بانتظام صار عليه أن يختار المكان المناسب لقاعدة العسكرية التي قرر إنشاءها فكانت القیروان هي المدينة التي اختارها، وسميت بعد ذلك بقاعدة عقبة وتقع القیروان بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة المبنية البيزنطي وإلى الغرب بمسافة أقل من مسافة المدينة التي سقطت أثناء

(1) د. ييفون، الدولة العربية، ص 24.

(2) سعد عبد الحميد، المغرب العربي، ص 143.

حلات القائد معاوية ابن خديج وكانت القبروان تقع في أحد الوديان ذات الأشجار غير البعيدة عن الساحل⁽¹⁾. وبهذا فإن عقبة قد أحسن الاختيار من ناحية المراعي ووفرتها ولكنها لم يُحسن اختياره حيث توافر الماء⁽²⁾، مما أدى إلى تعرضها لهزات كانت تؤدي إلى خرابها لولا صفتها الدينية. وقد استغرق بناء القبروان نحو أربع سنوات وكانت أولى معالها دار الإمارة أو مركز الحكم، والمسجد الذي حل حتى اليوم اسم القائد العربي⁽³⁾ وتطورت القبروان وأنشأت فيها أنواع الأبنية والمنشآت وصارت محطة أنظار الناس، وتحولت من قاعدة عسكرية إلى مدينة نمت بسرعة مدهشة واكتظت بالأسواق والمرافق المدنية، فكانت من الناحية الاستراتيجية تقع على امتداد الخط البري الذي يصل بينها وبين الفسطاط فيجعلها بعيدة عن أي خطير يزنطي من جانب البحر. ولقد أخذت القبروان دورها المرسوم في سير الفتوحات الإسلامية في المغرب. فقد صارت القبروان قاعدة لانطلاق الحملات الصغيرة والتي عُرفت بالسرابيا في وقت واحد مع بناء هذه القاعدة. فقد تقسم واجب المقاتلين إلى شطرين: البناء ومواصلة الفتوحات التي أصابت نجاحاً ملحوظاً. وكان لشخصية القائد عقبة بن نافع القيادة وحماية المقاتلين من جهة، وتلاشى الخطير البيزنطي من جهة أخرى عامل كبير ومؤثر في استئثار البربر الذي بُهروا بإصرار المسلمين على مقارعة الصعب.

ولقد تحولت بلاد المغرب في عهد القائد عقبة بن نافع إلى ولاية شبه مستقلة رغم ارتباطها بمصر من الناحية الإدارية. ولكن مسار التاريخ لم يكن في صالح القائد عقبة بن نافع فقد جاء قرار عزله من قبل معاوية بن أبي سفيان في عام 55 هـ / 674 م، وتعيين قائد آخر هو أبو المهاجر الأنصاري.

(1) ابن عبد الحكم، ص 264-265.

(2) د. صالح أبو ديوك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 88.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 7/194.

ولقد أثار عزل القائد عقبة الكبير من التفسيرات في المصادر التاريخية والمصادر المعاصرة، لما جاء به هذا القرار من غموض في التوقيت لا سيما وأن هذا القائد قد حق إنجازات باهرة وسار بالجيوش الإسلامية إلى موقع متقدم كان مجرد التفكير فيها في المراحل السابقة من العهد الراشدي يمثل ضرباً من المغامرة غير المضمونة النتائج. فلماذا أُتيل هذا القائد؟ لا سيما وأن قرار إبعاده كان على مستوى القيادة العامة وإيقاعه في الخدمة العسكرية¹

يعتقد بعض الباحثين، أن قرار العزل كان سياسياً لما عُرف عن نزعة معاوية الفردية وعدم استياغته لشخصيات قيادية قوية، تكون نذًا له. فيما يفسر أحد الباحثين قرار العزل إلى أن أبو المهاجر هو موالي مسلمة بن خلدون الأنصاري وهو بربر الأصل عاش في مصر زمناً بعد اعتناق الإسلام، وكان مسلمة - والي مصر - يعتبره واحداً من أهل بيته ويقول عنه: (أن أبو المهاجر صَبَرَ علينا في غير ولایة، ولا كَبِيرَ مَبْلَى، فَتَحَنَّ نَحْبَ آنَ نَكَافِي)⁽¹⁾، وبهذا قام والي مصر مسلمة الأنصاري إلى السعي للوشية بعقبة عند الخليفة ليعزله⁽²⁾.

وهناك آراء متضاربة عديدة لتنا في صدد مجدها، والمهم عندنا أن قرار العزل قد طُبِّقَ وأمثال له عقبة بن نافع العسكري محترف بانضباط شديد وأبدى تعاوناً تاماً مع قائدِه الجديد، أبو المهاجر الأنصاري.

أبو المهاجر الأنصاري ودوره في قيادة الجيش الإسلامي

لقد دامت قيادة أبو المهاجر للجيوش الإسلامية في المغرب خمس سنوات (55-60 هـ)⁽³⁾. وقد شهدت عدة فعاليات عسكرية، بدأت بالهجوم على قبائل (أورية

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 266.

(2) صالح أبو دياك، الوجيز، ص 90.

(3) وقبل سبع سنوات، انظر صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب، ص 92.

وهي أحد أقوى قبائل البربر من البرانس، الواقعة في جبال أوراس. واستطاع كسب صدقة زعيم هذه القبيلة وهو (كيلة بن لزم)، وأدى تعاونهما بعد أن أشهر الزعيم البربرى إسلامه⁽¹⁾، ثم عاد أبو المهاجر إلى القبروان، ليواصل أعماله العسكرية ضد البيزنطيين شمالاً باتجاه قرطاجنة ويشن هجوماً عنيفاً في عام 569هـ / 679م، لكن هذا التحرك إلى القاعدة البيزنطية لم يكن منظماً لفرض الاحتلال وإنما مجرد عملية استكشافية لإمكاناته الدفاعية، وبعد حصار قصير للمدينة تراجع عنها لقاء الاحتلال شبه جزيرة شريك.

ويبدو أن المؤرخين غير منحازين إلى القائد (أبو المهاجر) لاعجابهم الشديد بالقائد السابق عقبة بن نافع بالإضافة إلى وجود عدد من أقارب عقبة الفهريين وكان منهم رواة وإخباريون، وكان لهم دور مهم ومركز مرموق في مصر والمغرب، كما أن معاملة أبو المهاجر السليمة إلى عقبة وإيداعه السجن كما تذهب بعض المصادر التاريخية كانت سبباً آخر في تحامل المؤرخين عليه، ولكننا نرى أن أبو المهاجر كان سياسياً بارعاً استطاع أن يستميل البربر إلى جانبه وبعد أول من طبق سياسة الاستقرار الدائم لل المسلمين والعرب في أفريقيا إذ يقول ابن عبد الحكم بمخصوص فتوحات (أبو المهاجر): (أول من أقام بعد الغزو بأفريقيا أبو المهاجر الذي أقام بها الشتاء والصيف)⁽²⁾، كما استطاع أبو المهاجر من موافقة أعماله الحربية حتى وصل إلى موضع عُرف فيما بعد بعيون أبي المهاجر كما قتّع ميله. كما أنه استمر في سياسة الناصح وكسب الرؤى ليس مع البربر فقط وإنما مع عجم أفريقيا (المقصود بالعجز هنا هم الروم أو الجماعات الموالية لهم مثل الأفارقة). وهكذا كان حال هذا القائد في حياة معاوية بن أبي سفيان وعيوب هذا الخليفة في 60هـ أصبح مركزقيادة في القبروان عرضة لتغيرات، عادة تحدث في أعقاب انتقال السلطة من خليفة إلى آخر، وكان يزيد بن معاوية الخليفة الجديد على صلة وثيقة بالقائد السابق عقبة بن نافع

(1) وقد كان إسلام هذا الزعيم سطحياً وذلك بانتلاقه عن الإسلام فيما بعد.

(2) والواقع أن من أقام بها أول مرة هو عقبة بن نافع.

ويقدر جهوده. وكانت العلاقة بين الرجلين قد توطدت عند إقامة عقبة في دمشق قريباً من ولی العهد السابـ(١)، فقد أعاد عقبة^(٢) إلى قيادة الجيش وعزل (أبو المهاجر). وهكذا انتهت ولاية هذا القائد للجبهة المغربية.

ولاية عقبة بن نافع الثانية

لقد كان عقبة يتحين الفرص لإعادته إلى موقع القيادة في الجبهة المغربية، لأن هذا القائد قد قضى سنوات شبابه حتى بلغ الكهولة مقابلاً على هذه الأراضي، وكما هو حال القائد السابق (أبو المهاجر) الذي قال بعض المؤرخين أنه أساء معاملة عقبة، فها هو عقبة يعود إلى القيادة وفي نفسه الشيء الكثير على سلفه الذي أساء إليه، فهناك أخبار تقيد اضطهاده لأبي المهاجر واعتقاله، ولا نريد الخوض في هذه المسألة رغم عدم استبعادنا لتصريحات كلا القائدين إزاء بعضهما.

لقد عاد عقبة بن نافع واستلم مهام منصبه وبصلاحيات مطلقة هذه المرّة، إذ أنه لا يستمد الأوامر من أحد سوى الخليفة، لأن الخليفة يزيد قد فعل مجدداً الولاية الأفريقية عن مصر وربطها مباشرة بعمر الخلافة في دمشق.

ولقد كان عمل عقبة الأول هو الإشراف شخصياً لإعداد عملية كبرى في نطاق سياسة التوسيع لاجتياح المغرب، وقد استطاع أن ينظم صفوف جيشه ويخرج به صوب المغرب الأقصى وترك القائد زهير بن قيس ومعه ستة آلاف جندي^(٣) لحماية القиروان من أي اعتداء محتمل، ولقد استخدم عقبة بعض من أعضاء قبيلة أوربة

(١) ابن عبد الحكم، ص 266-267.

(٢) كان عقبة بعد عزله، قدّم إلى معاوية شاكياً وقال: (فتحت البلاد ودانت لي، وبنبت المتأذل)، وانحنت مسجداً للجماعة، وسكت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار فاساء عزلي)، فاعتذر له معاوية روعده براجحه إلى عمله فلم يغير بوعده، حتى جاء يزيد فأعاده. انظر: ابن عبد

الحكم، ترجم أفريقياً، ص 68.

(٣) ابن عبد الحكم، ص 278.

كادلا، يزودون الجيش بالمعلومات الجغرافية عن طبيعة تلك البلاد البعيدة. وعلى مسيرة الجيش، استطاع القائد عقبة أن يحقق انتصارات كبيرة، فقد اشتُكَ مع البيزنطيين في (جباية) على الساحل الأفريقي إلى الغرب من قرطاجنة في معركة ضاربة غير أنها لم تكن حاسمة بسبب تراجع البيزنطيون إلى المدينة والاعتصام فيها، وما كان في خطة عقبة إطالة الحصار على المدينة، فانعطف إلى الجنوب لاتخاذ الطريق المرسوم للحملة، فدخل إقليم الراب في المغرب الأوسط ودخل (السلية) عاصمة الإقليم. بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من قبائل لوانة وهوارة ومكتنasa البربرية ثم تابع فلوهم إلى (تاهرت). وبعد فتح الراب بداية مرحلة جديدة في فتوح المغرب، إذ أن المسلمين لم يجاهوا في ذلك الوقت مقاومة إلا من البيزنطيين، وتجدر الإشارة إلى أن الموقف السياسي للبربر لم يكن قد تبلور حتى ذلك الحين فهم يرافقون الصراع الإسلامي - البيزنطي ولم يكن المسلمون قد توغلوا كثيراً في الداخل أو اصطدموا بنظام القبائل المتردم عند البربر. أما الذين دخلوا في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فهم الأكثر تحضراً من البرانس الذي كانت لهم مصالح فيبقاء القواعد البيزنطية حيث يعيشون في مناطق عازية لها على السواحل، وكان لهم أكثر من هدف في التصدي للمجيوش الإسلامية من أجل الدفاع عن مصالحهم المشابكة مع البيزنطيين⁽¹⁾.

ولقد تابع عقبة حملته وأخذ بشن الجيش في أقصى المغرب حتى بلغت مدينة طنجة⁽²⁾، والتي كانت مركزاً لإقليم يخضع إدارياً للسيادة البيزنطية، ويتمتد على الساحل ما بين طنجة وسبتة، وكان حاكم طنجة وسبتة المدعو يليان سياسياً محنكاً فبادر إلى إقامة علاقات ودية مع جيش المسلمين ولم يقاومهم، بل عقد معاهدة صلح مع عقبة وأعلن استعداده للتنازل عن الحكم⁽³⁾، وبهذا فقد وضع يليان كل طاقاته لخدمة الجيش الإسلامي مهلاً حركتهم في هذه البلاد البعيدة. كما كان دليلاً لهم في

(1) إبراهيم يخرون، الدولة العربية، ص 40.

(2) وهي مدينة شهيرة بموقعها الاستراتيجي على مدخل البحر الأبيض المتوسط.

(3) د. سيد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 139.

معرفة موقع القوات البربرية. وما كان من القائد عقبة إلا الاكتفاء بهذا القدر من هذا الإقليم ليتركه ويسير إلى الجنوب ليصل إلى وليلة أو (وليلي)⁽¹⁾ بفضل المساعدة التي قدمها له يليان حاكم طنجة، وهي في أطراف المتراب الأقصى، واستطاع أن يهزم البربر المصامدة - وهم سكان أطلس الوسطى - ويرافق زحفه حتى مدينة درعة في أقصى الجنوب وإذا كان تقدمه في هذا الاتجاه الصحراوي غير مجيد، فشار مجدداً نحو الشواطئ الغربية لل المغرب الأقصى فاستطاع إخضاع إعداداً من المدن المهمة الواقعة في أطلس العظمى، وهكذا وصل عقبة إلى بلاد صنهاجة وهسکورة ومرّ باغمات وفتحها وكذلك مدينة نفيس وثار ودانت، ونزل بوادي سوس، واتصل بقبائل جزولة فأسلمت، وانتهى به المطاف إلى السوس الأقصى ففتحه دون مقاومة وسيطر على أهم المدن الرئيسية ووصل إلى (أينيران يطوف) على ساحل المحيط الأطلسي. وبهذا الفتح الكبير الذي يعده الباحثون⁽²⁾ أضخم مغامرة عسكرية عرفتها الدولة الأموية حتى ذلك الوقت. وبعد أن اطمأن القائد عقبة إلى فتوحاته في المغرب الأقصى رحل ولاء أهله، قرر العودة إلى القبروان بعد أن ترك أصحابه لاستمرار دورهم في تسيير أمور هذه الأقاليم. وفي أئنه سيره إذ أشك على دخول المغرب الأدنى وصله أبناء مقلةة من أفريقيا، فأرسل عدداً كبيراً من قواته ولم يبق معه سوى خمسة آلاف مقاتل وصل بهم إلى مدينة تهودة في منطقة الأوراس. ففرجع بقواته البربر وزعيمهم كسبلة الذي ترعم بعض المصادر التاريخية بان هذا القائد قد استطاع أن يتحالف مع البيزنطيين ويجمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ويتبنى هذا الطرح بعض المؤرخين المعاصرین. ولا شك أن الموازنـة العسكرية كانت تشير إلى كفة البربر الذين أحاطوا بجيش عقبة من الشمال⁽³⁾، وخاض هذا الجيش معركة عنيفة أدت إلى مقتل القائد عقبة بن نافع وعدد آخر من القواد منهم أبو المهاجر.

(1) وهي مدينة قديمة تقع على مسافة قرية من فاس.

(2) د. بيرون، الدولة العربية، ص. 42.

(3) أحد العبادى، الجمل في تاريخ الأندلس، ص 24-25.

وتعتبر هذه المعركة ذات أهمية اشتراكية في تاريخ مقاومة البربر للجيوش الإسلامية، فهي لم تكن رد فعل على سياسة عقبة القاسية ضدهم، بل إن هذا العدد الكبير الذي حشدته كسبلة⁽¹⁾ لم يكن كفيلاً لأن عدداً كبيراً بهذا المستوى من التنظيم ودقة التوقيت و اختيار الموقع الملائم للهجوم، يدل على إعداد مسبق و تنظيم للفضاء على الوجود الإسلامي في المغرب. لقد وجد البربر أن سياسات المسلمين التوسعية التي بلغت حتى ضفاف المحيط الأطلسي هي تهديد لوجودهم و سلب سيادتهم المترامية للحكم والتي لم تُنس عبر التاريخ، فقد كانوا يعيشون منذ البدء حياتهم و يمارسون طقوسهم و تقاليدهم بحرية كاملة حتى في ظل الرومان إلى الوندال إلى البيزنطيين⁽²⁾، فهذه القوى كانت في الغالب تمركز على السواحل دون أن تتصادم مع السكان المحليين في الداخل، وهذه الظروف جعلت من البربر أن ينزاوا بزعتهم نحو الاستقلال التي كلفتهم كثيراً قبل أن يتخذوا عنها إيان عهد الفتوحات الإسلامية، لذا فإنهم عارضوا مع البيزنطيين في عدة مواقع أثناء حملة عقبة لاعتقادهم بأن الجيش الإسلامي هو عدوهم المشترك، لأن البيزنطيين لم يكونوا في نظر البربر ذلك الخطر الذي شكله الإسلام عليهم. ولم يكفل القائد البريري كسبلة بسحق جيش عقبة و مقتله، بل إنه واصل الهجوم على القوات الإسلامية لاجتثاث أثرها كاملاً من المغرب، فقررمواصلة السير إلى القิروان، وقد كان لذمة المسلمين في مقتل أخطر قادتهم وهو عقبة بن نافع وخيرة من معه من القادة كأبي المهاجر⁽³⁾ الأثر الكبير على تردي معنويات المقاتلين المسلمين في القิروان، وحدوث خلاف كبير بينهم، فالبعض رفض القتال و آخرون يرغبون فيه، إلى أن استطاع الرافضون فرض وجهة نظرهم بالانسحاب. ولقد أذعن قائد الحامية الإسلامية زمير بن قيس لطلباتهم وانسحب إلى برقة، ودخلها الجيش البريري وأصبح كسبلة حاكمة لمدة خمس سنوات (64-69 هـ).

(1) رغم المبالغة في تقدير الأعداد من قبل المؤرخين القدامى.

(2) د. بيضون، الدولة العربية، ص 44.

(3) تروي المصادر التاريخية بأن عقبة قد أمر أبا المهاجر لترك أرض المعركة والنجاة بنفسه، لكنه رفض وفضل الموت مع قائدته عقبة.

ولو تأملنا الأسباب الحقيقة لهذه النكبة القاتمة للجيوش الإسلامية في المغرب بعد أن حققت مغاجات باهرة حتى وصلت إلى سواحل الأطلس، لوجدنا أنها أسباب متداخلة ومتشعبة منها ما يتعلق بسياسة عقبة بن نافع التي اتسمت بالعدائية والعنف تجاه البربر. ونحن لا نستطيع أن نلغي حاجة قائد عسكري من طراز عقبة رضع شهوة القتال إلى القسوة، فهو الرجل الذي قاد أول حملة منظمة اتسمت بطابع مدروس حقق فيها أهدافاً كبيرة تجلت في تقويض نفوذ البيزنطيين وثبتت السيادة الإسلامية في المجتمع البربري. فالعنف هنا قد يكون له ما يبرره ولكن عقبة أمعن في التدخل في التفاصيل الدقيقة لطبيعة المجتمع البربري وسعيه إلى طمس هويتهم الاجتماعية بالكامل وديمها بالطوية الإسلامية. وهذا ما لم يتمتع به المجتمع البربري في مراحل الاحتلال السابقة كما أوضحتنا من قبل وخصوصاً في علاقتهم مع البيزنطيين، الذين استوطنوا السواحل ومخاشعوا الدخول إلى العمق، وتركوا البربر يمارسون طقوسهم بحرية تامة. كما أن وجود قائد مثل كيلة⁽¹⁾ استطاع أن يستمر الشعور القومي لدى البربر مع الاستثناء من تحالفه مع البيزنطيين كان عاملاً مهمّاً في هزيمة المسلمين في معركة نهودة. وهناك عامل خارجي لا يتعلّق بظروف المغرب سواء أتعلق الأمر بالقائد عقبة بن نافع أو في المقاومة التي أبداها البربر بقيادة كيلة، هذا السبب متعلق بالظروف الحرجة التي واجهتها دولة الخلافة في دمشق من تحديات خطيرة مثلثها ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ومقتله بطريقة بشعة هو وأصحابه في واقعة الطف المشهورة⁽²⁾، كما أن ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز وإعلانه الاستقلال عن الخلافة. قد أثرا سلباً على معنويات المقاتلين في الغور الإسلامية البعيدة في المغرب. وذلك لطبيعة العلاقات القبلية التي تربط هؤلاء المسلمين جنداً وقاده هذه

(1) قيل إنه أسلم في زمن أبي المهاجر وجاء عقبة فاستخف به فهرب من معسكر المسلمين، وأخذ يتحين الفرصة للإيقاع بعقبة وجيشه المسلمين.

(2) بعد مقتل الحسين بن علي في خلافة يزيد بن معاوية، عانت الدولة الأموية من ردات فعل كبيرة، كثرة المختار وثورة عبد الله بن الزبير وغيره من الثورات. خُيل للقارئ إلى مراجعتها في المدون التاريخية والمعاصرة وهي كبيرة جداً.

الثورات ضد مركز الخلافة في دمشق، ولا مجال لبحث هنا الموضوع لأنّه خارج نطاق هدفنا، لأنّ المعروض أنّ الدولة الأموية في زمن يزيد قد عانت الكثير من الاضطرابات والثورات حتى بداية العهد المرواني.

فتورات الأمويين في عهد آل مروان

بعد وفاة يزيد بن معاوية كان الـبيت السفياني على موعد مع انتهاء السيادة على دفة الحكم المركزية في دولة الأمويين، وحان الأمر إلى الـبيت المرواني بعد معركة سياسية في دمشق - مركز الخلافة - لا سيما بعد أن رفض معاوية الثاني استلام الحكم بعد أبيه يزيد⁽¹⁾. ووجود شيخ محلك وهو مروان بن الحكم الذي حسم الأمر لصالحه، وصار خليفةً في عام 685هـ / 65هـ. ولقد استطاع مروان بن الحكم أن يملأ الفراغ السياسي وإنقاذ الدولة الأموية خلال الفترة القصيرة التي تولى فيها الحكم، ولكن الدور الأكبر كان خلفه ووالده عبد الملك بن مروان، الذي أخذ على عاته العباء الأكبر في استعادة الأمور إلى نصابها، لا سيما وأنّ هذا الخليفة كان حكيمًا لاستعادة الأبعاد المقيقة للسياسة الإسلامية في إطارها العسكري واستئناف الفتوحات الإسلامية. سيما وأنّ القائد زهير بن قيس كان في برقة والذي أرغم على الانسحاب من القبروان، يتحين الفرصة والقرار السياسي من مركز الخلافة لاستئناف دوره العسكري، فكان له ما أراد في ولادة عبد الملك بن مروان، إذ عهد هذا الخليفة إلى القائد زهير بن قيس بقيادة الجيش في المغرب بوصفه خيراً بشؤون هذه المنطقة. وزوّده بسرايا إضافية من الجيش الشامي للاشتراك في حملة عسكرية كبيرة على رأسها والي مصر آنذاك عبد العزيز بن مروان⁽²⁾ الذي عُرف عنه اهتمامه الكبير بقضايا إقليم المغرب⁽³⁾.

(1) يقال أنّ هذا الخليفة رفض الحكم لاعتقاده بعدم شرعية حكمه. وإنّه قال بعد إقصائه كيتك كت حيبة؟

(2) ابن عبد الحكم، ص 269 .

(3) د. بيضون، الدولة العربية، ص 47 .

وتبيّن لحماس القائد زهير بن قيس ورغبة الملة في استعادة القิروان، سارع إلى تنفيذ أمر الخليفة، وقد استطاع أن يبلغ المدف ويتصدر على جيش كيلة ويقتله ويستعيد القิروان ويُحصّنها مجدداً. لكن هذا الحماس الزائد قد أوقع هذا القائد في خطأ العودة إلى برقة ثانية، وربما تكمن مهمته هذا القائد قد رُسم لها من قبل مركز الخلافة بمحدودها المحددة باستعادة القิروان والانتقام من البرير وقادتهم كيلة مجرد رد الاعتبار لحبة مركز الخلافة، وإلا لماذا هذه العودة السريعة إلى برقة التي كلفته حياته، إذ أن البيزنطيين قطعوا عليه الطريق عند مدينة درنة على مقرية من طبرق، واستطاعوا أن يهزموا الجيش الإسلامي وقتل قادته زهير.

وهنا، لابد من التساؤل عن الأسباب التي دفعت بمركز الخلافة إلى هذه العملية العسكرية دون وضوح أهدافها الاستراتيجية خارج الانتقام من كيلة وفراهه في القิروان؟ يبدو أن الخلافة الجديدة أرادت أن تقوم بعمل خارجي لاستيعاب واحتواء الأزمات الداخلية، لأن الخلافة آنذاك كانت تحتاج إلى دعم ولو معنوي لإسقاط قوتها. وهذا ما حققت حلة زهير بن قيس التي هي أثب بالغزوة من الفتح. وعاد المسلمون إلى برقة ثانية بانتظار نضوج ظروف أخرى لمواصلة توسيعهم في بلاد المغرب.

والملحوظة المهمة التي يخلص لها الباحث إن مثل هذه الظروف كانت موافية على الدوام، وذلك للقدرة المتزايدة للدولة الإسلامية، والضعف المتأصل في جهات الدول التي كانت تقف بالضد منها كالمperialية البيزنطية التي شهدت في ذلك الوقت أفولها المظيم، كما أن البرير هم الآخرون شهدوا مرحلة من الضعف، وبما أن الفتوحات الإسلامية على وجه العموم كانت تقترب بالقائد وأهمية الفرد في تغيير مسار التاريخ فقد تهيأ للقائد حسان بن النعمان الغساني هذه المكانة. فهو أول قائد من خارج المدرسة التي زوّدت جهة المغرب بالقادة^(١)، فقد كان بعيداً عن المغرب وقضى جل حياته في الشام، قريباً من المشاكل الداخلية التي كانت تعانيها الخلافة ولا سيما بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير. وهذا مؤشر مهم لاختياره من قبل الخليفة

(١) د. يفرن، الدولة العربية، ص 49.

عبدالملك بن مروان لقيادة جيش المسلمين في جهة المغرب وبشكل جدي، ولأن هذا القائد الجديد اتصف بمهارات خاصة⁽¹⁾، جعلت من الخليفة عبدالملك بن مروان أن يولي ثقته المطلقة، وأن ينحه صلحيات واسعة، إذ يقل ابن عذاري عن وصية الخليفة إلى قائد بعد تعينه قائداً عاماً على الجهة الغربية بالقول⁽²⁾: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعطيت من معك وردة عليك، وأخرج إلى بلاد أفريقيا على بركة الله.

ولقد كانت جهة المغرب تحتاج فعلاً إلى قائد من هذا الطراز وفي هذا الطرف بالذات الذي كان يشهد حالة عداء ونفور واضحين في علاقة البربر بالقوات الإسلامية. فكان أن عمل حسان بن النعمان الغاني في بداية أمر قيادته على الانطلاق بسياسة دبلوماسية هدفها كسب ود البربر، ومن ثم إقناعهم بالتوحد في جهة واحدة ضد البيزنطيين، واستطاع أن يتبع في هنا الأسلوب الذي سوف يصبح نهجاً عاماً للسياسة الأمريكية في جهة المغرب.

أما عن مسار الجيوش الإسلامية تحت قيادة حسان فبدأ بعد أن غادر حسان مصر في سنة (74هـ / 694م) والذي كانت تتمثل المركز الرئيسي لجتماع القادة، إذ سار إلى طرابلس سالكاً الطريق البري التقليدي حتى وصل إلى القิروان التي استعاد فتحها دون مقاومة كبيرة. وكان المدف الأهم في طريق الجيش الإسلامي هو مدينة قرطاجة، القاعدة البيزنطية الشهيرة. واستطاعت الفورة الإسلامية الوصول إليها وخوض معركة عنيفة وضاربة مع قوات المقاومة البيزنطية الذين أجبروا على ترك المدينة متحملين خسائر جسمية في الأرواح، بينما توزع الناجون من الموت بين صقلية وإسبانيا⁽³⁾.

(1) يصف المؤرخون شخصيته، بأنه يتميز بالمرهبة القيادية العالية مع مرونة الشديدة التي كانت تلازمه في أعماله العسكرية، وهذه صفات نادرة لقائد عسكري.

(2) ابن عذاري المراكشي، 1 / 34.

(3) كانت إسبانيا في ذلك الوقت تابعة لحكم القوط الغربين.

وكان لسقوط مدينة قرطاجة الأثر الكبير على مسار الفتوحات الإسلامية على جبهة المغرب، ويدو أن بعض المصادر تشير إلى ساهمة الأسطول الأموي في هذه المعركة بينما تبعد الأخرى ساهمته⁽¹⁾، والأرجح أن المعركة جرت وفق الأسلوب التقليدي للقتال، إذ أن المدينة شهدت حصاراً من قبل الجيوش الإسلامية، كان هذا الحصار مكيناً استطاع المسلمين من اختراق أسوار المدينة بجهة واندفاع كبيرين. وقامت القوة الإسلامية من تدمير هذه القاعدة التاريخية العربية للبيزنطيين وتحويلها إلى أطلال خربة⁽²⁾.

ولقد نهياً للقائد حسان أن يقف على أرض صلبة لمواصلة فتوحاته التوسعية، بعد أن سقطت قرطاجة التي كانت تمثل أهم العقبات في طريقه، كما أنها كانت قاعدة لتغذية المعارضين والمقاومين للمسلمين وتوفير الأسباب الازمة للثورة على المسلمين أو التأمر ضدهم.

واصل القائد الظافر مساره التوسعي، فوصل إلى امتداد الساحل الغربي وقام بهجوم على موقع البيزنطيين، فاستطاع من فتح بزرت بعد معركة ضارية شارك فيها البرير، وأفلح المسلمين في مطاردتهم حتى اعتصامهم في إقليم بونة الواقع إلى الغرب من هذه المدينة⁽³⁾.

وبهذا الفتح يكون الجيش الإسلامي قد أكمل المرحلة الأولى من خطة الفتح بقيادة حسان، فكان لابد أن يعود إلى القبروان مع جيشه لأخذ الراحة الازمة والضرورية قبل البدء في المرحلة الثانية والتي يبغي فيها هذا القائد حسم الأمر مع البرير الذي كان يؤمن كما أسلفنا بالحوار والسياسة المرنة بمحوار القتال لتنفيذ الفتوحات المقررة في الخطة الاستراتيجية. ولكن الأخبار التي توالت إلى القبروان لم

(1) سيد إسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك، ص 128.

(2) ابن الأثير: ج 4، 180.

(3) نفس المصدر والصفحة.

تکن سارة إطلاقاً فقد وصل خبر تجمیع حشود ضخمة من البربر البت⁽¹⁾. تقدہم امرأة تصفها المصادر التاريخية بالقوة والصلابة وقوة العزيمة، وهي من قبیلة جراوة المعروفة عند العرب بالكافنة وكان اسمها الحقیقی (داهیة بنت مانیة بن یفان)⁽²⁾ وترجح المصادر التاريخية بأن هذه الكافنة كانت تدين باليهودية على عکس قائد البربر، الذي كان يدین بالملحیة التي انتشرت في المقرب على المناطق الأکثر قرباً من السواحل⁽³⁾. فيما كانت الديانة اليهودية قد انتشرت في المناطق العمیقة التي كان يقطنها البربر البت. لكن هذه الديانة لم تستطع فرض هيمنتها في هذه المناطق التي شهدت أنواعاً من المعارك والاضطهاد، حيث كانت الوثنیة هي السائدة⁽⁴⁾ في صحراء البربر البت الذين يعبدون مظاهر الطیعة. وما كانت أخبار هذه الكافنة لتترك القائد حسان وتفقده البطرة على التصرف في اللحظات الحرجة كھذه اللحظة، فقد أسرع في التحرك على أمل اعتراضها في (باغایة). ولكن الفترة الفاصلة بين وصول أخبار جيش الكافنة إلى القیروان وتحرك القائد كانت تصب بمصلحة الكافنة التي استطاعت الوصول إلى المدينة والاعتصام فيها، قبل أن يصلها جيش حسان. وكان تیجة لهذا الوضع العسكري المناسب للقتال قد استطاعت الكافنة بالحاق المهزیة بجيš المسلمين في موقع (نهیر نبی)، بعد معركة عنيفة. لكن هذه المهزیة لم تکن فاصلة وساحة کلک التي لحقت بالقائد عقبة بن نافع في معركة (تهودة)، إذ استطاع القائد حسان أن يرتب انسحاب جيشه بشكل منظم والعودة به إلى برقة. وهذا هو الانسحاب الثالث للمسلمين إلى برقة في مسيرة فتوحاتهم على الجبهة المغاربة.

برغم هذه المهزیة التي لحقت بجيš المسلمين الخيبة والعجز عن توطيد سیادتهم في المغرب، لكنها لیت حاسمة في المسار الاستراتیجي لفتورحات

(1) بعد أن هزم البربر الربانی في حس من قبل المسلمين سابقاً.

(2) د. یضون، الدولة العربية، ص 51.

(3) مناطق سکن البربر الربانی.

(4) العبادی، المحمل في تاریخ الاندلس، ص 27.

الإسلامية، إذ أن جهود القائد حسان في المرحلة الأولى قد كانت ضربة قاسمة لظهور الفوضى البيزنطي في المغرب، وإن استطاعوا المودة ثانية إلى قرطاجنة، لكنها عودة شكلية أشارت إلى زوال تأثيرهم الفعلي في بلاد المغرب وذلك لأن انتصار جيش الكاهنة على المسلمين قد جعل لها السيادة النسبية على البربر. وهذا عامل ساهم في زعزعة وتفريض نفوذ البيزنطيين في بلاد المغرب. لكن هذه الكاهنة واجهت - عاملًا ساعد المسلمين بشكل غير مقصود - وهو فشلها في فرض سيادتها المطلقة على أقوام البربر، وذلك باتباع سياسة الأرض المحرقة⁽¹⁾ التي لم تلق بقبول من جميع البربر، وذلك لتصورها الخاطئ على أن المسلمين في غزواتهم يسعون دائمًا إلى المدن والمحاضر وغنم ما فيها من خيرات. وهذا التفكير قد يكون صحيحاً في بداية الحملات العسكرية الإسلامية الأولى التي غيرت بطابع الغزو التي يكون هدفها الأخير الحصول على أكبر قدر من الغنائم. لكن هذا التفسير في مرحلة الفترات الأمامية وخاصةً منذ قيادة عقبة بن نافع لم يعد صحيحةً، لأن المسلمين كانوا قد تجاوزوا هذه المرحلة، وانتقلوا إلى مرحلة الفتح المنظم، بعد أن نضجت الظروف الثانية والموضوعية للدولة الإسلامية للسير بهذه الفتوحات إلى أقصاها.

بالإضافة إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان لم يفقد الثقة بقائده إذ نحن نوّهنا قبل قليل إلى أن هذه المرحلة هي المرحلة الأولى من خطوات الفتاح ولابد أن يتوقع حصول مثل هذه الحسارات التككية. بانتظار ما ينجزه هذا القائد في المرحلة الثانية، لا سيما وأن هذا القائد الذي نجا من الموت استطاع خلال سنوات إقامته في برقة أن يستعيد ترتيب صفوفه ويدرس خطة أخرى بالاستفادة من أخطائه، ومراقبة جبهة العدو بقيادة الكاهنة التي تعاني من مشاكل خطيرة تمثلت في تدمير البربر من سياساتها ولاسيما ببربر البرانس الذين وقعوا ضحية ظلم واستبداد وتسلط البرابرة البتر وما حلت سياسة هذه الكاهنة من الذراب الذي حلّ ببلادهم. وهو ما لا يقبله مزاج البربر البرانس الذين عُرِفوا بتحضرهم على عكس نمط حياة البربر البدوي.

(1) بيسون، الدولة العربية، ص 52.

كل هذه العوامل كانت في مصلحة الجيش الإسلامي وقاده حسان الذي كانت معنوياته القتالية عالية وإصراره على تعويض ما خسره مستندًا على عامل نفسى مهم وهو تجديد الثقة به من قبل الخليفة⁽¹⁾. ففي عام (81 هـ / 700 م) بدأ هذا القائد استئاف حملاته التوسعية، فار في جيشه إلى قابس إلى الجنوب الغربي من مدينة صفاقس، منعطًا شرقاً عبر الطريق الصحراوي للاقاء جيش الكاهنة في إقليم الأوراس. ويبدو أن هذا القائد قد جنى ثمار سياسة التي اتسمت باللين والدبلوماسية في تعامله مع البربر الذين كانوا يرذلون تحت وطأة سياسات الكاهنة الحمقاء، كما أنهى أرجح عاملًا آخر لا يقل أهمية في تحويل البربر إلى صف المسلمين وهو إصرار هذا القائد على الظهور القوي بعد كل هزيمة، وهو ما أقنع البربر للانحياز إلى الجيش الإسلامي الذي يصرّ على فتح بلاد المغرب في مرحلة انهيار البيزنطيون الواقعى، وواقع حالم في ظل قيادة هذه الكاهنة. وهذه السياسة الشمرة هي التي جعلت من البربر مرجحين بوصول القوات الإسلامية، حتى أن قسم منهم قد دخل فعلياً في خدمة الجيش الإسلامي⁽²⁾. وذلك لإنصاف الظروف التي قادت المسلمين والبربر إلى الوقوف في جبهة واحدة ضد عدو مشترك هو الكاهنة والبربر البتر. وقد أدى هذا التحول الخطير من الاحتلال في موازين القوى في المكررين، الإسلامي وهو يقطف نتائج سياسة قاده السليمة، والبربرى وهو يتغطرّ في سياسات الكاهنة الحمقاء، التي شعرت بهذا الاحتلال متأخرة جداً. إذ استطاع الجيش الإسلامي أن يكسر شوكة الكاهنة، التي لم تجد لعنة الكفر والفرّ لأنها في رأينا لا تملك من مواصفات القيادة العسكرية إلا رصيدها في التأثير الروحي، الذي نفذ في الميدان. فلتجأت إلى خيار خاسر وهو المواجهة الأخيرة مع جيوش المسلمين، فخاضت معركة

(1) وهذا أمر بالغ الأهمية في الجانب النفسي لقيادة الجيوش، لا سيما وأن هذا القائد لم يستند رصيده بعد من القدرة على تحقيق الانتصارات في اختبار المرحلة الثانية.

(2) ابن عبد الحكم. ص 271

حاسمة عند موقع في أحد معاقل منطقة الأوراس أدى إلى هزيمتها وقتلها، وقد سمي هذا الموقع (بئر الكاهنة)⁽¹⁾.

وبهذا الانتصار كانت عملية التوسيع الإسلامي قد دخلت في المرحلة الثالثة وفق الاستراتيجية العامة لقيادة حسان للجيوش الإسلامية في طرقها لفتح المغرب، فصار التقدم في شتي المناطق دون مقاومة تذكر.

جيوب المقاومة

لم يكن هذا الانتصار هو نهاية الحملة الإسلامية للمغرب، فلا بد أن تظهر جيوب المقاومة من البيزنطيين والبربر الذين لم يتصالحوا مع القوة الجديدة، لاختلف المصالح. ولكن البيزنطيين الذين لم ينجحوا في حروبهم البرية هموا جهه القوات الإسلامية قد استخدمو قواعدهم البحريّة بعد هزيمة القائد في قرطاجة، إذ أرسل الإمبراطور البيزنطي ليونيتوس حملة بحرية نجحت في السيطرة على المدينة في ظل غياب المقاومة العربية آنذاك. إلا أن القائد حسان استطاع استعادة قرطاجة وعمل على تدميرها كلياً ثم أثار البيزنطيين فيها وقطع كلأمل لهم في العودة إليها ثانية.

بناء قاعدة بحرية

لم يكن القائد حسان مقتناً بتدمير قرطاجة فقط، وإنما رأى من الشروقي الالتفاف إلى بناء قوة بحرية على غرار البحرية البيزنطية، لكنه يضمن حماية الساحل المغربي من أي اعتداء محتمل، فقام بإنشاء قاعدة عسكرية بحرية وانطلق من تونس مركزاً لها، فصارت بديلاً عن قرطاجة قاعدة البيزنطيين. وبين أسطولاً، وكان هذا إجراء صحيحاً وفي الوقت المناسب، لما بلغته رقعة الفتوحات الإسلامية من الامتداد في أرض المغرب، وكذلك فإن هذه القوة البحرية أصبحت النرايع القرية للأقاليم المغاربة تحت السيادة الإسلامية من غزوات البيزنطيين الذين كانوا يمثلون المرتبة الأولى في السلاح البحري. وقد أصبحت تونس المدينة الثانية في المغرب بعد القیروان التي حوتها القائد

(1) ابن عبد الحكم، ص 271

حان من ميناء يوناني قديم، إلى قاعدة بحرية مهمة ومدينة لصناعة السفن وبناء الأساطيل. بعد أن أخبر الخليفة بحاجته إلى عمال مهرة لهذا الغرض، فقد بعث الخليفة إلى أخيه عبدالعزيز والي مصر أن يرسل إلى تونس النبي قبطي مع عوائلهملكي يقوموا بإنجاز مهمه بناء السفن. فوصل الأقباط إلى تونس وأنجزوا مهمتهم بمساعدة البربر الذين كانوا يجلبون الأخشاب⁽¹⁾. وهكذا أصبحت المغرب مثل الشام ومصر، مركزاً تجارياً تخرج منه الأساطيل لإقام الفتوحات في غرب البحر المتوسط.

بعد أن أتم القائد حسان من تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على ثورات البربر، واطمأن تماماً لاستباب الأمن، رجع إلى عاصمة القiroان لإنجاز مهمات كبيرة منها تنظيم التأمين العسكري والإدارية والمالية، وإنشاء الدواوين، وترتيب الخراج والجزية وتوطيد سلطان الحكم الجديد في كافة التغور والأقاليم. إضافة إلى اهتمامه بالجانب التبشيري فجند مجموعة من الفقهاء وبعث بهم إلى سائر أنحاء المغرب للترغل في قبائل البربر ونشر الدين الإسلامي واللهجة العربية في صفوفهم. وهذا أدى إلى خروج البربر من عزلتهم التاريخية⁽²⁾ وانصهارهم في المجتمع الإسلامي. فكان لهم الدور الرئيسي في استكمال الفتح المغربي بكله الهاني ومن ثم دورهم الحاسم في الضفة الأخرى من المضيق⁽³⁾ الذين كانوا أوائل طلائع المقاتلين المسلمين.

وقام حسان أيضاً بتجديف مدينة القiroان، وأنشأ فيها المسجد الجامع. وهكذا برزت القiroان مدينة متحضرة بعد أن كانت مقللاً عسكرياً محضاً منذ أيام مؤسساها عقبة بن نافع، لتأخذ دورها السياسي والثقافي كعاصمة للغرب أو الولاية الأفريقية حسب التعبير الإداري . ففي أقل من ثلاثة سنوات حرص القائد حسان على إظهار هذه المدينة بهذه الحلة الزاهية الذي كان يطمح إليها، ولكن وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان وحدثت تغييرات إدارية مفاجئة، أدت إلى عزله من القيادة. ولا زردد الخوض

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا، ص 38.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 55.

(3) سنفصل هذا الدور في الفصل الخاص بفتح الأندلس.

في الأسباب الكامنة وراء هذا القرار الجحاف بحق هذا القائد وهو في قمة مجده السياسي والذي غادر القبروان في عام 85 هـ وذهب إلى دائرة السيان. وتولى القيادة بعد موسى بن نصیر.

ومن الفروري تقييم أعمال هذا القائد ودوره في توسيع الفتوحات الإسلامية في المغرب، ولعل سبب المزاوجة بين الدبلوماسية والقتال قد جنت ثمارها في هذه البلاد التي باتت تحت سيطرة اللواء الإسلامي. كما أن المقاتل الإسلامي في المغرب قد اكتسب خبرة عالية في القتال في ظروف جغرافية مختلفة عما ألفها في الفتوحات السابقة للعراق ومصر، وهذا يعني غرس المقاتل الإسلامي في المرووب الجليلة، وهو درس مستحدث في الفنون القتالية الإسلامية. كما كان القائد حسان يفهم العقلية البربرية ويستطيع توظيفها لصالحة المسلمين بعد أن احترم استقلاليتهم، حتى أن البربر اقتنعوا أخيراً بأن من مصلحتهم التحالف مع جيوش المسلمين والانضمام إليها ليصبحوا أحد أعمدتها الرئيسية في الفتوحات.

موسى بن نصیر

(86هـ/770م - 90هـ/711م)

تشير المصادر التاريخية إلى أن موسى كان من التابعين، ولد سنة 19 هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة وبوادي القرى من شمال الحجاز، وينسب إلى بكر بن وائل وأن آباء نصيراً كان من سباهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة 12 هـ وقيل إنه ينسب بطريق الولاء إلى بي لخم. كما نعلم من المصادر أنه كان يعمل في حراسة معاوية بن أبي سفيان، ثم صار وصيغاً لعبدالعزيز بن مروان فأعنته. وتدرج موسى في سلم الوظائف الخزيرية والإدارية وقد بعض الحملات البحرية في عهد معاوية. وغزا قبرص وغيرها من المجرر القرية. وكان آخر منصب قبل تصييه قائداً للمغرب هو مسشاراً لوالي مصر عبدالعزيز بن مروان. وفي سنة 86 هـ تسلم منصبه الجديد، وكان موسى بن نصیر يمتلك رصيداً سياسياً كبيراً عند عبدالعزيز لما تربطهما من علاقة ود واعجاب من قبل، فضلاً عن شخصية موسى الجذابة وتجربته الطويلة في

عالم السياسة وذلك لأنّه عاش عن قرب في بلاط الأمويين وعرف مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة، فلا عجب أن وصف بعد ذلك بأنه أقدر رجال الدولة الأموية والمعهم ذكاءً في تلك الفترة⁽¹⁾ بدأ موسى بن نصیر سياسة في المغرب تكملة لنهج القائد السابق حسان وهي العمل على اجتذاب ولاء البربر والتعاون معهم، لهذا عمل على فكرة تعزيز البربر مع المسلمين في المغرب أو في السلم، لا سيما وأنّ موسى كانت له خبرة طويلة في معايشة فتوح المغرب وخاصةً في أيام عمله في مصر⁽²⁾. ولكن للدكتور حسين مؤنس رأياً آخر رغم تقديره لمكانة موسى بن نصیر كما أشرنا قبل قليل، إذ يرى أنه لا يمكن مقارنته بالقائد حسان من جانب التراوحة والإخلاص والعناد بمصالح المواطنين والدولة. فهو يرى أن المسألة مسألة حروب وغذائم وكفى. وكان اهتمامه منصبًا على القيام بغزوات والحصول على الغنائم والسيوفين، وهذا ما أحدث الفرقة وسوء الظن بالمسلمين من جانب البربر.

إن إسراف موسى في غزو قبائل البربر دون سبب مبرر هو شعوره بأن الحصول على الغنائم الكبيرة وإرسالها إلى مركز الخلافة، سوف يجنبه سوء الظن به ولا سيما إن له سوابق في نهب أموال الدولة في مدينة البصرة في العراق. وكان لعبدالعزيز بن مروان الأثر الحاسم في بقائه على قيادة جيوش المغرب.

ولقد اعتمد موسى بن نصیر على أولاده الذين جاءوا معه⁽³⁾. وادرك منذ بدء فتوحاته أن البُـبُـ الرئيسي في تثبيت الفتوحات والاستقرار الإسلامي في الأقاليم إنما يعود إلى خلل في الجانب البحري للقوات الإسلامية، كما اتبه إلى قلة عدد الجنود الذين يشكلون حاميتها الأمر الذي أدى إلى سهولة الإيقاع بها لأنها غير مؤهلة لصد هجوم أو حياة نفسها. ورغم أن القائد حسان قد سبقه إلى الاهتمام بهذه القضايا وقد عالجها أيام رجوعه إلى القيروان كما وضحتنا. ولم يكن ما فتحه حسان قليلاً ولكن

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 46.

(2) د. يحيى، الدولة العربية، ص 58.

(3) عبدالله، عبد الملك، عبد العزيز، مروان.

بقيت هناك في المغرب الأقصى على وجه التحديد مواقع خارج السيادة الإسلامية، لذا فإن بعض الدارسين⁽¹⁾ لم يعتبر موسى فاتحًا لل المغرب بل أن حسان هو الفاتح الحقيقي، وكانت مهمة موسى على ما يبدو هي الوثوق من طاعة البربر الخارجين عن الطاعة، أي أنه كان بصدّ معالجة أمر هؤلاء المتعصمين في هذه المناطق بحملات تأدبية ضدّهم⁽²⁾، ولقد باشر موسى بتوزيع قواته تبعًا لمتضيّات الحاجة، فكانت حملة الأولى انتطقت إلى (زغوان)⁽³⁾ بقيادة عبد الله الخشنبي وقد حققت الحملة غايتها بالسيطرة الكاملة على القلعة والمنطقة المحيطة بها. ومع الحملة التي قادها موسى⁽⁴⁾ نفسه إلى سجوماً (وهي المنطقة التي كانت عليها تهودة حيث قتل عقبة بن نافع) تكون حملات موسى بن نصير قد ظهرت المغرب الأوسط دون صعوبة.

واشتبكت حملات المطاردة وتعقب المتمردين من البربر منطقة إقليم السوس الأقصى الأقصى ووادي درعة في عمق المغرب وهذا هو أطول امتداد للقوات الإسلامية، ولقد تميزت حملة السوس التي قادها مروان بن موسى بضمها إلى أكثر من ألف مقاتل بريري إلى جانب ألف وسبعمائة من العرب⁽⁵⁾، ولقد أصابت الحملة نجاحاً واسعاً. وتتابع موسى عملياته العسكرية من السوس الأقصى إلى السوس الأدنى المجاور لإقليم طنجة، إذ قاد موسى بنفسه حملة إلى هذه المدينة المهمة والتي كان يحكمها الحاكم البيزنطي (بليان) أو (بوليابن) كما تذكرة المصادر المتواترة وكان هذا الحاكم يتمتع بحكم ذاتي - الذي سيكون له دور هام في فتوحات المسلمين إلى إسبانيا -

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 48.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 58.

(3) قلمة جبلية تقع بين تونس والتبيروان.

(4) وكان مع موسى أحد إبناء عقبة وهو عياض بن عقبة كقائد لقشمة الجيش ولقد شهدت الحملة قيادة كبيرة على المتمردين انتقاماً لأبيه.

(5) المفارقة أن د. بيضون يشهد بهذه الأعداد من كتاب فجر الأندلس المؤنس، ص 49. وعند مراجعتنا للمصدر المذكور وجدنا أنه يشير إلى اشتراك (17.000) ألف من العرب و(12.000) من البربر، انظر فجر الأندلس ص 49.

وكانت مهمة موسى يسيرة في هذه الحملة، إذ سيطر على المدينة وحوّلها إلى مركز عسكري لتمويل حملات المسلمين في تلك الجهات، ومن ثم سلم قيادة حامتها إلى ابنه مروان ثم إلى القائد البربرى طارق بن زياد.

بهذا الانتصار يكون موسى بن نصیر قد أنهى مهمته التوسيعية في جبهة المغرب وأخضعت تماماً للسيادة الإسلامية، ولم تبق إلا مدينة (سبتة) عاصمة يليان، لأنَّ الضرورة لم تقتضي فتحها بعد سقوط طنجة والأحداث التي تلت سقوطها. بعد ذلك عاد القائد موسى بن نصیر إلى القيروان بعد أن انتهت أطول مهمة عسكرية في تاريخ المسلمين في ذلك الوقت والتي بلغت السبعين عاماً أو الشهرين عاماً على حد ذكر المصادر التاريخية عن طول فترة فتح المغرب من قبل القوات الإسلامية.

إن الفترة الطويلة التي قطعها القوات الإسلامية على مدى مراحل التغيير في مركز الخلافة وتعاقب القادة والولاية على جهة المغرب، وما رافقها من هزائم ونكبات وأفراح وانتصارات قد تبيّن لها أن تختم على يد القائد موسى بن نصیر، الذي قطف كل ما زرعه السابقون على هذا المtor المهم (المغرب) والذي سيكون القاعدة الأمامية لفتح المسلمين لإسبانيا، ولا يمكن أن نغمس دور هذا القائد بجهوده الخاصة وطريقته القاسية في التعامل مع المتمردين والتي كان لها الأثر الكبير لدخول أعداد كبيرة من البربر إلى الإسلام إذ يذهب الدكتور حسن مؤنس بالاعتراف بذلك موسى بن نصیر بقوله⁽¹⁾: (بيد أن هذه الغزوـات لم تكن شرآ خالصاً، بل هي أحداث في الغرب رجـة كبرى أفاقـت بيـها القـبـائل وتنـبهـت إـلـى هـذـا العـصـرـ الجـديـدـ الـذـيـ بدـأـ فيـ حـيـةـ بـلـدـهـمـ، وـمـلـكـ الرـوـعـ مـعـظـمـهـمـ فـتـسـارـعـواـ إـلـىـ الـمـسـلـمـينـ يـدـخـلـونـ فـيـ الطـاعـةـ وـيـعـتـقـونـ الـإـسـلـامـ، وـرـأـيـ الـكـثـيـرـونـ مـنـهـمـ مـاـ يـجـبـهـ مـوـاطـنـوـهـمـ الـذـيـنـ يـسـلـمـونـ وـيـنـضـمـونـ إـلـىـ جـيـوشـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ الـخـيـرـ وـالـنـعـيمـ، فـأـقـبـلـ الـكـثـيـرـونـ مـنـهـمـ يـنـضـمـونـ إـلـىـ جـيـوشـ الـمـسـلـمـينـ آـلـافـ، وـلـاـ يـكـادـ الـواـحـدـ مـنـهـمـ يـسـلـمـ حـتـىـ يـسـرـ مـعـ الـجـيـشـ الـفـاتـحـ يـغـزـوـ مـعـهـ وـيـغـتـمـ مـعـهـ. وـوـافـقـ ذـلـكـ مـزـاجـ الـقـبـائـلـ الـبـرـبـرـيـةـ الـمـتـبـدـيـةـ، وـجـعـتـهـاـ مـعـ الـعـربـ).

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 48.

صفات البداوة والفطرة والشاط وحبّ القتال. فازدادت جيوش المسلمين في أفريقيا زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في إية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك. وكان لابد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للنزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش، مضى يفتح ويسترسل في النزو حتى أدرك في ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين). ولا نرى في اعتراف الدكتور مؤنس أي تناقض بين موقفه الأول من هذا القائد بكل سلياته وهذا الإطراء له، لأن التاريخ الإسلامي ارتبط بدور القائد الفرد المتصر في النهاية لا سيما إذا كانت مخاجاته قد سببت هذا الدور الكبير للتتوسع الإسلامي في بلاد نائية وصعبة كبلاد المغرب. فالمسلمون القادة وعلى اختلاف درجة اجتهدتهم في التوسعات العسكرية وحاجتها أحياها إلى التسامح واللين، فقد بقى السيف هو العامل الحاسم في وجه التمردين والعصاة، والخارجين عن الامتنان لشروط الفاتح الإسلامي الثلاثة: الإسلام أم الجزية أم الموت، ولقد استطاع هذا القائد أن يختصر هذه الشروط يجعل البرير يتسبكون إلى الدخول في الإسلام ديناً وجيئاً ويصبحون مادة مهمة في الاستراتيجية الإسلامية القادمة. لقد عاد هذا القائد إلى القيروان أميراً⁽¹⁾، فعمل على ما بدأ به القائد حسان بتحويلها إلى مركز إداري وسياسي وثقافي ينافس المراكز الشهيرة في المشرق العربي⁽²⁾. ولم ينسى هذا القائد هواجمه الأولى في بناء قاعدة بحرية، فعمل على استكمال ما فعله القائد حسان فاستطاع أن يبني أسطولاً حرياً قوامه مائة سفينة، سيكون لها الشان الكبير في الفتوحات اللاحقة.



(1) هو اللقب الذي عُرف به موسى بن نصير.

(2) يضرون، الدولة العربية، ص 60.

الفصل الثالث

- فتح إسبانيا
- أسباب الفتح و مقدماته
- هل كان فتح إسبانيا مغامرة؟
- مراحل الفتح

الفصل الثالث

أسباب الفتح ومقدماته

لقد أشرنا في الفصل الأول إلى طبيعة الأحوال السياسية التي مرت بها إسبانيا قبل فترة الفتح الإسلامي، كما توقفنا عند عهد الملك لنور الدين الذي كان آخر حكام إسبانيا. وقد أخطأ إلى بعض مظاهر الاتصال بين المسلمين وأعداء الملك لنور الدين والتي كانت أحد أسباب الفتح الكبير فيما بعد. والآن سنبحث بشيء من التفصيل بالمقدمات والأسباب الحقيقة للفتح الإسلامي لإسبانيا.

بعد أن عاد موسى بن نصیر إلى القبیوان وخلف طارق بن زياد على قيادة القوات الإسلامية في الساحل الغربي من طنجة وما حولها. فقد اخند طارق سياسة جديدة في تعامله مع البربر قوامها الرفق والتسامح، وهذا يرجع إلى كونه بربرياً الأصل ولily قوة إيمانه التي لا ترضى وضع السيف على رقاب الناس دون دعوتهم بالمعروف للدخول في الإسلام⁽¹⁾، وهكذا ازدادت القوات الإسلامية عدداً، وأخذت طموحات طارق بن زياد تتجه نحو سبي هذه المدينة التي عجزت عن فتحها قوات المسلمين مرتين. الأولى في زمن القائد عقبة بن نافع والثانية في زمن موسى بن نصیر، وظلت سبة حصناً متيناً في وجه المسلمين. وكان حاكم هذه القلعة هو بُليان⁽²⁾ الذي كان مصدراً لاختلاف كبير بين المصادر التاريخية العربية والإسبانية، فبعض منها

(1) مؤنس، نهر الأندلس، ص 52.

(2) تذكرة بعض المصادر باسم بوليان.

يذهب إلى أن هذا الحكم قوطياً والآخر يجعله رومياً فيما يزعم آخر من بالصلة البربرى من غماره، ولكنهم يتفقون على أنه الحكم الفعلى لسبته. وكان له السيطرة على مجاوريه من البربر من غماره وبرغواطة خصوصاً. وفي أخبار المجموعة بوصف بالعلج ولكن مصدر آخر^(١) يقول إنه رومي ويذهب ابن عذارى في البيان إلى أنه كان قوطياً وبقبه ابن الأثير بالبطريق أي أنه رومي.

ولم تكتفى المصادر بهذا الاختلاف حول بيان بل إن البعض وصفه بالشخصية الأسطورية خلقها الخيال العربى. ولكن المؤرخين الإسبان مثل دوزي وسادوا قد أثبتوا حقيقة شخصية يليان والدور الذى لعبه، إذ يقول سادراً أن أصله فارسي وإنه من الأزارقة وقد استنتج من أن يليان المحب ولد اسمه بلکابش أسلم بعد الفتح وأسام بلکابش من أسماء الفرسن الأزارقة، وقال إنه من نيمبور^(٢). وإن سلالة يليان بعد الفتح حسب المصادر الإسلامية هي: (يليان - بلکابش - عبد الله - الحكم - سليمان - أيوب - سليمان - أحد). وبهذا يكون يليان شخصية حقيقة حكمت سبعة التي كانت تابعة للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية^(٣) وإن كان ابن عبد الحكم يعتقد بوجود صلات من الولاء تربطه بالذریع ملك إسبانيا^(٤)، ومهما يكن فإن يليان وبنية لاندجار البيزنطيين قد تمنع باستقلال في ولاته، واستطاع أن يسط سيطرته على البربر المجاورين له.

وكان هذه الشخصية دور كبير في فتوحات المسلمين في إسبانيا. فكان أول اتصال له مع المسلمين في زمن موسى بن نصير عند وصوله إلى إقليم طنجة سنة 895هـ / 709م) ومخاشه فتح سبطة، فقد شعر يليان بالخطر الإسلامي القادم، وبعد عودة موسى إلى القيروان، سعى إلى الاتصال بطارق بن زياد، الذي رحب به طارق

(١) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 185.

(٢) مؤنس، فجر الأنجلس، حاشية رقم 3.

(٣) نفس المصدر، ص 54.

(٤) ابن عبد الحكم، نحو أفريقية، ج 1، ص 204.

بن زياد لأهمية سبعة الاستراتيجية في طريق الفتوحات الإسلامية، ولعدم قدرته على فتحها بالقوة. فكان طارق ميسياً يتكل بعده النظر، لأن صدقة يليان تعني إخضاع جميع البربر وانضمائهم لجيش المسلمين في الحملات التالية. كما أن علاقة يليان المتردية مع الحاكم للذریق سوف تكون في مصلحة المسلمين في إسبانيا لاحقاً، في الوقت الذي استولى للذریق على السلطة من الحاكم غبطة^(١) الذين تفرق أتباعه في أماكن متعددة. لا سيما وأن يليان نفسه قد قام بمحاولة للانتصار للملك غبطة لم يكتب لها النجاح بسبب شدة مقاومة أنصار للذریق الذين استطاعوا أن يهزمه ويردوا قواته من حيث أنت، فرجع يليان إلى سبعة يتعين الفرصة المناسبة للإيقاع بذلك. كما أن أولاد غبطة وأنصارهم سيكون لهم شأن في معايدة المسلمين على فتح إسبانيا. رغم أن دور أبناء غبطة اتسم بالغموض لاختلاف الروايات عند دورهم الحقيقي في الفتح الإسلامي، بعض المصادر تشير إلى أن أولاد غبطة هربوا إلى أفريقيا واستعاناً بال المسلمين على سقوط الملك للذریق، لكن المصادر الأخرى تشير إلى أن أبناء غبطة كانوا صغاراً وإنهم ظلوا في إسبانيا وتصالحوا مع الملك للذریق، ولما بلغوا المسلمين إسبانيا ووتقروا من قوتهم على الإطاحة بذلك، انضموا إليهم. وهذا الأمر في تقديرنا ليس هيئاً وسبباً ضرورياً لقواته للذریق. رغم أن بعض الباحثين^(٢) يقلل من دورهم ويعتبرها مبالغة، لأن تصرف المسلمين مع أبناء غبطة بعد الفتح لا يدل أنهم كانوا مديعين لهم بفضل.

وفي الواقع الأمر اجتمعت للمسلمين أسباباً متعددة لفتح إسبانيا التي تصبح الأندرس فيما بعد، منها ظروف موضوعية وأخرى ذاتية نضجت في لحظة تاريخية استطاع المسلمين استثمارها للبلوغ هدفهم بعد سلسلة طويلة من الحملات العسكرية التي كانت مقدمتها فتح بلاد المغرب وأفول الإمبراطورية البيزنطية والتطور الكبير في أساليب القتال للجيوش الإسلامية وبناء القاعدة التحتية للصناعات الحربية البحرية

(١) لقد أوضحنا في الفصل الأول تفاصيل وصول للذریق إلى الحكم.

(٢) مؤنس، فجر الأندرس، ص ٥٦.

التي كانت الطرف الأضعف في المواجهات بين المسلمين وأعدائهم، كما أن اضطراب أحوال إسبانيا الداخلية كان هو الآخر سبباً مهماً في الفتح الإسلامي.

وكان لليان والمعارضة المتزايدة للملك لذريق الدور الأكيد في تعجيل الفتح، ولا يمكن إنكار أثر البربر في سيرة الفتح الإسلامي نحو إسبانيا، إذ ساهموا بدور فاعل وحاسم على مستوى المقاتلين والقادة كما سررت لاحقاً.

هل كان فتح إسبانيا مغامرة؟

إن المصادر التاريخية توفر كما هائلاً من المعلومات التي تشكل شواهد على وجهة نظر معينة أو نقايضها في الوقت نفسه. وبقدر تعلق الأمر بفتح إسبانيا نجد أن الكثير من المؤرخين يذهبون إلى أن المسلمين لم يكونوا يملكون رؤية استراتيجية كاملة واضحة عن الفتح الشامل لإسبانيا، وأن المسلمين لم يغزووا غير غزو بعض أطراف إسبانيا للعودة بالغنائم والسبايا، لكن حال المسلمين قد تحول بعد النجاح الساحق الذي حققه طارق بن زياد في وادي لكة. فكان لابد من مواصلة الفتوحات والاستقرار الكامل في إسبانيا والتي أصبحت الأندلس فيما بعد. ولأصحاب هذا الرأي من المؤرخين أسايدهم التي وردت في المصادر التاريخية العربية والإسلامية، والتي تفيد كلها على أن موسى بن نصر أمر طارق بن زياد بالتوجه إلى غزو البلاد الإسبانية والحصول على أكبر قدر من الغنائم والعودة ثانية، وهذا ما حدا به موسى أن غضب من طارق وعاقبه على مواصلة الفتح خلافاً لما أمره به⁽¹⁾. كما أن أصحاب هذا الرأي يتذمرون من قلة عدد جيش طارق لتعزيز اعتقادهم بأن فتح إسبانيا كان مغامرة كتب لها النجاح لاحقاً. كما أن رسالة الخليفة الجوابية لموسى عندما استأنفه بغزو إسبانيا كانت تؤكد على أن يبعث أولاً برسايا صغيرة خوفاً من عواقب لا عهد لل المسلمين بها في بلاد ما وراء البحر دليلاً آخر على عدم وجود خطة مسبقة للفتح

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 12.

المنظم. ويريد الكثير من الباحثين المعاصرین هذا الرأی^(١)، ويعللون رأیهم بان الانتصار الكبير الذي حققه طارق بن زياد في وادي لكة وما نتج عنه من (تطاير أهل العدوة من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين، وإيقاظهم على الفتح بقلوب مجبرة). أي أن حلة طارق كان مغامرة حربية مصيرها الفشل قبل النجاح. كما أن قصة حسد موسى بن نصیر لطارق بن زياد وأصدره أوامر لتوقف الفتوحات يعد دليلاً على أن الفتح كان مغامرة كتب لها أن تتحول إلى فتح شامل بفعل عوامل مفاجئة وأنية تحفظت على أرض الميدان.

ولكن، بعض المؤرخين يتبينون وجهة نظر مناقضة ويررون أن الفتح الإسلامي كان منظماً ويتماشى مع الأسلوب التقليدي الإسلامي في فتح البلدان أي السير خطوات متدرجة ليكون الفتح في الأخير على مراحل كما حدث في فتح المغرب مثلاً. ويعززون حجتهم بان موسى بن نصیر قد عزز جيش طارق بمنطقة آلاف مقاتل حين تطلب الحاجة إلى ذلك ويفسرون غضب موسى على طارق بأنه من قبيل الخوف على المسلمين من المغامرة أكثر ما يتبعى، أو ربما حده ما ناله طارق من النجاح الكبير^(٢)، إذ يخلص حسين مؤنس إلى استنتاج مفاده أن فتح الأندلس ليس مجرد مغامرة صادفها التجاج وكان لها ما بعدها، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً، أتبع فيه المسلمين أسلوبهم في التدرج المرحلي كما أشرنا إليه قبل قليل. وسيقرأ الدكتور مؤنس حكاية أمير الخليفة بان يخوض الفتح أولاً بالسرايا وعدم إيقاع المسلمين في بحر شديد الأحوال، ورد موسى على أنه ليس بالبحر وإنما هو مجرد خليج برى الناظر ما خلفه، ورد الخليفة عليه "إإن كان ! فاختبره بالسرايا". قراءة لا تخلو من الجدية، إذ يستنتج بان موسى قد اتخذ قرار الفتح بعد دراسة لأحوال الأندلس بصورة كاملة، وأن قرار الخليفة هو من باب الحرص على أرواح المسلمين، كما أنه

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص 190.

(٢) يتبين هذا الرأي بعض المعاصرین وفي مقدمتهم د. حسين مؤنس، انظر فجر الأندلس، ص 58. وانظر كذلك: د. أحد خثار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 56.

يعزز وجهة نظره بالقول: أن طارقاً وموسى سارا في بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدر كل شيء قبل الشروع بالعمل⁽¹⁾.

يلاحظ القارئ أن المسوغات التي يقدمها كل فريق لا تخلو من الحقيقة، ولكنها في نفس الوقت لا تخلو من الانحياز المسبق لنظرية ما والبحث في المصادر التاريخية عن أي سند حتى لو كان أحادياً لتدعم وجهة نظرها. وهذا هو شأن المؤرخين الذين يدرسون التاريخ على أنه جموعة من الواقع المكتوب في المراجع التاريخية، فيأخذون ما يناسبهم من هذه الواقع دون ربطها بالظروف المحيطة الأخرى وإغفال شخصية المؤرخ والزمن الذي عاش فيه. وطبيعة علاقته بالحدث التاريخي وصانعوه؟ كما أن هناك مسألة جوهرية تتعلق بنشوء الحضارات وانهيارها، مستعينين بالحضارة الإسلامية من هذا الفهم وكان الظاهرة التاريخية مرتبطة بأمر الغيب دائمأً، وبذهب الخيال العربي الإسلامي في بعض الأحيان إلى تفسيرات أسطورية لإثبات المعجزة في التاريخ الإسلامي وسر انتصاراته في الوقت الذي يفرون من مرحلة انهيار هذا الجيد بنظرية المؤامرة على حد التعبير الحديث، أو الابتعاد عن سيرة السلف الصالح حيناً آخر. فهل يعقل أن تتفق المراجع العربية كلها⁽²⁾ باستثناء ابن عذاري الذي لم يشر إليها، على قصة إرسال يليان لابنته إلى قصر للذریق لتأديب مثل غيرها من بنات أكابر القرط في ذلك الزمان، وأن للذریق ملك إسبانيا أُعجب بها فتال منها، سيراً للدخول المسلمين إلى إسبانيا بعد أن قرر يليان الانتقام من للذریق تكاثة باغتصاب ابنته؟!! حتى أن مؤرخاً معاصرًا لا يستطيع إنكارها تماماً للدخول في تفسير معقول للدخول المسلمين إلى إسبانيا !! ففكرة فتح إسبانيا تعود في الأصل إلى نصوص عوامل متعددة أشرنا إليها في حديثنا عن مقدمات وأسباباً الفتاح. وليس إلى عامل واحد أو ظرف

(1) نفس المصدر.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 59.

معزول عن النظرة الكلية لمسار الفتوحات الإسلامية في مرحلة انهيار الإمبراطوريات المواجهة لهذا المذا الإسلامي الجديد القادم من الحدود القريبة الإسبانية.

مراحل الفتح

لقد عرضنا أهم الآراء التي تناولت موضوع الفتح الإسلامي، وهل كان مغامرة أم عملية مدروسة وتم تنفيذها بمراحل متعددة، وخلصنا إلى أن هناك عوامل متعددة أضجت فكرة الفتح الكبير لإسبانيا دون اقصارها على الغزو وجني الغنائم. ومن خلال تتبعنا لمراحل الفتح سنعرف عن كثب على أهمية كل عامل في الزمان والمكان الذي نفح فيه ليكون له أثراً في مسار الفتوحات.

١- مرحلة الاستكشاف

بعد فترة المداولات السياسية بين الحاكم يُليان والجانب الإسلامي، التي تشير المصادر التاريخية، بأن هذا الحاكم لم يكتف بمخاطبة طارق بن زياد، بل قام بزيارة القائد موسى بن نصير إلى القيروان لاقناعه بهولة مهمة فتح إسبانيا في هذه الفترة وذلك لغيب الملك لذرريق مع خيرة مقاتليه لمقاومة التمرد الذي حصل في أقصى شمال شبه الجزيرة. بل إن المؤرخ الإسباني سافدرا يذهب إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء الملك السابق غيطة وانصارهما، والتي أكدتها أحد المصادر التاريخية الإسلامية^(١). وبين ما تناقلته المصادر الكثيرة عن هذه المفاورات مع طارق وموسى، ييدو لنا أنها لم تكن كافية لتشجيع المسلمين إلى فتح إسبانيا وذلك بناءً على الشكوك التي أبداها كل من طارق وموسى في جدية عرض حاكم سبتة يُليان. إذ نرى أن ابن عبد الحكم يؤكّد شكوك طارق بقوله: لا أطمئن عليك حتى تبعث إلى برهينة، فبعث إليه بابتيه .. الخ. وكان موسى بن نصير أكثر شكاً حين طلب من يليان أن يقوم بالهجوم على بلاده ثم يقدر جدية يليان في أمر فتح إسبانيا إذ تنقل لنا المصادر التاريخية ما قاله نصاً: إتنا لا نشك في قولك ولا نرتبا، غير أنا لخاف على المسلمين

(١) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 3.

من بلاد لا يعرفونها وبيننا وبين البحر، وبينك وبين الملك لذریق حمیة الجاملیة واتفاق الدين فجز إلى بشک وشن الغارة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه، وإذا ذاك نطيب النفس عليك، وحن من ورائك إن شاء الله.

وإذا نظرنا إلى هذه المقوله وتفحصنا جملة (إذا ذاك نطيب النفس عليك)، سنجد أن مقدمة كلام موسى هو من باب الذکاء الدبلوماسي. وهنا نستجح أن موسى بن نصیر لم يکف مجده بليان فاراده أن يكون أول طلعة استکشافية مجلس نبع الجبهة الإسبانية، قبل أن يجربها بالسرایا الإسلامية. ولقد نفذ بليان الصادق الیه لقتال لذریق وحل على إسبانيا وشن غارة - باستخدام السفن - على الساحل الجنوبي، وعاد بالغنائم والسي وھذا ما شجع وأثار الحماس لدى الجميع لبداية الفتح. لكن موسى بن نصیر القائد لم يكن مهیاً للبُلْتَ في أمر الغزو ففاتح الخلیفة الأموي الولید بن عبد الملك بدمشق وقد سردنا قصة جواب الخلیفة لموسى بن نصیر.

وكانت ثانی طلعة استکشافية من المسلمين أنفسهم إذا اختار موسى أحد القادة وهو طریف بن مالک ويکنی باپی زوعة^(۱). فجهزه بقوة عسكرية صغیرة قوامها أربعينات راجل ومائة فارس. وقدم لهم بليان أربعة سفن عبروا فيها (وهذا يدل على حسن نیة بليان في مساعدة المسلمين على فتح إسبانيا والتخلص من عدوه لذریق، كما يدل من ناحية ثانية على حررص موسى في عدم استخدام القوة البحرية الإسلامية في طلعات استکشافية قليلة العدد ومحدودة الغایة). واستطاع طریف من تحقيق المدف في الأرضی الإسبانية التي يُرجع أن قوة من أنصار أبناء غیطیثة قد ساعده بحراسة

(۱) اختلف المؤرخون في نسب هذا القائد فقال البعض إنه من أهل اليمن عربیاً ويسمونه بالمعافري، ويرى البعض وهم الأکثرة بأنه بربری الأصل، بما فيهم ابن عذاری، وحن نرجح أصله البربری لأن سبب تعلق باختیاره دون بقیة القادة العرب في مهمته استطلاعیة لا تُحمد ناتجها. لا سيما وأن الدولة الأمویة آنذاك كانت عربیة الیادیة، وربما فيهم موسى من كلام الخلیفة بالحفاظ على أرواح المسلمين هو ما يعني العرب منهم. فقام موسى بإیفاد سرایا من البربر، وهذا ما سيفعله مع طارق بن زياد وجیهه.

العبر حتى نزول القوات الإسلامية إلى البر الإسباني⁽¹⁾. وكانت هذه الحمامة سبباً لقيام طريف بسلسلة من الغارات التي نجحت في الحصول على الغنائم والعودة إلى مراقبتها، فقام يبعث الغنائم إلى القيروان فاستلم موسى حصن قشمع وأخذ يستعد لإرسال حلة عظيمة تقرم بالفتح الحقيقي !!

وهذه وجهة نظر بناها د. مؤنس، وهذا أمر خطير يثبت بصورة قاطعة أن الغنائم والسبايا هي المقاييس الأولى في سبب الفتح بعد أن كان من المؤمنين باستراتيجية الفتح المنظم. ثم إن الطلعات الاستكشافية في المفهوم العسكري لا تتحدد أهميتها بالنزول والقتل وجنى الغنائم، بلقدر قدرتها على جمع المعلومات عن الطرف الآخر ! على الرغم من أن بعض الباحثين يرون في نجاح طلعة طريف الاستكشافية هي دليل على صدق طروحات يليان بهمولة فتح بلاد إسبانيا.

وهو أمر لا يخلو من الصحة، إذا كان الفتح الإسلامي هو مجرد انتصار عسكري ولا يحمل في ثيابه أية أمور تتعلق بنشر العقيدة الإسلامية. وإذا (ما تذكرنا أن الغنائم في الإسلام حافز مادي عرضي ولبت غاية أساسية للجهاد والفتح اللذين دعا إليهما وجعلها سبيلاً إلى نشر راية الحق)⁽²⁾، فلعلنا أن تسلّح بمنهج الشك في دراسة التاريخ الإسلامي في الأندلس منذ طلumann الاستكشافية وحتى بلوغ المسلمين غاياتهم على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية والتي مستكون الأندلس وفقاً للوجود الإسلامي على الخارطة الجغرافية لإسبانيا.

2- حملة طارق بن زياد

بعد انتهاء مرحلة الاستكشاف والوقوف على حقيقة الصحف في الجانب الإسباني، إضافة إلى اتفاق موسى مع يليان على أن يكون أنصار الأخير أدلةً للMuslimين في الأراضي الإسبانية، أصبح على موسى، أن يجهز القوات ويعين القائد

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 67.

(2) انظر: مقدمة المحقق، د. عبد الله ابراهيم الطابع لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس، لابن قوطية، ص 13.

لإنجاز مهمة الفتح الأولى، ولقد اختار قائدًا لهذه الحملة هو طارق بن زياد واعداً له جيشاً يقدر بسبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلاثة من العرب.

فمن هو طارق بن زياد؟

تشير بعض المصادر الحديثة إلى عدم وجود معلومات موثوقة عن طارق قبل قيامه بقيادة هذه الحملة⁽¹⁾ ولكن بعض المصادر تشير إلى أن طارق اشتراك في معارك تحت قيادة زهير بن قيس على الجبهة المغربية، فلما قُتل زهير في برقة، نصب طارق أميراً لبرقة وعند قيادة موسى اختاره ليكون أحد قادة جيشه فأظهر شجاعة وحكمة كبيرتين حتى أن موسى جمع كل الرهائن البربر من قبائل كتامة وزناتة وهوارة مع رهائن القائد حسان الغساني وكان عددهم التي عشر ألف مقاتل وولى عليهم طارق بن زياد عند رجوعه إلى القيروان بعد فتح المغرب وهكذا أتيح لطارق أن يقود جيوش موسى وبشكله في فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى الحيط الأطلسي. كما أن طارق كان مولى موسى كما هو معروف.

ولقد اختلف المؤرخون أيضاً في أصل طارق بن زياد. فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همدانياً وكان مولى موسى بن نصير، وهناك من يقرّ بأنه عربياً من اليمن وأخرون يذهبون إلى أن أصله من قبيلة نفرة البربرية، في حين يُعرفه ابن خلدون بطارق بن زياد الليبي⁽²⁾. ومهما يكن من أمر الاختلاف في دور ونسب طارق قبل استلام قيادة الحملة الأولى لفتح إسبانيا، فقد كان طارق البربرى الأصل في الحقيقة الثابتة، أثبت أنه القائد المناسب لقيادة جيش الفتح الإسلامي في أول حلاته لكن هل تكفي كفاءة طارق العسكرية مثل هذا الاختيار بوجود قادة من طراز طريف بن مالك وعياش بن أخييل وزرعة بن أبي مدرك والمغيرة بن أبي برد العذري وغيرهم. فلماذا طارق إذن؟

(1) انظر مثلاً: حسين مؤنس، فجر الأندلس، 67.

(2) انظر مثلاً (المقري، ج 1، ص 143، ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 6، الأخبار المجموعة، ص 6 ... الخ).

يبدو أن اختيار طارق لهذه المهمة العسكرية الخطيرة قد جاء لأسباب أكثر تعقيداً من الفهم الطحي لعلاقة سيد بولاه أو مستوى قدرات طارق العسكرية التي لا يشك أحد فيها ! وإن خلاصه للعقيدة الإسلامية بحسن إسلامه.

فما هي الحقيقة في هذا الاختيار ؟

لا نزعم إننا نقدم الحقيقة كاملة، ولكن دراستنا للمصادر المتعلقة في هذا الشأن تستطيع أن تخرج برؤية ربما متجرج بعض الباحثين الذين تورطوا في الانحياز لوثائق الفاتح المنتصر حتى لو كانت معززة بالأساطير والحكايات الفرافية. فإن اختيار طارق بن زياد على رأس الحملة الأولى يتعلق بأسباب ترتبط بشخصية طارق الثانية التي أشرنا على الاتفاق عليها. لكن هناك عوامل موضوعية تتعلق برؤية موسى بن نصير لقراءة الأحداث. فإن تجهيز جيش بربرى في أغليبة شبه مطلقة يستدعي منطقياً قيادته من قبل قائد بربرى كفء، وله تاريخ مشهود بهذا يحقق موسى موازنة مطلوبة قوامها التحفظ الذي أبداه مركز الخلافة بعدم المغامرة بالمقاتلين المسلمين في حملة غير مضمونة النتائج وفق التصور الأممى الذى ينحاز للعرق العربى. كما أن وجود طارق على رأس هذا الجيش يوفر ضمانة في الولاء⁽¹⁾ لجيش المقاتلين المسلمين من البربر، فكما كان موسى بن نصير متوجساً في إرسال حملاته الاستكشافية من إرسال عرب المسلمين كما أشرنا من قبل، فهو كان يريد للخطوة الأولى في فتح إسبانيا أن تكون بجيشه يعزز انتصاراته⁽²⁾، كما أن موسى كان مدفوعاً بهواجسه كقائد ومسؤول بشكل كامل أمام الخليفة وله سوابق غير محمودة في سيرته بالاستهانة بمال المسلمين العام جعلته أن يكون حذراً في آية خطورة محفوظة بالمخاطر، فما كان له غير طارق بن زياد وجيشه البربرى لخوض أول المغامرة، بحس استكشافي لا يقلل من ثقة موسى

(1) لضمان عدم عصيان البربر كما حدث في عهد عقبة بن نافع وحسان الغانى.

(2) وهذا ما حدث للجيش الذى أعده موسى لطارق بعد غياب الحملة الأولى، وكان قوامه حتى ألف مقاتل أغلىتهم من العرب.

بطارق، بل إن القائد كان يتحسب لكل التفاصيل الدقيقة التي ربما تكون نهاية المصير
السياسي للقلن. وبهذا يكون اختيار موسى بن نصیر موفقاً^(١).

حكایة سفن يلیان وعبور المسلمين

إذا كان الباحث يستطيع وفقاً لنطق الأحداث أن يصدق عبور حلة طریف
الاستکشافیة بواسطة سفن يلیان الأربع لا سيما إذا عرفنا أن جیش طریف كان مؤلفاً
من خمسة مقاتل فقط: فكيف يمكن أن نقر عبور جیش طارق المؤلف من سبعة
آلاف مقاتل مع معداتهم القاتلة وجیادهم بهذه السفن الأربع؟ يذهب بعض
المؤرخین المعاصرین إلى حدوث أمر العبور بواسطة هذه السفن على شكل دفعات،
ويظل من يعبر من الجیش ساكناً مخافتاً من أهل الشاطئ حتى يتم عبور الجیش
بأكمله^(٢). كما يشير عحق كتاب ابن القوطيّة، (تاریخ افتتاح الأندلس) إلى أن منطق
الواقع التاریخية والعوامل التي رافقته تؤكد أن السفن الأربع أو ست التي
عبر بها طارق ورجاله كانت لـ (يلیان) حاکم سبتة وهي مدينة سیاحیة تعتبر مثل
هذه السفن بالنسبة إليها عصب الحياة^(٣).

فهل نصدق وجهة النظر القائلة بالعبور باربع أو ست سفن وكذلك نسبتها إلى
ملکیة الحاکم يلیان بهذه السهولة؟

الواقع إن الإقرار بقوة المسلمين البرية وإهمال قوتهم البحري ولاسيما في
مرحلة فتح إسبانيا هو إيجحاف بحق التطور الواضح في إمكانية الجیش الإسلامي
البحري، التي شهدنا اهتمام القادة المسلمين بها منذ قيادة حسان الغساني في تونس
وإنشاء قاعدة بحرية وورثة لبناء السفن استُخدم الأقباط المصريين لهذا الغرض، كما

(١) وهناك سبب آخر يتعلق باللام البربر بطبيعة بلاد إسبانيا لأن المغرب وإسبانيا يؤلفان وحدة جغرافية وتاریخية. وكان هانیبال قد هاجم المضيق إلى إسبانيا مع جيشه البربری.

(٢) انظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص 69.

(٣) ابن القوطيّة، تاریخ افتتاح الأندلس، تحقيق الدكتور عبدالله آنیس الطباع، المقدمة، ص 15.

أن موسى بن نصير قد تابع الاهتمام ببناء السفن وتشكيل أسطول إسلامي على طول الساحل الغربي، كما أن مقاومة إرسال جيش إسلامي كبير بفن قائد أجنبى مهما بلغ إخلاصه لا يتفافق مع هواجس موسى تجاه يليان ولا يتفق مع السياسة التي اتخذها الخليفة^(١) بضرورة مراعاة أقصى الخدر على حياة المسلمين. كما أن الأمر لا يعني من وجهة نظر عسكرية استهتار أو غفلة موسى بن نصير بمصادر مقاتليه وعدم التحسب لأى احتمال من الأخطار التي قد تواجههم نتيجة لنقلهم على شكل دفعات من جانب الإسبان في ذلك الطرف. كما أن خبرة موسى في المعارك البحرية السابقة لا تسمح له بمثل هذه المغامرة. لذا، نرى أن عبور الجيش الإسلامي ربما استعان ببيان ولكن أساطيل البحرية الإسلامية كان لها الدور الأساسي في العبور والتي انتجهت في دار الصناعة بتونس كما ذكرنا وتشير بعض المصادر إلى استعانته المسلمين بمرابك التجار الروم التي كانت تختلف إلى الأندلس.^(٢)

وبهذا التصور يمكن أن نتوغل في عبور جيش المسلمين المضيق إلى الجبل الذي سيحمل اسم القائد طارق فيما بعد، الذي تجمع المصادر العربية كلها - باستثناء الطبرى - بأن العبور كان في ربيع الثاني سنة 92هـ/711م، وكان آخر فوج وصل إلى الشاطئ الآخر هو الفوج الذي يرأسه طارق بن زياد شخصياً. وباستكمال وصول جيش المسلمين، اتخذ طارق قراراً ببناء التحصينات اللازمية لحماية جيشه من خطر محتمل، والحقيقة أن موضوع المقاومة الإسبانية لم يأخذ بالجدية من عدد كبير من المصادر التاريخية والباحثين المعاصرین الذين يرون أن عملية العبور قد ثُمت دون آية مقاومة وذلك لأن نزول الجيش الإسلامي كان في الوقت المناسب جداً لأن الملك لنريرق إذ ذاك كان مشغولاً بإخداد ثورة الشكتس في بنيلونة^(٣) كما أن الطرف في

(١) الروليد بن عبد الله.

(٢) ابن عبد الحكم، فتح، ص 90. نفح الطيب، ج ١، ص 228.

(٣) المقرى، نفح الطيب، ج ١، ص 229. كما يشير المؤرخ الإسباني ساندرا إلى أن الهجوم على لذريق كان بتحريض من يليان وأنصار غيطنة وذلك نهياً لأمر المسلمين في مهمتهم.

الجانب الإسباني كان ناضجاً لمصلحة المسلمين وذلك لظاهر السخط العام على حكم لذريقي، وقد يكون هذا صحيحاً. ولكن مهما بدا الإسبان بهذا الضعف والانهيار، فلا بد لهم أن يكونوا على علم كامل بالأهمية الاستراتيجية لهذا الجبل. لاسيما بعد تامي الخطر الإسلامي على دولة القوط في إسبانيا متمثلًا بغزوة يليان وطلعة القائد طريف الاستكشافية وما حققنا من خسائر وحثنا من غنائم في صفوف القوات الإسبانية. فكان لابد من وجود مقاومة فقد أشار المؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكربابوسى إلى هذه المقاومة بقوله (فضى طارق لبطة وجاء في مراكبة إلى جبل طارق المعروف باسمه إلى الآن، وذلك سنة اثنين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفًا في موضع وطى كان غرم على التزول فيه إلى البر فمنعوه منه، فعدل عنه ليلاً إلى موضوع وعر. فرطاه بالمجاذف وبراذغ الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون، فشنَّ غارة عليهم وأوقع بهم وغمthem)⁽¹⁾. كما أن مصدر تاريخي آخر يشير إلى أن المسلمين عند وصولهم إلى الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب⁽²⁾ دليل على وجود مقاومة فعلية من الجانب الإسباني.

ولابد لنا قبل الدخول في تفاصيل حملة طارق العسكرية تتوقف عند أمرتين اختلفت الروايات بشأنهما كثيراً وهما:

احراق السفن

يذهب المؤرخون إلى التصريح بحقيقة حرق السفن من قبل طارق بن زياد، لكنه يقطع كل أمل جيشه في العودة إلى المغرب، وذلك نوع من التحفيز المعنوي على حد استنتاجهم كما اختلف الباحثون المعاصرون في تحديد المصادر التاريخية التي ذكرت هذه الواقعية فيذهب الدكتور حسين مؤنس إلى أن الإدريس وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي هو الوحيد الذي ذكر هذه الحادثة ليستقبل جنوده في القتال،

(1) ابن الكربابوس: الاكتفاء في أخبار الخلقاء من 12، نشر أحد مختار العبادي، صحيفه مدريده، 1665.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، من 12.

ويؤيده حluck ابن القوطية⁽¹⁾ بانفراط الشريف الإدريسي بين المؤرخين القدماء المسلمين في ذكر هذه الواقعة وينهب المحقق إلى تعليل هذا التفرد من قبل الإدريسي بحكاية حرق طارق لسفن جيشه. بان نشأة الإدريسي الأندلسية وتاثيره بأحداث عصره وكان نفوذ الدولة الأموية يقتصر في شبه الجزيرة بعد أن سقطت بعض الأقاليم في أيدي الإسپان واستقلت عن العاصمة المركزية قرطبة. ونتيجة لتراجع النفوذ الإسلامي وارتفاع المد الإسپاني فقد حدث أمران متطرفان: الأول هو حاجة إسباني إلى التل من أهمية الفتح الإسلامي للأندلس، والثاني هو حاجة العرب لتعزيزات تاريخ الفتح. ولذلك فقد عمد الإدريسي إلى تولي نوع من المعادلة للحد من تطاول الإسپان على التاريخ الإسلامي فقد استاغ مائة إحراق طارق بن زياد لسفنه⁽²⁾.

ولكن بعض المصادر المعاصرة تشير إلى ورود هذه الحادثة في أكثر من مصدر قد يم هي كالتالي كتاب الاكتفاء، لابن الكردبوس، وكتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، والثالث كتاب الروض المطار للحميري.

فابن الكردبوس يقول: (ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد إحراق المراكب وقال لأصحابه: قاتلوا أو موتووا).

اما الإدريسي فيقول في ذكر حادثة إحراق السفن التالي: (وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبدالله بن وغو الرناني، لما جاز بين معه من البرابر، ومحضنا بهذا الجبل، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به، فرارد أن يزيف ذلك عنه، فامر بإحراق المراكب التي جاز بها قبرًا بذلك عما اتهم به)⁽³⁾.

وأما الحميري صاحب كتاب الروض المطار فقد كرر رواية الإدريسي مع اختلاف بسيط ولكنه مهم إذ يقول: (وإنما سمي بجبل طارق بن عبدالله لما جاز بالبر

(1) انظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 69. ابن القوطية، تحقيق د. الطبع، المقدمة، ص 14.

(2) المصدر السابق، ص 15.

(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 26.

الذین معه، تھصّن بھذا الجبل، وقدر أن العرب لا ينزلونه، فاراد أن ينفي عن نفسه الھمة، فامر بإحراق المراكب التي جاز فيها، فتبرأ بذلك ما اتهم به⁽¹⁾.

ومن الواضح من هذه الروایات الثلاث قد أقرت واقعة إحراق السفن مع اختلافها في تفسیر السبب. ومع ورودها في هذه المصادر فإنأغلبية المؤرخين يميلون إلى نفي هذه الحادثة. والحقيقة أن هذا الخلط في رواية التاريخ في المصادر الإسلامية القدیمة يشير الكثير من الالتباس لدى الباحث الذي لا يمكن له إلا أن يستخدم المنهج للوصول إلى استنتاج معین تجاه هذه الحادثة.

فنرى أن لا ضرورة لإحراق السفن لاعتبارات عديدة:

- 1- إن طارق بن زياد لم يكن يمتلك سلطة القرار بهذا الشأن، لا سيما وأن الروایات المؤيدة لإنقاده على هذا الفعل، لم تشير لا من بعيد ولا من قريب إلى مشاورات بين موسى بن نصير وطارق بن زياد بهذا الشأن. ولو أن طارق بن زياد قد اجتهد فيما بعد في قرارات لم يرجع بها إلى موسى بن نصير⁽²⁾.
- 2- إن السفن التي استُخدِمت في العبور تثل عصب الحياة للبحرية الإسلامية، فإن الإقدام على حرقها يمثل خطأً استراتيجياً من الوجهة العسكرية، والملمون على أول خطوات الفتح، ولا يمكن التكهن في ضرورة الاستفادة منها سوى للانسحاب أو نقل تعزيزات جديدة لإدامة زخم الجيوش في الجبهة الإسبانية. وهذه من أمياليات الدرس العسكري الذي لا نشك بقدرة طارق على الإمام بها، لا سيما وأنه ليس في وضع الخاير والمليزوم الذي يروم حرمان العدو من الاستفادة من هذه السفن. كما أن إحراق السفن لا يشبه سياسة الأرض المروفة إطلاقاً.
- 3- إن مسألة اختلاف طارق مع العرب الذين في معنته قد تبدو أقرب إلى الخرافة، لأن عددهم لا يتجاوز التسعة مقاتلاً وإن كان معهم بعض القادة، فلم يذكر

(1) الحميري، الروض المطار، ص 75.

(2) مثل استمراره في الفتوحات وهو الأمر الذي أدى إلى توبخه من قبل موسى كما سترى فيما بعد.

أي مصدر واقعة للخلاف بين طارق والقادة العرب⁽¹⁾ وهم في مرحلة الشروع في المجموع. أما المقاتلين العرب فهم أضعف من الاختلاف مع طارق.

4- عند ترجحنا إلى أن ملكية هذه السفن تعود إلى القوة البحرية الإسلامية مع سفن بيان وبعض سفن التجار الروم، فيصبح من المنطقي أن لا يكون لطارق الحق في إحراق سفن تعود ملكيتها إلى أصدقاء ساعدوه في العبور. وأقل ما يفعله عاقل في مثل هذا الموقع هو الإياز لها بالرجوع إلى الساحل التي انت هـ وبهذا يتحقق هدف استئصال المقاتلين دون الحاجة إلى إحراقدتها. ومثلاً رافت المخرافات حلة طارق في قضية إحراق السفن فقد ألحقت بها قصبة أخرى، اخترنا أن نناقشها قبل الشروع في تفصيلات حلة طارق.

خطبة طارق بن زياد

هذه الحادثة قد وردت في مصادر أكثر من ورود حرق السفن ويعد الباب بتقديرني لأن الخطبة الخامسة لها إرث كبير في التراث العربي والإسلامي، وخصوصاً في أوقات الحرب، وما كان للبلاغة العربية من أثر ساحر في نفوس المقاتلين العرب المسلمين. فهل حدثت هذه الخطبة أولاً، وهل كان طارق بن زياد مؤهلاً لخطبة بلغة كهذه والتي سميت بخطبة فتح الأندلس⁽²⁾؟

لقد وردت خطبة الفتح هذه في مراجع تاريخية كثيرة منها (تاريخ عبد الملك بن حبيب، وكتاب نفح الطيب للمقربي، وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلkan)، كما أن هناك عبارة قد ذكرناها في قصة حرق السفن في كتاب الأكفاء لابن الكريديوس الذي تضمن جملة من الخطبة وهي: (قاتلوا أو موتوا). إن ورودها في هذه المصادر يحتاج إلى مزيد من البراهين لدحضها لابساً وأن بعض المصادر قد حددت تاريخ إلقائها إلى يوم 28 من رمضان سنة 92 هـ وقبل

(1) مثل عبد الملك بن أبي عامر المخافي وعلقمة اللخمي.

(2) المقربي، نفح الطيب، ج 1، ص 120.

المعركة التي دارت بين المسلمين والإسبان. في حين أن بعض المراجع الإسلامية غرّ عليها بالصمت التام وكذا هو حال الباحثين المعاصرين الذين خلت دراساتهم من الإشارة إليها على الأغلب. وهنا يمكن اعتبار هذه الخطبة من ضمن وثائق الفتاح الإسلامي القابلة للفحص والمعاينة.

ولنرى هل كان طارق بن زياد الغامض في شأنه والغامض في تاريخه أن كان يمتلك موابع الخطابة، التي لم يشر إليها أي مصدر قبل هذه الخطبة المزعومة؟

فالخطبة التي وردت في المصادر التاريخية كانت قطعة عربية أدبية فريدة، تلك في أن مرسلها طارق البريري إلى جيش قواه العنصري البريري، الذي أجاد اللغة العربية افراضاً فلاذك أنه يجهل أساليب وفنون البلاغة العربية وموقع تأثيرها على مسامع الجنود البرير، الذين لم يالفوا مثل هذا التمرین التعبوي والتحريري للقتال لاشتهارهم بشهوة غريزية للقتال مع توفر فرصتهم التاريخية في الالتحاق بالفتح الإسلامي لإسبانيا، وما يمثله هذا الفتح من موقع جديد لأوضاعهم كفاعلين فيحدث لا تابعين فقط.

ثم إن مفتاح الخطبة (إيها الناس) قد يحيلنا إلى أسلوب الخطابة في العصر العربي الجاهلي⁽¹⁾، ولا يصح في خطابة قائد عسكري يخاطب جنوده في لحظة استثناء حيثهم للقتال، وذلك لما تحمله جلة (إيها الناس) من جفاء غير معهود وأدلة نداء لا يصح استخدامها في سياق خطبة قائد مع جنوده لا سيما في ظرف حرج يحتاج إلى لغة أكثر الفهمية.

ولو تبعينا نص الخطبة⁽²⁾ لوجدنا أن العبارات الواردة فيها لا تتناسب إطلاقاً في حديث قائد مع جنده مثل (أين المفر؟ البحر ورائكم العدو أمامكم، وليس لكم

(1) مثل خطبة قس بن ساعدة.

(2) لمزيد من المعلومات حول هذه الخطبة نلت نظر القارئ إلى المراجع التاريخية التي وردت فيها كما أشرنا إليها في موضوع خطبة طارق.

والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مادة اللئام). لكن الأمر الخطير لا يشمل هنا التحذير والوعيد المهبط للمعنويات، بل في الوعيد والمكافأة الذي يرد في نص الخطبة: (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافقات في الدر والرجان والخلال المنسوجة بالعقبان المقصورات في قصور الملوك ذوي التجان. وقد انتخبكم الويلد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ورضيكم الملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأخناناً).

إذا كان مثل هذا التهديد والوعيد قد يليق بمرتزقة (وفق الفهوم الحديث)، فإنه لا يتاسب مع البربر، غالبية الجيش الساحقة من قائد ببرى يُقدر إمكانياتهم العسكرية وانقباطهم في إطاعة أوامره على مدى سنوات طوال.

كما أن العرب المسلمين في جيش طارق لا يحتاجون إلى خطبة قائدتهم البربرى لأنهم قد جاءوا مع هذا الجيش وهم محملون ولا هم للإسلام دون حاجة إلى المزيد من التركة.

ومهما تناول الدراسات الحديثة في تفسير وجود هذه الخطبة بوصفها قد وقعت فعلاً، كخطبة عسكرية ضرورية من قائد يريد تذكر جنوده بالمخاطر والمغانم الآتية، وتدخل الخيال العربي إلى تطويرها بالصورة التي وصلت إليها، فنحن نرى أن هذه المحاولات مجرد الشخ في نار أوراق أحرقها الزمن، ولا يحتاج القارئ العربي إلى عودة طائر العقا، بقدر ما يتعامل مع تاريخه بحسن تقدير فاعل ومؤثر، ولا أن يتعامل مع تاريخه بوضعه متأثر ومتلقٍ سليق فقط، فمسار الأحداث في فتوحات المسلمين في إسبانيا سوف يثبت بطلان هذه الخرافات نحو بلوغه المهد النهائي. فلا أثر لهذه العوامل الطارئة سوى ما تعلق بحرف طارق لفنه، أو فيما يتعلق بخطبته، لسار الفتوحات الإسلامية، سوى ما يتناثر في المخيلة العربية بالكثير من الأساطير والخرافات، التي امتهنت اجتذار انتصاراتها في التاريخ القديم لتجعلها مطردة لقياس الحاضر العربي والإسلامي المتهالك وصولاً على سطوة منظم لستقبل منفتح ومؤطر في قياسات الماضي فقط !

وقائع طارق بن زياد الحربية

بعد أن اطمأن طارق إلى حالة جنوده بعد العبور، أمر بإقامة سور يحيط بالجيش وقاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية مؤخرة الجيش، وهي مدينة الجزيرة الخفراء⁽¹⁾. كذلك أقام قاعدة إمامية أخرى في مدينة طريف وأوكل قيادتها إلى طريف بن مالك⁽²⁾. وبعد الاتهاء من هذه الأعمال بعث طارق بقوة تحت إمرة عبد الله بن أبي عامر إيذاناً ببداية التفتح، فارت هذه القوة بجوار الساحل الشمالي الغربي واستطاعت أن تستولي على قرية قرطابية، ثم المدرات إلى الجنوب فاستولت على بلدة الجزيرة الخفراء في مقابل جبل طارق، وبهذا فقد أصبح مضيق جبل طارق تحت سيطرة القوات الإسلامية بأكمله، فأوعز طارق إلى حاكم سبتة يليان بمحامية هذه المنطقة، والدفاع عنها من أي هجوم محتمل من القوط. وبهذا الإجراء أمن طارق جبله من أي خطر يهدد قطع اتصالهم بالغرب ويقطع عليهم طريق الإمدادات. لكن المسلمين فوجئوا بهجوم مباغت من قبل قوة إسبانية من أنصار الملك لذريل⁽³⁾ (بيادة بني)، استطاع المسلمين من هزيعتها دون صعوبة نتيجة لفظتهم وحسن استعدادهم العسكري، ويدو أن من نجا من هذه المعركة قد توجه إلى معسكر الملك لذريل لإخباره بقوة المسلمين الفعلية، وليس كما تذهب الكثير من المصادر إلى أن الناجين (ويرجح حسين مؤنس ناجياً واحداً)⁽⁴⁾، قد ذهبوا لإخبار الملك القرطي بينما نزول المسلمين إلى بلاده، إذ لا يُعقل أن لذريل كان على جهل من أمر المسلمين في بلاده، وذلك للمقاومة التي أبدتها القوات الإسبانية عند عبور المسلمين كما أشرنا من قبل.

(1) والتي سبت بجزيرة أم حكيم، على اسم جارية لطارق بن زياد.

(2) يقول ابن خلدون (نصيرها عسكريين: أخذوه على نفسه وزل به جبل لفتح فسي جبل طارق، والآخر على طريف بن مالك النخي، وزل بمكان مدينة طريف فسمى به، وأداروا السوار على أنفthem للتحصن)، انظر المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 117.

(3) مؤنس، فجر الأندلس، ص 70.

(4) نفس المصدر، ص 70.

كما أن هذه القرة التي هاجت المسلمين تُمثل دليلاً على علم لذريق بشأن المسلمين. إذ ليس من المُطْقَن أن يُخْرِي كل هذه العمليات العسكرية المقاومة للMuslimين والملك على جهل تام بها، ونرجح أن الملك لذريق الذي كان مُشغلاً في إخاد ثورة الشكّس في أقصى شمال إسبانيا، قد صُعِّقَ من قوة المسلمين العسكرية وليس من خبر وجودهم في إسبانيا. لا سيما وأن طارق بن زياد كان في نفس الوقت يزحف إلى الغرب، جاعلاً المرتفعات الجنوبية الساحلية ساتراً له، كما اخْتَدَلَ من بلدة طريف قاعدة لحماية مؤخرة جيشه، حتى وصل إلى بحيرة تعرف باسم لاخندا⁽¹⁾ في منطقة شدونة. وكان في خطوط طارق السير مباشرة إلى قرطبة، إلا أن الأخبار التي وصلت إلى طارق لم تكن سارة تابعة سيره المفترض، إذ أن الملك لذريق قد تبه إلى قوة المسلمين وخطورتهم الحقيقة على أرض إسبانيا، سارع إلى ترك الجبهة الشمالية، وسار إلى الجنوب وأحتل قرطبة وبدأ باستعداداته العسكرية لخوض معركة حاسمة مع القوات الإسلامية. في معركة عند شدونة. ويقدر المؤرخون القوة التي أعدتها لذريق لواجهة المسلمين بحوالي مائة ألف مقاتل، وقيل سبعين ألفاً، وقيل أربعين ألفاً. والمهم أن هذه القرة الإسبانية بكل أعدادها المفترضة تمثل خطراً كبيراً على توازن القوى يصب لصالح القرط. ولا سيما إذا عرفنا أن القوات الإسلامية كانت تُولِّفُ سبعة آلاف مقاتل عند عبورهم ما عدا الذين قتلوا في معارك الفتح الأولى! لذا صار على القائد طارق بن زياد أن يستعين بامدادات عسكرية جديدة من القائد العام موسى بن نصیر لجاهة الإسبان، فكتب إلى قائد طالباً المزيد من الإمدادات. إذ يشير ابن قتيبة إلى (أن طارق كتب إلى مولاه موسى: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث)⁽²⁾، كما يشير مصدر

(1) هذا الموضع يسمى بكه ولهذا سموا هذا النهر بوادي بكه وحرف إلى وادي لكه وهذا المجرى يشهد معركة مهمة في تاريخ التحولات الإسلامية، أطلق عليها البعض واقعة وادي لكه، بينما سماها البعض الآخر واقعة شذونة.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والبابة، ج 2، ص 118.

آخر إلى أن طارق قد كتب إلى موسى (بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة، وأن ملك الأنجلوسي قد زحف إليه مما لا طاقة له به)^(١).

ولكن المؤرخ الإسباني سافلرا يشير إلى تقدير موضوعي عن القوة الإسلامية من حيث العدد، إلى أن عدد جيش طارق بلغ أكثر من 25 ألف بسبب من انضم إليهم من أنصار غيطة وأعداء لذريق من أهل إسبانيا. إذا ما علمنا أن موسى بن نصیر قد أعد لطارق وجنه مجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل معظمهم من العرب. فيكون الإسان المتخاطبين في جيش طارق لحظة المواجهة مع لذريق هو أكثر من ثلاثة عشر الفاً وهو أمر غير متبع من وجية نظرنا وذلك لتضييق الظروف لنهاية عصر القوط بقيادة لذريق الذي يشهد انفاسه الأخيرة.

وكان يوم 28 من رمضان سنة 92 هـ / 19 يوليه 711 م. أي بعد 83 يوماً من تزول المسلمين إلى جبل طارق في وادي برباط أولكه، قرب مدينة شذونة، شاهداً على معركة حاسمة دامت ثانية أيام انتهت بهزيمة جيش القوط بقيادة لذريق، وبدأت مراحل النجاح الإسلامي الكاسح، ويبدو أن حجم الغنائم التي غنمها طارق من هذه المعركة، (حتى أن المسلمين لم يبق منهم راجلاً لكتراً ما غنموه من الجياد)، قد أغري طارق للمضي في حملته نحو قرطبة. واستغلال انهيار عدوه دون الرجوع إلى موسى بن نصیر. لكن لا يكرر خطأ عبدالله بن أبي سرح وعودته إلى مصر بعد النصر الذي حققه في واقعة سيطلة التي ذكرناها في حينها^(٢)، فاندفع طارق في تعقب فلول جيش لذريق، وقاموا في الاستيلاء على المدن بعد أن صار جيش طارق أكثر عدداً مما انضم إليه من أهل البلاد الذين بغيرتهم القوات الإسلامية وشجعهم كثرة الغنائم. ولم يكن الطريق إلى قرطبة سيراً، فقد واجه طارق مقاومة عنيفة من أنصار الملك لذريق، حتى أن طارق قد استجد ببيان، الذي قدم نصيحة لطارق مفادها أن لا يركز على قرطبة ويعيث بجيوشه إلى مسارب متعددة وسيكون أنصار بليان أدلة بليوش المسلمين، لأن

(١) أخبار الجموعة، مؤلف مجبرول، ص 7.

(٢) رغم إنما نفهم الظروف الحقيقة لرجوع بن سرح والتي كانت غير ناضجة للاستمرار في التقدم.

حصار قرطبة سيمثل من الرججه العسكرية إهداراً للوقت وفرصة لتنظيم صفوف المقاومة الإسبانية بما فيهم أنصار غيطة الذين تعاملوا مع القوات الإسلامية كقوات غازية مدفأة الغزو وهي الغائم وليس للاستقرار الدائم، كما أشيع عن القوات الإسلامية ومدفأها الرئيسي. فقد كلف طارق القائد مغيث الرومي مع قوة كبيرة للسير إلى قرطبة خذف تكتيكي هو إشعال المقاومة هناك، ومضى إلى طليطلة، الذي يعني احتلالها الإبطاق على قوة لنديق في قرطبة، فاستطاع الجيش الإسلامي من احتلالها دون مقاومة تذكر في عام 93 هـ. وأرسل قواته لتعقب الهاجرين في أطراف المدينة، وقد استولى المسلمون بعد دخول طليطلة على كنوز عظيمة وجدواها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة^(١) على وجه الخصوص، وكان للمنديع المطعم بالجوائز الذي استولى عليه المسلمون موضع وصف مهيب من قبل المؤرخين المسلمين، وقد أطلقوا عليه اسم مائدة سليمان بن داود، وكانت من الزبرجد الخالص. وهو من روائع الفن الإسباني، وللدكتور حسين مؤنس تعليق جيل على هذا المنديع إذ يقول: يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الشهيبة في (مدينة المائدة) وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس. وهي بالطبع ليس مائدة سليمان بن داود عليه السلام - إذا كانت سليمان مائدة - وهي ليست كذلك بمائدة أصلًا، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة مائدة بهذه الفخامة، ولكن الغالب أنها منديع الكنيسة الجامعية في طليطلة، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المنديع الفخم فيها. ويفهم من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها: وهذه المائدة الملوءة عنها المساوية إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملككم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أو أوصى بمال الكثائس، فإذا اجتمع عندهم ذاك المال، صاغروا منه الآلات الضخمة من الموارد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقوسون فوقها مصاحف الأنجليل إذا أبرزت في أيام المناسب، ويصفونها على المنديع في الأعياد

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص 78.

للمباهاة في زيتها، فكانت تلك المائدة بطيطة ما صيف في هذه السبيل. وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لذبح كنيسة طليطلة، ويواصل الدكتور مؤنس تعليقه بالقول: ولسانعلم كيف وجده المسلمون في قلعة هنارس، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسته، ولم يستطعوا التقدم به أكثر من ذلك المرضع، وذلك فرض يؤديه بعض المؤرخين الذين لا يحذثوننا بغية كبيرة من قصور ملوك القوط في طليطلة، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حلوا معهم أحسن طرفها حين أخلوها لاقتراب المسلمين.

وبعد وصول جيش المسلمين على مقربة من قلعة هنارس، كان الصيف قد انتهى والشأن صار على الأبواب، فرأى طارق أن يعود إلى طليطلة لقضاء فصل الشأن هناك بعد أن غنموا الكثير، وبدى الإجهاد على القراءات التي لابد أن تناول قسطاً من الراحة وتعيد تنظيم صفوفها للجرارات القادمة من الفتوحات.

فتح قرطبة

لقد أشرنا إلى أن طارق عند سيره إلى طليطلة قد أرسل قوة من جيشه بقيادة مغيث الرومي إلى قرطبة، فسار مغيث بجيشه نحو قرطبة حتى وصل إلى الضفة اليسرى من الوادي الكبير مقابل قرطبة، وعسكر هناك ليقوم باستطلاع عن قوة الجبهة المعادية، فوجد أن أهل قرطبة كانوا ساخطين على حكم الذريق فبمساعدة المعارضة الإسبانية، استطاع مغيث وجيشه من شن هجوم ليلي مباغت في ليلة غزيرة المطر والدخول إلى المدينة من الثغرات الموجودة في سور. وعند دخول جيش المسلمين إلى المدينة حدث اضطراب شديد، وهرب الحاكم مع جنوده إلى إحدى الكنائس^(١) ومحصن فيها، فحاصرها الجيش الإسلامي ومن معهم من أهل قرطبة، واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، استطاع المسلمون من قطع الماء عن المهاجمين، واستبسيل المهاجمون ولم يستسلموا إلا بعد جهد كبير بذلك المسلمين لفتح المدينة. حتى أن مؤرخاً إسلامياً ذهب

(١) كنيسة القديس أنيكلو.

إلى أن مغىط قد أوفد النار في الكنيسة وأحرق من فيها^(١). وهكذا استطاع مغىط وجشه أن يفتحا المدينة ويأسرا قادتها وقد سلمه مغىط إلى طارق، وبعد أول قائد من بكار القوط يُؤسر^(٢) بيد المسلمين بل لعله الوحيد.

ولقد كان لليهود دور مهم في مساعدة القوات الإسلامية، وذلك لمعاناتهم من حكم القوط حتى أن اليهود كما يذهب المقرى للإشارة إلى دورهم بالقول: (وصار ذلك لهم سنة متّعة في كل بلد يفتخرنه (أي المسلمين) أن يضمّوا بهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويعضي معظم الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين الخلفين لحفظ ما فتح)^(٣). ويبدو أن المسلمين كانوا يقدرون لليهود دورهم ويعبدون الله بهم باستخلاصهم على الأماكن المفتوحة لحمايةها والمفي إلى فتح مناطق أخرى. لما يحمله دور حراسة المدن المفتوحة من خطر كبير على قوات المسلمين إذا ما استُخدم ضد هذه القوات. ومهاجتها من المؤخرة أو تالب أهل هذه المدن ضد المسلمين. فكانوا هو الاعتراف الإسلامي بالجميل اليهودي.

وبعد أن استطاع المسلمون من فتح قرطبة عاصمة إسبانيا وقلبيها النابض، ظهر أولاد غيطنة - الذين تعاونوا مع القوات الإسلامية - ليطالبوا بإعادتهم إلى الحكم، لأنهم كانوا يعتقدون بأن المسلمين قد يكتفون بما حققوا من انتصارات وفرت لهم غنائم خيالية. لكن طارق بن زياد قد بدأ أوهامهم وذلك بأن أعطاهم الأرضي التي كان يملكونها غيطنة الأبا.

وتشير بعض المصادر إلى عدم اكتفاء أولاد غيطنة بهذه المكافأة، والتقاوا بالقائد موسى بن نصير الذي لم يفعل لهم شيئاً سوى إقرار ما أعطاهم طارق من الأراضي،

(١) المقرى، فتح الطيب، ج ١، ص 165.

(٢) رحكيّة هذا الأسير عزّزه لأن طارق أراد الاحتفاظ به وتسلیمه للخليفة، لكن موسى نازعه عليه فيما بعد، فلما اشتد التزعّج بينهما على الأسير، أخرج مغىط سيفه وقتله !

(٣) المقرى، فتح الطيب، ج ١، ص 166.

ويقال إنهم وبعد الإلحاد، أن أحالم موسى إلى الخليفة الذي لم يحبهم على طلبائهم سوى المصادقة على ما قدمه موسى وطارق. فرجعوا إلى بلادهم راضين بهذه القسمة التي أعادت إليهم جزءاً من حقوقهم المهدومة، ويدو لنا أن حصوبهم على هذه الحقوق المتواضعة يتاسب مع دورهم في مساعدة المسلمين، إذ بقي أولاد غبطة في معسكر لذريق، وانقلوا إلى مساعدة المسلمين بعد تأكيد انتصارهم على لذريق بشكل قطعي.

3- موسى بن نصیر في الأندلس

لقد أثار وصول موسى بن نصیر بمعية جيش كبير قوامه عشرة آلاف فارس، وثمانية آلاف من المشاة، جدلاً واسعاً في المصادر التاريخية القديمة والدراسات المعاصرة، فبعد مرور عام من دخول طارق إلى الأندلس ما الذي جعل موسى يدخل هذه البلاد بعد أن حقق طارق انتصارات كبيرة؟ سنعرض أدلة روایات مختلفة عن هذا الأمر ثم نناقشها.

تشير بعض الروایات الإسلامية⁽¹⁾ إلى أن موسى بن نصیر قد أزعجه أخبار حلة طارق وما أصابته من النجاح والتقدم السريع، الذي اعترض عليه موسى أمراً طارق بالتوقف عن الفتوحات، فشعر بالغيرة والحد منه، فعمز على تدارك الوضع هناك ولعاقبة طارق على تجاوزه للأوامر والقيام بفتحات أعظم من فتوحاته والحصول على غنائم أكبر. كما تشير مصادر أخرى إلى أن وجود موسى كان الإنقاذ قوات المسلمين والمشاركة في فتح مناطق لم يستطع طارق وجيشه أن يقهرها العمل العسكري الكبير لوحدهما.

وقد جاء تأكيد هذه المصادر على أن طارق بن زياد هو الذي استجدة بقادته موسى وحثه على المشاركة في الفتح، وذلك لما آلم بالجيش الإسلامي من الإرهاق الشديد لا سيما بعد فتح قرطبة.

(1) سنثير إلى هذه المصادر حين مناقشتها.

والواقع أن الروايات الإسلامية التي اعتنقت الرأي القائل بـ موسى طارق كانت تأخذ بما جاء به ابن عبد الحكم⁽¹⁾ من أن (موسى شد وثاق طارق، وجبه وهم بقتله لولا تدخل مغيث الرومي). وأن طارقاً قد تكتب إلى مغيث من سجه، يوصيه بأن ينقل خبر سجه إلى الخليفة الوليد، ولقد نفذ مغيث ما أوصاه طارق، فكتب الخليفة إلى موسى للمثول بين يديه، فخاف موسى وأطلق سراح طارق. وهناك مصدر أندلسي يشير إلى حالة التوتر بين موسى وطارق إذ جاء في أخبار المجموعة: (إن موسى وضع السوط على رأس طارق وابنته) يعني أن موسى قد ضرب طارق بالسوط.

وهناك مصدر⁽²⁾ آخر يقرّ حكاية اختلاف القائدين بقوله (ثم إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته، وأمره بالتقدم إماماً في أصحابه). فإن واقعة الصلح والرضا تدل بالتأكيد على سابقة الخلاف بين الرجلين.

وهناك وقائع من النصوص التاريخية يمكن الاستنتاج منها إلى العلاقة متوتة بين القائدين، دون الذكر الصريح لحادثة الاختلاف، مثل عدم القاء القائدين إلا بعد وقت غير قصير من وجود موسى بن نصیر على أرض الأندلس، كما أن الخادم موسى لطريق غير طريق طارق في سير الفتوحات، واستخدامه لليان وجنتو كأدلة على مناطق أكثر أهمية وغنى من تلك التي فتحها طارق، وهذا ما صرّح به المقري⁽³⁾ إذ يقول: (موسى قد تكب الجبل الذي حلّه طارق. ونزل على الموضع المنصب إليه المعروض الآن بجبل موسى، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أفقوا أثره، فقال له العلوج الأدلة أصحاب يليان: نحن نسلك بك طريقنا هو أشرف من طريقه، وندلك على مداين هي أعظم خطراً وأوسع غنماً من مداينه، لم نفتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى. فلم يسروراً).

(1) ابن عبد الحكم، فتح أفريقيا، ص 20.

(2) المقري، فتح الطيب، ج 1، ص 172.

(3) المقري، فتح، ج 1، ص 170.

فقضية غصب موسى أو حسه لم تذكر في مصدر واحد كما يذكر بعض الدارسين المعاصرین. وسوف نعرض إلى المصادر التي كانت تؤيد وجهة النظر الأخرى، والتي تؤيد بان وجود موسى على رأس هذا الجيش الكبير كان طارق من طارق نفسه، ومن الغريب إننا لم نجد في الدراسات الحديثة غير التكذيب الفوري لروايات المصادر المضادة لوجهة نظرهم القاضية بوجود موسى كعون لطارق فقط، حتى أن باحث كبير مثل حسين مؤنس لم يجد من حجة تاريخية للانتصار لموسى سوى ما ذكره ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة بقوله: (إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالعنوت الغوث) وهذه الرسالة كانت قد أرسلها طارق بن زياد إلى موسى إيان مواجهته لجيش لنطريق في واقعة وادي لكة أو شذونة وما يزيد من استغرابنا إلى أن مؤنس^(١) اضطر لقبول هذه الرواية الأحادية بقوله: (ولا يبنتا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب الإمامة والسياسة.. ولكتنا قبلها لأنها نفر السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات) !! ويعلل قوله بهذه الرواية لأن موسى لو كان يضرم أي شيء لطارق لعبر من تلقاء نفسه لكي يرى نتيجة ما وصل إليه طارق ومع عدد قليل من المقاتلين ! كما أن أصحاب الرأي هذا يعزون وجود موسى في الأندلس هو نتيجة حتمية لحماية القوات الإسلامية من السيطرة على مدن لم يسيطر عليها طارق والتمهيد لحماية طرق المواصلات بين المغرب الأقصى ومصر ودمشق، كما أن اللقاء بين القائدين في طليبرة وعودتهما مما إلى طليطلة مدعوة لتعاونهما وتفوي تهمة الخلاف بينهما.

بعد أن استعرضنا أهم الآراء والروايات عن علاقة موسى بن نصير وطارق بن زياد يمكننا الوصول إلى خلاصة بشأن هذه العلاقة القلبية. إن فهم التاريخ على أساس الاعتماد على واقعة واحدة يمثل من وجهة نظرنا غلط للتاريخ كله بوصفه ظاهرة توقيتها مصادر تاريخية تتسمى إلى مراحل الحكاية التاريخية. دون التورط في دراسة الظروف المحيطة لها. وقدرة هذه الظروف على إمكانية الإحلال والإبدال والنفاذ في تعويم استنتاج مهمين، يتفق مع مرحلة المتصررين تارة، وتارة مع العودة للحنين إلى

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص 89.

ذلك الماضي النايد، في مرحلة نكوص الحاضر وضرورته لبعث الماضي، والأخطر من هذا هو التعامل مع النص الترايي بوصفه مقدساً إذا جاء متفقاً مع وجهة نظر الباحث. كما يعتبر مجرد أوهام إذا ما تعارض معه.

وبهذه الرؤية سوف ننظر إلى علاقة موسى بن نصير وطارق بن زياد في أرض الأندلس. ونرى أن الالحياز إلى سبب واحد لوجود موسى في الأندلس هو ضرب من الخلط بين معرفة شخصية موسى الذي عُرف عنه الغرور والشغف بالغمام والانتصارات، وبين شخصية طارق المعروف بالتواضع وسياسة الدين والتي افصحت في فتوحاته في الأندلس التي كانت باسم قائد موسى وكذلك إرساله أولاد غيطة للتفاوض مع موسى بوصفه القائد العام. ومن هذا الفهم للشخصيتين لا تستبعد أن ثمة نوازع نفسية قد قادت موسى إلى السير إلى الأندلس. ولكن الحقيقة تدعونا إلى النظر أبعد من هذا السبب لا سيما أن طارق قد توسع في الفتوحات كثيراً وهو ما أثار هواجس موسى العسكرية في حاجة جيشه في الأندلس إلىزيد من التعزيزات ولتجنب الكوارث المحتملة جراء تنظيم المقاومة صفوتها وقطها الطريق على القوات الإسلامية المندفعة إلى الشمال بعيداً عن قربة من جهة ومرَاكيز الاتصال مع القاعدة الأساسية في المغرب من جهة ثانية.

كما أنا نعتقد أن تحرك موسى إلى الأندلس إلى رأس جيش كبير قوامه ثمانية عشر ألف مقابل أغلبهم من العرب يمثل ترسيناً للاستراتيجية الإسلامية في الفتاح الكامل لإسبانيا والاستقرار بها وجعلها ولاية تابعة لمركز الخلافة في دمشق، لا سيما بعد أن كفَّ أولاد غيطة عن أسلهم في العودة ثانية إلى الحكم كما رأينا. لهذا فإن وجود موسى بن نصير لا يقتضي بالضرورة أمراً من أحد طلما هو القائد العام للجيش الإسلامي والمُسؤول الأول والأخير على سير الحملات في إسبانيا أمام الخليفة. وإن ما أورده بعض المصادر التاريخية من مبالغات وصلت حد الخيال في تصوير لقاء القائدين يتناسب مع أهواء المؤرخين القدامى في ثبيت الرفاقع، لكنه لا يتناسب مع المطلق الذي يحكم المسار الكلي للفتوحات التي تكللت بوجود موسى

وجوشة وابت أنه قائد عسكري يمتلك بُعد نظر في قراءة الأحداث مع إقرارنا بوجود حالة من التحس لازمت موسى جبال طارق بن زياد، لكن انتصارات موسى الكبيرة وحصوله على غنائم عظيمة يمكن أن تكون أحد العوامل التي ساهمت في كبح جماح غرور موسى وحده طارق، لاسيما وأن الأخير أبدى أقصى درجة من الانبطاط الأخلاقي والتعارون العسكري مع قاده كما سرى

عبر موسى إلى إسبانيا في رمضان سنة 93هـ/712م، على رأس جيش ضم ثمانية عشر ألف مقاتل أغبلهم من العرب من القبائل القيمية واليمنية وأتباعهم ومواليهم وكان في الجيش قوة من التابعين وكبار العرب نظمتهم موسى في فرقه واحدة وكان قادها محمد بن أوس، وكان عبر الجيش على شكل دفعات إذ قام موسى بتقسيم جيشه إلى فرق محبب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم، وكان لكل فرقة راية، وكان موسى أول العابرين حيث أقام في منطقة قريبة من الجزيرة الخضراء وبين فيها مسجداً، وقام باستقبال الفرق العابرة براياتها المختلفة⁽¹⁾ وحتى اكتمال وصول الجيش، نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند منطقة قريبة من جبل طارق⁽²⁾، ثم تابع سيره إلى شذونة في الشمال الغربي، ومنها سار إلى قرمونة ورعوائق وفتحهما. وبهذا يكون موسى قد أمن خطوط مواصلات القوات الإسلامية من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة، فأصبحت سلسلة مدارك الجزيرة وشذونة ورعوائق وقرمونة وأسبمة وقرطبة تحت قبضة القوات الإسلامية بشكل كامل.

فتح أشبيلية

بعد النصر الذي حققه قوات موسى، توجه الجيش إلى أشبيلية وهي من المدن البالغة الأهمية في الأندلس، وضرب موسى الحصار على هذه المدينة لبضعة أشهر إلا أنه لم يستطع من فتحتها إلا بعد مساعدة أمقق المدينة واليهود الذين بادروا إلى فتح

(1) سُمي هذا الموضع بمسجد الرايات، وظل فائضاً لقرون طويلاً بعد الفتح.

(2) سُمي جبل موسى أو مرسى موسى.

أبواب المدينة بعد طول مدة الحصار وشدة القتال، وترك فيها قوة صغيرة معظمها من البربر واليهود، ليكمل السير إلى ماردة.

فتح ماردة

وهي مدينة شهيرة أسمها الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر عام 250 ق.م. سار إليها موسى فوجدها مدينة مخصصة وقوية على عكس ما توقع، ويرجع هذا إلى أن القوات القوطية المنسبعة قد تجمعت فيها، فحاصرها موسى بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يستطع فتحها إلا بعد قتال شديد استخدم فيه موسى أسلوب الكمان، كما قتل عدد غير قليل من المسلمين عند سور المدينة، بعد أن استخدموه دبابة للاختباء فيها عند السور كان القوط قد باغتهم بهجوم أوقع الكثير من الحسارة في صفوف المسلمين، ولكن المدينة سلمت إلى موسى بعد أن عادهم على (أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الماردين إلى جايكية للمسلمين، وأموال الكتائب وحلوها لهم)^(١).

ويلاحظ أنه بعد فتح ماردة دخل المسلمين في دور جديد، أي أن المسلمين بقيادة موسى بدأوا ينفينون من أن العمليات العسكرية في الأندلس لم تعد نوعاً من الغزو وأخذ الغنائم والعودة إلى بلادهم. وكنا قد نوهنا إلى أن موسى قد جاء إلى الأندلس بجيشه الكبير ليضم إسبانيا إلى دولة الخلافة، ويدو أن هذا الشعور قد أصبح حقيقة حتى عند المقاتلين المسلمين أنفسهم. وهذا الأمر قد أثر على مستوى العلاقة بين المسلمين وأهل البلد الذين كانوا يتوقعون أن المسلمين سيغادرون بلادهم ويعودون بالغنائم بعد أن يكونوا قد ساعدو أهلها في التخلص من حكم الملك لنفيق. لذا، فإن أهالي البلد أصبحوا لا يرجحون بالقوات الإسلامية ولم يعودوا يفتحوا أبواب مدنهم أمامهم ولا يساعدونهم كأدلة، بل شات قوات مقاومة إسبانية، وهذا ما حدث في إشبيلية، وأنباء انتقال موسى بفتح ماردة. فقد ثار أهلها

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص 171.

على المسلمين وقتلوا منهم 80 مقاتلاً بينما فرَ الآخرون إلى موسى ليطّلعوه على ما حدث. وهذه الحادثة قد جعلت موسى يحتاط أكثر من المقاومة المحلية ويرسل ابنه عبد العزيز لقمع هذا التمرد في إشبيلية وقد نجح في قمع تمرد إشبيلية. وهو أول انقلاب ضد القوات الإسلامية كما يذهب أحد الباحثين المعاصرین^(١) ولكنه يستدرك معتبراً على المؤرخ الإسباني سافدراً إذا ما كانت هذه الحادثة من صنع أهل البلد أو من قبل قوات القوط، وإنما لا نرى فرقاً كبيراً في من هو الذي قام في التمرد غير كون هذه الحادثة نذير خطر على التوأجد الإسلامي في إسبانيا، الذي أدركه موسى الذي كان في ماردة فسكت فيها شهراً ليأخذ المسلمين راحة كافية بعد هذا القتال الشديد والطويل، الذي خسر فيه المسلمون عدداً من المقاتلين لم يخسروا بهمّة في فتوحات قرطبة وإشبيلية. وذلك لاشتداد مقاومة القوط وعزوف أهل البلد على التعاون مع القوات الإسلامية. وهذا ما يبرر طلب موسى إلى طارق بن زياد للسير إليه بعد أن فرغ من فتح ماردة، بعد أن أحسن بالخطير القوطي الذي يهدد جيشه في هذه الأراضي الشاسعة والجبلية عند المسلمين، فقد عرف موسى أن السير إلى طليطلة محفوف بالمخاطر؛ لا سيما بعد أن تزايدت حركات القوط حول الجيش الإسلامي بين وادي أنه ونهر التاجة في ذلك الحين، إذ أن الملك لذرق قد تراجع مع قواته وعُصِّنَ في شباب المضبة، على أبواب قشتالة الجديدة في السهل الفسيح الذي يحيط بسلمونة، وانتظار الفرصة المناسبة للهجوم على الجيش الإسلامي، ولم يكن موسى في هذه الحالة يستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وقوات القوط في ظهره، وكان لابد لاستدعاء طارق وجيشه للقضاء على هذه القوات.

فتقديم طارق بقواته لمسافة مائة وخمسين ميلاً وتوقف هناك بانتظار القائد موسى في موضع يسمى المعرض بين التاجة ونهر التيتار. أما موسى فقد غادر ماردة سالكاً طريقاً رومانياً قدّها يصل ماردة وسلمونة بامتداد نهر فالمورثا^(٢)، وقد كان لذرق

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٩٥.

(٢) الذي أصبح فيما بعد نهر موسى.

وأتباعه يتظرون هذه الفرصة بعد أن توسط المسلمون الطريق وصاروا في مكان بعيد عن أي مركز للقوات الإسلامية بين ماردة وطليطلة، فهاجومهم في منطقة تدعى (الساقي) فدارت معركة ضارية استطاع المسلمون من هزيمة القوط وأسفرت عن قتل لذرينه الذي قتله مروان بن موسى بن نصیر⁽¹⁾، فشهدت (الساقي) نهاية آخر ملوك القوط. ولقد اختلفت الروايات في تحديد موقع اللقاء الفاندين طارق وموسى (فابن عذاري مثلاً يقول: اتفق الأكثرون على أن اللقاءاًهما كان على طليطلة، وذكر الطبرى أنه كان على قربطة، وذكر الرازى أن طارقاً قد خرج من طليطلة لما بلغه سير موسى إليه، فلقيه بمقرية من طليطرة. وإشارات الرازى تدل على أن اللقاء تم على مقرية من هذا البلد الأخير...)، ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع في ناحية تسمى Almaraz وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن أصله (المعرض) وهو مكان على مقرية من طليطرة على نهر التيبار)⁽²⁾ ولقد استمر القوط في العاصمة طليطلة خروج طارق وجشه فقاموا بتمرد في المدينة، اضطر موسى إلى العودة إليها وفتحها بالفترة من جديد، وقرر البقاء فيها حتى انتهاء الشتاء لإعادة تنظيم الجيش وإراحة المقاتلين من عنة القتال الشديد.

وبعد فترة الاستراحة التي قام فيها موسى بـك عملات نقدية ليدفع منها رواتب المقاتلين، ويبدو أن الخليفة قد خوله بهذا الأمر الذي يُعد من اختصاص مركز الخلافة، ثم تابع موسى وطارق سيرهما نحو جبال البرت في أقصى الشمال وبدأوا بفتح المدن وهي سرقسطة ووشقة ولا راده حتى بلغا شاطئ البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبيّة، وهكذا انتهى كل من القاتلين من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الله جاءت تجبرهما بضرورة العودة إلى دمشق فرجع موسى ومعه طارق إلى مركز الخلافة بعد أن ترك موسى ابنه عبدالعزيز لقيادة الجيش ومتابعة الفتوحات وذلك أواخر عام 95هـ/714م.

(1) يفرد ابن قتيبة بهذه الرواية دون المصادر الإسلامية.

(2) لذلك يرجح حسین مؤنس بأن اللقاء كان في هذا الموقع. مؤنس، فجر الأندلس، حاشية 2، ص 98.

فتوات عبدالعزيز بن موسى

هكذا رأينا أن معظم أجزاء إسبانيا قد سقط في يد القوات الإسلامية في عهد موسى وطارق. وقام الأمير عبدالعزيز بالاتجاه إلى الشرق، وكانت المقاومة هناك قد تركزت في منطقة تدمر⁽¹⁾ وقادتها الحصينة أوربولة. والغالب أن اسم هذه الولاية على اسم قائدتها الأمير القوطى تيودمير الذي استطاع بذاته وحده أن يتوصل إلى اتفاق⁽²⁾ مع الأمير عبدالعزيز يقضى بضمانبقاء جزء من السلطة في يده مقابل دخول القوات الإسلامية إلى المدينة دون قتال. ولأهمية هذه الاتفاقية نقل نصها: (نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبدالعزيز بن موسى إلى تدمر ابن غدوش):

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز إلى تدمر

أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمه أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يُسْبُون، أولادهم ولا نسائهم، ولا يُنكرون على دينهم، ولا تختلف كاثرهم... وإن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن: أوربولة وبيلتلة ولقنت ومولة وبقرة وأنه ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يجوز لنا امسأنا ولا يكتم خبراً علمنا، وإن عليه وعلى أصحابه دينار كل ستة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقسام طلا، وأربعة أقسام خل، وقطع عسل، وقطع زيت، وعلى العبد نصف ذلك.

كتب في رجب من سنة أربعين وستين من المجرة ...).

وبعد أن أكمل الأمير عبدالعزيز أعماله في الشرق، توجه إلى القسم الشمالي الغربي، وهو الإقليم المسمى باشتوريش في منطقة جليقية أو غاليسيا. نلاحظ أن

(1) وقد اختلفت الروايات في نسبة تدمير وأصل الاسم، انظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 112.

وكل ذلك د. أحمد العابدي، في التاريخ الباسكي والأندلسي، ص 281-282.

(2) انظر مؤنس، فجر، ص 114، العابدي، ص 282.

ال المسلمين لم يسطوا نفوذهم كاملاً على هذه المناطق لطبيعتها الجغرافية الوعرة وبرودة مناخها. فاهملوا بعض جوانبها زهدًا أو استهانة. ولقد استطاع جيش القوط التهزم بقيادة بلاي Pelayo أن يخندق بالجبل الشمالي في هذه المنطقة⁽¹⁾، وهي عبارة عن ثلاثة جبال شاسعة، القيمة الفريدة منها تسمى أونجا وبها مغارة تعرف بكهف أونجا أو كوفادونجا، وسيماها العرب صخرة بلاي لأنها اختبا فيها مع مقاتليه حين حصار المسلمين لهم. وينتقل القوط في هذه المغارة يعيشون على عمل الحجل الذي وجده في خروق الصخر. (وما زالت خلايا النحل متشرة في هذا المكان الذي أصبح من المناطق السباحية المهمة في إسبانيا). ولما عجز المسلمين من النيل منهم، تركوهم وانصرفوا عنهم، واستخفافاً وقالوا: (ثلاثون علجةً ما عسى أن يجيء بهم؟)، كما أن المصادر الإسبانية تشير إلى أن انسحاب المسلمين عن كوفادونجا يمثل نصراً عسكرياً وقوياً كبيراً للأسبان⁽²⁾. ومهما يكن من إسهاب المسلمين واعتراض الإسبان بهذه الواقعية، فإنها سوف تحول من بؤرة صغيرة، لتثبت نواة دولة إسبانية، ومعها حركة المقاومة التي ستشهد المزيد من القوة في وجه القوات الإسلامية كما سلاحظ في الفصول القادمة.

والملاحظ أن حركة الفتوحات الإسلامية بعد عبور موسى بن نصير وضم جيش طارق له تحديداً اتسمت في العطف والنهاية وإحراق المدن وإرهاص الأهالي، وكان موسى شديداً قاسياً ميلأ بشكل شره إلى الغنائم والأسرى والسبايا، حتى أن الخليفة قد استنكر أعماله ودعاه إلى مركز العاصمة. وهناك قصص كثيرة تناولها المصادر العربية والإسلامية عن المصير الذي آلت إليه موسى وطارق بعد وصولهما إلى دمشق. ولا سيما مصير طارق بن زياد الذي تضمنت الرواية الإسلامية صياغةً كاملاً⁽³⁾ عنه، كما تناقلت الروايات عن الدور الذي لعبه مغيث الرومي في مصر موسى المخزن

(1) يسمى الإسبان قسم أوروبا.

(2) العبادي: في التاريخ الأندلسي، ص 284

(3) مؤنس، فجر الأنجلس، ص 110.

الفصل الرابع

عصر الولاة

بعد الفتوحات التي قام بها عبدالعزيز بن موسى بن نصیر في الأندلس، تكون القوات الإسلامية قد أخْرَجت فتحها بشكل كامل تقريباً لشبه الجزيرة الأيبيرية، وصارت الأندلس هي الوصف الجغرافي والسياسي للسيطرة الإسلامية على مناطق شبه الجزيرة. ولقد استغرقت هذه الفتوحات فربة أربع سنوات إلا قليلاً⁽¹⁾. إذ بدأت من شهر رجب سنة 92 هـ / 710 م حتى مطلع سنة 96 هـ / 714 م.

ويتمثل فتح الأندلس تمة للفتحات الإسلامية خلال القرن افجيري الأول التي بدأت في بلاد العرب والعراق وببلاد فارس والشام وجزء من آسيا الصغرى ومصر والشمال الأفريقي. ولكن فتح الأندلس مختلف عن الفتوحات السابقة في عاملين مهمين:

1. قصر الفترة الزمنية التي استغرقتها القوات الإسلامية في فتح هذه البلاد فیاساً إلى الفترات الطويلة التي أخْرَجت القوات الإسلامية فيها الفتوحات السابقة ولا سيما فتح المغرب⁽²⁾.

2. إن فتح الأندلس لم يرهن ميزانية مركز الخلافة إذ كانت رواتب الجنود تدفع من حال ولابة أفريقية، كما أن هذا الفتح لم يكلف الخلافة خسائر بشرية في جيشها العربي بصفة خاصة الذي تعرض إلى هزائم وانتكاسات عديدة في مراحل الفتح

(1) ابن التوبيه، تاريخ انتاج الأندلس، ص 25.

(2) الذي استغرق ما يقارب العینين عاماً.

السابقة، وذلك لأن البربر هم الذين امتصوا الصدمة الأولى⁽¹⁾ للمقاومة الإسبانية، إذ أنهم فتقوا في معركة وادي البربات (لكه) ثلاثة آلاف مقاتل، وجاء جيش موسى باغليته العربية شبه المطلقة لمواصل مشارق الفتوحات بمحائر بسيطة في الأرواح والمعدات إذا ما قورنت بمحائر الباربرية المسلمين، إذ لم يرد في المصادر الإسلامية إلى أن مركز الخلافة في دمشق قد أمنه موسى بجيش غير الذي سار به وعبر إلى إسبانيا بعد جيش طارق بن زياد.

غير أن زعم بعض الباحثين المعاصرین بأن مركز الخلافة برغم عدم مساهمته الحقيقة في الأموال والمقاتلين في فتح الأندلس، فهو لم يجيء منها أيضاً أي مقابل مادي؛ وهو زعم تبناه الدكتور حسين مؤنس بناءً على تعليل وجهه وذلك لإهمال مركز الخلافة لشؤون الأندلس المالية إذ (لم ترسل إليه وإلياً خاصاً به بل تركته نحو تسعة سنوات تحت تصرف عامل أفريقيا يتصرف في شؤونه كما يريد)⁽²⁾. كما أن مركز الخلافة لم يرسل عاملًا متخصصاً بالشؤون المالية، ويستغرب من أن بلاد مثل الأندلس معروفة بعنائها، أي أنها بلد عظيم الجباية وعلى علم تام من مركز الخلافة بهذه الثروة الكبيرة، وظل مركز الخلافة ساكتاً عنها.

ووبرغم وجاهة التعليل الذي قدمه الدكتور مؤنس، فللحقيقة وجه آخر تقوله لنا المصادر الإسلامية القديمة، والتي تفيد بأن قوافل الهدايا والغنائم والسبايا التي كانت تصل بشكل مستمر منذ فتح المغرب، وليس آخرها قافلة موسى بن نصیر الذي سار بها عند عودته من الأندلس في طريقه إلى مركز الخلافة، وما تبع عن ضخامة الغنائم التي بالغت فيها بعض المصادر، من خلاف شديد بين سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصیر، إذ طلب سليمان من موسى التريث لأن الموت كان سيدرك الخليفة الوليد، إذ أن وصول موسى إلى دمشق كان قبل وفاة الوليد (الذي كان يختضر) باربعين يوماً

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 122.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، حاشية رقم 2 ص 123. انظر ص 135-136، نفس المصدر.

فقط. لأن سليمان كان يريد هذه الغنائم له، وهذه الرواية قد اعتقدها مؤنس في كتابه فجر الأندلس^(١).

فبل لنا أن نرى مثل هذا التناقض. لا سيما وأن موسى بن نصیر له سوابق حقيقة في استخدام الأموال لضمان رضى الخلفاء عنه !!!

كما أن هناك عامل مهم لعدم اكتراط مركز الخلافة بالتاتعة الدقيقة على مستوى الجباية والشؤون المالية عموماً، لأن مركز الخلافة أصلاً لم يساهم في أي جهد مالي، تأمينك عن الاستقلال النبي لولاية أفريقيا عن المركز، فيما بالتنا إذا كان الأمر في بلاد بعيدة عن المركز لا تكلفة غير المزيد من الميسنة الإسلامية، وتحوّلها إلى إمبراطورية، كانت مصدر ارتياح الخلفاء الأمويين الذين لم نعرف من سيرتهم الحرص على أرواح أو أموال المسلمين وخاصة إذا كانت بعيدة جداً عن مركز نفوذهم، فسيرة خلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز^(٢)، لم تؤشر مثل هذا الاهتمام بالمال العام. بدليل النهاية المأسوية التي يلقاها معظم قادة الفتح البارزين في العهد الأموي وخاصة مصير موسى وطارق !!

كما أنها لم نشهد زيارة ميدانية للخلافة أموي لواقع الفتوحات، وكان المعمورون من قبلهم غالباً ما تكون مهمتهم محصورة في عزل هذا القائد أو استدعائه لمحاقبته فقط، وذلك لأن خلفاء الدولة الأموية كانوا على اطلاع غير كامل لواقع الحال في عالكهم التي فتحت بغير هواجهم الأول ونصائحهم التي لم تعد ذات جدوى، بعد أن تحقق لهم الملك.

إن خلفاء بني أمية استدروا كل معلوماتهم عن فتح الأندلس عبر شخص يسمى في التعبير الحديث (ضابط ارتباط)، وهو في الحقيقة مجرد طامع في الملك أو طالب له، كما كان مغثث الرومي الذي لعب دوراً مزدوجاً في الإيقاع بموسى مع الخليفة

(1) نفس المصدر، ص 107.

(2) الذي لقب بالراشد الخامس لعدله ونفراه.

وكذلك مع طارق بن زياد. عندما شعر بمنافسة كلا القائدين إلى ما كان يصبرا إليه⁽¹⁾. وهو ولادة الأندلس.

إلا أن الحسن العربي للأمويين الذي يمثله المثل العربي بأن (طالب الولاية لا يولي) قد أطاح بضموحات مغيث الرومي، واستمر مركز الخلافة بباركة عبدالعزيز بن موسى لولادة الأندلس. (وهذا جزء من تحطيم الأمويين الذين انتهوا بعد زوال حكمهم وقيام الدولة العباسية)⁽²⁾.

نهاية عبدالعزيز

لم يبق عبدالعزيز على ولادة الأندلس إلا قليلاً، إذ تم قتله في سنة 97هـ / 715م. نتيجة لمؤامرة قيل أن بعض قادة الجيش من العرب دبروها له أمثال أيوب بن حبيب اللخمي، وحبيب بن أبي عبيدة، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي، ولقد اختلفت الروايات في السبب الحقيقي وراء مقتله، لأن هؤلاء القادة كانوا على خلاف مستمر مع عبدالعزيز (لأشياء تقصوها عليه) كما يقول الرازبي، كما تنقل رواية أخرى على أن زواج هذا القائد من أرملة الملك القوطى لفريق⁽³⁾ المعروفة عند العرب باسم عاصم⁽⁴⁾ وما فعلته من تأثيرات كبيرة في حياة عبدالعزيز والتي جعلته ينوي اعتناق المسيحية بعد أن لبس الناج وتشبه بملوك القوط، وأراد الاستقلال بالأندلس والخروج من طاعة مركز الخلافة الأموية في دمشق. وينذهب آخرون إلى أن سبب قتله هو أن عبدالعزيز قد انزعج بشدة من معاملة الخليفة سليمان بن عبد الله لأبيه، وقد أبدى تذمره من الخليفة، الأمر الذي اعتبره القادة خروجاً عن طاعة الخلافة فذبروا عملية قتله، كما أن أصابع الاتهام تشير إلى تورط الخليفة في قتلها شخصياً. ونحن لا يمكننا الركون إلى سبب واحد لاسمها وأن إباه موسى قد قال عنه شهادة في حضرة الخليفة

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 104-105.

(2) سنبث هذا الأمر في الدولة الأموية في زمن عبدالرحمن الداخل.

(3) الذي يعتبره بعض الباحثين المعاصرین هو نموذج لقارب الأديان والتسامح الإسلامي ١

(4) وهي أجبلونا أو إيله المسيحية.

الأموي يقول (اعرفه صرّاماً فرأياماً، فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيراً منه)، وهذه لبيت نهاية غريبة للقادة والولاة في العصر الأموي كما رأينا من قبل ومسرى من بعد.

قرطبة عاصمة لأندلس

يبدو أن قتلة عبدالعزيز لم يكتفوا بموته، بل إن القائد الجديد أبوبن حبيب اللخمي قد نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة التي كانت تمتاز عن العاصمة السابقة ب موقعها الاستراتيجي في بلاد الأندلس⁽¹⁾. لكن هذا القائد لم يدم عهده إلا ستة أشهر، وبالإضافة إلى اختياره الموفق للعاصمة قرطبة، فقد ثُبَّ إلى بناء قلعة أبوبن في جنوب سرقسطة في شمال إسبانيا، وهي الآن مدينة كبيرة ولا تزال تحمل اسمه⁽²⁾.

وقد تولى عامل أفريقيا⁽³⁾ تعين الحر بن عبد الرحمن الثقيفي في سنة 97 هـ ويقال أن الخليفة سليمان هو الذي حفره إلى هذا التعيين. لأن الخليفة هو الذي عزل أبوبن. ولقد استمر الحر الثقيفي في الولاية على الأندلس لمدة ستين وثمانية أشهر. ولقد كان القائد الثقيفي يتوقع مقاومة من أنصار القائد أبوبن المغزول فجاء ومعه قوة مختارة من وجهاء عرب أفريقيا. استطاع بهم أن يفرض سيطرته على الموقف، ولكن المصادر التاريخية لم تذكر عن هذا القائد شيئاً مهماً في ولايته لأندلس سوى إقامته في قصر قرطبة الكبير، ويبعدونا أن مركز الخلافة كان يشهد تحولات خطيرة في تلك المرحلة الأمر الذي أدى إلى إهمال فترة هذا القائد الثقيفي الذي يتميّز إلى حدّة مضطربة في العهد الأموي كانت نهاية بعثة بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة 99 هـ وببداية عهد جديد بتولي الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز مقابلد الحكم.

ولادة الأندلس في زمن عمر بن عبدالعزيز

كان لابد لسياسة هذا الخليفة العادل أن تتدبر تأثيراتها إلى الأندلس بوصفها إقليماً تابعاً لمركز الخلافة، لأن عمر بن عبدالعزيز كان مخلصاً للحفاظ على حقوق

(1) لأن قرطبة كان موقعها أوسط واقرب إلى منازل العرب في الشرق والجنوب الشرقي والجنوب.

(2) د. أحمد العابدي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 292.

(3) وهو محمد بن يزيد.

الملمين في رقعة الدولة الأموية أينما كانت. لذا فقد اختار الخليفة رجالاً صالحًا وهو السمح بن مالك الخوارناني^(١) لولاية الأندلس، ولقد ذكرت المصادر التاريخية قصة لطيفة في السب الرئيسي لاختيار السمح بن مالك لولاية الأندلس من قبل عمر بن عبدالعزيز تذهب القصة إلى (أن عادة خلفاء بي إمية كانت قد جرت بان لا يدخلوا في خزانتهم شيئاً مما يرسله الولاية من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجلد في الولاية بان هذا المال هو المستصنى الحلال ليت المال، بعد دفع اعطيات الولاية والإتفاق على مصالحها وشؤونها. فلما أقبلت أموال أفريقيا في أحد أعوام خلافة سليمان، أقبل معها عشرة من العدول، تغیرهم الوالي، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخوارناني، فحلف الثمانية على صحة هذا المال وحلاله، وأما السمح وإسماعيل بن عبيد الله فليبا أن يخلفا. وكان عمر بن عبدالعزيز حاضراً آنذاك. فاعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه)^(٢). وهذه رواية تؤكد صحة روايات كثيرة على سوء تصرف خلفاء بي إمية بقدرات المسلمين المالية. فهل استطاع هذا الخليفة العادل من إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ؟

ليس من مهمتنا إثبات ذلك على كامل خارطة الدولة الأموية، بل إن الذي يهمنا هو ما حصل في بلاد الأندلس لولاية عمر بن عبدالعزيز وأولهم السمح بن مالك.

تذهب بعض الروايات إلى أن الخليفة عمر الأموي كان في حالة من التردد بشأن الأندلس، وذلك لخوفه على المسلمين في تلك البلاد البعيدة، إذ خشي (على تغلب العدو عليهم)^(٣) أو (لانتقاضهم من وراء البحر من المسلمين)^(٤)، ونرى أن هذه المواجهات طبيعية بالنسبة إلى عمر بن عبدالعزيز الذي كان مرتاباً أصلاً من الخلفاء

(١) نسبة إلى قبيلة خورلان اليمانية.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص 135-136.

(٣) ابن القرطبة، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 12.

(٤) مؤلف مجهول، الأخبار الجموعة، ص 23.

السابقين أنفسهم وسياساتهم المترتبة في حكم الرعية ! فكيف لا يكون أكثر حرمةً على مقدرات المسلمين وأموالهم في بلاد مثل الأندلس !

لذا، فإن اختبار السمح بن مالك الخوارناني جاء لتبييد تلك المواجهات بعد أن أمره كما تذهب الروايات إلى وصف حالة المسلمين في الأندلس، وإذا ما كان حال المسلمين هناك يتحقق كل هذا العناء. كما شدد الخليفة على السمح بأن يقوم (بامر) خس الأرض ويخرج منها ما كان عنوة خمسة الله في أرضها وعقاراتها) فعدمها وصل الوالي الجديد المحمل بهذه المسؤوليات الجديدة، كتب إلى الخليفة يطمئنه على حالة المسلمين وقوتهم. فلما استوفى عمر من أهمية الأندلس أرسل إلى الأندلس رجالاً آخر اسمه جابر (لتخميس الأندلس)، أي ضبط أموالها وتنظيم خراجها. وخبر إرسال جابر⁽¹⁾ هذا لم يرد في معظم المصادر ولكنه يؤكّد السياسة الجديدة في الأندلس في زمن عمر بن عبدالعزيز، وواليه السمح بن مالك. لا سيما وأن عمر قد أوصاه (بأن يجعل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يخنس ما غالب عليه من أرضها وعقاراتها، ويكتب إلى بصفة الأندلس وأنهارها)⁽²⁾.

وهكذا كان الوالي الجديد على الأندلس يمضي في سياسة جديدة قوامها محاولة إصلاح ما أفسده السابقون. فأخذ ينظم إدارة الأندلس من الناحية المادية، حتى استطاع من جمع مال كبير أراد أن يستخدمه في إعمار قنطرة قرطبة الرومانية المهدمة، لما لها من دور في اتصال أهل جنوب الأندلس بعاصمتهم الجديدة قرطبة، فاتصل بالخليفة للاستذان منه ببناء القنطرة، فأذن له الخليفة، فقام السمح (بنائتها)، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في عموم الأرض من حجارة سور المدينة، وكانت القنطرة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلي بها، وقد تصدّع هذه القنطرة في أيام عبدالرحمن الداخل⁽³⁾، أما من الجانب العسكري فقد كان السمح قد أغار على غالة (بلاد

(1) للمزيد من التفاصيل، انظر مؤنس، فجر، ص 137-138.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 25.

(3) ابن عبد الحكم: فتح الأندلس، ص 25.

الغال)^(١)، وكانت غالة قد انقسمت عقب سقوط الدولة الرومانية إلى عدة ولايات منها ولاية سبانيا (أي المدن السبع) وهي: أريونة ونيمة وأجاد، وبيزية، ولوديف، وقرقشونة وجلون، وكانت أريونة هي عاصمة هذه الولاية، إلى الشمال الغربي من ولاية سبانيا تقع دوقية أكتانيا وعاصمتها برديل الواقعة على مصب نهر الجارون، وإلى الشمال الشرقي من ولاية سبانيا تقع إقليم بروفانس وعاصمتها مدينة أفينيون على وادي رودونة^(٢)، ويقع غرب هذا النهر إقليم برغشية، وعاصمتها مدينة لودون (ليون)، أما المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار فكانت خاضعة للدولة المروقتية.

لقد بدأ السمح بالاستيلاء على أريونة ثم زحف إلى طرسكونة فاستولى عليها أيضاً. ثم تقدم حتى وصل إلى طولوشة. غير أن الدوق أودو دوق أكتانيا تصدى بجيش السمح، ودارت معركة عنيفة بين القوات الإسلامية وقوات الدوق بالقرب من طولوشة إذ استطاع الدوق أودو من هريرة جيش المسلمين وقتل أعداد كبيرة منهم، وكان من بينهم القائد الإسلامي السمح وكان ذلك في سنة ١٠٢١هـ / ٧٢١م. وكان لا بد من قائد بجيشه المسلمين المذكرة. فقد اجتمع المسلمين على توليه عبد الرحمن الغافقي قيادتهم، واستطاع قبل يزيد بن أبي مسلم وإلى أفريقيا. وعيّن مكانه عنبه بن سحيم الكلبي.

مرحلة الاضطرابات

بعد أن انتهت خلافة عمر بن عبد العزيز بوفاته عام ١٠١هـ / ٧١٩م عاد الغرب الإسلامي إلى ما كان عليه في أيام الأمويين وأخرهم سليمان بن عبد الملك. وعاد معهم حكام أفريقيا باستبدادهم لأهل الأندلس عبر اختيارهم لحكام على شاكلتهم. ولقد شهدت الأندلس في الفترة الواقعية بين ١٠٢-١١٢هـ / ٦٢٢-٧٣٣م نعطاً من الحكم كان شاغلهم الأوحد هو إدامة المخروب فيما وراء جبال البرت، كما انهم انصرفوا إلى

(١) وهي الأرض المتعددة وراء جبال البرتات شمالاً وتعرف حينذاك بالأرض الكبيرة أو بلاد الفرنجة أو بلاد الغال أو غالياً.

(٢) نهر الرون.

المنازعات العصبية الدامية. وبذات الأزمة في المغرب عندما عزل الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملک والي عمر بن عبدالعزيز إسماعيل بن عبدالله، وعيّن مكانه يزيد بن أبي مسلم^(١)، وعندما استقر يزيد في المغرب سنة 102هـ طبق سياسة الحجاج البنية على المترفين الخارجي والداخلي، وصار يتعصب للعرب على حساب البربر واستخف بهم وسي نائهم وشدد عليهم في جمع الأعمال فكان (ظلوماً غشوماً)، وكان البربر يحرسونه، فقام على التبر فقال: إني رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بجراحتها، فارسم في بين الرجل اسمه وفي ياره (حرسى)، ليعرفوا بذلك بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به، فلما سمعوا ذلك منه انفقو على قته و قالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه^(٢)، فخلفه بشر بن صفوان الكلبي، ولقد كانا يزيد المقتول وبشر بن صفوان الكلبي قد شهدا ولابة أفريقيا في ظل خلافة المسلمين في اثنين من أشد الأمورين إغراقاً في العصبية القبلية وهما يزيد عبد الملک (101هـ-720م)، هشام بن عبد الملک (105هـ-743م). إذ شهد البيت الأموي في عهديهما الانقسام والفرقة والضعف^(٣).

ولاة الأندلس بعد عمر بن عبدالعزيز

١- عنبرة بن سحيم الكلبي

استلم عنبرة مقايد الأمور والأندلس تشهد اضطراباً كما رأينا بسب المزيمة التي لحقت بالمسلمين في طولوثة أو (قرقنة)، ويبقى التزاعات العصبية التي عادت للظهور على السطح بعد موت الخليفة عمر بن عبدالعزيز. وبهذا الوضع المرتكب كان على عنبرة أن يهتم أولاً بتنظيم شؤون البلاد الداخلية. ولقد اتبع هذا القائد سياسة مشابهة لسياسة الحجاج، حتى تمكن من السيطرة على الأوضاع الداخلية. ثم انحجبت

(١) أحد تلاميذ الحجاج بن يوسف ومعاونيه والذي شغل لدبه وظيفة الكاتب ثم صاحب الشرطة.

(٢) أخبار المجموعة، ص 32.

(٣) للمزيد الاطلاع على مرحلة الاضطرابات: انظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 143 وما يليها.

أنظاره إلى مواصلة الفتوحات في غالطة، فنظم صفوف جيشه من خلال تدعيمه خط الدفاع أمام أربونة، فاستطاع فتح مدينة قرقشونة ثم استولى على مدينة ينمة واستطاع أن يأخذ بعض أهاليها رهان ثم نقلهم إلى برشلونة، وتذكر المصادر أن عبة قد وصل حتى وادي نهر ردونة وتمكن من الوصول إلى نهر الساءون. وتغل في إقليم برغدية الواقع شمالي شالون، واستولى على مدينة أوتون، ولم يوقف هذا القائد في زحفه إلا الأسقف إيبون، الذي رصد جيش المسلمين المتراجع إلى قرطبة بعد وصول أخبار الأضطرابات التي حلّت بالعاصمة، فقرر عبة الرجوع، فقصدى له جيش الإفرنجية واستطاعوا هزيمته، وقتل عبة سنة 107هـ / 725م.

2- عذرة بن عبد الله الفهري

استلم هذا القائد ولابة الأندلس دون تعيين رسمي من عامل أفريقيا أو من مركز الخلافة كما جرت العادة، وهذا نتيجة منطقة لتخبط سياسات الأمراء في بلاد المسلمين ومنها الأندلس. وإذا صدّقنا الرواية الإسلامية التي لا تسب إلى هذا القائد أي عمل عسكري في غالطة، وهي التي تذهب إلى أن عذرة الفهري قد أقام على ولابة الأندلس لمدة ستين وثلاثة أشهر، دون ذكر أي شيء مهم في هذه المدة، فلماذا لا نصدق الروايات المسيحية التي تذكر أعمال العنف والتدمير التي أصابت كنائس إقليم ليون وبورجوني، مثل كنيسة ولو دون رسان مارثان⁽¹⁾ في عهد هذا القائد، الذي لا شك في أنه عاش في مرحلة الأضطراب في مركز الخلافة أصلاً⁽¹⁾، ويعتقد البعض أنه كان من القادة الصالحين والفرسان.

3- يحيى بن سلامة العاملمي (الكلبي) 107هـ / 725م

تولى الأندلس في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وولابة بشر بن صفوان لافريقيا وقد استطاع أن يقوم بتنظيم أمور الأندلس، وسعى إلى إرجاع ما نبهه سلفه

(1) مؤنس، نجر الأندلس، ص 255

من اليهود والنصارى، وفي الوقت الذي شعر به هؤلاء بالقرة والأمان، فإنه قد اتّهم بعضيه اليمينة، ولم يشهد عهده أية فتوحات أو غزو ودامت ولايته ستين ونصف.

وفاة بشر بن صفوان

بعد وفاة بشر عام 1110هـ / 728م قام الخليفة هشام بتوليه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي خلفاً له وجاء على الأندلس ولاة لم يكن لهم أهمية تاريخية كما أشرنا سابقاً. ونحن نعتقد أن عبد الرحمن الغافقي يمثل مرحلة مهمة في مسيرة ولاة الأندلس ولابد أن نستعرض ولاية هذا القائد وهي الثانية بعد ولايته القصيرة الأولى.

4- عبد الرحمن الغافقي

بعد وفاة الوالي المظيم بن عبيد سارع أهل الأندلس على اختيار محمد بن عبد الله الأشجعي، لكن هذا الاختيار لم يحوز رضا والي أفريقيا^(١) آنذاك عبيدة بن عبد الرحمن، فبعث عبد الرحمن الغافقي إلى الأندلس والياً في عام 1112هـ / 730م. لاشك أن هذا القائد كان ألمع قائد عسكري عرفه الأندلس في عصر الولاية، لكن نهايته المؤلمة في المعركة التي سميت بيلات الشهداء، قد أثر كثيراً على الكشف عن سيرته الحقيقة، لأن هذه المعركة كما سرى شكلت ضربة قاسمة على المذِّ الإسلامي في الأندلس. والمئرخون المسلمون كما يدو لا يطيب لهم الاستفاضة في وقائع شهيد هزيمة المسلمين !

تولى عبد الرحمن الغافقي ولاية الأندلس وقد أمضى عامه الأول في تنظيم شؤون البلاد والظاهر أن (تنظيم شؤون البلاد) هذه الجملة التي تكرر في معظم المصادر القديمة والحديثة تعني تعبئة القوات العسكرية وإعادة تنظيمها للقيام بالخطورة التالية وهي متابعة الغزو والفتحات التي أهللت لأسباب كثيرة في عهد الأسلاف ! وما يؤيد وجهة نظرنا أن عبد الرحمن الغافقي قد استطاع أن يجدد جيشاً اختلفت الروايات

(١) وهذا مؤشر على ضعف مركز الخلافة واحتلال توازنه في البيطرة على أقاليم الدولة الأموية البعيدة ولا سيما في الأندلس.

في عدده⁽¹⁾. ونستطيع أن نخلص من هذا البيان في عدد الجيش إلى قدرة هذا القائد على تعبئة هذا الجيش في حدوده الدنيا على رأي الرواية الإسلامية. إذ لم تشهد الفتوحات الأولى وعلى طول تاريخها حشد مثل هذا العدد. ويخلو بعض المعاصرين من الباحثين العرب أن يصف مقدرة هذا القائد العسكرية، ويشبهه بالقائد حسان بن النعمان، الذي كان يعمد إلى مراكز المقاومة الفعلية ثم يهاجها لاقام الفتح⁽²⁾.

5- عبد الرحمن الغافقي ومسيرة الفتوحات

بعد أن نجح عبد الرحمن باستفار جيش كبير قادر على العمل العسكري بكفاءة عالية، سار به من بيلونة عاصمة ولاية نيرة في عام 114هـ / 732م، استطاع بهذا الجيش من اختراق جبال البرت، متوجهًا إلى أكتيانا، وهي من أكبر ولايات غانا آنذاك. الذي أراد أن يؤمن من هذه المدينة خطًّا دفاعيًّا، فبعث بفرقة من جشه إلى وادي ردونة نجحت في استرجاع مدينة آرل بالقرب من مصب نهر ردونة والتي تمردت على جيش المسلمين وتوقف أهلها عن دفع الجزية. فصار لهذا القائد موقع عسكري مناسب، فواصل زحفه نحو الشمال في قلب أكتيانا فاسرع دوق أودو لمقاومة هجوم المسلمين وحدثت معركة عنيفة في نقطة التقاء الدوردوني بالحارون، فاستطاع المسلمون من قهر جيش الدوق، (ودخل المسلمون برديبل بالقوة، وغنموا غنائم هائلة، وجردوا الكتايس والأديرة من كنزها، وقتلوا من خصومهم عدًّا لا يحصيه إلا الله)⁽³⁾. وبعد هذه القسوة الواضحة في مسيرة القائد عبد الرحمن باتجاه بلاد غالة، كان لا بد لها أن تقاوم ردًّا فعل أولى: ثارت في ذهباب دوق أودو للاستجاد بخسمة السابق (قارلة). وكان من مصلحة المسلمين عدم قتال أودو والإبقاء على صداته لكن عبد الرحمن الغافقي لم يكن حكيمًا في هذه الناحية. وهكذا فقد مضى الدوق أودو إلى

(1) تقدره الروايات الإسبانية باربعمائة ألف مقاتل، في حين تقدره المصادر الإسلامية بسبعين إلى مائة ألف مقاتل.

(2) مؤنس: فجر الأنجلوس، ص 263.

(3) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص 90.

الدولة الميرونجية الفرجية - وكانت هذه الدولة ملوكية في نظامها وبحكمها المتأخرة من ملوكها الذين كانوا في ذلك الوقت ضعافاً، أما السلطة الحقيقة في البلاد فكانت في يد الحاجب أو رئيس القصر المعروف شارل مارتل^(١). ولقد رأى شارل مارتل أو (قارلة) أن انتصار العرب على أكتابيا معناه اقتراب خطرهم من بلاده وتهديدهم بلاده، ووجد أن من مصلحته أن يصالح أودو ويشكل معه حلفاً ضد المسلمين للجيولة دون وصوفهم إلى غالبة. فأخذ قارلة بعد العدة لقيادة جيش المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي الذي أقبل على مقامرة حربية كبيرة يريد بها أن يعيد إمجاد الفتوحات في زمن طارق بن زياد وموسى بن نصير.

معركة بلاط الشهداء

لم تقدم المصادر التاريخية معلومات كافية عن هذه المعركة الخامسة في سير الفتوحات الإسلامية في الأندلس. ورغم قلة المعلومات هذه، فقد تضاربت الروايات بشأن هذه المعركة على مستوى غير معقول، إلى الحد الذي ذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين في هذه المعركة هو ليس عبدالرحمن الغافقي وإنما هو محمد بن عبد الله بن الخطاب وهو شخصية لم يكن لها حضور في التاريخ الأندلسي بعد الآن^(٢). كما يذهب المقري في روايته إلى أن هذه المعركة قد حدثت أيام السمح بن مالك^(٣) ! في حين أن الروايات المسيحية على اختلافها فإنها اتفقت جميعها على قيادة عبدالرحمن الغافقي لجيوش المسلمين في هذه المعركة. في حين كان التخطي مصير رواة المسلمين الثقات !!

والثابت هنا أن عبدالرحمن الغافقي كان هو القائد الفعلي للجيوش الإسلامية. والتي وقعت بين جيوش قارلة وال المسلمين سنة 114هـ / 732م. ولقد اتسمت هذه المعركة في البداية بإحساس أطراف النزاع على خطورة الحسم، فلم يقدموا على

(١) أي شارل المطرقة.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص 119.

(٣) المقري، فتح الطيب، ج 2، ص 56. مؤنس، فهر، حاشية رقم 3، ص 271-272.

الاشباك في معركة واحدة إلا بعد أن ظلا يستخدمان أسلوب المداوشات لعدة أيام. ثم حدثت المغازلة المباشرة وكان جيش قارلة قد تنظم على مربعات متراصة، كلما أباد المسلمين صنعاً ظهر الصف الآخر للقتال، فاستطاع جيش الفرغنة ومن معهم من الألماان والسويف والسكون في اختراق خطوط الجيش الإسلامي يومين متاليين دون نتيجة حاسمة، إلى أن استطاعت فرقة من فرسان الفرغنة من اختراق صفوف المسلمين ووصلت إلى موقع غنائمهم في مؤخرة الجيش الإسلامي وвидوا أن الدوق أودو كان على علم بقوة المسلمين ونقطة ضعفهم لعلاقته السابقة بهم والتي فرط فيها عبدالرحمن كما أشرنا. ولما بلغت قوات الفرغنة موقع الغنائم حدث تراجع الكبير من جيش المسلمين الذي كان يقاتل على الميمنة والميسرة وذلك لمنع العدو من الاستحواذ على الغنائم فأصاب تنظيم الجيش الإسلامي خللاً كبيراً، ولقد حاول القائد عبدالرحمن من البسطرة على هذا الوضع الجديد وأراد أن يعيد تنظيم صفوفه ولكن جهوده ذهبت سدى، وما زاد في حرارة موقف المسلمين أن سهماً قاتلاً تلقاد عبدالرحمن ناودى بحياته. وكانت هذه ضربة قاتلة لل-Muslimين الذين شهدوا مصرع قادتهم، فاختل نظام الجيش كله وارتباك المقاتلون وقد استغل الفرغنة هذا الوضع النهبي بالنسبة لهم. فراحوا يحيطون بالمقاتلين المرتكبين ويذللون بهم الضربات الموجعة واستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، واستطاع من يقي من الجيش الإسلامي الصمود بعد حلول الليل. واستغل المسلمين ظلام الليل لينسحبوا تاركين خيامهم وغنائمهم - التي لم يتمكنوا من حملها - في مواقعهم. وعند حلول الصباح بدأ الجيش الفرغني لمواصلة القتال، فلم يجدوا أحداً، بعد أن تقدموا بمحذر إلى مواقع المسلمين خافة أن يكون فخاً نصبه المسلمون، ولم يكن الأمر هكذا فاستولوا على غنائم المسلمين، ولم يفكروا في تقييم إذ أن قارلة قرر أن يكتفي بهذا الجهد والنصر الساحق الذي حققه على حساب القوات الإسلامية.

أما الجيش الإسلامي فقد تراجع متقهراً إلى الجنوب الشرقي آملاً في التحصن بقاعدة المسلمين في سمبانيا وهي أربونة، ولم يترانوا من تدمير ما صادفهم من كنائس

وأدبية مثل كتبة سولياك⁽¹⁾، ولكن المسلمين عندما شعروا بالأمان من مطاردتهم، قاموا بتنظيم صفوفهم من جديد. وهكذا انتهت وقائع معركة سميت من قبل المؤرخين المسلمين بمعركة بلاط الشهداء⁽²⁾ تعبيراً عن جسامته الأرواح التي زعمت في هذه المعركة التي كانت عالماً حاسماً في نهاية المذا الإسلامي بالإضافة إلى عوامل أخرى سترى إليها في حينها. وينصب بعض المؤرخين الأوروبيين أنه لو قدر لل المسلمين أن يتصرّوا في هذه المعركة لرأينا القرآن يتلى ويدرس في جامعات الغرب.

أسباب خسارة المسلمين في معركة بلاط الشهداء

لا يمكن للباحث أن يضع يده على سبب واحد أو عامل منفرد لخسارة الجيش الإسلامي بقيادة عبدالرحمن الغافقي في هذه المعركة، لندرة المعلومات في المصادر التاريخية الإسلامية وتضاربها كما رأينا، مع وفرة ملحوظة في المصادر الأوروبية والتي لا يمكن الركون إليها تماماً، لأن التاريخ سيُظلم مرتبكاً، مرّة عندما يكتب المهزوم وأخرى عندما يكتب المتصّر. لكننا سنحرص قليلاً الإمكان على تلمس الأسباب والعوامل الأكثر واقعية من وجهة نظرنا والتي أدت إلى هزيمة المسلمين بعيداً عن الغلو والتطرف أو الأسى والثابكي الذي يديه بعض الباحثين العرب المعاصرین وسنجمل هذه الأسباب بال التالي:

- 1- لقد كانت حلة الغافقي مغامرة كبيرة محفوفة بالمخاطر في ذلك الوقت بالذات. لأن الظروف الذاتية والموضوعية التي مهدت لانتصارات الإسلام في زمن طارق بن زياد وغيره من القادة في الأندلس، لم تكن هي ذاتها في زمن عبدالرحمن الغافقي لما ألم بالأندلس من ثورات تجتاح البلاد من الشمال وفي الجنوب. كما أن طبيعة المناخ والسكان في غالٍة مختلف تماماً عن طبيعة ومؤهلات الجيش الإسلامي بقيادة الغافقي.

(1) شكب ارسلان، تاريخ غزوات العرب، ص 103.

(2) المصادر الأوروبية تسمّيها بوامة تور أو توربراته.

٢- أن السير إلى بلاد بعيدة وفي هذا الجيش الكبير يحتاج إلى تأمين قواعد ثابتة للجيش المتقدم وذلك لغرض إمداد المقاتلين في أرض المعركة من التعزيزات في الرجال والعدد والمأمونة وغيرها من احتياجات المعركة. وهذا ما لم يتوافر بجيش الغافقي !

٣- إن جيش الغافقي كان مؤلفاً من أعداد كبيرة من العرب اليمنيين، والقبين والتي فرقهم العصبية القبلية، كما أن البربر كانوا يضمرون للعرب عموماً حقداً دفيناً ولدته سياسات الولاية السابقين في الأندلس. وهذا الانقسام في صفوف الجيش لا يمكن أن يؤمن للقائد قوة قتالية متماسكة وموحدة الولاية لخوض حرب صعبة كهذه، فقد كان عبدالرحمن يمثل نقطة الالقاء الرحيدة في صفوف هذا الجيش. ولقد لاحظنا أن موته قد كان السبب الحاسم في انهيار صفوف هذا الجيش غير المؤتلف أصلاً.

٤- السياسة الخاطئة التي اتباعها عبدالرحمن الغافقي مع الدوق أودو والذي كان صديق الأمين الذي ذهب إلى قارلة واستطاع أن يقيم حلفاً معه، ولقد شكل هذا التحالف عصب القوة التي استطاعت هزيمة المسلمين.

٥- إن وجود هذا العدد الهائل من الغنائم والأسلاب في معسكر المسلمين عند حدوث المعركة، يبعث على الاستغراب لما يمثله من عنوان جديد لولاء المقاتل، ومهمها قيل من محاولات القائد عبدالرحمن من تحجيم حمل الغنائم مع الجيش. فإن وجودها يؤكد على حالة الانقسام في الجيش وضعف إدارته، ونقطة ضعف استغلالها الطرف المقابل لخدوث الإرباك كما رأينا في وقائع سير المعركة. وقصة الغنائم يعتبرها بعض الباحثين أسطورة^(١) لأن هدف جيش المسلمين كان يسعى أولاً وأخيراً لإعلاء كلمة الله ونشر دينه كما يرى !!

٦- هناك عامل لا يمكن إهماله في الحديث عن أسباب خسارة المسلمين في معركة بلاط الشهداء وهو عامل يتعلق بواقع مركز الخلافة الأمورية في دمشق، والذي

(١) د. صالح أبو ديak، الوجيز في تاريخ الأندلس، ص 193.

شهد ضعفاً في الاهتمام بالولايات الإسلامية التابعة له. وانشغلوا الدائم بالغناهم والسي من الفتوحات أكثر من اهتمامهم، باعلاء كلمة الله ونشر الدين^(١).

7- السياسات التي اتخذها الولاة في الأندلس إزاء أهلها من المسيحيين واليهود من القسوة والاستهتار على غير عادة سياسة بعض ولاة الأندلس كطارق بن زياد أو حسان النعماني أو السمح بن مالك، قد أوجبت الشعور الوطني لأهل البلاد الذين أظهروا الجفاء للقوات الإسلامية، ودليل هذا إنهم كانوا أن يكونوا عاملأً مهمأً في سير الفتوحات، كما كانوا من قبل أدلة وأصدقاء.

8- يبدو أن الأمويين في سير فتوحاتهم لم يتبعوا إلى الشرط المضاري للتعامل مع الشعب، كما أنهم قد عدوا إلى نسيان دوره استحالة القوة وحدتها في المسار التاريخي العام. ولذا فإننا لم نجد أي آثر حقيقي استمر في تأثيره على علاقتهم بالأندلس سوى الإيغال بالفتاحات. على عكس ما سرّاه في دولتهم الثانية في الأندلس بقيادة عبدالرحمن الداخل.

هذه هي أبرز العوامل التي استعرضناها لسب سقوط المسلمين في فتح بلاد الشهداء. والواقع أننا لا نزعم أنها الأسباب الكاملة وراء هذه الأزمة، فدراسة هذه المعركة من البدء إلى النهاية يحتاج إلى جهد خاص، لا يتحقق مع دراستنا لتاريخ الأندلس في المعهد الإسلامي.

ولاة الأندلس بعد المهزيمة

عبدالملك بن قطن الفهري

أسرع والي أفريقيا عبيدة بن الرحمن إلى تنصيب عبد الملك الفهري، وكان هذا القائد قد انتبه إلى الظروف التقنية والمعنوية المتردية لجيش المسلمين الخارج من معركة مؤلة، على عكس الجانب الآخر الفرنجي الذي كان يتمتع بمعنويات عالية ولدتها

(١) وهذه سيرة مشهورة لخلفاء بي أمية وخصوصاً بعد موت عمر بن عبدالعزيز والتي ساهم في نهاية الدولة الأموية.

حالة الانتصار الكبير. فمضى إلى معاجلة حالة الانكشار الإسلامي، عن طريق شن حملة على أرض البشكن سنة 1115هـ ففتحها وغنم فيها الكبير⁽¹⁾ ثم عبر جبال البرت وعمل على تخصيص المدن والمعاقل التي احتلها المسلمين، وقد استغل هذا القائد الفوضى التي سادت في بلاد سبانيا بسب المزاحم المتواتلة ويسرب هريرة المسلمين في بلاط الشهداء وتقطير الجيوش الإسلامية من بروفانس إلى أربونة، كما أن قارلة كان مشغولاً يبحث نفوذه على ولايتي بورجونيا وليون ويدو أن قارلة كان يعتبر نفسه وجنته هم أسياد البلاد، فعمد على سياسة التفريق بين جنوده وأهل غالبة، إذ كان قارلة يحرم على جنده الزواج من أهل غالبة الأصليين، كما أمر جنوده باستباحة الكنائس وأملاكيها مما أثار غضب القساوسة وعامة الناس. وكانت هذه الظروف في مصلحة المسلمين الذين ثبتوا في الواقع التي احتلوها، كما أن بعض أهل البلاد قد جاءوا إلى المسلمين اققاء شر قارلة وجنته، وكان قائد المسلمين في أربونة وغالطة والتي كانت تسمية المصادر الأوروبية (يوفوس)⁽²⁾ والذي استطاع مع من وفد إليه من الإسبان أمثال الدوق ماورنت دوق مرسيلية بالاتحاد بقوة عسكرية استطاعت عبور نهر ردونة، واستولت على مدينة أرل، ونهبوا أديرة سان أبوتر ودير العذراء وهدم ضريح سان ميزير، ثم زحف الجيش إلى قلب بروفانس واستول على مدينة فريتا والتي تسمى اليوم سان رمي بروفانس، ثم توجه الجيش إلى صخرة أبنيون واستول عليها بعد مقاومة عنيفة، ووصل المسلمون إلى نهر دورانس وتمكنوا من احتلال بلاد بروفانس وتوقفوا عند هذا الحد بعد أن استعادوا بقيادة الفهري جزءاً كبيراً مما كانوا قد فقدوا بعد معركة بلاط الشهداء. كما أن قارلة لم يبرأ على السير لمقاتلة المسلمين، فقد أسرع إلى أكتناباً بعد موت الدوق أودو سنة 735م، وأرغم ابنه على الولاء له.

(1) المقرى، *فتح الطيب*، ج ١، ص 220.

(2) يغلب الكبير من الباحثين المعاصررين العرب بأن يوسف هذا هو نفسه يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي سيكون آخر ولاة الأندلس في حياة الدولة الأموية. انظر بهذا الشأن مؤنس، فجر الأندلس، ص 278. د. اليد سالم، *تاریخ المسلمين*، ص 147.

ويبدو أن القائد الإسلامي عبدالملك بن قطن قد اطمأن على جهود قاتله يوسف في أربونة، فلم يتجرأ عناء المير نحو الردانة فوجه كل جهوده نحو إمارات جبال البرت، لكن سياسة عبدالملك الستة والستينية تجاه هذه الإمارات والتي افترضت بهزيمته في معركة كبيرة غامضة لم تذكر المصادر عنها شيئاً يذكر⁽¹⁾ قد أدت إلى عزله في عهد إمارة عبد الله بن الحجاج وتولى بعده إمارة الأندلس عقبة بن الحجاج بعد أن انضم عبدالملك في ولادته ستين تقريباً.

عقبة بن الحجاج

إن المصادر التاريخية العربية تشيد بهذا الوالي وسيرته المحمودة، على العكس من سلفه الذي كان فهرياً قرشياً من حزب أهل المدينة ولم يكن موضع تقدير من بيته، رغم كل ما قام به من استعادة أجزاء كبيرة وغنم الكثير بعد معركة بلاط الشهداء. ومن العجيب في ذكر سيرة هذا القائد (عقبة) الجيدة مع الناس بالقول أنه (كان إذا أسر أسيراً لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويصبح عبادة الأصنام له)، فيقال أنه أسلم على يده ألف رجل⁽²⁾ !!

لقد كان المسلمين في ولاية عقبة قد ثبتو أقدامهم في بروفانس وغضبوا في المدن الكبرى، فجاء هذا القائد ليثير فيهم حاسة القتال فسار بهم إلى منطقة دوفينية واستطاع احتلالها، ودمر مدينة سان بول المرفورة بالقصور الثلاثة، وكذلك مدينة دوتزير⁽³⁾، كما استولى على ولاية فالنس الواقعة على نهر ردونة، ودمر كنائس منطقة فين، واستطاع عقبة أن يبعد فتح إقليم بورجونيا كلها، واستولى على ليون من جديد، وهكذا امتد النفوذ الإسلامي حتى وصل إلى بيدمونت في شمالي إيطاليا، وفي هذه الأثناء ظهر قارلة من جديد بعد أن أنهى حربه في شمال أوروبا وشرقيها بهذه مؤقتة مع اعداده سنة 737 م، ونفرغ للسير صوب الجنوب. فأرسل أخاه شيلبراند

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 279.

(2) ابن عذاري، الياب المزبور، ج 2، ص 29.

(3) شبيب ارسلان ص 105، حين مؤنس، فجر، ص 280، وما يليها.

على رأس جيش كبير نحو أبنون، وكتب إلى لوتيبراند ملك اللومبارد في شمال إيطاليا يمتهن على السير لهاجة قوة المسلمين الشرقية المتحصنة في جبل بيدمنت، في الوقت الذي سار فيه شيلد براند مع الرون حتى وصل أبنون وحاصرها، وكان المسلمين قد أحكموا تحصينها ففشل الجيش من اقتحامها، مما اضطر قارلة للسير بنفسه في جيش جديد، ولقد شدد الأخوان الحصار على المسلمين، ولم يستطع المسلمين الاستمرار في الدفاع عن أبنون رغم بسالتهم في الدفاع، فدخلتها جيش الأخوان. ثم قاد قارلة جيشاً إلى أربونة لاحكام الحصار عليها. في الوقت الذي أقبل لوتيبراند - ملك اللومبارد في شمال إيطاليا - بجيشه من جهة بيوسن. فقاتل المسلمون بضراوة للدفاع عن المدينة ولكن جيوش الفرنجة دخلتها بالقوة، وشتوا أوصال المسلمين، كما زحف قارلة بجيشه نحو أربونة بقصد الاستيلاء على سبانيا بعد أن ضمن بروفانس وحاصر عاصمة الإقليم، فلما تواردت الأخبار إلى القائد عقبة بأن قارلة سيطر على الحصار على أربونة، أرسل جيشاً بقيادة رجل يسمى إيزيدور الباقي (Amoriben Ailet)⁽¹⁾ ولعله عمر أو عمر بن الليث لساندة المدينة المخاصرة، قدم على رأس الجيش بغراً نظراً لوجود البشكنس حاجزاً بين الأندلس وسبانيا، والظاهر أن قارلة قد علم بوصول هذا الجيش لمساعدة المدينة المخاصرة، فتقدم لمفاجأة هذه القوة على نهر بري⁽²⁾ واستطاع أن يتزل بالجيش هزيمة قاسية أدت إلى مقتل قادتها عمر، ولم ينج من المسلمين سوى عدد قليل تراجع بعضهم إلى السفن التي أطلقهم، بينما فرّ الباقون إلى أربونة. وحاول قارلة أن يستولي على المدينة ولكن استبسال المقاتلين في الندو عنها حال دون دخول قارلة لها فاضطر إلى رفع الحصار عنها. خاصة أن ظروفًا جديدة طرأت من قبل الغريزيون والسكون الذين قاموا بالثورة على قارلة، فقام أثناء عودته إلى الشمال بتدمير القلاع الإسلامية في سبانيا مثل بيزي، وأجاده، ونيم وماجلون. وأسر من كان بهذه المدن من المسلمين وكبار أهل غالة وقادهم كرهائن

(1) مؤسس، فجر الأندلس، ص 283.

(2) أو نهر البر.

حتى يرغم أهل سبانيا على هزيمة المسلمين وعدم التعاون معهم، إذ أن هؤلاء السكان كانوا ينظرون إلى قارلة وجيشه مثل برابرة من الشمال، بينما يعدون أنفسهم أمة متحضرة ورثة لمدينة الرومان وحضارتهم.

وحيث وصل قارلة إلى الشمال، ظهر دوق مرسيليا مورونت من جديد وأتبع سياسة المصالحة مع المسلمين وأعيدت العلاقات بينهما. فتهيئ قارلة من هذا الخلف الجديد ضده، ويعنى إلى القضاء على هذا الدوق، فسار إلى الجنوب مع أخيه شيلدر براند سنة 739م. واستطاعوا الاستيلاء على مرسيليا واطاحاً بأهل الدوق في إقامة دولة مستقلة حليفة للمسلمين لكن وفاة قارلة في سنة 741م/123هـ قد أحدثت انقلاباً في موازين القوى فاضطررت أحوال الدولة الميروفنجية. وكان بوسط المسلمين أن يستفيدوا من هذا الظرف لولا إنهماكهم في القضاء على ثورة البرير، وكان عبد الملك بن قطن الفهري الذي عُزل من منصبه كما رأينا، قد استغل هذا الظرف فثار على الوالي مع قواته من اليمانيين واستطاع أن يعزل عقبة بن الحجاج، وتذهب الروايات إلى أن عبد الملك الفهري قد استبد بحكم الأندلس واشتعلت نيران الفتنة بين اليمانيين والمضربيين في الأندلس، إذ أنه استعان بالعرب الشاميين الذين كانوا عاصرين من قبل البرير في سبتة، لإخراج ثورة البرير في شمال الأندلس بمحليّة والدروب واسترقة وظليلطة، ثم أراد أن يترجمهم من الأندلس إلى حيث كانوا بسبعين حتى يتخلص من الشاميين أيضاً^(١). لكن الشاميين استطاعوا من الإنجهاز عليه وأخرجوه من قصره، وهم ينادون (أفلت من سيفنا يوم الحرة، فطلبنا بشارنا في أكل الدواب والجلود، ثم

(١) تشير الروايات أن الباب في معاذنة عبد الملك الفهري للشاميين هو أنه قد شهد موقعة الحرة وهو صغير ولم ينتهي مسانتها. وهي موقعة دارت بين الأمراء وأهل المدينة سنة 62هـ بالقرب من مكة وفيها قتل الأمراء خيرة شباب أهل المدينة. وكان الشاميين عماد قوة الأمراء آنذاك.

أردت إخراجنا إلى القتل)، ثم قتلوه⁽¹⁾. ولما علم عبد الرحمن بن علقة التخمي قائد المسلمين في أربونة غالة بمقتل عبد الملك استاء كثيراً وعزم على الانتقام من قتله الشاميين. فجهز جيشاً مؤلفاً من المقاتلين المسلمين في أربونة قوامه مائة ألف مقاتل على رواية أخبار المجموعة وأربعين ألفاً على رواية ابن القوطية. وسار به إلى الأندلس لممارسة بلج بن بشر القشيري والشاميين. واثبت جيشه مع جيش بلج في موقع بروطورة من إقليم ولبة، فانهزم جيش عبد الرحمن وقتل من قواته الكبير. إلا أن بلج قد قُتل في المعركة، وانسحب عبد الرحمن إلى الأندلس مع جيش المسلمين. وكان لهذا الاسحاب الأثر السبب على مواقع المسلمين في غالة، إذ ان انسحاب هذه القوات أدى إلى استقلال الكثير من المدن عن الحكم الإسلامي، مثل نيم ومحلونة وأجدة وبيري، كما استقلت بعض إمارات البرنات مثل قطابرية ونبرة⁽²⁾.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري

كان تعين يوسف الفهري من قبل الصميل على ولاية الأندلس. لأسباب كثيرة استطاع الصميل بمحكمته ودهائه أن ينفع قاتل الفتنة بين القيسين واليمانيين. ومن هذه الأسباب⁽³⁾:

1. كان يوسف الفهري قياماً من عصبة الصميل.
2. ليوسف وجامة بين القرام لاتسابه إلى عقبة بن نافع فاتح المغرب ويانى القبروان، وهذا يساعد على تخفيف الانقسام حوله لتأريخه الجيد.
3. كبر سنه يجعل هذا الأمر ميزة ليوسف في وقت الأزمات إذ كان من المتعارف بين العرب احتمامهم إلى الشيخ حكمتهم.
4. كان رجلاً ليناً في سياساته مع رعيته.

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 45.

(2) مؤنس، نجر، ص 288.

(3) انظر: د. صالح أبو ديak، الوجيز في تاريخ الأندلس، ص 214 وما يليها.

5. كان التنافس على ولاية الأندلس، لا يمكّن مؤهلات هذا القائد ومن أبرزها الكفاءة والخبرة والخادبة.

ولما تولى يوسف الفهري ولاية الأندلس، حاول أن يستعيد ما خسره المسلمون في بلاد الأندلس، فجهز جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن للسير إلى أريونة وما يليها من المدن لاستعادة سيطرة المسلمين عليها. ولكن مهمة كهذه في ظروف الشرذم والتفكك الذي أصاب ولايات الأندلس بسبب هزيمة المسلمين واستقلال هذه الولايات وغو المقاومة ضد التغوث الإسلامي المتسلل داخلياً. قد جعل من مهمة جيش الفهري أثباً بالمستحيلة، إذا ما عرفنا انتقطاع الاتصال بين الأندلس وسمانيا بعد سيطرة أهل جليقية على هذه المنطقة. واستغلال هذه الظروف من قبل بين الثاني ابن القائد الفرنخي قارلة فار إلى أريونة قبل أن يتحرك إليها فافير ابن الدوق أوردو⁽¹⁾، فسار بين الثاني إلى اللاذقية واستولى على نيم وأ jade وبلونة وبيريز، وتقدم إلى أريونة وحاصرها واستطاع فتحها بالقورة سنة 133هـ / 752م.

ثم أخذ تغوث الفرنجة يتشر في شبه جزيرة إيبيريا وخصوصاً أواخر أيام بين وبداية عهد ابنه شارل المعروف بشارلمان. فلملمت مدينة جرندة للقوات الإفرنجية، وذلك قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بن معاوية بزمن قليل، كما أن الأمير هشام بن عبد الرحمن قد كلف قائدته عبد الملك بن عبدالواحد بن معيت للسير إلى هذه المدينة، ولكنه لم ينجح في السيطرة عليها، فاضطر إلى رفع الحصار عنها واستمر في زحفه إلى سبانيا. وكان في ذلك الوقت، أن لويس بن شارلمان ملك أكتانيا منشغلًا في حربه في إيطاليا، بينما كان أبوه شارلمان متشغلاً بقتال الأفارين. وأمام حالة انشغال جيوش الفرنجة في جهات قتال متعددة، اضطر دوق طولوثة جين⁽²⁾ إلى التصدى لجيش المسلمين الزاحف، والنقي الجيshan على ضفاف نهر أريبر بالقرب من قرية فيلدبي، وتقع بين فرقشونة وأريونة. واستطاع الجيش الإسلامي هزيمة جيش الدوق واستطاع

(1) دوق أكتانيا والذي كان حليماً للمسلمين ثم صار في حلف قارلة ضدهم كما رأينا.

(2) المعروف في شعر الملحم الفرنجية باسم جيرم ذي الألف القصیر.

المل慕ون من الحصول على غنائم كبيرة، وحلوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى إلى قربة. وقد بقي القائد عبد الملك يصول ويجلو في البلاد شهوراً يجرب القرى ويختبر الحصون⁽¹⁾. ويؤكد بعض المؤرخين العرب أن عبد الواحد بن مغيث قد افتح أربونة، وأن الأمير هشام أقام قنطرة قربة وجامعها من حُمُس غنائمه⁽²⁾. ولكن المصادر المسيحية لم تشر إلى هذا القبيل. والمهم لدينا أن عصر الولاية هذا قد انتهى بسقوط الخلافة الأموية في دمشق، وظهور الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان على مسرح الأحداث في الأندلس. والتي ستعرض لها بالتفصيل في الفصل اللاحق.

أحوال المجتمع الأندلسي في عصر الولاية

لقد شهد هذا العهد فترة من الاضطرابات السياسية والعرقية والاجتماعية والعسكرية، إذ أن فترة الولاية التي استمرت اثنتين وأربعين عاماً، قام على ولايتها عشرون ولياً، دليلاً على حالة عدم الاستقرار في مناحي الحياة المختلفة. ولابد لنا أن نذكر أولاً التركيبة السكانية للأندلس في هذا العصر التي تكون من العناصر التالية:

1. المسلمين (ويتكونون من البربر والعرب).
2. المسيحيون (وهم سكان المناطق المقلبة الولاء للحكم الإسلامي وهم الذين كانوا مصدر قلق للحكم الإسلامي، لأنهم لم يهادنوا المسلمين. وكانت مواقع سكناهم تسمى دار حرب).
3. أهل الذمة (وهم الذين يعيشون في القسم الإسلامي من الأندلس ويدفعون الجزية، وينضعون لكل متطلبات الجيش في ظل الحكم الإسلامي).
4. اليهود.
5. عبادة الأصنام.

(1) ابن عذاري، ص 95.

(2) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص 316.

الأحوال السياسية والإدارية

كان عهد الولاة عهد تأسيس وفتحات ونزاعات بين العصبيات المختلفة، وكانت الأندلس في هذا العهد ولاية تابعة رسمياً للدولة الإسلامية في دمشق زمن الأمويين، ولكن ضعف الدولة الأموية وبعد الأندلس عن سيطرتها جعل من سلطة الأمويين سلطة شكلية اسمية، إذ كان والي الأندلس يعين من دمشق، أصبح يتم تعينه في أغلب الأحيان من قبل والي أفريقيا، إن لم يكن من قبل أهل الأندلس أنفسهم.

وكانت الحكومة في عصر الولادة تعتمد في حكمها على سيادة الوالي المطلقة فكان هو الحاكم والقائد والقاضي، وكان الوالي يعين عملاً على المدن المختلفة ويكونوا تابعين لسلطة الوالي بشكل مباشر. أما سكان البلاد من غير المسلمين فكانوا يمارسون أعمالهم في وظائف إدارية مختلفة خاصة بهم، وكان للمسيحيين قضاة خاصون بهم يحكمون فيه بموجب القانون القوطي. وكان القاضي منهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم. وكان لليهود أيضاً نظام قضائي وإداري يشبه نظام المسيحيين.

الأصول الاجتماعية

تسم الحياة في الأندلس بطبيعتها الحضرية، إلا أن المسلمين في عصر الولادة قد اختنقوا من طابع حياتهم البدوية مسلكاً في الحكم في العصبية والثار .. الخ. وظل المولودون في الأندلس يمارسون مهنة الزراعة بالإضافة إلى مارستهم بعض المهن والحرف الأخرى، وهذا أدى إلى منافاتهم للMuslimين في الدرجة الاجتماعية لأقربتهم أيضاً. على أن البعض منهم لم يكن مخلصاً في إسلامه. وكثير اختلط الأنساب في الأندلس نتيجة للزيجات التي تعقد بين المسلمين والمسيحيين والعرب والبربر. وكان المولودون يتذمرون عادة أسماء عربية ويتباهون إلى أصول شرقية، وقد اختنقوا اللغة العربية والزري العربي تغييراً عن المولودين الذين لم يدخلوا في الإسلام^(١).

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ١٦٧.

الأحوال الدينية

كان أهل الأندلس في عهد الولاة على مذهب السلف وأهل الحديث، أي أنهم كانوا يتبعون الصحابة من غير تقيد بمذهب مخصوص، على عكس ما نقله المقري عن طبعة مذهبهم الفقهي آنذاك إذ يقول (واعلم أن أهل الأندلس كانوا في التديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح). ولا يمكن الركون إلى صحة هذه الرواية، لأن الأمام الأوزاعي قد ولد سنة 88 هـ قبل فتح الأندلس باربع سنوات فقط.

وبالإضافة إلى الدين الإسلامي ومن دخل به من الإسبان، فإن هناك جماعات كثيرة من الإسبان لم تدخل في الإسلام إطلاقاً، والبعض دخل خوفاً أو من أجل مصلحة معينة، ولقد لاحظنا ارتداد الكثير منهم في جلية بعد الحملة المسيحية لهم في الشمال.

ولم يكن تعاطي الخمور شائعاً، إلا أن بعض الروايات تشير إلى أن الصمبل كان مدمناً على الخمرة !

وكان للمسيحيين تنظيم ديني يشرف عليه رجال دين مسيحيين، وكان لهم ثلاثة مطرانيات (أبرشيّات) في مناطق طليطلة وإشبيلية وماردة وكان لهم أيضاً ثمانية عشرة أستقافية، والكثير من الأديرة وكان في قرطبة وحدها 15 ديراً.

كما أن لل المسلمين مساجدهم التي بنيوها بعد أن استولوا على المدن الإسبانية. وكان المسلمون يقسمون الكنائس بين الذين أسلموا وبين الذين بقوا على ديانتهم المسيحية من أهل المدينة الواحدة. ولقد شهدت الكنائس والأديرة دماراً على يد المسلمين حيث يتخذونها حصنواً لقاتلة المسلمين.

وبرغم انتشار مذهب الأباذية والأصافرة في أفريقيا والمغرب، لكنه لم يصل إلى الأندلس في عهد الولادة.



الفصل الخامس

- عصر الإمارة الأموية
- سقوط الدولة الأموية في الشرق
- العباسيون يتبعون أفراد العائلة الأموية
- الأمير الطريد
- ملحمة المروب
- كيف وصل الأمير إلى المغرب؟
- خطة عبدالرحمن بن معاوية لدخول الأندلس
- عبدالرحمن في الأندلس
- محاولة لاحتواء خطر عبدالرحمن
- الاستعدادات للقتال
- معركة المصارة
- حوادث مهمة قبل دخول عبدالرحمن إلى قرطبة
- مصير يوسف الفهري والصميل
- عبدالرحمن الداخل أميراً على الأندلس
- مؤهلات عبدالرحمن الشخصية
- إنجازات صقر قريش
- نماذج من نثر وشعر عبدالرحمن الداخل
- أمراء قرطبة بعد عبدالرحمن الداخل
- الأمير هشام الرضا
- الأمير الحكم بن هشام الريضي
- الأمير عبدالرحمن الأوسط
- عصر الأضطرابات
- موجز للمشهد السياسي في عصر الأضطرابات

الفصل الخامس

عصر الإمارة الأموية في الأندلس (316-138 هـ / 929-756 م)

سقوط الدولة الأموية في الشرق

نرى أن نتطرق إلى العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية في الشرق ويروز العباسيون هناك، لأن ظهور الدولة العباسية كان السبب الخامس وراء ثورة إمارة الأمويين في الأندلس ثانية. فالأمويون كما رأينا في عصر الولاة، كانوا قد فقدوا جزءاً كبيراً من سلطتهم المركزية في ولاية الأندلس، نتيجة لتناعي أو ضاعفهم في مراكز الخلافة في الشرق ولا سيما في العراق وغيرها. هذه الأمور جعلت من الدولة الأموية تحمل عوامل سقوطها من الداخل، إضافة إلى تامي النظر الناشئ من قبل آل بيت الرسول محمد وأبناء عمومتهم العباسين. ومع الزمن بدأت علامات الشيخوخة ترسم ظلماً لها على مُستقبل الأمويين في الشرق. فالدولة الأموية قد نشأت منذ البداية على عاملين رئيسيين هما: القوة والخليفة السياسية، إذ كان معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة قد جعلهما من ثوابت السياسة الأموية في الحكم^(١) وصارت ستة متبعة لهذه الدولة الإسلامية، إلا من بعض الاستثناءات، الذي مثلها الخليفة عمر بن عبد العزيز، إلا أن يصر عمر هذه الولاية العادلة لم يمكن هذا الخليفة من إصلاح ما أفسده السابقون، ولم

(١) كما حدث في واقعة التحكيم في صفين كنموذج للحجارة والدهاء السياسيين. أو ما حدث بعد في زمن يزيد بن معاوية في واقعة كربلاء وما ثغّرها من قتل الحسين بن علي والتثبيج بعالته وأنصاره بقصوة دموبية.

يُكَلِّفُ الْأَمْوَابِ عَمَرَ قَدْ صَارَ غَوْذِجَاً وَقَدْوَةً لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْخَلْفَاءِ الْأَمْوَابِينَ. لَقَدْ حَوَّلَ الْأَمْوَابِينَ سَاحَةَ الْخَلْفَةِ إِلَى حَلَبةِ الْمُصَارِعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ أَصْلًا وَالْعَرَبُ بِالْذَّاتِ، فَهُنَّاكَ فَرَقةُ الْخَوارِجِ وَغَيْرُهَا. وَهُنَّاكَ الْأَذَكَاءُ الْمُتَعَمِّدُ لِلْخَلْفَةِ بَيْنَ الْقَيْسَيْنِ وَالْبَيْنَيْنِ، نَاهِيكَ عَنْ مَوْقِفِ الْأَمْوَابِينَ تَجَاهَ الْبَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَابْنَاءِ الطَّوَافِ الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ. وَسِلْطَخُنُ لِلْمُؤْرِخِ الْمُسْعُودِيِّ فِي مَروِّجِ الْذَّهَبِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلْأَسَابِ الْرَّئِيْسِيَّةِ لِسُقُوطِ الدُّولَةِ الْأَمْوَابِيَّةِ فِي الْشَّرْقِ بِقَوْلِهِ (سُئِلَ بَعْضُ شِيَوخِ بَيِّنَةِ وَمُحَصَّلِيَّهَا - أَيِّ الْمَطَّلُونَ عَلَى أَخْبَارِ الدُّولَةِ - عَقِبَ زَوَالِ الْمَلَكِ عَنْهُمْ إِلَى بَنِي الْعَبَاسِ: مَا كَانَ سَبَبُ زَوَالِ مَلَكَكُمْ؟ قَالَ: إِنَّا مُشْغَلُونَ بِذَلِكَاتِنَا عَنْ تَفَقُّدِ مَا كَانَ تَفَقُّدَهُ يَلْزَمُنَا، فَظَلَّمُنَا رَعِيَّتَنَا، فَيَشْوَى مِنْ إِنْصَافِنَا وَتَنَّى الرَّاحَةُ مِنَاهُ، وَتَحْوِلُ عَلَى أَهْلِ خَرَاجِنَا فَتَخْلُوا عَنَّا، وَخُرِبَتِ ضَيَاعُنَا فَخَلَّتِ بَيْوتُ أَمْوَالِنَا، وَوَتَّقَنَا بِزُورَاتِنَا فَأَتَرَوْا مَرَاقِفَهُمْ عَلَى مَنَافِعِنَا، وَأَمْضَوْا أَمْوَارًا دُونَنَا أَخْفَوْا عِلْمَهُمْ عَنَّا. وَتَأْخَرَ عَطَاءُ جَنَدِنَا فَرَالَتْ طَاعَتِهِمْ لَنَا، وَاسْتَدِعَاهُمْ أَعْادِيْنَا فَتَظَاهَرُوا مَعْهُمْ عَلَى حَرَبِنَا. وَطَلَبَنَا أَعْدَاؤُهُمْ فَعَجَزَنَا عَنْهُمْ لِقْلَةُ أَنْصَارِنَا، وَكَانَ اسْتَارُ الْأَخْبَارِ عَنَّا مِنْ أُوكَدِ أَسَابِبِ زَوَالِ مَلَكَنَا) ^(١).

لَمْ يَكُنْ مَا نَقَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ بِرَغْمِ دَقَّةِ التَّشْخِيصِ لِعِوَامِلِ سُقُوطِ الدُّولَةِ الْأَمْوَابِيَّةِ، وَحْدَهُ كَافِيًّا لِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ الْقاطِعِ عَلَى هَذِهِ الظَّرُوفَ، وَلَكِنَّنَا نَحْنُ فِي نَقْلِ نَصِّ تَرَاتِيَّ فِي الْقَدْرِ الْكَبِيرِ مِنَ الْمَعْرِلَةِ لِنَقْلِ وَقَاعِمِ وَأَسَابِبِ اِنْهِيَارِ الدُّولَةِ الْأَمْوَابِيَّةِ فِي الْشَّرْقِ، إِذَاَ الكَثِيرُ مِنَ النَّصَوْصِ الْمُعَاصِرِيِّ الَّتِي ارْتَدَتْ قَنَاعًا لِلِّدَفَاعِ عَنِ الْعَرُوبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالْدُّولَةِ الْأَمْوَابِيَّةِ بِخَاصَّةٍ، بِرَصْفِهَا مَرْحَلَةُ الْجَدِّ الْعَرَبِيِّ وَدُورُهُ الْحَاسِمُ فِي نَشَرِ الْإِسْلَامِ فِي بَقَاعِ نَاثِيَّةٍ عَنْ مَوْلَدِهِ الْأَوَّلِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. لَقَدْ زَالَتِ الدُّولَةُ الْأَمْوَابِيَّةُ فِي الْشَّرْقِ وَفَقَاءَ لِقَوَانِينِ التَّطَوُّرِ النَّوْعِيِّ لِسِيرِ الْجَمَعَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ ابْنِ خَلْدُونَ فِي تَفْسِيرِهِ لِلتَّارِيخِ (بِيَدِهِ تَارِيخُ حَتَّةٍ مَا مَتَدَفِّقًا كَالطَّفَلِ، وَبِعَدِهَا نَشِطًا كَالشَّابِ، فَنَاضَجَ كَالكَهْلِ، ثُمَّ وَاهَنَ كَالْعَجُوزِ، وَأَخِيرًا عَاجِزًا قَبْلِ مَوْتِهِ، إِلَى أَنْ تَنْهيَ دُورَةً تَارِيْخِيَّةً لِتَبَدِّي أَخْرَى).

(١) الْمُسْعُودِيُّ، مَرْوِجُ الْذَّهَبِ، ج ٢، ص ١١٤.

فإذا كان فهم ابن خلدون للسير حتية تاريخية، يصبح تقريراً على نشوء وانهيار الإمبراطوريات الإسلامية وتلك الحالية لها في الغرب، فأننا سنجد لدور القائد الفرد في تاريخ الإمارة الأندلسية في عهد الأمويي الطريد، شأنها مثيرةً.

العباسيون يتعقبون أفراد العائلة الأموية

لم يكفل العباسيون بنصرتهم التزوج على العلوين والأمويين معاً، فبعد أن هيمتوا على مراكز القوى الأموية من خلال أبي سلمة الخلال في الكوفة وأبي مسلم الخراساني في إيران، وتنصلهم عن أحقيّة العلوين من آل بيت محمد في الحكم. راحوا يلاحقون أيّ أثر للمعوالي الأموية في أمصار المسلمين. وبعد سقوط خراسان على يد أبي مسلم الخراساني والكوفة على يد أبي سلمة الخلال حدث اللقاء الحاسم بين جيش الخليفة الأموي مروان بن محمد والقائد العباسي عبدالله عمّ أبو العباس السفاح العباسي. وكان مروان قد أعدّ جيشاً كبيراً في منطقة حران وسار به إلى الوصول في شمال العراق، وهناك على نهر الزاب الأعلى⁽¹⁾ كانت المعركة الخامسة والعنيفة والتي انتهت بهزيمة الأمويين، وهرول الخليفة مروان إلى قسربن، فتابع القائد العباسي سيره إلى حصن ثم إلى دمشق، فقابلته الوليد بن معاوية بن مروان في قبة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل، إلا أنه انهزم أمام العباسيين وسقطت دمشق. وبدأت مرحلة تصفيية أفراد العائلة الأموية، فقد لاحق العباسيون مروان بن محمد وأدركوه في قرية بوصير في الفيوم في مصر فقتلوه وأخذوا رأسه إلى أبي العباس السفاح في الكوفة.

وكان أبو العباس السفاح⁽²⁾، شديداً على الأمويين حتى بعد هزيمتهم، فقد عُني بشأن مطاردتهم من خلال تكليف عمّه عبدالله بن علي وهو في الشام لتنظيم قوة مهمتها إلقاء القبض على بقايا العائلة الأموية وقتلهم، فقام عبدالله بتنفيذ أمر الخليفة

(1) أحد روافد نهر دجلة في العراق.

(2) هناك رأيان في لقب السفاح هنا: أنه لقب بالسفاخ لكترة ما سُنح من الدماء، بينما الآخر يقول بأن أبي العباس هو الذي أطلق على نفسه هذا اللقب بعد توبيه المخلافة، فقال خطيباً في مسجد الكوفة شيئاً بقوله (فاستدرنا فانا السفاح لبي، والثارى النجح) وكان هذا في سنة 132 هـ / 749 م.

وأخذ يتعقب بني أمية ومواليهم في كل مكان حتى تمكن من قتل عدداً كبيراً من النساء والسادة وحتى النساء والأطفال. ومن كثرة ما سفك من دماء الأمويين يقال أن السفاح قد ندم على قسوته تجاه الأمويين، فقرر أن يغفو عن الباقيين وينهمم الأمان الكامل. فسلم الذين كانوا منتخبين أهلًا في غفر السفاح ويقدر عددهم بسبعين، ولكن السفاح في الحقيقة كان بهذه السياسة⁽¹⁾ قد نصب فخًا لبني أمية، فقبض عليهم وقام العباسيون بتعذيبهم حتى الموت.

ولكن هذه المطاردة رغم دمويتها وجديتها لم تستطع أن تقضي على كل الأمويين، فقد استطاع بعضهم الإفلات من قبضة العباسين وكان من أبرز هؤلاء هو عبدالرحمن الأمير الذي سيعيد أمجاد الأمويين في الأندلس.

الأمير الطريد

قبل الدخول في تفصيات قصة المطاردة الطويلة لهذا الأمير الأموي من قبل العباسين، نجد من الضروري أن نذهب إلى معرفة بعض المعلومات عن هذا الأمير. فهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ويكفي بالي معرف. أما أمه فهي (راح) من قبائل البربر وكانت إحدى سبايا المغرب. ولد في عام 113 هـ / 731 م، في قرية (ديرحنا) في منطقة قنرين في الشام فيما يرى البعض أنه ولد في (بالعليا) في تدمر. ويرجح بعض الباحثين المعاصرين الرأي الأول⁽²⁾ في ولادته، توفي أبوه عام 118 هـ / 736 م، فكفله جده هشام مع بقية أخواته. ويفيدوا أن عبدالرحمن كان صاحب حظوة عند جده هشام منذ أن تولى تربيته بعد وفاة أبيه، إذ تشير المصادر إلى أن هشام قد (وهب له) جميع الأخصاس التي اجتمعت للخلافة في الأندلس، وأقطعه إياها، ووجه خياراتها من الشام سعيد بن أبي ليلى⁽³⁾ (ويتابع الموري وصف عبدالرحمن (بأنه كان طورل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، له

(1) يبدو أنها نفس سياسة الحيلة والمكر التي اتبעה معاوية بن أبي سفيان أول علقاء بني أمية ضد أعدائه.

(2) انظر مثلاً: د. خالد الصوفى، تاريخ العرب في الأندلس، عصرة الإمارة، ص 43.

(3) الموري، نفح الطيب، ج 1، ص 312

ضفيرتان، أصهب، أعور، أخشم): كما كان طموحاً وحليماً وهو ما سرّاه من تأثير على حياته.

ملحمة هروب

لاشك أن قصة هروب عبدالرحمن بن معاوية من بلاد الشام ووصوله إلى بلد بعيد مثل الأندلس وما صاحبها من مصاعب ومشاق كبيرة، يمثل ملحمة حقيقة كان بطلها الأمير الطريد.

بدأت وقائع هذه الملحمة منذ أن نكث أبو العباس السفاح بوعده الذي قطعه على الأمويين بالأمان وغدره بهم. إذ كان عبدالرحمن في رحلة صيد^(١) فلم يستطع العباسيون من القبض عليه، فقرر الفرار وكانت محطة الأولى التوجه إلى قرية على نهر الفرات متضجعاً معه بعض أفراد عائلته، وذلك لوجود أخته في هذه القرية، وبقي هناك فترة عانى فيها من رمد عينيه، حتى تمكّن العباسيون الوصول إلى مكانه واستطاعوا النجاة بأعجوبة من قبضتهم. وقد يبدو أن مطاردة بنو العباس لهذا الأمير وبهذه الفاعلية والجدية تجعلنا نطرح سؤالاً عن الفكرة التي كانت تراود هذا الأمير للمكان الآمن الذي ينوي الوصول إليه؟ هل حقاً أن الأندلس هي محطة الأخيرة التي اختارها سلفاً أم أن المصادرات ومطاردة العباسيين له في كل مكان وصل إليه من الشام إلى أفريقيا والمغرب كانت السبب في اختيار الأندلس ملاداً أمّا؟

لا يمكن الجزم بعزم الأمير الأموي إلى السير للأندلس مقترباً بسبب واحد لاما إذا علمنا أن المصادر التاريخية قد جاءت بقصة أشبه بالأسطورة تفيد بنبوة مسلمة بن عبد الملك بتولي عبدالرحمن الأموي ولاية الأندلس وهو ما زال في سن العشرين في عهد جده هشام الذي تكفل بتربيته بعد موته. فائز هذه القصة ينبع إلى احتمالين. الأول: أن هذه القصة ملقة قد حикت بعد الانتصارات التي حققها عبدالرحمن في مسيرته ووصوله إلى الأندلس، والاحتمال الثاني هو: أن القصة التي

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص 659.

تذهب المصادر التاريخية بأنها رويت من قبل عبدالرحمن نفسه لاستخدامها كمؤثر معنوي للوصول إلى أهداف سياسية تحقق طموحاته بليل الولاية في مكان بعيداً جداً عن سلطة العباسين، لاسيما وأن عبدالرحمن قد وصف بالرجل الطموح والحكيم وصاحب الحظوة منذ صباح في بيت جده هشام بن عبد الله. والقصة كما نقلتها المصادر التاريخية⁽¹⁾ تفيد وعلى لسان عبدالرحمن بقوله: (كان أبي قد هلك في زمان جدي رحمه الله وكانت صبياً إذ هلك، فاقبلي بي وأخوتني إلى الرصافة إلى جدي، وسلمة بن عبد الملك لم يمت بعد، فتحن وفوقاً بياباه على دوابته، إذ سال مسلمة عنا، فقيل أيام معاوية، فاغرورقت عيناه بالدم ثم دعا بنا الآتين فاقبلي يدعونا حتى قدمت إليه فأخذني وقبلي ثم قال للقيّم: هاته، فائزلي عن داتي وجعلني عن أمامي وجعل يقبلي ويكي بكاءً شديداً فلم يدع بعدي من كان أصغر من أختوتي وشغل بيَّ فلم يفارقني.. ثم دنا من جدي فقال له: تداني الأمر.. هو هنا.. قال: أي والله! قد عرفت العلامات والإمامات بوجهه وعنته.. قال: ثم دعى القيّم فدفعته إلى أنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها.. فكان جدي رحمه الله يؤثرني ويعاهدني بالصلة..).

ونحن نتفق مع د. خالد الصوفي⁽²⁾ في أن الأندلس كانت الخيار الواقعي لعبدالرحمن بن معاوية لأسباب مهمة تشتراك مع الخيارات التي طرحتها والتي كانت أمام عبدالرحمن في هروبها الملحمي من قبضة العباسين. وهي:

- يمكن أن تكون الأندلس البعيدة جداً عن مركز الخلافة العباسية هي الملاذ الآمن والمناسب للأمير الطرير.

- عبدالرحمن ليس أول الأميين الذين فكروا في الهروب إلى أماكن خارج سيطرة العباسيين. فقد سبقه أبناء الوليد بن يزيد وجزي بن عبدالعزيز بن مروان وعبدالملك بن مروان وغيرهم.

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 61.

(2) د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 16.

- وجود أحوال عبدالرحمن من قبيلة بني نفرة في برقة من بلاد المغرب شجعه على الهروب إليهم، والتي ستكون خطوطه الوائقة للوصول إلى الأندلس.
- المشهد السياسي المضطرب في الأندلس الثالثة في ولائها بين الأمويين والعباسين قد أذكى في نفسه جذوة الوصول إلى هذه المنطقة عسى أن يتحقق فيها أحلامه.
- وبعيداً عن كل الأسباب التي ذكرناها بخصوص اختيار عبدالرحمن للأندلس، سمعضي لتصويف أجزاء رحلته الواقعية والتي بلغ الأندلس فيها أخيراً.

بعد الحادثة المروعة التي شهدتها عبدالرحمن في بلاد الشام والتي أدت إلى مقتل أخي الصغير على ضفاف الفرات^(١)، إذ استطاع عبدالرحمن من عبوره ثم واصل السير إلى أرض فلسطين. وهناك وصل إليه أخلص التابعين له مولاه بدر وسالم مولى أخيه ومعهما الأموال التي كان عبدالرحمن ذكيّاً في وصف خط رحلته لهم، إذ بلغه أسفياً، ومعهم علةً لمواصلة الاختفاء عن أعين العباسين في سيرته للهرب منهم.

ومن فلسطين إلى مصر وصل عبدالرحمن إلى برقة التي مكث فيها مع بدر وسالم يتذكرون في شؤون خط مسارهم للوصول إلى أبعد مكان عن السلطة العباسية.

كيف وصل الأمير إلى المغرب؟

قبل أن نذكر كيف وصل الأمير إلى المغرب، نرى أن نذكر بعض الأسباب التي نراها حاسمة لترك عبدالرحمن أفريقيا متوجهاً إلى المغرب.

كان وصول عبدالرحمن إلى أفريقيا في عهد ولاية عبدالرحمن بن حبيب الفهري، وهو قائد قد كتب حديثاً ولاء الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح^(٢) لشبيه على ولاية أفريقيا بعد أن كان والياً للخلافة الأموية، فمن الطبيعي أن يكون متحاساً

(١) للمزيد من الاطلاع على هذه الحادثة، انظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص 66.

(٢) بعد ذلك جاء الخليفة المتصور فخلع عنه الولاية، بعد أن كتب عبدالرحمن الفهري إلى المتصور بـان لا يرهق بالعطايا لأن أفريقيا أصبحت جيّعاً إسلامية.

من وجود أي أمرى في بلاده مثلاً تؤكد المصادر التاريخية بأنه (صار ابن حبيب يقتل الوافدين إليه من بني أمية، ويأخذ أموالهم)⁽¹⁾ وقد نفذ فعلاً هذه السياسة تجاه الأمريين، فقتل ولدين للوليد بن يزيد، كانا قد أحتميا به! وصادر أمراؤه من إسماعيل ابن أبيه بن عبدالعزيز بن مروان، وما أن سمع بوجود عبدالرحمن بن معاوية في أفريقيا كان لابد أن يستفر قواه للقبض عليه، إلا أن الأمير الطريد صار يشم رائحة الخطير على حياته قبيل وقوع المخطور، واستطاع الفرار من أفريقيا ولعل تكرار خجاء هذا الأمير من قبضة العباسين أو ولاتهم قدّمت مادة للمصادر التاريخية كعادتها لكي تختلق أساطير وخرافات، فجاءت قصة اليهودي وبنوته لظهور أمرى أموي اسمه عبدالرحمن له ضفيرتان سيكون له الحكم في الأندلس. وتؤكد هذه الخراقة بأن عبدالرحمن قد اتخذ ضفيرتين تيمناً بأن يكون هو المقصود. وهذا بزعمهم أدى إلى فرار عبدالرحمن من أفريقيا.

هذه أهم الأسباب التي دفعت عبدالرحمن بن معاوية على الفرار من أفريقيا، أما عن وصوله إلى المغرب، فتنتقل الروايات، أن عبدالرحمن لم يستقر في منطقة واحدة دون أن تشير إلى تنقلاته من البداية حتى النهاية، ولكن خلاصة الروايات تفيد أن عبدالرحمن قد وصل إلى برقة، فقام فيها فترةً بعد أن قدم من مصر، ثم توجه منها إلى طرابلس، ومنها إلى القبروان متبعاً سيره إلى المغرب الأقصى حيث أنهى رحلته. أما فيما يتعلق برحلته الأخيرة بين تونس والمغرب الأقصى، فيمكن تلمسها من خلال أكثر من مصدر، إذ (إن عبدالرحمن خرج هو وعامة أصحابه من أفريقيا فاقتربوا من بلاد البربر، فسار ابن معاوية إلى موضع يقال له - باري - فنزل في قبالة يقال لها - مكناسة - فنالَّ عندهم تضيق يطول ذكره، ثم خرج من عندهم حتى بلغ البحر فنزل في - سبورة - فكان في نفزة وهم أخواله، إذ كانت أمه نفڑية).

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 61.

بينما يذكر مصدر آخر: (بعد خروج عبدالرحمن من أفريقية، لحق بمغيرة وبقال بمكتابة وبقال نزل على قوم من زناتة فاحسنوا قبولة واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة)⁽¹⁾.

وبعد إطلاعنا على تفاصيل وصول الأمير إلى المغرب واستقراره أخيراً على شاطئ البحر المتوسط المقابل للأندلس، بدأ بالخطيط للوصول إلى الأندلس.

يبدو أن الأشواط التي قطعها عبدالرحمن من الشام إلى المغرب، وبداية تفكيره بالوصول إلى الأندلس، تدلل على صحة الأسباب التي ذكرناها في اختياره للأندلس مقاماً أحيراً، رغم أن باحث معاصر بري⁽²⁾ (أن الطمع في الإمارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيرة عند طنجة، وربما نشأت في نفسه هذه الأطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا يأس بها من الأمور تعيش في ناحيتي البيرة وجيان مسطورة بين جنود دمشق وقسرى).

خطة عبدالرحمن لدخول الأندلس

بعد أن وصل واستقر عبدالرحمن في الساحل قرب مضيق جبل طارق، وصار الطريق إلى الأندلس على مرمى حجر، بدأ برسم خطة للوصول إليها. فكان لابد أن يكرر أسلوب الأميين الأول في الفتح. فأرسل أكبر ثقاته وهو مولاه بدر لاستطلاع الأمر في الأندلس، ولكن عبدالرحمن قبل أن يرسل بدرأً للاستطلاع كان على اطلاع بأحوال الأندلس وقوة الأميين وضعفها، بعد أن كانت الأندلس تحت ولاية يوسف الفهري والصميل بن حاتم. لاسيما وأن أخبار الأندلس قد وصلته من سالم مولى اخته الذي شارك مع موسى بن نصير في فتوحات الأندلس، وقد شجعه أخبار سالم على المسيرة الجدية، ليس للهروب من خطر العباسين فقط، وإنما لتحقيق أحلامه. في استعادة الجيد الأموي ثانية. فما هي الظروف التي كانت سائدة في الأندلس التي

(1) للمزيد عن أخبار عبدالرحمن في هذه الفترة، انظر: د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 20 وما يليها. كذلك، مؤنس فجر الأندلس، ص 663 وما يليها.

(2) مؤنس، نجر، ص 665.

شجعت هذا الأمير المغامر للسير إليها، ولماذا ترك عبدالرحمن الأموي بلاد المغرب وقبائلها التي وفرت له سبل الأمان والعيش الرغيد. حتى أن بعض المصادر تشير أن زوجة أحد رؤساء القبائل المغربية قد أخفت عبدالرحمن تحت ثيابها حفاظاً على حياته من غارة مفاجئة، حتى لا يقع في أيدي عبدالرحمن الفهري⁽¹⁾.

الواقع أن حياة عبدالرحمن في المغرب لم تكن تلاءم مع طموحاته الكبيرة، فالعيش في ظل قبائل أخواله البربر قد بدا له غير مجرد بالنسبة له، لا سيما وأن الأندلس كانت معقلاً للأمويين ومواليهم وأنصارهم. وقد كان قائداً للأمويين آنذاك رجلين هما⁽²⁾ أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن خالد. ولقد شعر عبدالرحمن بنضوج الظروف للاتصال بهؤلاء فكانت بداية الخطة هي إرسال بدر وبمه خطاباً مكتوباً للقائد़ين الأمويين في الأندلس، يعرض عليهم إمكانية ترشيح عبدالرحمن نفسه أميراً للأندلس بدلاً من يوسف الفهري والصميل لكي يتلخص الأندلس من الفوضى التي نشبت بين العرب والبربر هناك. ويعيد لبني أمية هيئتهم ولولاتهم السابقة على الأندلس. والواضح أن عبدالرحمن لم يطلب من القائدين الأمويين في الأندلس اللجوء والحماية فقط، لأنَّه لو أراد هذا الأمر فقط لما احتاج إلى كل هذا العناء.

فعبر بدر المضيق متوجهاً إلى القادة الأمويين ومنفذًا للخطوة الأولى من سياسة عبدالرحمن بن معاوية في الأندلس. توجه بدر فوراً للاجتماع بابي عثمان وسلم إليه خطاب عبدالرحمن المكتوب والذي يحمل في ثيابه (تذكرة عبدالرحمن بفضل أسلافه من بني أمية ويعرفه مكانته منهم واعتقاده باحتفائه في السلطة لأن جده هو هشام بن عبد الملك وهو وريثه للخلافة..) ويسأله أن يقوم بالاتصال من يرى فيه فائدة من الأمويين والموالي، ثم يهدِّ له طريق الوصول إلى الأندلس، كما وعده بمقابلات مالية

(1) نفس المصدر، ص 664.

(2) يضيف حسين مؤنس اسم قائد ثالث هو يوسف بن ثابت.

وبالنصب الرفيع إذا ما تم له الأمر في الأندلس، كما يوصي بالتخاذل الحية والخذل في الاتصالات. كما أوصاه بأن يعتمد على اليهانين الغاضبين على المقربين واستغلال العداوة والثارات بينهما).

لقد قرأ أبو عثمان الكتاب وكان آنذاك في طريقه إلى سرقسطة لمساعدة قائدتها الصميل الذي كان محاصراً من قبل عامر العبيدي والجباب بن رواحة الزهراني وجيشهما. وكان أبو عثمان مع عدد من رؤساء القبائل ساروا لنجدته الصميل نظراً لتقاعس يوسف الفهري عن مساعدته في ذلك الحين. وأول ما فعله أبو عثمان مع رسول عبدالرحمن وكتابه أن تشاور مع صهره عبدالله بن خالد ثم يوسف بن نجت، فاجمعوا على رأي واحد هو مساندة الأمير الأموي، وقد استغلوا ظرف الصميل الخروج وبرود علاقه يوسف الفهري فاتقروا على مفاجئته في أمر عبدالرحمن. بعد أن استطاعوا مع بقية القبائل من نجدهم وفكوا الحصار المضروب حوله وعادوا به بقواته وأمراءه. وكان هذا الوقت مثاليًّا لتفاحة الصميل، فاختلوا به في الطريق وأطلاعوه على تفاصيل رسالة عبدالرحمن وقدموا له الرسول بدر، فبادر الصميل إلى موافقتهم وإكرام بدر بعشرة دنانير وشقة خرز، لكنه طلب منهم أن يمنحوه بعض الوقت لدراسة الأمر والتخاذل قرار نهائي بهذا الشأن.

يدو أن الأمويين قد فاتحوا الصميل على أساس أن عبدالرحمن قد فاتحهم بطلب الأمان ويتوصل إليك بمنحة الأمان فقط، دون أن يذكروا شيئاً عن طموحات عبدالرحمن في الحكم لمعرفتهم بطبيعة الصميل المالية إلى حب الحكم والسلطان^(١).

ولقد بلغ الصميل قرطبة وانصرف الأمويون إلى ديارهم ومعهم بدر. لكن يوسف الفهري قد استعد للخروج إلى التغر لأن اليهانين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة فاتقضوا على سرقسطة بقودهم زعماً لهم عامر وابنه وهب والجباب

(١) تشير رواية ابن القرطبة على أن الصميل قد أجابهم خيراً في أمر عبدالرحمن وأملهم برعايته. وضمه إلى يوسف الفهري وتزوجه من ابنته، وإذا عارض يوسف يصر به بالسيف على صلعته.

واعلنوا خروجهم عن طاعة يوسف. فأخذ يوسف يلح على الصمیل للخروج معه للقتال والصمیل يتقاعس لعلمه أن يوسف يريد إبعاده عن قربة والتخلص منه.

ومع تقاعس الصمیل، أراد يوسف أن يستخدم الأمويين في حلته فبعث إلى أبي عثمان وعبد الله بن خالد وأعطاهما ألف دينار لتوزيعها على الموالي لكتبهم للقتال في جيشه. فقام الأمويون بتوزيع هذه الأموال على بني أمية ومواليهم، وهم يضررون يوسف الفهري أمراً آخر. فلما توجه يوسف إلى الشغر، اتصل الأمويون بالصمیل للاستفهام عن رأيه الأخير بشأن عبدالرحمن وتشير الروايات إلى أن الصمیل كان سكراناً^(١) عندما قدموه إليه، فأخبرهم بأنه قرر الترحيب بقدوم عبدالرحمن، وكان حريضاً على كتمان الأمر وطلب إليهم أن يكتبوا إليه ويشجعوه على العبور. ولقد أبدى لهم ارتياحه من موقفهم في حصاره ومخذتهم له في سرقة، مما كان منهم إلا أن يشكروا على هذا الموقف الحاسم تجاه عبدالرحمن، وانصرفوا متوجهين إلى ديارهم في البيرة، ولم يكتفوا بالصمیل وموقفه إذ إنهم فاتحوا عدداً من كبار المقاتلين الثقة فحصلوا على مراجعتهم بالانضمام إلى مساندة عبدالرحمن، كما أنهم أرسلوا الرسل إلى المقاطعات الأندلسية لخدن التأييد إلى دعوتهم، فلاقوا القبول وأصبح اسم عبدالرحمن يشغل الرأي العام الأندلسي كله.

لكن الصمیل الذي أفاق من نشوة المخربة، قد ندم على حماسته الزائدة في قضية عبدالرحمن وما قدمه من وعود للأمويين بشأن الكتابة إليه للقدوم ونصرته من قبل الصمیل نفسه. ويبدو أن صحوة الصمیل المبكرة جاءت بسبب تقديره لقرة يوسف الفهري الواقعية على أرض الأندلس، وعدم اطمئنانه لمستقبل قوة عبدالرحمن في الأندلس. فأرسل رسولاً يتبعق الأمويين، فادركتهم هذا الرسول وأبلغهما بأن الصمیل يريد أن يلتقي بهم (يقول أبو جوشن أفيما حتى آتيكم). وفعلاً أدركتهم

(١) يبدو أن فعل الحمرة ونشوتها هي السبب في انتشار صدر الصمیل أيام أصحاب عبدالرحمن بن معاوية، لأننا سلاحظ التغير في موقفه بعد قليل.

الصميل وكان لوحده ودون أتباع وهذا ما بدد الخوف في نفوسهم من عواقب مؤامرة ما. وبعد أن وصل صار يخطب فيهم بقوله (أني منذ أتيماني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إداره، فاستحققت ما دعوتما إليه، ثم كان معي إليكما ما كان، فلما فارقكم رويت فيه، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنت في بوله. وهذا^(١) رجل قد حكمنا عليه مع ماله في اعتناقا. والله لو بلغتما بيونكم، ثم رأيتما هذا لظلت ألا أقصر حتى أرجع إليكما ثلثا أغركما، وإنما أعلمكم بما أن أول سبب يُسلّم عليه سيفي أ ببارك الله لكم في رأيكما ومولاكم). ومن ظاهر هذه الخطبة نرى أن الصميل قد تفصل عن وعده بمساعدة عبد الرحمن ضد يوسف الفهري، ولكنه في المقابل أخلص للأمويين بالحفظ على سرهما ومبركة وصول عبد الرحمن لغرض طلب الحماية والأمان والثروة. وهذا ما نستشفه من جواب أبي عثمان بالرد على الصميل بقوله (أصلحك الله ما لنا رأي إلا رأيك).

فما كان من الأمويين إلا يائس من مصر وربيعة وقادتهم الصميل في الانضمام إلى جملة عبد الرحمن الحقيقة، فقرروا الاعتماد على البيانية، إذ وجدوا فيهم الاستعداد الكامل لنصرة الأمير الأموي، وبيؤيد هذا الاندفاع إقرار الأمويين بالقول (لم نمر بيماني له بالوثقنا به إلا وعرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوناه إليه فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمسون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثارهم)^(٢).

يبدو أن رسول عبد الرحمن قد استطاع أن يبلغ رسالته كاملة، وينفذ تعليمات أميره بمهارة عالية، بمساعدة القادة الأمويين الذين كانوا على قدر عالي من المسؤولية تجاه دعوة عبد الرحمن حيث مهدوا له الطريق واستطاعوا أن يصلوا إلى كافة المفاصل الحيوية في المجتمع الأندلسي سواء كانوا قادة أم مقاتلين، مستغلين كل الظروف لخداع المساندة لدعوتهم الجديدة.

(١) يقصد يوسف الفهري.

(٢) المقري، فتح الطيب، ج ٤، ص ٣٥.

ولو نظرنا إلى فحوى الرسالة التي أرسلها عبد الرحمن بيد مولاه بدر إلى الأمويين في الأندلس والتي تطرقتا إلى بعض ما فيها، لوجدنا أن دور عبد الرحمن في التخطيط كان حاسماً عبر رسم سياسة منظمة نفذها مخلصون ثقة. حتى بلغ الأمر بأن اشتري الأمويون مركباً خاصاً لنقل رسول عبد الرحمن بدرأً ومعه أحد عشر رجلاً⁽¹⁾ منهم شاكر غلام هشام وتمام بن علقة الشفقي مع تزويدهم بمائة دينار للنفقات الضرورية في المغرب، ليكون هذا المركب حاملاً للبشرة.

عبدالرحمن بن معاوية في الأندلس

بعد أن وصل مركب البشرة إلى عبد الرحمن، ورأى عبد الرحمن بناءً على المعلومات التي وصلته من رسوله ومن معه، أن الفرصة باتت سانحة للذهاب إلى الأندلس بعد أن نضجت الظروف وفق الخطة الاستراتيجية لعبد الرحمن في ضوء قراءته للأحوال الأندلسية. ونجح بدر رسوله والأمويين في تنفيذ تفاصيلها على الأرض الأندلسية. فقرر فوراً العبور إلى الأندلس. وكان الوداع الأخير للمغرب قد انتهى بمعطالية قتائل البربر للملائكة من أجل تحرير هذا اللاحج. فكان للملائكة الذي جاء مع المركب الأثر الكبير لغادرة عبد الرحمن. ولا نعرف في الحقيقة ما هو السبب الخامس لطالة البربر بشن لعنته.

سار عبد الرحمن بمركب المخلصين الثاني عشر وكانت الرياح معيناً لهم في الوصول بسرعة إلى ساحل البيرة في جهة المنكب في عام 138 هـ / 756 م، وكان في استقباله على الجانب الآخر عبد الرحمن بن خالد وأبو عثمان اللذان نقلاه للإقامة في قرية طُرش الذي يكن فيها أبو الحجاج يوسف بن ثابت، وببدأ عبد الرحمن باستقبال الأمويين والموالي والأنصار، واستقبل جدار⁽²⁾ بن عمرو المذحجي شيخ عرب الأردن، وعاصم بن مسلم الشفقي وأبي عبده حسان بن مالك الكتبى من أشبيلية، ثم

(1) لا نعرف تفسيراً حقيقياً لوجود اثنى عشر رجلاً بشارة عبد الرحمن إذ أن الرقم (12) يملك مفعولاً سحيرياً في التاريخ الالهوتي الشرقي.

(2) يسمى المقري جداد.

جاء إليه أبو بكر بن الطفيلي وكثير من وجاهه، الأمويين ومواليهم وأنصارهم. فكانوا الزيارة الأولى لجيش عبدالرحمن ومساعده القوي فيما بعد.

وما كان أثر وصول عبدالرحمن إلى الأندلس بعث ارتياح الجميع، فقدر ما كان موضع ترحيب ومساندة من الأمويين وأنصارهم. كان سبباً لقلق قادة الأندلس ولا سيما يوسف الفهري، فقد كان يوسف عائداً من غزوه من الشقر وقد وصل إلى وادي الرملة، بعد أن قضى على قرد اليمينين والقرشين في سرقسطة وقتله عامر العبدري وابنه وهب والخباب بن رواحة الزهراني^(١)، إذ وصلته أخبار قدوم عبدالرحمن الأموي إلى الأندلس عن طريق رسول ابنه عبدالرحمن من قرطبة. ولقد انتشر خبر وصول عبدالرحمن الأموي في صفوف جيش يوسف الفهري، فكان هذا الخبر بعث لشماتة الكثير من المقاتلين ب يوسف الذي قتل عامر وابنه والخباب بعد أسرهما، حتى أن بعض المصادر تذكر أن يوسف قد استعن الصمبل في تلك الفترة وقال له (إنني أخاف أن يكون الله قد أنزل التقدمة علينا بقتل هؤلاء). وبما أن الصمبل كان يعلم بأمر عبدالرحمن كما ذكرنا، فقد نصح يوسف أن يتعد حالاً للاتقاض على عبدالرحمن قبل أن يشد ساعده ويجمع إليه الكثير من الأمويين والأنصار. ولكن يوسف الفهري كان يدرك تدمير جيشه والأعياء الذي أصابهم من حله الأخيرة على سرقسطة، فقرر العودة إلى قرطبة للاستعداد الكامل للاقتلاع لهذا الأموي الخطير. الذي استطاع الفرار من قبضة العباسين من الشام حتى وصوله إلى الأندلس. كما أن الفهري كان يأمل بان طموح هذا الأموي لا يتعدى الحفاظ على سلامته الشخصية وإعادة الاعتبار له من الناحية المادية، لموس بي أمية بالبذخ وحب الاستحواذ على الأموال. وتأتي هذه الفكرة من نصيحة ثانية للصمبل الذي كان من أنصار القضاء على عبدالرحمن بن معاوية فوراً، إذ قال الصمبل ليوسف الفهري: (إن

(١) كان يوسف الفهري يأمل بالتحاق أبي عثمان عبد الله، وعبد الله بن خالد للانضمام إلى حملة على سرقسطة، وقد اغطائهم ألف دينار لتجهيز قواتهم، كما ذكرنا. ولكن الأمويين كانوا يربدآن أمر وصول عبدالرحمن فنذلاه.

عبدالرحمن قريب عهد بزوال النعمة، فهو يقتضي ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك تحكم فيه وفي الذين سعوا إليه⁽¹⁾.

محاولة لاحتواء خطر عبد الرحمن

لم يكفي الصمیل بن نصیحة الفهري بإرضاء عبد الرحمن الأموي بالأموال فقط، بل عرض عليه أن يزوجه من إحدى بناته وصاهره لكتب وده، لإشغاله عن أي طموح في الحكم، وبيدو أن موقف الصمیل هذا هو ترجمة لأفكاره الأولى عند التقائه بالأمويين ورسول عبد الرحمن، بدر، بعد أن يأس من استعداد الفهري للقتال فوراً. وقام يوسف الفهري بعد أن اقتنى بنصیحة الصمیل، أن أرسل وفداً برئاسة كاتبه⁽²⁾ خالد بن زيز ويسقم الوفد عبيد بن علي وعيسي بن عبد الرحمن الأموي، ويبعث معهم هدايا وأموال⁽³⁾ وكان الوفد يحمل أيضاً رسالة من يوسف الفهري تحمل الطرف الآخر من مهمة الوفد وهو التهديد والوعيد وتذكير عبد الرحمن بفضل آباء وأجداد يوسف ولا سيما عقبة بن نافع.

وما جاء في الرسالة عن المصادر التاريخية: (اما بعد، فقد اتيتني إلينا نزولك باحـل المنـكـب، وتأـيشـ من تـأـيشـ إـلـيـكـ وـنـزـعـ نـحـوكـ منـ السـرـاقـ وـأـهـلـ الـخـرـ وـالـغـدرـ وـنـقـضـ الـإـعـانـ الـمـوـكـدةـ الـتـيـ كـذـبـواـ اللـهـ فـيـهـاـ وـكـذـبـوـنـاـ، وـبـهـ جـلـ وـعـلاـ نـسـتـعـنـ عـلـيـهـمـ ولـقـدـ كـانـواـ مـعـنـاـ فـيـ ذـرـيـ كـفـيـ وـرـفـاهـيـ عـيـشـ، حـتـىـ غـمـطـواـ ذـلـكـ، وـاسـتـبـدـلـواـ بـالـأـمـنـ خـوـفـاـ، وـجـنـحـواـ إـلـىـ الـقـضـ، وـالـلـهـ مـنـ وـرـائـهـمـ مـحـبـطـ، فـإـنـ كـنـتـ تـرـيدـ الـمـالـ وـسـعـةـ الـجـنـابـ فـأـنـاـ أـوـلـىـ بـكـ مـنـ جـلـاتـ إـلـيـهـ، أـكـنـكـ وـاـصـلـ رـحـلـكـ، وـأـنـزـلـكـ مـعـيـ إـنـ أـرـدـتـ، أـوـ بـحـثـ تـرـيدـ، ثـمـ لـكـ عـهـدـ اللـهـ وـذـمـتـ بـيـ إـلـاـ أـغـدـرـكـ، وـلـاـ أـمـكـنـ مـنـكـ إـبـنـ عـمـيـ صـاحـبـ

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 67.

(2) وهو مولى يوسف الفهري وهو أديب معروف، وتمسيه بعض المصادر خالد بن زيد.

(3) وهي عبارة عن كسوة وبغلين ووصفين وalf دينار. او فرساً ومائة دينار. انظر: اخبار المجموعة، ص 42، وابن عذاري، البيان، ج 2، ص 67.

أغريقية ولا غيره⁽¹⁾. فترجم وفدي يوسف الفهري لمقابلة عبدالرحمن، حتى بلغوا إرش في أدنى مناطق ربه، فاقتصر أحد أعضاء الوفد وهو عيسى بن عبدالرحمن على أصحابه أن يبقى هو مع المدائيا في هذا الموضع ويتابع البقية سيرهم للقاء عبدالرحمن الأموي خاتمة عدم قبول اقتراحهم ورسالة قائدهم، فسترجع المدائيا إلى يوسف، خير من يستفيد منها عبدالرحمن وتكون له مصدر قوة إضافية. فتال هذا الاقتراح قبول الجميع وفيه عيسى عيسى والمدائيا في إرش بينما تابع الآخرون وهم خالد بن يزيد وعبد بن علي سيرهما إلى عبدالرحمن حتى وصلا إليه في طُرش عند أبي عثمان وكان عنده جماعة منهم دمشقيون وأردنيون وقسريون. فتحدثا إلى عبدالرحمن في أمر مجئهم ودعوه للجنوح إلى السلام واختيار طريق الألفة وحسن النية وسلموا رسالة يوسف الفهري إلى عبدالرحمن الذي سلّمها بدوره إلى أبي عثمان وقال له: اقرأه واجب عليه بما تعلم من رأينا⁽²⁾، فلما تناول أبو عثمان الرسالة، قال له خالد رسول الفهري بغيره واضح نتيجة لكتونه أدبياً معروفاً: (لتعرقن إبطاك قبل أن تغبر فيه جواباً) ويقصد أن أسلوب الرسالة وبالغتها سوف لن يمكن أبو عثمان من مخارقته فيما. فغضض أبو عثمان من خالد⁽³⁾، وضرب الكتاب بوجهه وبسبه قائلاً: (يا ... لا يعرق لي فيه إبط ولا أحبر فيه جواباً). وأمر بتكميله بالحديد، وقال أصحاب عبدالرحمن: (هذا أول الفتاح، هذا سلطان يوسف كله). فتدخل الرسول الآخر عبد بن علي في الأمر وقال لهم أن خالداً سفير ورسول لا يجوز اعتقاله، فقالوا له أنت الرسول وخالد اعتدى علينا وجرح كبراء أسياده الأمويين ولم يتمحتم الحاضرين.

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 67، وما يليها.

(2) يبدو أن عبدالرحمن لم يكفل نفسه عناء قراءة الرسالة بعد أن فهم محتواها من الرسولين وهو قد قرر طريقاً آخر للتعامل مع يوسف والوصيل كما سترى.

(3) وهو مولى الندلسي جاء به الفهري وأعطاه مقاماً كبيراً صار موضع حد وغيرة في نفوس العرب والذي يسمونه (علج).

وتذهب المصادر إلى أن عبد الرحمن وأصحابه قد أخلوا سبيل عيد بن علي وحبوا خالد، ووصل الخبر إلى ثالثهم عيسى الذي رجع بالمدايا مسرعاً قبل أن يدركه أصحاب عبد الرحمن ويستولوا على المدايا.

وعاد عيسى إلى يوسف الفهري ليخبره بما حصل وهكذا انتهت فرصة يوسف الفهري وصاحب الصميل في احتواء خطير عبد الرحمن من الأموي حتى أن الصميل عاتب صاحبه الفهري على عدم الأخذ برأيه الأول وهو الخلاص الفوري من عبد الرحمن لحظة وصوله إلى الأندلس.

الاستعدادات للقتال

بعد أن فشلت جهود الوساطة كما رأينا بين الفريقين فقد سعى كلٌّ منها إلى تدعيم موقعه العسكري والاستعداد الجدي للقضاء على الطرف الآخر. فبدأت استعدادات عبد الرحمن بن معاوية براسلة القبائل والأقمار المختلفة طالباً منهم الانضمام إليه في معركة القادمة مع الفهري والصميل، فاستطاع أن يكتب أهل اليمن كلها. وتضيف المصادر التاريخية ناتج مراسلاته مع أهل الأندلس بالقول: (فأجابه اليمن بأسرها ولم يجيء من قيس إلا جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبيدي والحنين بن الدجمن، مؤلاء الثلاثة فقط لما كان في انفسهم مما صنع يوسف والصميل بابن شهاب وتطويعهما به، وكان الصميل قد ضرب العبيدي وهلاهلاً^(١))، أما من ثقيف فقد انضم إليه ثعام بن علقمة وعاصم العمراي وأنخوه عمران.

أما يوسف الفهري فقد استطاع استقطاب مصر كلها، وكان هذا يمثل انتصاراً للقوات العسكرية لمعسكر الفهري لكثرة عدد المقاتلين وقوتهم. لذا، فقد أدرك عبد الرحمن وأصحابه أن الكفة راجحة لمعسكر الفهري فلا بد من ضم أكبر عدد من القوات لصالحهما فقد سار على هذا الأساس إلى ريه حيث يوجد جنود الأردن، ثم

(١) أخبار المجموعة، ص 43.

إلى أشيلة حيث يوجد جنود حصن وللي كورة شذونة⁽¹⁾ حيث هناك جند فلسطين، وكان لمسيرته هذه أن اجتاه اليمن وقضاعة كلها، وسارع إليه جند فلسطين، في حين أن بي كنانة من أهل فلسطين الذين يسكنون أطراف شذونة قد تمردوا للانضمام إلى يوسف الفهري. وقد أظهر عبد الرحمن أخلاقاً وفروسيّة عالية، حيث لم يتعرض إلى عائلات كنانة وأولادهم الذين خلفوهم ورءاهم، كما التحق بعبد الرحمن خيرة جنود أشيلة من الشاميين والبلديين. ويقول ثامر بن علقمة (دخلنا ربه في ستانة فارس، وخرجنا منها بالقبي فارس، ثم دخلنا أشيلة بهذا العدد وخرجنا منها في ثلاثة آلاف فارس، فلما اجتمعنا لنا المجموع، وبلغنا ما يريد الفهري من الفتوح إلىينا، كتب الأمير عبد الرحمن الكتاب، وعبا الأجداد وخرج إليه)⁽²⁾.

ومع استكمال استعدادات الطرفين تقدم كل منهما إلى جهة الآخر. فرار يوسف الفهري عاقلاً لوبيه، بينما سار عبد الرحمن بلا لواء. ويقال أن رئيس عرب أشيلة أبو الصباح بن يحيى البصبي الذي كان يرافق عبد الرحمن اقترب عقد لواء للجيش، وعندما وصلوا إلى قرية قلنبرة، من إقليم طشانة التابع لأنشيلية، فجيء بقناة وعمامة ليقدوها عليه، ويقال إنهم كرهوا أن يمليوا القناة ليقددو اللواء عليها نشاؤماً، فأقاموها بين شجرتي زيتون متجاورتين، وصعد رجل إلى إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة. يقول ابن القوطية عن حادثة لواء عبد الرحمن (فأقبل أبو الصباح البصبي بقناة وعمامة، والقناة والعمامه لرجل من حضرموت لا اسمه، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا اسميه تفاء لروا باسمه ونسبه، فعقد له قرية قلنبرة من إقليم خشانة من كورة أشيلية)⁽³⁾، وتنقل المصادر التاريخية أخباراً أخرى عن لواء

(1) عند وصول عبد الرحمن شذونة فكان يوم الفطر سنة 138 هـ / 756 م، فامر جدار بن عمر شيخ عرب الأردن خطيب المجد أن يسقط الخطبة ليوسف ويعملها لعبد الرحمن. وكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس. مؤنس، فجر الأندلس، ص 680.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 69.

(3) ابن القوطية: افتتاح، ص 24-25.

عبدالرحمن^(١) والمعجزات التي رافقته عدده، وذلك لتهويل أمر عبدالرحمن والتمهيد لانصاراته اللاحقة.

ولقد تابع عبدالرحمن ميرته نحو قرطبة، بينما اكتفى يوسف الفهري بالخروج من المدينة فقط دون أن يتوجه بعيداً في اتجاه جيش عبدالرحمن الأموي. وذلك لتوجهه من عبدالرحمن الذي استطاع أن يجند أعداداً كبيرة يامكانها أن تهدى الفهري في عقر داره. كما أن أوضاع يوسف الفهري الداخلية لم تكن على أحسن حال نتيجة لتصوفاته غير المبررة مع الكثرين والتي جلت له عداوتهما كما أن الأحوال الاقتصادية كانت سيئة بسبب الجماعة التي اشتهرت في الأندلس لمدة ستة أعوام متالية، إذ كان طعام المقاتلين لا يتعدى الفول الأخضر الذي نبت في فصل الربيع، ولكن حالة جيش عبدالرحمن لم تكن بأفضل من جيش الفهري من الناحية الإدارية والغذائية لقرب جيش الفهري من العاصمة، ولوجود المال بيد الفهري.

معركة المصارة^(٢)

لقد تحدث المؤرخون عن الأيام التي سبقت حصول المواجهة الخامسة بين الطرفين والتي شهدت منطقة المصارة القرية من العاصمة قرطبة وقائهما، فقد تحرك يوسف الفهري أولاً فنزل في موقع (مدور صدف)، ثم انتقل حتى التقى بجيش عبدالرحمن عند طشانة الراقة على نهر الوادي الكبير فحصلت بينهما مناوشات بالسهام وغيرها، وقد امتنعوا عن المواجهة الحقيقة نظراً لياه النهر الكثيرة والتي أدت إلى حدوث فيضان. وفي هذه الأثناء أراد عبدالرحمن أن ينتغل الليل ويسع إلى العاصمة قرطبة ليقتسمها في غفلة عن يوسف الفهري، ولقد شجعه انصاره على هذه الفكرة لوجود عدد كبير من الأمويين يعيشون في قرطبة وسيكونون عوناً له، وفعلاً تم تشديد الشكارة بمناورة وحيلة إذ أضرم النار في معكرونه وسار بالجيش نحو قرطبة لكي

(١) انظر: الفهري، نفح، ج ٤، ص ٣٢ مثلاً.

(٢) تسيينا مصادر أخرى واقعة المصارة.

يموأ على يوسف الفهري بهذه النار كدليل على وجودهم في موقعهم، إلا أن هذه الخدعة لم تمرّ على يوسف الفهري، فلقد علم بها من خلال جواسيسه، وأسرع للحاق بعبدالرحمن فأدركه وكانا في الطريق إلى قرطبة (كترسى رهان والنهر بينهما)، حتى لاحظ عبدالرحمن عدم جدوى محاوته للوصول إلى قرطبة قبل يوسف الفهري، فتوقف عن الإسراع نحو العاصمة، وعسكر عند المصارة⁽¹⁾ وتذهب بعض المصادر إلى أن يوسف الفهري قد سبق عبدالرحمن واختار هذا الموقع، ولكن الثابت أن المعركة وقعت في المصارة تجديداً، وأن الفريقين قد عسكرا يوم الاثنين السادس من ذي الحجة 138 هـ / 755 م، فاقاما هناك ثلاثة أيام حدثت بينهما مراسلات للصلح من قبل يوسف الفهري تحدث عنها المقري بقوله (أن يوسف سار من قرطبة وأقبل بن معاوية على بر أشبيلية والنهر بينهما. فلما رأى يوسف تصميم عبدالرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر محاذياً له، فتايرها والنهر حاجز بينهما، إلى أن حلّ يوسف بصراء المصارة غربي قرطبة، وعبدالرحمن في مقابلته وتراسلا في الصلح)⁽²⁾. فقام عبدالرحمن إلى جيشه خطاباً إياها في شأن رسالة الصلح فقال: (إنا لم نخبي للملقا وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم وعرض ما سمعتم، ورأيكم لرأيكم تبع، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فاعلموني، وإن يكن فيكم جنوح إلى السلام والصلح فاعلموني)⁽³⁾، ولما سمعه أنصاره فقد أجمعوا على اتخاذ قرار الحرب، لذا فإن عبدالرحمن الأموي استطاع أن يحصل على ما كان يتمناه فبدأ بتنظيم قواته وتعيين القادة على الألوية استعداداً للمواجهة الخامسة.

وتشير الروايات عن أن الطرفين ظلا ليومين قبل المعركة في حالة هدوء لأن رسائل المصالحة كانت في حالة دائبة للحيلولة دون وقوع الحرب. إذ أن يوسف الفهري كان كما تشير المصادر غير راغب في القتال، ومنفاثاً إلى حد ما بنجاح الوساطات إذ

(1) المقري، نفح، ج 4، ص 32.

(2) نفس المصدر، ج 4، ص 33.

(3) أخبار الجماعة، ص 45-46.

أنه قد أمر بذبح الذباائح وإعداد طعام يكفي للجيشين معاً إذا ما تم الصلح. كما أن مسألة عبور جيش عبدالرحمن إلى الضفة التي يعسكر فيها جيش الفهري دون مقاومة إذ لم تشر المصادر إلى هذه المسألة مما يدل على أن الفهري كان يأمل بالصلح. ولكن عبدالرحمن الأموي الطموح لاسترداد أمجاد الأمويين قد أعد للحرب وكان تنظيم جيشه على الشكل التالي: أبو عثمان عبد الله بن عثمان حامل اللواء، عبدالرحمن بن نعيم الكلي على خيل جند الشام، بلوحة اللخمي من فلسطين على مثابة اليمن، عاصم - الملقب بالعربيان لأنه نزع ملابه في القتال - على مثابة بني أمية ومن معهم من البربر، حبيب بن عبد الملك القرشي على خيل بني أمية، إبراهيم بن شجرة الأودي على خيل البربر.

أما جيش يوسف الفهري الذي يأس من الصلح فاستعد هو الآخر للقتال وكان تنظيم جيشه على الشكل التالي: عبد بن علي على خيل أهل الشام ومصر، وكأنه الكاني على قسم من الماشية. وجوشن ابن الصميل على قسم آخر من الماشية، عبدالله بن يوسف الفهري على كتيبة من حماة الرجال وخالد سودي على خيل الغلمان والصناع.

وشهد يوم الجمعة^(١) قتالاً شديداً بين الطرفين حاول كل منهما أن يحسم الموقف لصالحه قبل غروب الشمس، وكان جيش عبدالرحمن الأموي أشد تلهفاً على القتال، ليس للإخلاص لعبدالرحمن فقط وإنما للتأثير من القيسين وقائديهما الصميل ويوسف الفهري. وقد استمر عبدالرحمن لهذا العامل وراح يعطي لأبي عثمان عبد الله دوراً معنوياً كبيراً، حيث أنه كان يأخذ رأيه في شؤون المعركة، وعبدالرحمن يدير المعركة وفق تصوره الخاص. فسارت المعركة إلى كففة عبدالرحمن بعد أن أحفروا بجيش الفهري هزائم قاسية إذ تذكر المصادر أن عبدالرحمن قال في هذا اليوم الخامس (اليوم يوم الجمعة، والمتزاحفان أموي وفهري)، والجندان قيس وبين، وقد تقابل الأشكال جداً، وارجو

(١) العاشر من ذي الحجة سنة 138 هـ / 756 م.

أنه أخوه يوم مرج راهط، فابشروا وجذوا⁽¹⁾) رغم أن بعض الباحثين يرجح أن هذه الكلمات لم تصدر من عبدالرحمن وإنما كانت من العلاء بن جابر العقيلي⁽²⁾، وهكذا انتهت المعركة لصالح جيش عبدالرحمن ودخل قرطبة ليرسم طريقاً جديداً لأمجاد الأمويين. ومن المصادفات أن عبدالرحمن وجشه قد تناولوا الطعام الذي أعده الفهري للجيشين عندما كان يؤمل نفسه بالصلح. وهو دليل آخر على سرعة حسم المعركة وفي يوم واحد كان معث السعد لعبدالرحمن الأموي⁽³⁾.

حوادث مهمة قبل دخول عبدالرحمن إلى قرطبة

لم يكن انتصار عبدالرحمن الأموي قدرياً كما تصوره بعض المصادر التاريخية، فلقد كان حصيلة نفوج عوامل كثيرة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي إضافة إلى الدور المهم والخطير الذي قام به عبدالرحمن نفسه وقد أشرنا سابقاً إلى أهمية دور الفرد في التحولات التاريخية في التاريخ الإسلامي. فإذا، فإن انتصار عبدالرحمن العسكري في معركة المصارة قد أفرز ظهور بعض العوامل التي كانت في صالحه لتكون هذه المرأة ضده، لا سيما فيما يتعلق بالولاة القلقين عبدالرحمن. ونعني الصراع بين اليمينين والقبيين والذي استمره عبدالرحمن في ظرف سابق، ولكنه انفجر بعد الانتصار على يوسف الفهري والصمبل.

فلم يرضَ اليمينيون من عبدالرحمن هذا التuffُّف الذي أباهه تجاه الجماعات التي ذهبت إلى بيت يوسف الفهري وانتهت حرماته. إذ يقول مصدر تاريخي (لما دخل ابن معاوية القصر وجد الناس قد سقوه إلى عيال يوسف فسلبوا وانتهبوها، فلما جاء طرد الناس وكسا من عُرُي وردة ما قدر على ردّه، فغضبت اليمانية، وسأههم إذ حجر عيال يوسف مما كانوا أرادوه من فضيحتهم، وقالوا: عصب... وقال بعضهم لبعض: وبحكم

(1) يشير عبدالرحمن إلى يوم الجمعة الذي وقعت فيه معركة مرج راهط وانتصر فيها مروان بن الحكم الأموي، على الفحشاك بن قيس الفهري.

(2) انظر: د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 38-39.

(3) الذي تُقبَّبَ بعدَ الْرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ وصَفَرَ قَرْبِشَ بَعْدَ دُخُولِهِ قَرْطَبَةَ.

قد فرغنا من أعدائنا مصر وهذا مواليه منهم، فلنضع أيدينا عليهم فيصير لنا فتحان في يوم واحد. فكره كاره ورضي راضي وأضفت قصاعة على الكراهة⁽¹⁾، كما يشير مصدر آخر إلى أن أبي الصباح رئيس اليمانية قال لجماعته عند هزيمة يوسف بقوله: (يا معاشر يمن، هل لكم في فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية، فيصير لنا نقدم رجالاً منا ونحمل عنه المضرية)⁽²⁾.

لكن، عبدالرحمن قد وضع يده على السلطة كاملة ولم يعبأ بهذه المحوادث⁽³⁾، إذ استطاع القضاء على كل معارضيه ودخل إلى قرطبة وصل إلى الناس في جامع قرطبة وخطب، فوعد الناس بالعدل والاستقرار ومن هنا التاريخ شهد الأندرس عصراً جديداً في الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138 هـ / 14 مايو 756 م.

مصير يوسف الفهري والصميل

بعد هزيمتهما في معركة المصارة، سار يوسف الفهري إلى طليطلة⁽⁴⁾ ليجمع أنصاره من مصر ويعتذهم للقتال ثانية، وأما الصميل فذهب إلى جيان ليتfer من فيها من القبيين، وقد التقى الفهري والصميل واستطاعا أن يطردا الحسين ابن الدجن عامل عبدالرحمن، ثم سارا إلى البيرة فهرب عاملها جابر بن العلاء بن شهاب. فكان لابد لعبد الرحمن أن يزحف إليهما بعد أن خلف على قرطبة أبو عثمان، وما كاد عبدالرحمن أن يترك قرطبة، حتى أغارت عليهها عبدالرحمن بن يوسف الفهري الذي كان مقيناً في ماردة، واستطاع أن يحاصر أبو عثمان في المسجد، واعتقاله، ولكن عبدالرحمن الأموري علم بالأمر فرجع سرعاً إلى قرطبة ففرّ عبدالرحمن الفهري أبو زيد من القصر مستصرياً أبو عثمان وجاريتهن كرهائن. ويقال أنه ترك الجارتين في متصف الطريق وسار بابي عثمان مكبلاً إلى البيرة.

(1) أخبار المجموعة، ص 47-48.

(2) المقرى، نفح، ج 4، ص 33.

(3) وهذا سبب مهم للسؤالات التي سيركتها اليمانيون ضده.

(4) أو إلى ماردة أو البيرة كما يذكر المقرى، النفح، ج 4، ص 33.

وبعد أن استب الأمن في قرطبة أرسل عبدالرحمن إلى عامر بن علي جد بني ذهر الرسافيين وكانت له هيبة ومية على اليمينة فاستخلفه على قرطبة وسار لمواصلة قتال يوسف الفهري الصمیل فلما بلغ قرية أرملا وهي من قرى البيرة، شعر الفهري والصمیل بالخطر الحقيقى على حياتهما فارسلوا إلى عبدالرحمن رسولاً يدعوه للمساعدة يعترفان له بإمارة الأندلس مقابل أن يؤمن لهما حياتهما وأموالهما. فوافق عبدالرحمن على هذا العرض وأقر الصلح سنة 140 هـ / 757 م. وكان من بند الاتفاق أن يفرج عبدالرحمن الأموي عن خالد بن زيد⁽¹⁾ مقابل أن يفرج الفهري عن أبي عثمان، كما اشترط عبدالرحمن الأموي على يوسف الفهري اعتقال ولديه كرهية وهمما عبدالرحمن أبا زيد وعمد أبا الأسود، على أن يكون مقر إقامتها الجبرية هو أحد القصور وليس سجن، حتى تهدأ الأمور في قرطبة ويطلق سراحهما. وبعد أيام الصلح دعا عبدالرحمن كلًا من الصمیل والvehري للتزول معه في قرطبة، فلما وصلوا إلى قرطبة نزل يوسف بمنزله المعروف بيلات الحر (وهو بيلات الحر بن عبدالرحمن الشففي والي الأندلس، ويقال أن يوسف تجنبى على ابن الحر فقتله وأخذ المنزل وينقال اشتراه⁽²⁾) أما الصمیل فنزل في داره بالريف، فأقاما في قرطبة في سلام وأمن. حتى أنهما كانوا يتربدان على الأمير وكان لا يتواتى عن استشارتهما في عدد من القضايا ولمرات عديدة. وكانت هذه سياسة الأمير في التسامح والعفو قد أكبته حبًّاً أهل الأندلس، وشجعت هذه السياسة على إقبال الكثير من أهل المشرق إلى الأندلس، حتى وفدي عام 145 هـ الكثير من بني أمية ومواليهم، وكانوا موضع حفاوة من قبل الأمير الأموي.

ولكن حالة السلام والرخاء لم تدم أكثر من عام واحد إذ أن أنصار الفهري من موالي بني هاشم وبني ذهر وقبائل قريش الذين تضرروا من سياسة عبدالرحمن الأموي إذ أزال عنهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في زمن الفهري، هؤلاء قاموا بتحريض

(1) الذي اعتقل في حادثة وفدي الوساطة الأولى ليوسف الشهري مع عبدالرحمن والي لم تتحقق.

(2) أخبار المجموعة، ص 94.

يوسف على التمرد وأخذوا كما تذهب المصادر إلى أنهم (يختلفون إلى يوسف)، ويقولون عليه التحريف، ويندموه على ما كان، فلم يزالوا حتى كاتب الناس، ولكن لم يؤيده أهل الأجداد في دعوته للقتال، إذ أنهم اطمأنوا على حياة السلام والاطمئنان بعد الفوضى السابقة، كما أن الصمیل وأنصاره لم يؤيدوا يوسف في دعوته، ولكن يوسف أصر على فكرة الثورة فقرر أن يراسل أهل البلد من العرب والبربر وأهل ماردة ولقت. فايده على دعوته. فاستطاع المقرب من قرطبة ناقصاً عهده مع عبدالرحمن الأدوبي سنة ١٤١ هـ ووصل إلى ماردة. واستطاع أن يجذب جيشاً كبيراً^(١) رجف به إلى أشبيلية وكان عليها عبد الملك بن عمر المرواني الذي لم يعتذر جيشاً مثل عدد جيش الفهري، فتحصن داخل أسوار أشبيلية، فأهل يوسف شانه وأراد الذهاب إلى قرطبة، ولما وصلت الأخبار إلى عبدالرحمن سار جيشه حتى نزل المدور، وصار يوسف الفهري بين جيشي الأمويين، فأثار أن يقاتل المرواني وبعدها يفرغ إلى عبدالرحمن، وبدأت المعركة بين الجيدين واستطاع المرواني من هزيمة يوسف وفرار من معه. ولقد قُتل الفهري لاحقاً من قبل عبدالله بن عمر الأنصاري وجاء برأسه إلى قرطبة. وأما الصمیل فقد مات خنقاً من قبل أعون عبدالرحمن الذي استخدم سياسة الشد والعف مع خصوصه بعد أن نفذت معهم أساليب التسامح، وقد طالت هذه السياسة ابن يوسف الفهري عبدالرحمن الذي قتله الأمير واستراح من خصوصه الأشداء.

عبدالرحمن الداخل أميراً على الأندلس

بعد أن استطاع عبدالرحمن القضاء على أبرز مناوئيه، انصرف إلى الاهتمام بشؤون الإمارة الإدارية والاقتصادية والعمارية، وترسيخ ما بناه الأمويون سابقاً في المجالات المختلفة كتقسيم البلاد إلى مناطق، يتولى كل منها عامل يقيم في قاعدتها، كما قام بترسيخ النظام الحربي، ولكن عهد إمارة عبدالرحمن شهد عمولاً نوعياً في الحياة الأندلسية إذ تحولت الأندلس من ولاية تابعة لمراكز الخلافة أو إلى أفريقيا إلى إمارة مستقلة، كما يشير المقربي بذلك (كانت سلطة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم

(١) تجاوز العشرين ألف مقاتل.

من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية واختلاف الولاة داع على الاضطراب وعدم تأثير الأحوال وتربية الفخامة في الدولة، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا مالكها وانقاد إليهم كل أبي وأطاعهم كل عصي عظمت الدولة بالأندلس وكبرت مهمن وترتب الأحوال⁽¹⁾). ولقد تحولت قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن إلى عاصمة مزدهرة، شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء، لا سيما إن هذه الشهادة قد أتت من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ومن الخليفة أبو جعفر المنصور إذ يروى عنه قوله (الحمد لله الذي جعل بيني وبينه - يقصد عبد الرحمن - البحر). كما أن المنصور هو الذي لقب الأمير الأموي بـ«صقر قريش»، إذ تنقل المصادر التاريخية تلك الواقعة (بان أبي جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلاته: أخبروني من صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضى الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحرم الأدواء. قال: ما قلتم شيئاً. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين. قال: هو عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعمجياً متفرداً بنفسه، فنصر الأمصار، وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيته). وتشير المصادر التاريخية على المقارنة بين المصور العباسى والداخلى الأموي بأنهما كانا على درجة متساوية في العزم والشدة وضبط الملكة، وأن لم كل منها بربرة ..⁽²⁾.

والواقع أن هذه المقارنة بين بغداد وقرطبة الأموية، تشير بوضوح إلى ما بلغته إمارة الداخل الأموي في الأندلس إلى هذه المكانة المتميزة تاريخياً وحضارياً، ولم تكن هذه المكانة قد جاءت من فراغ فكان لعبد الرحمن الداخل دوراً مهماً، نتيجة لما يمتلكه من مؤهلات شخصية قيادية جعلته يقرأ الأحداث ويسير بها إلى ما يريد.

(1) المفري، نفح، ج 1، ص 198.

(2) نفس المصدر، ج 4، ص 54، ويضيف إليها ميزة أخرى للتشابه وهي أن كلاً منها قتل ابن أخي !!

مؤهلات عبد الرحمن الشخصية

لقد ذكرنا سابقاً أهمية الفرد القائد في التاريخ، ولا سيما أن هذا الفرد القائد قادر على الإمساك بزمام الأمور لفترة في خصائص معنوية لها الأثر الكبير في كسب ود الجماهير في لحظة حرجية من التاريخ. تسمى في الوقت الحاضر (بالكاريزما)، أي الشخصية الجاذبة. ووفق مقاييس الجاذبية في ذلك العصر كان الأموي الداخل يتوافر على (رجاحة الحلم.. وكان فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريثاً عن العجز سريع النهضة، متصل بالحركة، لا يخلد إلى الراحة، ولا يمكن إلى دعوه ولا يوكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً، مقداماً بعيد النظر، شديد الخدمة، قليل الطمأنينة، بليناً، مفوهاً، شاعراً، محضاً، سخياً، طلق اللسان⁽¹⁾). وتذهب المصادر التاريخية إلى تعظيم صفاته بالإضافة عن الصغار تشرب الخمرة⁽²⁾، ومعاشرة النساء بقوطم (أن أول قدومه إلى الأنجلس أتوه بالخمرة، فقال: إنني محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، ثم أحدثت له جارية جليلة، فنظر إليها وقال: إنني إن اشتغلت عنها بهمسي فيما أطلب ظلمتها، وإن اشتغلت بها بما أطلبه ظلمت همي، ولا حاجة لي بها الآخر)⁽³⁾.

لكن عبد الرحمن الداخل لم يكن زاهداً أمرياً كما تصوره المصادر التاريخية، بل كان على قدر كبير من الذكاء والدهاء لإزالة الألغام الجاذبة أمام طريقه، ومتغناً ! كان عبد الرحمن صاحب قضية و موقف وكأي أمريكي استخدم كل الأسلحة الماتحة للوصول إلى المخدف. ولقد نهضت له ظروف مثالية في مسيرته للوصول إلى الإماراة، ظل مخلصاً لها وللقائمين عليها. فحتى الذين ناصبوه العداء في فترة ماضية وانضموا إليه في عهد

(1) المفري، نفح، ج 1، ص 321.

(2) وهي عادة مستحكمة في خلفاءبني أمية.

(3) المفري، ج 4، ص 42.

إمارته، أحسن إليهم وجعلهم عناصر في المسيرة^(١)، وقد حفظهم الواقعى. ولقد ساهمت سياسة عبدالرحمن بعيداً عن إطار الخليفة العباسى وأراء المؤرخين بالفهم الشامل لظروف قرطبة والتي صارت أرضية صالحة لتطبيق سياسات هذا الأمير.

إنجازات صقر قريش

لقد ذكرنا أن عبدالرحمن الداخل قد اعتمد في بناء مؤسسات إمارته على الكوادر الذين واكبوا ميرته وكانتوا له الساعد القوي، الذي أوصله إلى قمة افخر في الإمارة، فكان لابد من مكافأتهم في مناصب تليق بهم. فقد كان أول حاجب له هو مولاه عام بن علقمة، ثم خلفه في ذلك المنصب يوسف بن ثجث الفارسي مولى عبدالمالك بن مروان، الذي صارت له ذرية معروفة بقرطبة، ثم عبدالكريم بن مهران من أولاد الحارث بن أبي شمر الغساني، بعده تولى المنصب عبدالرحمن بن مغيث بن الحارث ابن حويرث الغساني وبعده أبوه مغيث ثم قتاه منصور الذي رافقه حتى النهاية.

وكان لعبدالرحمن الداخل أشيه بمجلس استشاري يتألف من الشيوخ الذين كانوا يؤيدونه. كان يشاور معهم في أمور الإمارة المختلفة، وكان في مقدمتهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن خالد ثم أبو عبه حسان بن مالك، وشهيد بن عبي بن شهيد، وعبدالسلام بن سيل الرومي، وثعلبة بن عبيد الجذامي، وعاصم بن مسلم التقي.

ولقد اتخذ الأمير الأموي أول كاتب له وهو كبير أصحابه أبو عثمان وصاحبه عبدالله بن خالد، ثم اتخذ أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان للكتابة. أما القضاة فقد انتدبه عند وصوله إلى الأندلس إلى يحيى بن يزيد اليمصي ثم عينَ بعده أبا عمرو معاوية بن صالح، ثم عبدالرحمن بن طريف ثم عمر بن شرجيل، ثم الصعب بن

(١) مثلاً حصل مع عبي أحد رسل النهري الذي فرّ بالمدية، حين عاتب الأمير على فعله فقال له عبي: إنها أمانة لابد أن تُؤْرَد إلى صاحبها فعفا عنه وجعله واحداً من رجاله، رغم أنه لم يوليه مناصب مهمة.

مروان وكان جدار بن عمر يعمل بعهدة قاضٍ متقلّب بين معارك الجندي. وبعد أن نظم الأمير عبدالرحمن شؤون الدولة على المستوى الإداري وفرغ من قمع الثورات⁽¹⁾ اتجه إلى الاهتمام بالأعمال العمرانية. ولقد أثّر في عهده الكثير من المشاريع العمرانية، فقد بني المسجد الجامع والقصر التي لا زالت آثارهما شاخصة في الأندلس إذ تقول المصادر التاريخية (بني المسجد الجامع والقصر بقرطبة، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار..)⁽²⁾ (وجامع قرطبة الذي أعاد عبدالرحمن بناءه سنة 169 هـ بعد أن ضمَ إليه كنيسة سنت بنجت متبوعاً في ذلك ما فعله الخليفة الأموي الوليد عند بنائه جامع دمشق) وهذا يدل على أنَّ الأمير الأموي كان يريد لنمط العمارة الإسلامية⁽³⁾ أن يُشعِّي في الأندلس ويرغم ما يقال عن عبدالرحمن من زهد في مجال في الألقاب وعدم اتخاذه لقب الخليفة مفضلاً لقب الأمير⁽⁴⁾، فإنه اخْذَ لنفسه هالة كهالة الملوك، وصارت قرطبة زاهية بروائع المنشآت والماني. فاقام لأجياد الأمويين مأثر عديدة. امتنجت فيها حضارات سابقة كالرومانيّة والقوطية مع الحضارة الإسلامية لتنتج مزيجاً أندلسيّاً مثل حضارة الأندلس آنذاك.

وقد حرص عبدالرحمن على جعل قرطبة شبيهة بدمشق في منازلها واليساء ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه. وقد بني عبدالرحمن في شمال قرطبة قصراً صيفياً على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة محاكيًّا في ذلك قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام عام 110 هـ وسماه بنفس الاسم. ولا تزال توجد في هذا المكان من قرطبة قرية تحمل هذا الاسم La Ruzafa.

(1) ليس هدف دراستنا التطرق بالتفصيل إلى هذه الموارد وبيانها في الأندلس وإنما هدفنا هو إبراز دورها في تشكيل الملامح الأولى لتطور الأندلس. كما قد اعتمدنا عليها والثبتة في حواشي الكتاب ذكر منها مثلاً، د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 47-93، اليد سالم، تاريخ المسلمين ص 197 وما يليها.

(2) المقرئ، نفع، ج 1، ص 308.

(3) في بلاد الشام وسوريا تحديداً.

(4) سنفر هذا الأمر في الصفحات التالية.

ويمكنا تلمس شبه قرطبة بدمشق من خلال جامع قرطبة أيضاً فنرى المؤثرات الشامية المقتبة من المسجد الأموي بدمشق، مثل العقود المزدوجة التي تزيد من ارتفاع السقف وتحعله مناسباً مع اتساع المسجد وإن كانت عقود مسجد قرطبة تبدو أكثر إيجاداً وروعة، كذلك نلاحظ التأثير في وضع المئذنة وفي الممر الذي يصل المسجد بقصر الإمارة وهو المعروف بالسباباط⁽¹⁾. ومن المصادرات الجغرافية أن يكون لقرطبة موقعاً على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ودمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى ويطل عليها جبل قاسيون، كما يطل على قرطبة جبل العروس⁽²⁾.

وتحفل المصادر التاريخية بأخبار عبدالرحمن وأعماله العمرانية والإدارية فيقدم لنا المقري عن ابن حيان وصفاً لها بقوله: (لما الفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلة الملك، عاطلاً، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحكّهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالأداب، فاكبهم عما قليل المروءة، وفأتمهم على الطريقة، وبذا فدون الدواوين، ورفع الأواني، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فقام للملك آته، واخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحضرها جانبه، وتحمموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها⁽³⁾). ولابن خلدون في كتابه العبر وصفاً آخر لعبدالرحمن وأعماله إذ يقول (استقام له الأمر، واستقر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع... وبين مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعوا للمنصور ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس ومهد أمرها وخند لبني مروان السلطان بها، وجدد ما طرس لهم بالشرق من معالم الخلافة وأثارها، واستلم الثوار في نواصيه، وقطع دعوة العباسين من منابرها. وسدَّ المذاهب منهم دونها وهلك سنة اثنين وسبعين ومائة).

(1) أحد عتار العبادي، في التاريخ الباسي والأندلس، ص 319.

(2) حتى قال الجغرافيون العرب عن الأندلس بانيا (شامية في حوانها).

(3) المقري، فتح، ج 1، ص 310.

وكان عصر عبدالرحمن قد شهد نهضة علمية واتساع نطاق التعليم وزيادة الاهتمام بالكتب والمكتبات في أنحاء الأندلس كافة، وشملت كلا الجنسين وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، وقام الأمير بإنشاء داراً لـ سك القفرد⁽¹⁾، كما اهتم الأمير بالجيش واستطاع أن يبلغ قوته مائة ألف مقاتل ما عدا حرسه الخاص من الموالي والبربر والرقيق وبلغ قربة أربعين ألفاً واهتم في أواخر حياته بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في طرقومة وطرطوشة، وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها⁽²⁾.

وتحتيبة للهيبة التي ظهرت عليها إمارة الأندلس في عهد عبدالرحمن فقد سعت أوروبا إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها، وكان في الأندلس كثير من السفارات، كما تم التبادل الثقافي بين الأندلس والبلدان الإسلامية على مستوى المؤلفات والعلماء، وترى هجرة العديد من علماء الشرق إلى الأندلس، وعلماء الأندلس إلى الشرق وفي مختلف الميادين.

لقد تميز عهد عبدالرحمن أيضاً بازدهار الأدب والشعر وكانت الحياة الأدبية في الأندلس تحاكى حياة الشام الأدبية، فالشعر في الأندلس كلاسيكيًّا في فترته الأولى وكانه شعر الفرزدق والأخطل وجرير في المشرق. ولقد برع عبدالرحمن نفسه كشاعر مثل من سبنته من الولاة مثل أبي الخطاط بن ضرار الكلبي، والصميل بن حاتم. ويتاز عبدالرحمن بلغة رفيعة إذ أنه (كان من البلاغة بالمكان العالي، الذي يرتد عنه أكثر بني مروان حيراً)⁽³⁾.

نماذج من نثر وشعر عبدالرحمن الداخل

لقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من النصوص الثرية والشعرية للأمير الأموي عبدالرحمن سوف نقوم باختيار بعض منها، ومن نماذج ثراه يذكر مصدر الرد

(1) وكان موسى بن نصير أول من سك القفرد في الأندلس.

(2) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 196، 197.

(3) المقري، نفح، ج 4، ص 39.

البلج الذي وجهه عبدالرحمن إلى رجل قدم إلى مقابلته من أجل طلب المال فقال له: (قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهاً لسوء مقامك، فلا تعودن ولا سواك مثله من إراقة ماء وجهك. بتصریح المسألة والإلحاد في الطلب، وإذا لم يكتب خطب أو ضربك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كما نسر عليك خلتك، ونكتف شمات العدو عنك)، بعد رفعك لها إلى مالكك وما لكنا عز وجهه بخلاف الدعاء وصدق النية⁽¹⁾، فقد كانت درساً في البلاغة ودرساً أخلاقياً لرعيته بالكف عن طلب الحاجة شفاهياً دون كتابتها في ورقه، حفاظاً على ماء وجهه السائل أولاً والتعبير عن عدم احترام مقام الأمير في مثل هذه المخاطبة في مجلسه شفاهياً. وهنا مقطع جيل نقله المصادر التاريخية يخاطب فيه أحد الجنود الذين أقبلوا عليه بالتهنة المباشرة بمناسبة سحقه لثورة سرقسطة، والأصول المتبعه لا تبيح لهذا الجندي العادي أن يقدم التهنة للأمير مباشرة فقال له: (وأ والله لو لا أن هذا اليوم قد أسيغ على في النعمة من هو فوق فواوجب علي ذلك أن أتعم على من هو دوني لأصلبتك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكن حتى تقل مهنتاً رافعاً صونك غير متجلج ولا متنيب لكان الإمارة ولا عارف بقيتها؟ حتى كأنك تخاطب إباك أو أباك، وإن جهلك ليحملك على العود لملتها، فلا تجد مثل هذا الشانع في مثلها من عقرية). ولكن يبدو أن هذا الجندي عارف لمقامه إذ رد الأمير بالقول: (ولعل فتوحات الأمير يقتربن اتصالها باتصال جهلي وذنبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعد مني الله تعالى).

فانتبه الأمير إلى فصاحة هذا الجندي وقال (ليس هذا باعتذار جاهل نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها)⁽²⁾.

(1) هذه الحادثة تشبه حالة حدثت في زمن الخليفة علي بن أبي طالب فقال للسائل عن قضائه حاجة مادية: اكتب حاجتك على الرمل وأمض، فإني والله أكره أن أرى في وجهك ذلك السائل، وإن أرى في وجهي زهو المسؤول.

(2) المقري، فتح، ج 4، ص 41.

وهناك رسائل للأمير عبدالرحمن دارت بينه وبين مولاه بدر بعدما ساءت العلاقة بين الرجلين، تحمل قيمة أديبة عالية بالإضافة إلى قيمتها التاريخية والتي توضح شدة حزم الأمير حتى على أقرب الناس إليه إذا ما خالف مبادئ مسيرته في الإمارة^(١). فقال عبدالرحمن رداً على خطاب بدر الذي جاء فيه (إنما تعينا أولاً لستريح آخرًا.. أما كان جزائي في قطع البحر، وجرب القفر.. الذي أهانني في عيون أكفاني، وأشمت بي أعدائي.. وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت باليديهم ما أبلغوا بي أكثر من هذا).

فرد الأمير عليه بقوله (وَقَعْتُ عَلَى رَقْعَتِكَ الْمُنْبَثَةِ عَنْ جَهَلِكَ، وَسُوءِ خَطَابِكَ، وَدُنَانِيَّةِ أَدِبِكَ، وَلِكِيمِ مُعْتَدِلِكَ، وَالْعَجْبُ أَنْكَ مَتَ أَرْدَتَ أَنْ تَبِي لِفَسْكِ عَنْدَنَا مَتَانَةً أَتَيْتَ بِمَا يَهْلِمُ كُلَّ مَنَاتٍ مُشَبِّدًا مَا تَمَّ بِهِ، مَا قَدْ أَضْجَرَ الْأَسْمَاعَ نَكْرَارَهِ، وَقَدْحَتِنِي النَّفُوسُ إِعَادَتِهِ، مَا اسْتَخْرَنَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِهِ عَلَى أَمْرَنَا بِاسْتِصَالِ مَالِكَ، وَزَدْنَا فِي هَجْرَكَ وَإِبْعَادِكَ، وَهَضَنَا جَنَاحَ إِدْلَالِكَ فَعَلَ ذَلِكَ يَقْعِمُ مِنْكَ وَيَرْدِعُكَ حَتَّى يَنْلَغَ مِنْكَ مَا تَرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَتَحْنَ أَوْلَى بِتَأْدِيكَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، إِنْ شَرِكَ مَكْتُوبٌ فِي ثَالِثَيْنِ، وَخَيْرُكَ مَعْدُودٌ فِي مَنَقِبَيْنِ)^(٢).

وهناك رسالة أخرى بلغية كتبها إلى مولاه بدر بعد أن أمر بنفيه عن قرطبة إلى أحد المدن الشمالية والقريبة من خطوط أعداء قرطبة فجاء في الرسالة (لتعلم إنك لم تزل يمْقُتُك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن أثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن أثقل على النفس جواررك، وقد أمرنا باقصائك إلى أقصى الشغر فالله إلا ما أصررت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيئ معي الدنيا، ورأيتك تشکر لفلان وتالم من فلان، وما تقولوه عليك، ومالك عدو أكبر من لسانك، فما أطاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك)^(٣).

(١) وهذا ما حصل عندما قتل ابن أخيه.

(٢) المقربي، ج ٤، ص ٣٩.

(٣) المقربي، نفح، ج ٤، ص ٤١.

اما في مجال الشعر يدو الأمير عبدالرحمن شخوفاً به إلى درجة كبيرة، فبالإضافة إلى أنه كان شاعراً يفرض الشعر كما سرّى، فإنه يضع الشعر وحفظه والاطلاع على تاريخ الشعر العربي معياراً لقيمة الرجال. فقد روى عنه، إنه كان يقارن بين أولاده في رجاحة العقل عن طريق؟؟ الشعر. فلقد مال يوماً أحد أولاده⁽¹⁾ وهو هشام وقال له: من هذا الشعر:

وتعزف فيه من آية شمائلاً
ومن خاله أو من بزيد ومن خضر
سماحة ذا، مع برداً، ووفاء ذا
ونسائل ذا، إذا صحا وإذا سكر

فقال له هشام: (يا سيدي، لامرئ القيس ملك كنده، وكانه قاله في الأمير أعزه الله). ثم عاد لطرح نفس السؤال على سليمان فأجابه (علهمما لأحد أجلاف العرب، اليس لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب). فكان جواب ابنه أن حدد وجهة نظر عبدالرحمن في كلامه في مستقبله السياسي الذي سرّى أنه سينصب لصالح هشام في ولاية أبيه من بعده. ونقلت الكثير من المصادر التاريخية شعر الأمير عبدالرحمن ومنتختار منه بعض المقاطع التي تدور موضوعاتها على الحنين الطاغي للأمير إلى وطنه الأول دمشق مثل قوله:

أيها الراكب المتمم أرضي
أثر من بعضي السلام لبعض
إن جحي كما علمت بارضي
وفؤادي ومالكيه بارض
قدر الرين ينسنا فاقرقنا
وطوى الين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفارق علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وهناك مقاطع شعرية للأمير تدور موضوعها حول اعتزازه بنفسه ودوره الحاسم في وصول قرطبة إلى عددها بعد أن بلغه من البعض الذين أعنوه قولهم (لولا أنا ما توصل خذا الملك)، فنظم آياتاً جليلة رد فيها عليهم بالقول:

(1) البالغ عددهم أحد عشر من الذكور.

(لولي ما ملك الأنام الداخل)
 سعدي وحزمي والمهذ والقنا
 إن الملوك مع الزمان كواكب
 والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا
 ويقول قوم سعده لا عتلهم
 أبني أمية قد جبرنا صدעםكم
 ما دام من نسلِي إمام قائم
 فملكك فيكم ثابت متواصل

خشم يطالعنا ونجم أهل
 أبى روم تدبىء البرية غافلُ
 خير السعادة ما حاما العاقلُ
 بالغرب رغمًا والعود قبائلُ

والحقيقة أن النظرة القديمة لشعر الأمير لا تجعله في مصاف الشعراء الكبار أو حتى شعراء بني أمية السابقون، ولكن شعره يفيض بإحساس إنساني خالص عندما يكون موضوعة ذكرياته عن مجده الأموي في دمشق، فبعد أن شيد الملك وأقام القصور ودانت له الرعية، تراه مرفف المحسن أمام مخلة ذكرته بمنطقة دمشق وهذه هي إحدى ميزات الشاعر الحقيقي. فقال:

تناءت بأرض الغرب عن بلد التخل
 فقلت شجيري في التغرب والنوى
 نشأت بأرض أنت فيها غريبة
 سقت غرادي المزن من صوبها الذي

وله في موضوعة الحنين أكثر من قصيدة. وللاحظ أن ما اخترناه من أعمال عبدالرحمن الداخل الشريعة والشعرية بقدر ما تعبّر عن قدرته الأدبية، فإنها تضاف كصفة أخرى لهذا الأمير الطموح الذي استطاع أن يؤسس قرطبة حضارية في الأندلس.

وفي آخر ما نذكره عن هذا الأمير هو احتفاظه بصفة أمير رغم كل المؤهّلات والإمكانيات التي كانت تدفعه لاتخاذ القاباً مثل خليفة أو ملك، فهل هذا توسيع منه أم سعة حلم ورجاحة عقل؟

يبدو أن عبدالرحمن قد امتلك لآخر لحظة في حياته قدرة هائلة على التوازن بين حلمه المتحقق في الواقع، وواقعه في التعامل مع خطط الاتصال دون انبهار وانقاد لزروات لا طائل من ورائها. ولعل هنا الأمير كان يشعر بالخطر الماثل على إمارته من مركز الخلافة العباسية، كما أن رفضه للتعامل مع الألقاب جاء بسبب معرفة مكانة الخلافة وأصلها في الحجاز بعد أن ذهبت الخلافة الأموية إلى العباسين، وكأنه أراد أن يحقق نوعاً من الموازنة تكفيه شرط الطاععين بamaratه المزدهرة. فالعامل الحاسم في اختياره للقب الأمير كان سياسياً بالدرجة الأولى، ولكن ابن خلدون كان له رأي آخر في هذا التخصص، إذ يقول إن سبب عزوف عبدالرحمن عن لقب الخليفة يعود (إلى) تأديبه في حق الخلافة بمقدمة الإسلام ومتدي العرب⁽¹⁾، ويعود ابن خلدون في مقدمته لتفسير هذا الأمر بالقول «إلى القصور عن ملك الحجاز، أصل العرب والله، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية»⁽²⁾.

ومهما يكن من الأمر فإن عبدالرحمن الداخل قد واصل ميرته الملحمية من الشام إلى الأندلس، واستطاع أن يكون إمارة أموية جديرة بالتقدير، ولقد توفي هذا الأمير عن عمر ناهزتين عاماً وُدُفِن بالروضة من قصر الإمارة بقرطبة، عام 172 هـ / 788 م غريباً وبعيداً عن وطنه. وخلفه في ولاية الإمارة ابنه هشام.

وبهذا التاريخ انتهى عهد عبدالرحمن الداخل الذي، وتتابع ميرته أمراء آخرون في مقدمتهم ابنه هشام الذي كان موضع تقدير عبدالرحمن الداخل. كما أشرنا سابقاً.

أمراء قرطبة بعد عبدالرحمن الداخل

الأمير هشام الرضا

لقد كانت المؤشرات واضحة لتولي هشام الإمارة من بين أبناء الأمير عبدالرحمن⁽³⁾ الأحد عشر. رغم أن المصادر التاريخية تشير إلى أن الأمير عبدالرحمن

(1) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 122.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 190.

(3) وهم سليمان وهشام وعبدالله، وسلمة وأمية وبخي والمنذر وسعيد ومحمد والمغيرة ومعاوية.

قد تردد في مبادرة أحد أبناءه، ولا سيما إن المأفة كانت محصورة بين سليمان وهشام. إذ تذهب الرواية التاريخية إلى أن الأمير عبدالرحمن لم يسم أمر خلافه وهو على فراش الموت، فاستدعي أبته عبد الله وقال له: (من سبق إليك من آخرتك، فارم إليه بالحاتم والأمر). فإن سبق إليك سليمان فله فضل في دينه وعنفائه واجتماع الكلمة إليه، وإن سبق إليك هشام فإنه فضل ستة وسبعينه وحب الشابرين له^(١)). وانتقاداً للرواية في تسللها الواقعي فقد وصل هشام قبل أخيه سليمان وتولى الإمارة، ولكننا لا يمكن أن نطمئن إلى هذه الرواية في كونها سبباً مباشراً وحاصلـاً لإمارة هشام على الأندلس دون أخيه سليمان. فإذا ما سلمنا بتردد عبدالرحمن في نهاية عمره كجزء من الخين لأخيه الشامي الذي يمثله ابنه سليمان المولود في الشام والذي قضى فترة شبابه هناك وجاء إلى الأندلس متاخرًا حيث نصبه والده حاكماً على طليطلة، وبين هشام الذي ولد في إسبانيا من جارية إسبانية اسمها (حلال)، وهو يمثل البيئة الأندلسية بمواليها وغيرهم من سكان البلاد الأصليين الذي يتميّز بهم هشام، فكانت الغبة لشام الأندلسي وقتاً لغير الضرورة التاريخية بعد زوال قوة الفرد في التأثير بمسار الأحداث، وهذا ما حصل لسليمان الذي أراد أن يكون الأمير على الأندلس فأخذ البيعة له في طليطلة، واثنتلت الحرب بينه وبين أخيه أدت إلى هزيمته وتفيه إلى المغرب عام ١٧٤ هـ ، بعد أن قدم له هشام المال الكثير لإبعاده عن المأفة. والحق أن سليمان بعيد عن ظروف الأندلس والمعروف عنه بالانصراف إلى الملذات الأمورية كان واقعاً يقبول العرض الدسم. والتازل عن الإمارة لأخيه هشام. وكان هشام عند إمارته للأندلس في الثالثة والثلاثين. وكان يُكتن بابي الوليد، ولقد لقب بالرضي نظراً لحسن سمعته وسعة حلمه.

شخصية الأمير هشام

يبدو أن المصادر التاريخية اتفقت على وصف شخصية الأمير هشام بمواصفات تدل على رجاحة عقله وحسن سيرته التي اتت بالعدل والتدليل والابتعاد عن

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٩٢.

الملذات التي كانت عنواناً لسيرة الأمويين على وجه العموم فقد كان (كربلاً، عادلة، فاضلاً، متراضعلاً، عاقلاً، لم تعرف عنه حفوة في حداهته، ولا زلة في أيام صباه)⁽¹⁾، ولقب بالرضا لورعه وتقواه، وحسن طباعه وشمائله، حتى شُبه بال الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز، لأن هشام قد اخند طريقة عمر بإرساله مبعوثين إلى المناطق المختلفة ليتحرروا حياة الناس وهمومهم ومشاكلهم، وأداء قادتهم مع الرعية، فيقوم الأمير يلتحق الحق وإنصاف المظلوم، كما كان يفعل الخليفة عمر الأموي، وتفضي المصادر التاريخية في تقديرها لسيرة الأمير هشام إلى درجة إيراد قصة أشبه بالخرافة تعلل السبب الرئيسي الذي حدد سلوك الأمير مع رعيته إذ يروى أن: (ما ولـي هشام أشخاص المجمـع المعـروف بالضـيـء من وطـنه بالـجزـيرـة الـخـضرـاء إـلـى قـرـطـبة، وـكان فـي عـلـم النـجـوم بـطـلـيمـوس زـمانـه، حـذـقاً وـاصـابة، فـلـمـا آتـاه وـخـلـا بـه وـقـالـ له: يـا ضـيـء، لـسـتـ أـشـكـ أـنـه قـدـ عـنـاكـ مـنـ أـمـرـنـا إـذـ بـلـغـكـ مـاـ لـمـ نـدـعـ تـحـديـدـ النـظرـ فـيـهـ، فـأـشـدـكـ اللهـ أـلـاـ مـاـ بـنـائـنـاـ، بـماـ ظـهـرـ لـكـ فـيـهـ، فـلـجـلـجـ وـقـالـ: أـعـفـيـ إـيـهاـ الـأـمـيرـ فـإـنـيـ أـلـمـ بـهـ، وـلـمـ أـحـقـ النـظرـ فـيـهـ جـلـلـاتـ فـيـ نـفـسـيـ، فـقـالـ لـهـ: قـدـ أـجـلـاتـ لـذـلـكـ، فـتـضـغـلـ لـلـنـظـرـ فـيـمـاـ بـقـىـ عـلـيـكـ مـنـهـ. ثـمـ أـحـضـرـ بـعـدـ أـيـامـ فـقـالـ: إـنـ الـذـيـ سـأـلـتـ عـنـ حـذـنـيـ، مـعـ أـنـيـ وـالـلـهـ مـاـ أـنـقـ بـحـقـيـقـتـهـ، إـذـ كـانـ مـنـ غـيـبـ اللهـ الـذـيـ اسـتـأـثـرـ بـهـ، وـلـكـنـيـ أـحـبـ أـنـ أـسـمـعـ مـاـ عـنـدـكـ فـيـهـ، فـالـفـسـ طـلـعـةـ، وـالـزـمـ الـصـلـةـ أوـ الـعـقـرـيـةـ. فـقـالـ: أـعـلـمـ إـيـهاـ الـأـمـيرـ إـنـهـ سـوـفـ يـسـتـقـرـ مـلـكـ، سـعـيـدـاًـ جـدـكـ، قـاـهـراًـ لـمـ عـادـكـ، إـلـاـ أـنـ مـدـتـكـ فـيـهـ فـيـمـاـ دـلـ عـلـيـهـ النـظـرـ تكونـ ثـانـيـةـ أـعـوـامـ أوـ خـورـهـاـ. فـاطـرـقـ سـاعـةـ ثـمـ رـفـعـ رـاسـهـ وـقـالـ: يـاـ ضـيـءـ مـاـ أـخـرـوفـيـ أـنـ يـكـونـ النـذـيرـ كـلـمـيـ بـلـسانـكـ، وـالـلـهـ لـوـ أـنـ هـذـهـ الـمـدـةـ كـانـتـ فـيـ سـجـدـةـ اللـهـ تـعـالـ، لـقـلتـ طـاعـةـ لـهـ، وـوـصـلـهـ وـخـلـعـ عـلـيـهـ، وـزـهـدـ فـيـ الدـنـيـاـ، وـلـزـمـ أـفـعـالـ الـخـيـرـ وـالـبـرـ⁽²⁾).

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 91.

(2) المقري، فتح، ج 1، ص 314.

ولقد وردت هذه القصة في أكثر من مصدر، ومحن لا تمتلك أي مصدر لكتذيبها، ويُمكن أن نقول أن للمنجمين حظوة في بلاط الملوك والأمراء في السابق وحتى الوقت الحاضر. ولكن دراسة سيرة هذا الأمير الذي حظي بتقدير الأئب عبدالرحمن كما ذكرنا سابقاً، ولتربيته الأندلسية وانتصاره للمرليدين من أهل الأندلس وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ومثلوا الغالبية في عهد أمراء بني أمية. كان لها الأثر المهم في التكوين النفسي لشخصية الأمير هشام التوازنة، ويعكّرت أن نتسلل أيضاً على سماته من خلال الطريقة التي تعامل بها مع أخيه سليمان وعبدالله الملقب بـ(البنلي)، رغم خروجهما عن طاعته وحربيهما له، فقد اكتفى بقبول السلام معهما، على عكس سيرة الأميين بقتل الأخوة وكما حدث مع أخيه عبدالرحمن الذي قتل ابن أخيه. كما أن هناك عامل قد أثر في تركيبة الأمير النفسية، وهو عامل ديني يتمثل باعتماد الأندلس وأميرها للذهب المالكي وتركها الذهب الأوازعي⁽¹⁾. إذ روى عن الإمام مالك إعجابه بالأمير هشام حتى جاء عنه قوله: (وَرَدَتْ لِي أَنَّ اللَّهَ زَيْنَ مُوسَنَا بِهِ)⁽²⁾، وبقصد الإمام مالك بأن الأمير هشام هو زينة موسم الحج إلى الكعبة إذا ما أقبل لأداء فريضة الحج في ذلك الموسم.

ولتكن لا يُمكن أن نطمئن إلى هذا التوصيف الأخلاقى الكامل لشخصية الأمير هشام، لأن المصادر التاريخية سوف تذكر لنا حادثة مهمة تدل على القسوة البالغة التي أبدأها هشام بحق أحد الشعراء⁽³⁾ الذي انتصر لأخيه سليمان قبل فترة إمارته بالقول:

وَلِسُوا مِثْلَ مَنْ إِنْ سُئِلَ عَرْفًا
يُقْلِبُ مَقْلَةً فِيهَا أَعْوَارًا

(1) للززيد من الاطلاع حول تأثير هذا العامل، انظر، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 279، وسببيح هذا الموضوع في فقرة مظاهر الحضارة الحجازية فيما بعد.

(2) أخبار المجموعة، ص 93.

(3) هو الشاعر الشامي عاصم بن زيد المعروف بابي المختي أو المختي.

إشارة من الشاعر إلى الحول في عني هشام، فاستقدمه إلى مدينة ماردة حين كان والياً عليها، مؤملاً هذا الشاعر بالجاذبية، فلما وصل الشاعر أمر هشام بقطع لسانه^(١).

ويع كمل ما ذكرناه عن شخصية الأمير هشام، فقد كان أميراً مثل أمال وطالعات البوة الأندرلية وكان ميالاً للسلم إلا أنه كان مضطراً للدخول في حروب لترطيب الأمان في إمارته.

حركة المقاومة في عهد الأمير هشام

بعد أن استطاع الانتصار على أخيه سليمان كما أشرنا سابقاً، تكون من إخاد ثورتين يمينيتين اندلعتا في سرقسطة ويرشلونة، الأولى كانت بقيادة القائد الحسين بن يحيى الأنصاري الذي أغلق أبواب سرقسطة في وجه شارللان، والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقطان الأعرابي الذي لعب دوراً كبيراً في تلك الغارة التي قضى فيها على مؤخرة جيش شارللان في جبال البرتات، ولقد أخذت هاتان الثورتان وقتل أصحابها. وبعد أن استقر الوضع في الإمارة، انげ مخابرات المسلمين في الشمال، فحارب الإسبان في ولاية أشترريش في شمال غرب إسبانيا، وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الإسلامية. الأولى من جهة الشرق وهي منطقة القلاع والتي عُرفت بقشتالة بعد ذلك، والثانية من جهة الغرب هي منطقة جليقية.

ولقد عمد الأمير هشام إلى إرسال حلقات صيفية على ولاية سبتانيا في جنوب فرنسا، واستطاع أن يحصل على غنائم كثيرة من تلك الحملات، واستخدم هذه الغنائم في بناء مساجد عديدة على شاطئ الوادي الكبير وإعمار مسجد قرطبة، إذ أضاف إليه المذنة والميسنة وبعض السقوف الناقصة، كما أعاد بناء الجسر القديم المتدهور على

(١) وهذه الحكاية قد امتدت لما خرافة الرواية إذ تذهب الرواية إلى أن الشاعر قد نسب له لسان بعد ستة، وأن الإمام مالك عندما سمع بهذه الحكاية، عذر في بعض أحكامه، وألفت بالباقي في دية اللسان لمدة ستة بدلاً من تغبيتها فوراً، مستهدفاً بمحادث الشاعر أبي المخني، كما أن هشام الأمير قد قتل ولدين من أولاد موالٍ بني أمية ظلماً، وقد أخفى الفقهاء ذلك، رغم أن هشام اعتذر عن هذا الفعل وعوض الورثة بالمال.

الوادي الكبير، والذي يربط العاصمة بالجنوب، والذي عُرف بجسر قرطبة. ويدو أن حروب الأمير هشام مع المليحين جاءت بسبب نزعته الدينية والتي ترى الحرب نوع من الجهاد الواجب ضد عدو متربص للقضاء على الإمارة الإسلامية في قرطبة.

مظاهر الحضارة الحجازية

لقد أخذت الحروب الداخلية والخارجية الوقت غير القليل من حكم الأمير هشام، إلا أن حروبه الداخلية ضد أخيه سليمان قد مهدت لنشوء مظاهر الحضارة الحجازية، بعد أن كان النفوذ الشامي هو السائد سابقاً. إذ أن الأندلسين قد تحرروا من النفوذ الشامي ووجدوا ضالتهم في حضارة الحجاز، لاسما وأن الحجاز في القرن الثاني الهجري كان مركزاً حضارياً هاماً للعلوم الدينية بالإضافة إلى الفنون والموسيقى^(١). فقد ظهرت أولى المدارس الموسيقية في مكة والمدينة، وكانت هذه المدارس تجمع بين الموسيقى العربية الأصلية مع الموسيقى البيزنطية والفارسية نتيجة للتأثير الذي حصل بعد الفتوحات الإسلامية لهذه الأطوار. ولقد شهدت مكة والمدينة تناقضاً على هذا اللون من الموسيقى والغناء الأمر الذي أدى إلى ازدهاره، ووصل تأثيره إلى الأندلس عبر الجواري واللغنيات اللذين نقلوا معهم إلى جانب الموسيقى والغناء العديد من مظاهر الحضارة الاجتماعية والثقافية، والتي كانت مزدهرة في الحجاز في ذلك الوقت. ولقد ذاع صيت أسماء مثهورة في عالم الغناء ومن هذه الأسماء المغنية عجفاء التي سحرت الأندلسين بغنائهما على عهد الأمير هشام. وسوف يكون للمغنيات شأنًا كبيراً في عهد عبد الرحمن الثاني حفيد هشام الذي بنى قصراً لغنائياته المدينيات وسماه دار المدينيات. ولم يقتصر تأثير الحجاز على الأندلس في التراثية والاجتماعية والفنية، بل تعداها إلى تحويل الأندلسين إلى منصب الإمام مالك

(١) لقد كان بعض خلفاء بي أمية يعيشون بابائهم من دمشق إلى المدينة ليتعلموا فيها المعلوم والفنون.

بن أنس⁽¹⁾ الذي كان شائعاً في المدينة. برغم وجود مذاهب أخرى كالشافعية والحنفية، ولكن لماذا اختار الأندلسيون المذهب المالكي دون سواه؟ يشير باحث معاصر⁽²⁾ إلى أن السبب في ذلك هو أن أصحاب تلك المذهب لم يرثوا بلاميد يدونون مذاهبهم وينشرونها في الآفاق، أما مالك فقد حظي بتلاميد نجاء أمثال عبد الرحمن بن القاسم وأشبأ بن عبد العزيز، ومن ثم (أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بمحنون) وكان لمؤلفاته التلامية الفضل في نشر مذهب مالك في المغرب والأندلس. بالإضافة إلى أن مالك بن أنس كان معاصرًا للأمير كما ذكرنا وعجب به. وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه في تحوّل أهل الأندلس على مذهب مالك هو أن الإمام مالك كان على خلاف مع العباسين وذلك من خلال موقفه من ثورة العلوين بقيادة محمد النفس الزكية حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب سنة 145هـ أيام خلافة العباس أبي جعفر المتصور، والتي آيدتها مالك بقوله إلى أهل المدينة: (إنما يابيتم مكرهين، وليس على مكرهين أو طلاق). ولقد تعرض مالك إلى الضرب بالسياط من قبل والي المدينة، وهذا ما شكل سبباً في تعاطف الأمويين في الأندلس مع مالك نكاية بال Abbasin.

ويذكر ابن خلدون في المقدمة، إن سبب تحوّل الأندلسيين هو تشابه البيئة الأندلسية والمغربية مع بيته الحاجز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد. وكانت تغلب عليهم نزعة أهل الحديث وهو مذهب مالك الذي يتقيّد في إصدار حكماته وفتاويه بنصوص القرآن والحديث وعمل أهل المدينة ولا يلجأ إلى استعمال الرأي

(1) لقد سبق وأن ذكرنا أن أهل الأندلس كانوا على منصب الأوزاعي، ولكنهم رغم تبدل مذهبهم، اجتازوا لأنفسهم غرس الأشجار في صحن المساجد رغم عدم إقراره من قبل الإمام مالك.

(2) حسين مؤنس، معلم تاريخ المغرب والأندلس، ص 269.

والثياب إلا في حدود ضيقـةـ حتى عـرفـ عنـ أهـلـ الأـنـدـلـسـ بـأـنـهـمـ لاـ يـعـرـفـونـ سـوـىـ التـرـآنـ وـموـطـاـ مـالـكـ^(١).

وتوفي هشام في عام 180هـ / 796م بعد أن حكم الأندلس لمدة ثمانية أعوام، وتولى الحكم من بعده ابنه الحكم الأول عام 180هـ وعمره لم يتجاوز السنة وعشرين عاماً.

الأمير الحكم الأول بن هشام

(822-796هـ / 180م)

شخصيته:

تضاربت المصادر التاريخية في تحديد السمات العامة لشخصية هذا الأمير الشاب الذي لم يتجاوز عمره السنة وعشرين عاماً، فقد ثبـتـ بشـخصـيـةـ الخليـفةـ العـابـسيـ المـصـورـ لـثـلـاثـةـ باـهـ وـقـوـتـهـ وـعـزـيـتهـ.ـ وـقـالـواـ عـنـهـ (ـكـانـ مـنـ أـهـلـ الـخـيـرـ وـالـصـالـحـ،ـ كـثـيرـ الـغـزوـ وـالـجـاهـادـ)^(٢)ـ،ـ وـإـنـهـ كـانـ (ـشـدـيدـ الـخـرـمـ،ـ مـاضـيـ الـعـزـمـ،ـ عـظـيمـ الـصـوـلـةـ،ـ حـسـنـ الـتـدـبـيرـ)^(٣)ـ،ـ وـكـانـ (ـأـفـحـلـ بـيـنـ أـمـيـةـ بـالـأـنـدـلـسـ وـأشـدـهـمـ إـقدـامـاـ وـنـجـدةـ،ـ عـرـفـ بـشـدـةـ الـمـلـكـ وـتوـطـيدـ الـدـوـلـةـ وـقـعـ الـأـعـدـاءـ).ـ وـأـمـامـ هـذـاـ الـدـيـحـ وـالـثـنـاءـ،ـ نـرـىـ فـيـ مـصـادـرـ أـخـرـىـ ماـ هوـ عـكـسـ ذـلـكـ ثـمـاـ فـوـصـفـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـراـكـشـيـ بـاـنـهـ (ـكـانـ طـاغـيـ مـرـفـأـ،ـ وـلـهـ آثـارـ سـوـءـ قـيـحةـ،ـ وـهـوـ الـذـيـ أـوـقـعـ بـأـهـلـ الـرـبـضـ)^(٤)ـ،ـ وـصـفـهـ اـبـنـ حـزـمـ الـأـنـدـلـسـ بــ(ـإـنـ كـانـ مـنـ الـجـاهـرـينـ بـالـعـاصـيـ،ـ السـافـكـيـنـ لـلـدـمـاءـ،ـ وـلـذـلـكـ قـامـ عـلـيـهـ الـفـقـهـاءـ وـالـصـلـحـاءـ)^(٥)ـ.

(١) كتاب في الفقه والحديث مما وضعه مالك بن أنس وأطلق عليه اسم الموطأ أي السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث، بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلة والزكاة والصوم والحج والمعاملات.. الخ، ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه الواضح الفقهية.

(٢) المقري، نفع، ج ١، ص 319.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 125.

(٤) ومنها لقب بالربضي ويشير إلى هذه الواقعة في حينها.

(٥) المقري، نفع، ج ١، ص 320.

لكن الباحث لا يمكن أن يصدر حكماً وفقاً لهذا التأaponس التاريخي بشأن هذا الأمير الشاب الذي قالوا عنه بأنه شاب ميالاً لللستع والراحة، مرح مولع بالصيد والفنون وحفلات الرقص والغناء وبجالسة الشعراء والندماء. كما أنه (كان فصيحاً، بليغاً، شاعراً، مجيداً)⁽¹⁾، كما نقلوا عنه بأنه كان ميالاً للإنصاف، متواضعاً، عزيز النفس. وحتى ثبتت المصادر صفاتة الحميدة، مع وجود كل الصفات المناقضة لها يقول المقرئ بان الأمير (أنه تفضل أخيراً وتاب).

هذه هي السمات العامة لشخصية الأمير الأموي وسرى في بقية الحديث عن عهده ما إذا كانت هذه المصادر متحاملة عليه أم منصفة له؟! لا سيما وأن هذا الأمير قد استعاد البعض الأموي في طريقه التعالي على الآخرين.

التحديات التي واجهها

لقد واجه الأمير الحكم عدة تحديات لإمارته منها داخلية وأخرى خارجية، أما الداخلية فتمثلت بثورة عميه عبدالله وسلیمان. أما عمه عبدالله والذي كان في المغرب حين علم بوفاة أخيه هشام، فغير المصدق ووصل إلى الأندلس من جديد، إذ اتجه إلى مدينة سرقسطة لتأليب الأندلسيين على إمارة قرطبة لكنه لم يجد الدعم المطلوب، وبعد أشهر من إقامته في سرقسطة ويات من إثارة الناس ضد ابن أخيه، سار بصحبة ولديه عبد الله وعبدالملك إلى شارلمان⁽²⁾، بقصد طلب نجاته، ولكن شارلمان رغم ترحبيه بالأموي عبدالله، لم يرغب في خوض مغامرة غير متوقعة التائج⁽³⁾، ولكن حين مؤنس⁽⁴⁾ يؤكد أن عبدالله عندما ذهب لقابلة شارلمان في (اكس لاشابل) قد وجد كل الدعم منه، إذ أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى ردة على أعقابه سنة 180هـ / 797م. وكانت محاولة عبدالله هذه في الثغر

(1) ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 118.

(2) ذكر ابن عذاري في اليان المغرب أن وجهة عبدالله آنذاك إلى بلاد الفرنجة، ج 2، ص 103.

(3) د. خالد الصوري، تاريخ العرب في الأندلس، ص 132.

(4) مؤنس، معلم تاريخ المغرب والأندلس، ص 274.

الأعلى أن كشف لرجال شارلنان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية، وبالفعل سارت قوات إفرنجية من النصارى سنة 190هـ / 806م نحو الأندلس، بعد أن تحرّر أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على تلك الحملة، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة، وثبت القائد العربي سعدون الرعنوي مدافعاً على أمل وصول الإمدادات من قرطبة، إلا أن الحكم كان مشغولاً بعميه في الجنوب وسقطت برشلونة في يد الغربة، وأنشأ شارلنان فيها ولاية تسمى (لاماركا هيسابايكرا) والتي أصبحت مكملاً خطراً للدولة الإسلامية في الأندلس فيما بعد. أما عبدالله فقد ذهب إلى بلنسية واستمر بالدعاوة إلى الثورة على الحكم، حتى بعث إليه الحكم عام 156هـ / 802م بوفد يحمل له العفو والأمان وكان الفقيه يحيى بن يحيى وابن أبي عامر هما اللذان عقدا الصلح بعد موافقة عبدالله عليه وبقى في بلنسية مع راتب ألف دينار كل شهر وألف دينار كل عام لتعطية النفقات واللازم الخاصة به وعاد الرسولان من بلنسية بعقد الصلح مستصحبين معهما أحد أولاد عبدالله، فيما تشير بعض المصادر إلى أن عبدالله هو الذي طلب الصلح من ابن أخيه بعد ياسه من النجاح في ثورته وأن ابنَيَّ عبدالله قد عادا مع الرسولين، فروجّهما الحكم من ابنته عزيزة وأم سلمة، ومهمماً يكن من الأمر فقد انتهى خطر العم عبدالله على طول حكم الأمير الحكم.

أما عمه الآخر سليمان فهو الآخر أسرع إلى الوصول للأندلس بعد وفاة أخيه هشام، واجتمع له الكثير من أهل الأندلس وسار مباشرة إلى قرطبة، فخرج إليه الحكم ودارت بينهم معركة استطاع الحكم من هزيمة سليمان الذي آخر الانتحاب وتنظيم قواته من جديد للإغارة على الحكم ثانية، فالتقيا في منطقة تدعى (بنبطة) وهزم سليمان ثانية، واتجه إلى (استجة) هذه المرة حيث استطاع أن يحصل على أنصار جدد من البربر، ولكن الأمير الحكم لم يمهله كثيراً إذ سار إليه وهناك حدثت معركة شديدة دامت أياماً وأسفرت أيضاً عن هزيمة سليمان وقواته في عام 183هـ / 799م؛ وتكررت المعارك للمرة الرابعة والخامسة بينهما وتصف المصادر هذه المعارك بالقول (وفي عام 184هـ حشد أبو أيوب سليمان بن عبدالرحمن في المشرق، فاحتل بيجان ثم البيرة، فأتبّعه جماعة في الكورتين، والتقي معه الحكم فداء القتال بينهم أياماً حتى هم

الحكم بالهزيمة، ثم انهزم سليمان وأفلت، وقتل في المعركة بشر كبير، وأخيراً جا سليمان إلى ماردة لتابعة ثورته على ابن أخيه الحكم، فكلّف هذا الرعيم البربرى في ماردة وهو أصبح بن الوس أن ينهض لقتال سليمان فلاحقه هنا فعلاً وتمكن من القبض عليه وساقه أسيراً إلى الحكم فأمر بقتله) وبهذا انتهى خطر العين عبد الله سليمان إلا أن المواجهات والثورات لم تتوقف.

نود أن نؤكد على الوضع السائد في قرطبة آنذاك فنلاحظ نشوء طبقة جديدة من المولدين، وقد نمت هذه الطبقة الاجتماعية بسرعة كبيرة حتى صارت تؤلف الغالبية من سكان الأندلس، فكان منهم التجار والمزارعين وأهل الحرف المختلفة والطلبة والفقهاء، ولقد شعر هؤلاء المولدين بالغبن وتقصي حقوقهم العامة إذ إنهم يتحملون عبء الضرائب دون أن يكون لهم نصيب في ثروات البلاد. والمناصب العليا كانت حكراً على الطبقة الاستشرافية العربية الأموية الحاكمة. وما زاد الأمور تعقيداً أن الأمير الحكم كان مثلاً رأينا سابقاً من سيرته كان مولعاً بشرب الخمرة وخلافات الرقص ومجالية الشعراء والنديماء فشعر الفقهاء ورجال الدين أنهم قد حرموا من امتيازاتهم القديمة على أيام هشام، فتوترت العلاقة بين الأمير وهذه الطبقة، فأخذ رجال الدين يهاجرون في خطبهم على منابر المساجد، ويتهمون بالفسق والفسق ويخرسون الناس على عزله، ولقد استجابة لندائهم الكثير من المولدين الذين كانوا يشعرون بالغبن والذلة، فكانوا من خلال هذا الاستياء العام أرادوا أن يتحققوا هدفهم الأول في تحسين أو ضاعفهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فقاموا بثريتين كبريتين: الأولى قامت في مدينة طليطلة، عاصمة القوط القديمة، وقاعدة الغر الأدنى، وكان معظم أهلها من المولدين والمستعربين الذين كان هدفهم الاستقلال عن سلطان بني أمية في قرطبة، وكان لسان حالم الشاعر غريب بن عبد الله الطبلطي الذي كان يشير الحمس لدى مواطنيه ويدعوهم للثورة على الإمارة الأموية.

ولقد اعتمد الثوار على تحصينات مدتيتهم بارتفاعها وقوتها أسوارها، مما اضطر الحكم إلى استعمال سياسة المكر والخداع، وذلك من خلال تعينه ولائياً من المدينة نفسها

وكان هذا الوالي واسمه عمروس بن يوسف من المؤذنين ولكنه كان خلصاً للحكم، ثم كتب الحكم إلى أهل طليطلة بأنه قد اختار لهم حاكماً منهم ليطمانهم على تحول وتحسن أوضاعهم، ولقد ظاهر عمروس بكره بيًّا أمية حتى استلمهم إليه، ثم بنى خارج المدينة قلعة جديدة لقيم فيها المقاتلين بعيداً عن أهل المدينة لعدم إثلاق راحتهم، وبعدها أقام ولبيمة في هذه القلعة بمناسبة مرور ولی العهد بالمدية وهو الأمير عبدالرحمن بن الحكم. فدعا إليها جميع أعيان البلد وزعمائهم وبعد حضورهم قام بإعادتهم جميعاً، والقى بيتهم في حفرة كبيرة أعدت سلفاً لهذا الغرض. وبهؤللاء الزعماء والأعيان استطاع الحكم أن يسيطر على المدينة لضعف مقاومتها وخضعت تماماً لسلطان قرطبة، وقد سميت هذه المذبحه براطقة الحفرة عام 181هـ / 797م⁽¹⁾.

ثورة الريض⁽²⁾ الأولى والثانية

لقد كان لأنباء واقعة الحفرة والمذبح التي حدثت في طليطلة وقعاً سبباً في نفوس أهل قرطبة من المؤذنين، ومن ثم تحولت إلى مشاعر غضب شديد تجاه الأمير الحكم. وقبل أن يبحث في أمر الثورتين اللتين حدثتا في الريض، نشير إلى قوة المؤذنين في هذه المنطقة والتي جاءت بسبب أن قرطبة منذ زمن تأسيسها أيام الفينيقيين ثم الرومان وبعدهم القرطاط وكانت مدينة ذات نسبة سكانية جيدة. ولما جاء عبدالرحمن الداخل وجعلها حاضرة لإمارته، نزح إليها الكثير من العرب المهاجرين من الشرق، ومن البربر القادمين من المغرب، فأصبحت قرطبة خاصة بالسكان مزدحمة، في إمارة هشام إذ أعاد بناء الجسر الروماني القديم الممتداً على نهر الوادي الكبير ليربط المدينة بأراضيها الجنوبيّة، وقد عرف بجسر قرطبة، وكان لهذا الجسر الأثر الكبير في امتداد العمران إلى ضفة النهر الأخرى المواجهة للمدينة فنشأ حي مكتظ بالسكان عُرف بالريض⁽³⁾ وأمتد من ضفة النهر جنوباً حتى بلدة شقونة، ولقد سكَّه الكثير من التجار

(1) في حين يقرب بعض المؤرخين أنها حدثت عام 191هـ / 807م.

(2) الريض كلمة عامة تعني الحي والجمع أرياضن.

(3) لا يزال هذا المكان معروفاً حتى الآن باسم Arrabal.

وأهل الحرف والطلبة والفقهاء وغالبيتهم العظمى من المولدين، ومن هنا نشأت خطورة وقوه المولدين في هذا الحبى الذي سنتعرض بالتفصيل لثورتين حدثتا ضد حكم الأمير الحكيم في هذا الحبى.

ثورة الريض الأولى قامت في سنة 189هـ/805م، لأسباب قد تحدثنا عن معظمها في واقعة الحفرة، ولقد جاءت هذه المذمة بحق المولدين لتزيد من تعزيل شرارة ثورة الريض، رغم أن مصدر تاريخي⁽¹⁾ كان يعارض هذه الثورة بقوله (كان أهل ذلك الحبى الأشر والبطء، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف في مال أو انتهاءك لحرمة ولا تعسف في مملكته، والحال تدل على صحة ذلك، فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخر ولا شيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشراً وبطراً، وملاً للعافية، وطبعاً جافياً، وعقلانياً غبياً، وسعيأً في هلاك أنفسهم، أعادتنا الله من الضلال والخذلان وأباب البوار والخسران). ولقد كانت شرارة الثورة قد انطلقت من قبل عدد من الفقهاء⁽²⁾ والذين ألبوا الناس وقاموا بعقد اجتماعات سرية مع وجهاء المدينة ولقد اتصلوا بمحمد بن القاسم أحد أبناء عم الأمير الحكيم فشاوروه في خطتهم للقضاء على الحكم وتبيئه أميراً عليهم كما يشير مصدر تاريخي بالقول (حضر أهل قرطبة وفقارها عند محمد بن القاسم القرشي الروايني عمَّ هشام بن حزوة وأخذوا له البيعة على أهل البلد.. فاستظرهم ليلة ليلى رأيه ويستخبر الله، فانصرفوا وحضر هو عند الحكم وأعلمته الحال وإنه على بيته له..)⁽³⁾ وكان لوشاشية هذا الروايني عند الحكم السبب المباشر للقضاء على الثورة، إذ أمر الحكم بالقبض على النازرين في الحال ولم يتمكن من الفرار سوى عدد قليل منهم، وأمر بصلبهم أمام

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 113. ولعل رأي ابن عذاري هذا فيه إجحاف كبير للحقيقة التي تحدثت فيها المصادر التاريخية المختلفة عن قسوة وطغيان الحكم، وظلم المولدين على المستوى الاقتصادي والحرمان من الحقوق الأساسية.

(2) ومنهم عيسى بن مضر التقي، ومالك بن يزيد التجيبي وأبو كعب بن عبد البر، كما يذكر ابن عذاري نفس المصدر، ص 106.

(3) التزيري، نهاية الأربع، ج 22، ص 32.

فصره وكان عددهم اثنين وسبعين رجلاً. كما أمر بقتل اثنين من أعمامه من أبناء عبد الرحمن الداخل وهو مسلمة المعروف بكلب وأمية اللذان كانوا في السجن متوصول الحكم إلى منصب الأمير.

ولقد أحدثت هذه الإجراءات المبالغة والسرعية والقاسية بحق التمردين إلى إخاد هذه الثورة في مهدها. ولكن بدورها لم تمت في نفوس الغالية، إذ كانت قرطبة على مرعد جديد مع ثورة ثانية في 202هـ/818م، قادها الفقهاء أيضاً^(١)، وبالإضافة إلى الأسباب التي أدت إلى كل ثورات المولدين، فإن الشارة الأولى لثورة الريض الثانية تتمثل في حادث عابر تصفه المصادر التاريخية بالقول: أن أحد المالك التابعين للحكم ذهب إلى أحد الحدادين في الريض ليصلاح سيفه، فناخر الحداد في إصلاح السيف بعض الوقت، فحدثت منادة بينهما أدت إلى قتل الحداد، الذي كان من المولدين، فثار هذا الحادث غضب أهل الريض، فقتلوا الملوك وأغلقوا الماجر واتجهوا إلى قصر الإمارة عبر الجسر، وكان الحكم في طريق عودته إلى القصر بعد رحلة صيد فاعترضه بعض المولدين الغاضبين وأسمعواه كلمات جارحة و(شافهه) بعضهم بالقول، وصفقوا عليه بالأكف)، فامر الحكم بالقبض على عشرة من رؤسائهم وقام بصلبهم، فأدى هذا التصرف إلى زيادة الغضب والمليجان الشعبي، وكان أول من ثار أهل الريض القبلي ثم اجتمع إليهم أهل الأرياف الأخرى بالسلاح.

ولقد وصلت أبناء أهل الريض إلى الحكم الذي يقال إنه استقبل هذه الآباء ببرودة أعصاب وطلب من خادمه زجاجة عطر وأفرغها على رأسه وهو يقول: (من أين يعرف رأس الحكم من رأس غيره؟) وبقدر ما تشير هذه الحكاية إلى تصميم الحكم على قتال المولدين، فإنها تشير أيضاً إلى خوف الحكم وتقديره لقوة المولدين. ثم استدعى رئيس حرسه الخاص وأمره بالدفاع عن القصر، وأمر ابن عميه عبد الله

(١) مثل يحيى بن يحيى الليبي وطالوت بن عبد الجبار وعيسي بن دينار وابن وزير. وذكر ابن الخطيب إنه من جملة الفقهاء الثائرين (جد لـنا يعرف بابن وزير، من طرحت النوى بركانه، واستقر بطبلة ومنها تحول إلى مستقرنا بلوشة، فكان خطياً بها، وله يتسب بتنا من بعد السنة الأولى).

ابن عبدالله اللبناني، باختراق صفوف الثوار والوصول إلى الريض وإشعال النار في البيوت، فاستطاع عبد الله من تنفيذ مهمته وأشعل النار في الريض وعندما رأى الثوار السيدة التيران تلتهم بيوتهم ومتاجرهم، عادوا هارعين وبفوضى واضحة لإنقاذ عوائلهم وأموالهم، فاستغل جنود الحكم هذه الحالة، فقاموا بتعقب الثوار وقتلهم فاللوا منهم حتى بلغ عدد القتلى ما يقارب العشرة آلاف مقاتل⁽¹⁾، ولقد استمرت ملاحقة الثوار ثلاثة أيام كاملة، وقضوا على رؤوس الثورة فأمر الحكم باختيار ثلاثة منهم وصلبهم أمام المقص، وبعد أن انتهت المقاومة، قرر الحكم بعد ذلك هدم الريض وتحويله إلى مزرعة بعد أن (أنهى الحكم بمحرّجات الإيمان لا يُشي عن الريض حتى يدعه دكًا، فضيّره على عظمه وهوله وأصالحة بنائه، مزرعة)⁽²⁾.

ومن هذه القسوة البالغة التي استخدمها الحكم للقضاء على ثورة الريض، فلقب على هذا الأساس بالحكم الريضي. وتفرق أهل الريض إلى أماكن مفرقة من المغرب والإسكندرية وكربلا. ورغم انتصار الحكم واستباب سلطته في الإمارة، لكن ثورة الريض صارت درساً يليغاً له ولم ي جاء بعده على قدرة الشعب الأندلسي على الثورة، وضرورة معاملة الناس بالعدل والإحسان. ولقد استطاع الحكم خلال فترة إمارته من القضاء على العديد من الثورات الأخرى كثورة سرقسطة وثورة ماردة وغيرها من الثورات الصغيرة كثورة جابر بن ليد في جيان وثورة البربرى في مورور والتي أخذتنا في سرعة خاطفة⁽³⁾.

غزوّات الحكم

هناك غموض في المصادر التاريخية عن غزوّات أمراء قرطبة ومنهم الحكم إلا أننا نستطيع تبيّن غزوّاته في ما تيسّر من هذه المصادر. فكانت أول غزوّات الحكم نحو

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 16.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع، انظر خالد الصرفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 146، وما يليها.

الشمال الإسباني في عام 180هـ/796م، وهو العام الذي تولى فيه الإمارة. وكانت هذه الغزوة بقيادة الحاجب عبدالكريم ابن عبدالواحد فقد توجه على رأس جيش كبير، في حملة قد اتبعت في خط سيرها وادي الإبرو، فاستولت على مدينة قلهرة ثم سارت إلى الشمال فاجتاحت منطقة أشتورياس، إذ يصف ابن عذاري هذه الغزوة بالقول: (احتل عبدالكريم الثغر وتواجدت عليه الجيوش. ثم تقدم فاحتل شاطئ البحر، وقسم الجيش على ثلاثة أقسام وقدم على كل قسم رئيساً وأمر كل واحد منهم للسيطرة على الناحية التي قصدها ووجه إليها، فمضوا وأغاروا واستباحوا وأباحوا، وانصرفوا غافلين ظافرين، ثم عادوا ثانية إلى الإغارة وجاؤوا خليجاً كانت تخدع وتحصر، وكان أهل تلك التواحي قد تحروا بها ونقلوا إليها العيال والماشية والأموال، فاغاروا عليها واحتلوها على جميع ما وجدوا فيها وانصرفوا سالمين غافلين⁽¹⁾).

وبعد خمس سنوات من الانقطاع عن الغزو لانشغال الحكم وجشه بقمع الثورات الداخلية استؤنست هذه الحملات بإرسال الحكم جيشاً إلى منطقة جليقية، استطاعاحتلاها ثم اتجه الجيش بعد ذلك صوب برشلونة فوصل إلى ضواحيها دون أن يستطيع فتحها. ويصف ابن خلدون نتائج هذه الحملة بالقول: (استطاعت أن تشنخ في أرض العدو وأن تخرب النصر وتعمد إلى قرطبة ظافرة)⁽²⁾ !

وفي عام 187هـ/803م قاد عبد الملك بن مغيث حملة نحو منطقة البه والقلاع⁽³⁾، ثم بعد خمس سنوات أرسلت حملة بقيادة هشام عبد الحكم نحو جليقية استطاعت أن تختل جزءاً من الأراضي التي تحتلها دولة البرتغال الآن، وعادت متصرّة.

وفي سنة 194هـ/710م قاد الحكم حملة نحو منطقة وادي الحجارة ويقال أن من أسباب هذه الحملة هي استغاثة امرأة مسلمة وقعت أسيرة في تلك المنطقة كما يقول المقرى إن هذه المرأة قالت: (واغوثاه يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا،

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 103.

(2) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 125.

(3) ولم يعرف شيئاً عن تفاصيل هذه الحملة.

فَآيَمَا وَتِيمَا^(١)، فامر الحكم بالتبة للحرب فوراً وسار إلى تلك المنطقة فتوغل فيها وفتح حصونها وهم المقابل واستطاع أن يأسر عدداً كبيراً من أهل وادي الحجارة، كما استطاع أن يمرر تلك المرأة المسلمة الأسيرة. وأخر غزوات الحكم كانت في عام 200هـ/ 816 م والتي اكتفى المؤرخون القدماء بتحديد اتجاهها بقولهم إنها كانت ناجية (وادي آرون)، وهذا أدى إلى حصول اختلاف في وجهات نظر المؤرخين المحدثين حول تحديد موقع ذلك الوادي، فقال بعضهم إنه كان في منطقة جلية، بينما ذكر آخرون إنه كان في منطقة أخرى تقع إلى شرق جلية قرية من وادي الإبرو.

ولقد وصف ابن خلدون هذه الحملة بقوله (وفي سنة ماتين بعث الحكم العساكر مع الحاجب ابن منيت، فاقبلا عليه ملك الجلالقة في جروم عظيمة وتناولوا على النهر واقتلوه عليه أياماً ونال المسلمين منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاثة عشرة ليلة ثم كرت الأمطار ومد النهر وقتل المسلمين ظافرين). في حين يصف ابن عذاري هذه الحملة بقوله (فلما أصبح، نهض عبد الكري姆 ومن معه إلى فحائض الوادي، ونهض أعداء الله إليهم فقاتلواهم على كل عناية فيها، فجال الدعم المسلمون عليها بمحالدة الصابرين المحتسين، واقتصر أعداء الله النهر إليهم فاقتلوه على عناية ثم حل المسلمين عليهم حلة صادقة، فاضطهدهم في المسايق وأدخلوه على غير طريق، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح، فقتل من المشركين عدد عظيم لا يُحصى كثرة، ومات أكثرهم بالردي، ودأس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المطاعة والمحالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة وأثثروا الحراس بالمخائض ووعروها بالخشب، وحفروا الخفايا وخدقوا الخنادق ونزلت الأمطار، وكان قد فرغ ما كان للعدو من المرافق، وضاقت الحال أيضاً بال المسلمين، فقتل عبد الكري姆 ظافراً...⁽²⁾).

(١) المقري، نفح، ج ١، ص 321. كما نزد هذه العبارة في مصادر أخرى وبصيغ مختلفة، لكنها تتفق على المفهوم.

(٢) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 12.

الحكم شاعراً

يبدو أن بني أمية رغم قسوتهم وطغيانهم كانوا على درجة عميزة في ملكاتهم الأدبية. ولقد برع منهم أكثر من شاعر وأديب ولعل جد الحكم عبد الرحمن الداخل كان أديباً وشاعراً كما عرفنا. ويصف المؤرخون الحكم بأنه كان (فسيحاً، بليناً، شاعراً، مجيداً)^(١)، كما وصفه ابن الخطيب بالقول: (إنه كان على فظاظته شاعراً مطبيعاً، آثر عنده قول الشعر)، ولكن ما نقل من أشعاره قليل.

ومن شعره الغزلي:

أعرضْ من البَلَانِ مَاسَتْ فَوقَ كَثَبَانِ
نَاصِدَتِهِنْ بَحْقَنِي فَاعْتَزَمْتُ مَعْلَى الدِّيَانِي
مَلَكَتِي مُلْكَ مَنْ دَلَّتْ عَزِيزَتِي
مَنْ لَيْ بِعَنْصِبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِي
وَلَهُ فِي الْغَزْلِ إِيْضَا:

ظَلَّلَ مِنْ فَرْطِ حَبَّةِ مَلْوَكَأَ
أَنْ بَكَى أَوْ شَكَى أَهْرَوْيَ زَيْدَ ظَلَّمَأَ
تَرَكَتْهُ جَآذِرَ التَّقْرِيرِ صَبَأَ
يَجْعَلُ الْخَدَ وَاضْعَافُهُ فَوْقَ تَرْبِيَّا
هَكَذَا يَحْسُنُ التَّذَلَّلُ بِالْحَبَّ

ولقد قصيدة نظمها بعد انتصاره في معركة الريض الثانية:

رَأَيْتُ صَدَوْعَ الْأَرْضِ بِالْيَفِ رَاقِعاً
وَقَدْمَا لَامِتُ الشَّعَبَ مَذْكُنْتُ يَانِعاً
فَسَائِلَ ثَفَرَرِي: هَلْ بِهَا الْآنَ نَغْرِةٌ
أَبَادَرَهَا مَسْتَنْضِي السَّيفِ دَارِعاً

(١) نفس المصدر، ص 118.

وشاشة على الأرض الفضاء جاجا
تشيك أني لم اكن عن قرائهم
بوان، واني كنت بالف قارعا
فلم ألاّذا حيد عن الموت جازعا
ومن لا يحامي ظلّ خزيان ضارعا
سيتهم سماً من الموت نافعا
وهل زدت أن وفيتهم صاغ قرضهم
فواقو منايا قدرت ومصارعا؟
مهادأ، ولم أترك عليها منازعا
فهالك بلادي، إنني قد تركتها

وفعلاً لقد ترك الأمير الحكم إلى ابنه عبدالرحمن إمارة قرية متماسكة، خاضعة لسلطة بيبي أمية. إذ أن الحكم قد توفي أواخر سنة 206 هـ بعد أن صارع المرض، ويقال إنه قد ندم أواخر أيامه على ما فعله في الريض. وقد أخر أهل بيته بإعلان موته بنفس الوقت إلا بعد أن تقرر أمر الإمارة كاملاً إلى ابنه عبدالرحمن المعروف بالأوسط.

الأمير عبدالرحمن الأوسط

غتل ولاية هذا الأمير بداية عصر الاستقرار والذي ازدهر في ولاية عبدالرحمن الناصر، وهو اللقب بعبدالرحمن الثاني لأنه كان ثالثي ثلاثة⁽¹⁾ حملوا الاسم ذاته. ويكتنفي بيبي المطرّف، ولقد تميز هذا الأمير بطبيعته المادى وسياساته الليبية مع الرعية وكان حازماً في الوقت المناسب، إذ أنه كان (ذا حمة عالية) (واليامه كانت أيام هدوء وسكون)⁽²⁾، وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة⁽³⁾. وتعزى عهد الأمير عبدالرحمن بفترته الطويلة زمنياً من 206 هـ - 248 هـ كما امتاز الأمير باهتمامه بالأدب والشعر والعلم فقرب إليه علماء أمثال يحيى بن حكم الغزال وعباس بن فرناس ومن الشعراء عباس بن ناصح وعبدالله بن الشعر إذ كان الأمير مولعاً بساع الشعر والأدب، مؤثراً له على

(1) وهم عبدالرحمن الداخل وهو عبدالرحمن الثالث أو الناصر.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 135.

(3) المقري، نفع، ج 1، ص 325.

جیع ملذاته⁽¹⁾، كما كان مهتماً بالموسيقى والغناء، وكان في مقدمة الموسقيين الذين احتضنهم الأمير هو علي بن نافع الملقب بزرياب الذي قدم إلى الأندلس من بغداد.

بالإضافة إلى اهتمامه بالعمارة والبناء، إذ أنه (أول من جرى على سن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكذا الخلافة أبهاة الجلال، فشيَّد القصور وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف وعمل السقايف، وبنى المساجد والجوامع بالأندلس، وعمل الساقية على الرصيف، وأحدث الطرز واستطاع عملها، واتخذ الكفة بقرطبة، وفخم ملكه)⁽²⁾، كما شهد عهده رخاءً اقتصادياً ملحوظاً إذ بلغت أموال الجباية مليون دينار بعد أن كانت ستمائة ألف قبل ذلك. لذا، فإن بعض المؤرخين اطلقوا على عهد الأمير عبدالرحمن بأيام العروس، ولقد نافست قرطبة بغداد ولا سيما في زمن الفتنة بين الأمين والمأمون العباسيين.

ويقدر ما لاحظنا من اهتمام الأمير بشؤون الإمارة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فكان له كمية الأمويين ولم في الجواري وعطایاه الكبيرة هن، فلقد أهدي لأحدى جواريه وهي (طروب) مبلغًا كبيرًا من المال وعقداً نفيساً بغية صالحتها بعد خصومة وقعت بينهما، وعندما سمعَ كلام بعض وزرائه عن عظم هذه الهدية فاجابهم (بان لا به نفس منه خطراً وأرفع قدرًا)، وقد امْلأَت هذه الجارية التي أصبحت زوجته وأم ولده عبدالله، في موقع مؤثر في السلطة. كما كان للأمير الكثير من الجواري اللاتي حظين بموقع مؤثر في نفس الأمير مثل (مدثرة) التي تزوجها (الستاء) (وَقلم)...).

سياسة الأمير الإدارية

لقد اعتمد الأمير عبدالرحمن الثاني في سياساته الإدارية على أربعة مفاصل مهمة تسير على موازين دقة في اختيار الأشخاص الذين سيتولون هذه المناصب الحساسة

(1) نفس المصدر، ص 328.

(2) ابن القوطي، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 83.

والذى يمثل نجاحها في الأداء، نجاحاً للسياسة الإدارية في حكم الإمارة، ومن ثم ضمان تطبيق العدل والمساواة بين الناس.

ففي منصب القضاة كان المعيار الأساسي لشاغله هو العلم والتمكّن بمبادئ الدين الإسلامي والعدل وعدم التحيز لفتنة دون أخرى من المجتمع، كما أن الأمير تفرد بتعيين القضاة ولم يسمع رأي الآخرين بهذا الخصوص⁽¹⁾. وتذكر المصادر التاريخية احترام الأمير عبدالرحمن لفقهيه يحيى بن يحيى والأخرين مثل سعيد بن محمد بن بشير وابن شراحيل المعافري، وأبوي عمر بن بشير، وفرج بن كنانة اللوني، ويحيى بن معمر الlahاني الأشيلي، الذي عزله الأمير بعد أن هاجمه الفقهاء يحيى بن يحيى، ثم تولى القضاة ابن صفوان القرشي الذي عُزل هو الآخر على إثر حادثة قيل أن امرأة قالت للقاضي: (يا بن الخلافة، انظر متى نظر الله إليك) فلم يستكر هذه العباره، فنقل أحد الحاشية للأمير⁽²⁾ هذه الحادثة بالقول: (تشرك في سلطانك من يتسمى باسمك)، فغضب الأمير من الناضجي وعزله، وهذا يؤكّد ملاحظاتنا في الحاشية رقم (١) بأن الأمير لم يلتزم بالمعايير التي سنّها لتعيين القضاة، وتولى على القضاة أحد بن زياد وبعده ابن عثمان الجياني ثم أخاه معاذ وبعد عزمه سعيد بن سليمان الغافقي. ولا شك أن تبدل القضاة يتناوب مع طول فترة حكم الأمير.

أما في منصب الحجاجة والوزارة فقد تناوب على هذين التصنيف كبار الشخصيات في ذلك العهد مثل عبدالكريم بن مغيث الحاجب وعيسي بن شهيد، ويوسف بن مجت، عبدالله بن أمية بن يزيد، عبدالرحمن بن رست ومهران بن عبد ربه وغيرهم. وكان من هؤلاء الأسماء من رجال الأدب والفكير والذي كان الأمير عبدالرحمن يحرص على رعايتهم واحتضانهم. وأما منصب الخزانة فقد تولاه عدة نساء منهم موسى بن جديرو ابن بليل، وظاهر بن أبي هارون، ومهران بن عبد ربه الذي كان حاججاً. ومن معرفة سيرة هؤلاء الرجال الذين تناوبوا على إدارة المراكز الحساسة

(١) لكن هذه السياسة لم تستمر طويلاً، لأنه أخذ برأي الآخرين في نوبية أو عزل القضاة.

(٢) وهو موسى بن جديرو صاحب الخزينة.

في الإمارة وهي القضاء والحجابة والوزارة والخزانة، نعرف أن الأمير عبدالرحمن قد حرص جاهداً على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وهي بلا شك قاعدة إدارية لابد منها لإنجاح السياسة الإدارية العامة للحكم في أي زمان ومكان.

قرطبة وحضارة العراق

سبق وأن ذكرنا بأن عبدالرحمن الداخل قد نقل من دمشق إلى قرطبة مظاهر العمارة الشامية والتخلة التي راح يشاطرها الحزن على وجودهما الطارئ على أرض غربية بعيدة، ولكن عهد عبدالرحمن الثاني لم يشهد مثل هذه الأحزان والحساسية العاطفية لكون الأمير قد نشأ وترعرع في الأندلس، فلم يجد حراجة في الانتهاج على بغداد حاضرة العباسيين بعد أن تأثرت الأندلس بالحضارة الشامية والخجازية من قبل. لا سيما وأن العباسيين قد كفوا تماماً عن محاربةبني أمية في الأندلس حتى في زمن هارون الرشيد الذي شهد علاقات جيدة مع شارلمان الفرنسي، إذ يذهب الباحث المعاصر حين مؤنس إلى الاستعارة بجهود د. عبدالعزيز الدوري الذي خرج من هذه المراسلات والعلاقات والمدياً بين الرشيد وشارلمان، بكونها لم تكن رسمية، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة حلوا المدياً إلى بلاط شارلمان، وزعموا أنها من الرشيد ليحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية، ليؤكد الباحثرأيه بأن هارون الرشيد لا يمكن أن يتحالف مع ملك نصراني ضد أمير الأندلس المسلم⁽¹⁾. ولكننا نستطيع أن نقطع بأن العباسيين قد انصرفوا عن متابعة الأمورين منذ زمن عبدالرحمن الداخل، والذي أطلق عليه الخليفة العباسي كما أشرنا سابقاً لقب صقر قريش. لكن الظروف لم تتضح حينها للاتصال ببغداد، وفي عهد الأمير عبدالرحمن الثاني الذي كان عهد استقرار بينما بغداد تشهد تحولات هائلة في عهد الرشيد وما بعده لإعادة الصلة بين قرطبة وبغداد، فبغداد قد شهدت نهضة حضارية شاملة أهلتها أن تكون حاضرة عالمية، فكان من المنطق أن تتجه الأندلس مثل غيرها من البلدان الإسلامية صوب تلك الحضارة. إذ أن الأمير قد اتبع سياسة الافتتاح على

(1) انظر حين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 288.

العراق خلافاً للعزلة السائدة في سبعة أسلafe، ورأى أن يجاري حركة التحديث الجديدة والتي ازدهرت في بغداد، حتى أن الأمير أخذ يقلد الخلفاء العباسين في مظهرهم وهيئتهم التي اكتسبوها من خلال بعدهم راحتخابهم عن العامة.

كما فتحت أسواق الأندلس أمام التجار والبضائع العراقية، وخصوصاً الملابس وأدوات الزينة حتى أن الأمير عبد الرحمن، كما تروي المصادر التاريخية، قد اشتري عقداً للبليدة زبيدة زوجة هارون الرشيد يبلغ عشرة آلاف دينار وأهداه بلاريته النساء^(١)، ويعرف هذا العقد بعد الشبا^(٢) أي المتف مثلاً ثعبان، وقد سرق ضمن الأشياء الثمينة الأخرى التي نُهِتَ في بغداد إبان الأزمة بين الأمين والمأمون.

كما شهد عهد الأمير الانفتاح على الموسيقى العراقية التي استطاعت أن تختل الواجهة الفنية وخصوصاً بعد قدم الموسيقار العراقي الفارسي الأصل علي بن نافع الملقب بزرياب^(٣) إلى الأندلس، فقد سعى زرياب إلى تعليم الأندلسيين طرقة موسيقية جديدة في كيفية ابتداء الغناء وإنتهائه، وجعل مضراب العود من قوادم النسر بدلاً من الخشب وهو أمر يساعد على تقاويم الصوت وسلامة الوتر. وأضاف وترأ خاماً للعود جعله في الوسط وهو يقابل النفس في الجسد. بينما الأوتوار الأربعية الأخرى تقابل الطبائع البشرية الأخرى وهي الدم والصفراء والسوداء والبنفس. وما زال تأثير موسيقى زرياب ماثلاً في الأندلس ودول المغرب العربي.

وعلم زرياب الأندلسيين طرقة الطهي العراقي، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة أو كما يقال الآن بـ(الأنيكت). إذ يبدأ الإنسان بالحساء أو المقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة. كما أشار عليهم باستخدام الأواني الزجاجية بدلاً من الأواني الفضية والذهبية.

(١) وتذكر بعض المصادر اسمها الشباء.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٣٦.

(٣) زرياب، كلمة فارسية تطلق على طائر أسود حسن التغريد.

ولم يقتصر زرباب بهذا، فقد عمل القرطبيين طريقة تصفيف الشعر ورفعه خلف الآذان بدلاً من تركه مسدولاً على جاهمهم وغيرهم. وأشار إليهم بارتداء الملابس في أوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفة والثقل. ولقد عرفت هذه التعليمات والأراء التي جاء بها زرباب باسم مراسيم زرباب. وفي الحقيقة إنها رمز للحضارة الشرقية العراقية التي اجتاحت الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمن الثاني، ويذكر أن الأندلسيين كشعب متحضر لم يقبلوا هذه التجديدات بسهولة لأنهم يتغاضون مع الحضارات بشكل واعي. ولا يتبعون أي تقليد جديد على عواهنه. وتمثل هذا في معارضته بعض العلماء والوزراء لزرباب أمثال ثماں بن علقمة والشاعر يحيى الغزال، الأمر الذي نطلب تدخل الأمير حمایة زرباب وقام بتأييده ثماں بن علقمة ونفي يحيى الغزال. وصالح بين زرباب والوزراء.

ومن المظاهر الحضارية العامة التي شهدتها عهد الأمير عبدالرحمن فهي ولع الأمير بالأعمال الإنسانية حتى شُبَّه بال الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فقد بني الأمير مسجداً جامعاً في إشبيلية وهو مسجد ابن عتبس⁽¹⁾، ثم بني مسجداً آخر في مدينة جيان وأقام عدة إصلاحات في جامع قرطبة وعدداً آخر من المساجد سميت باسماء جواريه⁽²⁾، ولم يقتصر عمران الأمير على المساجد فقام ببناء مدينة مرسية على يد جابر بن مالك عامل تدمير بعد أن كانت مرسية قرية صغيرة تابعة لمدينة تدمير على الساحل الشرقي الأندلسي، وقام ببناء سور حجري كبير يحيط بمدينة إشبيلية بعد غارة النورمانديين عليها. أما في قرطبة فأقام على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير طريقاً ساحلياً سياحياً غُرف بالرصيف.

وقد بني لنفسه قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة القديم، وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحاطة بقرطبة، وأقام أبراًجاً مفتوحة بالزجاج الشفاف لتمكنه من رؤية المظاهر الطبيعية التي أمامه مثل الوادي الكبير وسفنه الراسية، وصحراء الريض وما

(1) على اسم الناضي عمر بن عتبس الذي اشرف على بنائه عام 214هـ.

(2) مثل مسجد طروب ومسجد النساء (الشفاء) ومسجد فجر.

وراءها من مزاعع، والتي كثيرة ما كان الأمير يصعد إلى هذه الأبراج ليمارس هواية النظر إلى جمال الطبيعة الخلابة هناك. ولقد ذكرنا سابقاً مدي شفف الأمير بالأداب والفنون والتي هي أحد أهم المظاهر الحضارية لأي مجتمع. وهنا سنورد قصة الأمير مع العلماء الذين يشكلون ركناً أساساً في صروح الحضارات إذ كان الأمير يشجع العلماء ويرعاهم وعلى وجه الخصوص عباس بن فرناس⁽¹⁾ الذي كان عالماً بعلوم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء. ولعل محاولته في الطيران التي تعتبر أول محاولة للطيران في التاريخ تمثل جانباً من شخصية هذا العالم المترفة. بالإضافة إلى العلوم كان عباس بن فرناس عالماً باللغة العربية وأدابها. وتورد المصادر قصة تاجر عراقي حل إلى الأمير عبد الرحمن كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي، فلم يفهمه الأمير حتى أطلع عليه عباس بن فرناس واقرَّ بأن هذا الكتاب غير مكتمل، فأمر الأمير بإحضار الجزء الناقص من العراق، فاستطاع بن فرناس أن يفهمه ويشرحه للناس. وكان أول من درس العروض في الأندلس. فاكرمه الأمير بثلاثمائة دينار وكوة. ولقد تعرض العالم عباس بن فرناس إلى حلة شعواء شتتها العامة عليه ووصفوه بالساحر والمشعوذ والرذليق لاشغاله في علم الكيمياء، لكن قاضي الأمير برأه من هذه التهم.

الفتن في عهد الأمير عبد الرحمن⁽²⁾

لقد ذكرنا أن عهد الأمير قد غيَّر بالمدوء والسلام وهذا لا يعني خلوه تماماً من الثورات الداخلية والغزوَات الخارجية. وكان الأمير غير مهمٍّ كثيراً بالفتنة الداخلية إذ يظل يتظاهرها حتى تهدأ من داخلها أو يقوم بإدخالها بأقل خسارة. وكما فعل مع فتنة المفررين واليمينين التي استمرت سبع سنوات في تدمير والتي سببت مرسيه في الشرق

(1) اختُلِفَ المصادر في نسبه، فمُنْهَمْ من قال إنه إسباني المولد من قلبِ رنده، ويرى آخرون أنه مغربي الأصل.

(2) لم تتوسَّع وتنتَاب كل الفتنة بالتفصيل وللمزيد حول هذه الفتنة، انظر مثلاً، حين مؤنس، معايم تاريخ المغرب والأندلس، ود. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس ص 173، وما بليها.

الأندلسي كما مرّ بنا، وكانت تدمير من المناطق الجبلية، وكان معظم جنودها من مصر وغالبيتهم من اليمن، ولكن المضريين كانوا يحاولون السيطرة على البمنية، وهنا قامت الفتنة، فكان الأمير عبدالرحمن يرسل إليهم جيشاً لإطفاء الفتنة بين الحين والآخر، إلا أن الأمر قد تفاقم فأرسل إليهم القائد يحيى بن خلف على رأس جيش كبير استطاع السيطرة على الموقف قرب موقع (لورقة) وانتهت هذه الفتنة عام 213 هـ / 828 م. وكذلك كان موقف الأمير من أهل البيرة الذين قدموا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف والي النصارى هناك، فانتظر أن يهدأوا فلما يأس من ذلك أرسل إليهم جيشاً فانهى تمردhem.

وكان الأمير عبدالرحمن بالإضافة إلى اهتمامه بجسم الفتن الداخلية، كان أيضاً شديداً في الاهتمام بحماية الحدود الشمالية للأندلس، إذ أن نشاط العدوان على أراضي الأندلس قد تزايد وخصوصاً بعد ولادة (لويس الثاني)⁽¹⁾ على عرش فرنسا، وهو من كبار ملوكها، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلونية، وقد عرف عبدالرحمن بسياسة الصائبية في كسب صدقة الشكوص ضد الفرنسيين، فوفقاً إلى جابه، واستطاع أن يرد غزوة الفرنسيين على إقليم قطلونية في عام 209 هـ / 824 م.

ذلك كان ملك جليقية واشترياس الفونسو الثاني نشاط في الهجوم على الأندلس، فاستولى على مدينة سالم قاعدة الغرب الأوسط، فاستطاع القائد عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث من القضاء على جيش الفونسو الثاني في معركة حاسمة في سهل (فوج جرنيق) في إقليم آبه، وقد قتل في هذه المعركة عدد كبير من جيش العدو، ونهبت ذخائره الكثيرة، وألزم القائد الأموي ملك جليقية بدفع الجزية. وكانت هذه آخر غزوة للقائد عبدالكريم الذي يعتبر من أكبر القادة العسكريين الذين ظهوراً في الأندلس. فقد ظل طوال أكثر من ثلاثين سنة يدافع عن الأندلس، وأبدى خلال خدمته قدرة عسكرية عالية وإخلاصاً نادراً ولقد أسس تقاليد عسكرية سوف تتبع من بعده، وقد خلفه في قيادة جيوش الإمارة أمية بن معاوية بن هشام واستطاع أن يواجه

(1) أو لويس الخلي.

ثورات كبيرة في مناطق شتى من الأندلس، من بينها حلت على البيهية في إقليم تدمر، إذ عاد رئيسهم إلى التمرد ودعا إلى الخلافة العباسية فتمكن أمية من هزيمته بالقرب من لورقة بعد ذلك بستين وكان الأمير عبدالرحمن لا يتوانى بقيادة الحملات العسكرية بنفسه في معظم الأحيان، فاستطاع أن يحسم حدود بلاده في ألب والفلانغ وأراضي البشكونس وإقليم قطلونية، وفي عام 228 هـ / 843 استطاع هزيمة قوات إمارة نبرة وفي نفس السنة توفي الفونسو الثاني⁽¹⁾ ملك جليقية بعد 51 سنة من الحكم ومعادة المسلمين في الأندلس.

وهناك خطر كان يهدد أراضي الأندلس عثلاً في غزوات قاموا بها النورمان⁽²⁾ وهم القراصنة الذين كانوا يأتون من الجهات الشمالية في أوروبا وبالتحديد من البلدان الإسكندنافية، أطلقوا عليهم اسم النورمان والمؤرخون العرب القدماء لقبوهم بالمبوس، وكانت هؤلاء القراصنة من أجرا القرصان وأكثرهم وحشية لا هم لهم سوى السلب والنهب، وكانت غاراتهم مرعبة في أساطيل متكونة من سفن صغيرة ذات أشرعة سوداء، بدأوا بهاجمة لشبونة ثم قادس وشدونة وجزيره قبطيل ثم تابعوا مسيرهم إلى قورة وصعدوا إلى طلياطة والتي تبعد ميلين عن أشبيلية ووصلوا أشبيلية دون أن تستطيع المراكب والسفن العربية من اعتراضهم، فلبلوا ونهبوا واحرقوا المساجد وقتلوا الشبان والشيخ والنساء⁽³⁾. حتى استطاع الأمير عبدالرحمن من التصدي لهم بعد أن جهز الاستعدادات الكافية لمواجهة ذلك الخطر وحدثت معركة حاسمة قرب قرية طلياطة سنة 230 هـ / 844 استطاع جيش الأمير من هزيمة القراصنة وقتل الكثير منهم وأسر ما لا يقل عن أربعين ألف قرصان وأعدموا على

(1) الملقب بالكارستو أي العنيف.

(2) أو النورمانديين أو الأرمانيين.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 131.

الساحل. وازدح خطرهم فهدأت أحوال الإمارة. وبينما على هذا التحدى التورماندي أمر الأمير ببناء سور حول أشبيلية وأقام داراً لصناعة السفن وأصلاح ما خربته الحرب. وعندما أدرك التورمانديون قوة تلك الإمارة الإسلامية، أرسلوا وفداً للمصالحة مع هدية للأمير وبادل الأمير هذه المبادرة بإرسال وفداً وإرسال وهدايا فكان الصلح بينهما وهكذا انتهى آخر خطر كبير واجهته الإمارة.

نهاية الأمير المؤلة

بعد حياة امتدت لاثنين وستين عاماً وإمارة امتدت لإحدى وثلاثين سنة ونيف، كانت حافلة بالإنجازات والمخاطر كما رأينا، لكن نهاية هذا الأمير كانت مؤلة ومليئة بالدسائس والمؤامرات التي شهدتها قصر الإمارة. نتيجة منطقية للحياة الخاصة لهذا الأمير المزوج إذ بلغ عدد أبناءه بين الذكور والإإناث إلى ثمانين. وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الأمير كان يشعر بمشكلة خلافه وهذا ما جعله لا يوصي لأحد من أبنائه، في حين تشير روايات أخرى إلى أنه قد أوصى إلى ابنه محمد ليكون خلفاً للإمارة.

ولعل أبرز قصة للمؤامرة على حياة الأمير، كانت على يد جاريته الأثيرة إلى نفسه (طروب) والتي حاولت أن يكون ولدها عبدالله ولباً للعهد لكنها اخفت في تحقيق هذه الرغبة، لأن المرشح الساخن لخلافة الأمير والمعروف بين الناس هو ابنه الأكبر محمد. فاتفاقت طروب مع شخصية مهمة في الإمارة وهو نصر الخصيّ قائد المحرس والقصر على التخلص من الأمير وولي العهد معاً وذلك بتقليهما بالسم. ولكن هذه الحادثة قد تم اكتشافها من قبل أحد نساء الأمير وهي (فجر) وبعد هذه الحادثة بستين توفي الأمير عبدالرحمن سنة 238هـ / 852م. وخلفه ابنه الأكبر محمد أميراً على قرطبة.

عصر الاضطرابات

▪ الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم.

- * الأمير المنذر بن محمد.
- * الأمير عبدالله بن محمد.

لقد سبق وأن رأينا سير الأمراء في إمارة الأندلس بعد عبدالرحمن الداخل، وكيف استطاع الأمراء الثلاثة والذي كان آخرهم عبدالرحمن الثاني من تثبيت دعائم الإمارة وإحلال السلام فيها وشيع مظاهر الحفارة في مختلف نواحي الحياة، فكانت قرطبة في عهدهم قوة مركزية دانت لها كل الأقاليم بعد أن نجح الأمراء من إخراج الثورات والفنن الداخلية، وأوقفوا الغزوات والتوجه المسيحي في قلب الأندلس، كما حافظ الأمراء السابقين على التفوق السياسي والعسكري للإمارة. وكان جهودهم في المحافظة على أسباب القوة وتنميتها السبب المباشر فيبقاء الإمارة تعيش بسلام وسط كل الظروف الصعبة والتي تحيط بقرطبة، فلما توفي عبدالرحمن الثاني تولى من بعده الحكم أمراء ضعفاء مهزوزين بدءاً بال Amir محمد بن عبدالرحمن والتي امتدت ولاليه من 248هـ - 273هـ وخليته الأمير المنذر بن محمد من 273هـ - 275هـ، ثم خلفه الأمير عبدالله بن محمد 275-300هـ⁽¹⁾. وكانت مدة حكمهم تقدر بحوالي 62 عاماً، كانت حافلة بالأضطرابات السياسية والفنون والثورات وقيام دوليات مستقلة قد رفعت راية العصيان عن سلطة الحكومة المركزية في قرطبة. حتى أصبح الأمير لا يعتمد صلاحاته وأوامره إلا في قرطبة ونواحيها فقط. وهكذا أحاطت المخاطر بالإمارة الأموية وفككت وحدتها السياسية، ويعلل ابن الخطيب⁽²⁾ هذا التشرذم والتمزق الذي أصاب الإمارة الأندلسية في عهد هؤلاء الأمراء الثلاثة بالأسباب التالية:

1. منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم للنصارى في الشمال.
2. علو المهمم وشمول الأئوف وقلة الاحتمال ل occult الطاعة، إذ كان منهم الإشراف الذين يأنفون الخضراع والإذعان.

(1) لهذا ارتادنا أن ندرسهم كموضوع واحد للتشابه الكبير في الظروف التي عاشوها كما فعل ذلك بعض الباحثين.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 41.

3. الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يعمرصون على ضرب المسلمين بعضهم بعض.

الواقع ان المجتمع الأندلسي لم يكن في تلك الحقبة التاريخية شعباً واحداً، بل كان يضم في تركيبة السكانية شعوباً وأجناساً متعددة، فبالإضافة إلى سكان البلاد الأصليين وهم الغالية، الذين ينقسمون إلى قسمين: المسلمين والمترعرعين الميسحين. وهناك العرب الفاتحون وهم الأقلية من حيث العدد، وهم ينقسمون أيضاً إلى عرب الجنوب وعرب الشمال، ولقد شهدنا صراعاتهم التقليدية على مرور تاريخهم في الأندلس؛ وهناك من الفاتحين البربر وهم أكثرية الفاتحين عدداً، يضاف إليهم شعوب الولايات الشمالية الإسبانية مثل سكان جليقية، وال بشكتش سكان نافارا والجبل الشمالي، والقطلان سكان قطالونيا، وغيرهم. فهو لاء الأقوام والأجناس يمثلون طبيعة المجتمع الأندلسي الذي لا يمكن البطرة على هذا التنويع العربي والديني إلا بوجود قوة مركبة كالمي كانت عليها الإمارة في العهد السابق، أما عهد هؤلاء الأمراء فقد قلنا إنه شهد ضعف مركبة الإمارة، فلابد أن تظهر إلى سطح الواقع المطatum ونزاعات الاستقلال. ولقد استغلت هذه العناصر المتعددة الظرف الذي تعشه الإمارة بعد وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني فأخذوا يؤسرون عدة كيانات مستقلة عن الإمارة المركزية في قرطبة. فالمولدون أعلنا عن تشكيل دوبيلات مستقلة ثلاث، الأولى: إلى بني موسى في منطقة سرقسطة أو الغر الأعلى التي كانت ثغراً على أرجوان وقطالونيا في شمال شرق إسبانيا. والثانية: إلى بني مروان الجليقي وقد استقلوا بولاية بطليوس في غرب إسبانيا. والثالثة: لبني حفصون وزعيمهم عمر بن حفصون وقد استقلوا في المرتفعات الجنوبية الإسبانية المتعددة بين مدینتي رندة غرباً ومالة شرقاً وكانت قاعدتهم قلعة بيشتر. وكذلك كان الحال مع زعماء البربر فقد استقل بنو ذي النون في طليطلة وبنو الملاخ في مدينة جيان. ومن العرب إبراهيم بن حجاج في إشبيلية وفرمونة. وهكذا أصبح حال الأندلس في ظل الأمراء الثلاثة.

موجز لمعنى ال السياسي في عصر الاضطرابات⁽¹⁾

بعد أن تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة واجه أول ثورة من قبل أهل طليطلة التي كانت بحكم موقعها الجغرافي وغالبية سكانها من المولدين تعتبر معتلأ للثورات. فقد ثارت قرطبة وقام أهلها بسجن عامل الأمير عليهما، مقابل أن يطلق الأمير رهانهم من سجن قرطبة، فوافق الأمير وامتنل لشروطهم، ولكنهم لم يكتفوا بهذا فهجموا على قلعة رياح وأرغموا قوتها على الانسحاب، فبعث الأمير آخاه الحكم على رأس جيش لمعالجة الأمر في طليطلة عام 279هـ فاستطاع استرجاع قلعة رياح وأمر ببناء سورها وأرجع من هرب منها. كما جهز الأمير قاديه قاسم بن عباس وقاصم بن أبي العطاف للسير إلى شنبلة فلما اقتربا من أندوجر، باغتتهم قوات من طليطلة وألحقت بهما هزيمة قاسية. وسمى أهل طليطلة إلى أردون بن ردبة ملك اشتوريش لتقديم المساعدة لهم، فلم يتردد ياسعفهم بكل الوسائل لأن مصلحته كانت تقتضي بإشعال نيران الحرب الأهلية في الأندلس. وبقي مشهد الكفر والفساد العسكرية والمواجهات المتكررة بين أهل طليطلة وجيش الإمارة، إلى أن خرج الأمير محمد بنفسه عام 244هـ إلى طليطلة بعد أن انهكthem المازلات فاستطاع أن يهزمهما، وبالتالي تم الصلح معهم. ومن ثم أعيدت كرمة المازلات بعد عشر سنوات وأخيراً أنهت ثورتهم بعدما انتصر أهل طليطلة للوايي طريثة بن ماسديه الذي انفرد بالولاية بعد إقصاء أخيه الأمير مطرف بن عبد الرحمن.

ثم جاء دور مدينة ماردة التي أعلنت الثورة وتبايعت مع إمارة قرطبة لعدة سنوات إلى أن أرسل الأمير محمد ابنه المنذر عام 263هـ على رأس جيش كبير واستطاع أن يرغم القوات المعادية إلى الهروب في المرتفعات والتحصن في جبل أشبرغوزة، إلى أن حصل ابن مروان استقلاله في بطليوس.

(1) للمزيد من التفصيل: انظر د. خالد الصوفي، تاريخ العرب، 248، وما بليها.

وتتوالى الثورات في سرية وعمروس الوشقى في وشقه وفي تطليه وسرقسطة، وفي منطقة ريه والجزيرة وتاڭرنا وفي مدينة الحامة، وكانت أخطر الثورات هي التي قام بها عمر بن حفصون في قلعة بشرت عام 267هـ والذي استمر بالعصيان حتى أرسل الأمير هاشم بن عبدالعزيز من أجل مواجهة بن حفصون والذي استطاع هزيمته فعلاً سنة 280هـ وأسر الكثير ومنهم حفصون وسار بهم إلى قربطة إلا أن بن حفصون استطاع الهرب. واستطاع المنذر أن يحرز الانتصار على خصوم الإمارة، إلا أن وفاة الأمير محمد سنة 272هـ / 886م قد جعلته يعود إلى قربطة ويستلم منصب الإمارة. ولم يكن عهده لهذا الأمير بأحسن حالاً من سابقه، إذ أن هيبة الإمارة وقوتها المركزية قد بلغت حداً خطيراً من التدهور، واستمرت الحروب والقتال. وعلى المستوى الإداري، فقد عزل المنذر وزير أبيه هشام بن عبد العزيز وسجنه وقتله أخيراً، مما زاد الأمور تعقيداً، فقد برع بن حفصون من جديد واستطاع أن يجمع أتباعاً من أهالي الحصون الواقعة بين بشرت وحتى الساحل. ويستفحل خطره حتى اضطر الأمير إلى السير شخصياً إليه واستطاع حصار قواته لمدة 43 يوماً في بشرت، إلا أن الأمير لقي حتفه ونقل جثمانه إلى قربطة، ليتول الأمير الثالث في عصر الاضطرابات وهو عبدالله بن محمد منصب الإمارة. وكانت الظروف المحيطة بالإمارة تسير من سيء إلى أسوأ، فقد مزقها الانشقاق والفتنة. وأتعبتها الحروب، فهناك ابن حفصون يمثل الخطر الأكبر على الإمارة بعد أن استولى على أكبر مدن الجنوب، وصار يهدد العاصمة قربطة. وهناك ابن الحجاج الذي استقل بأشبيلية وقرمونة، وعبد الرحمن بن مروان الجلقي ببليوس، وعبد الله بن أبي الجواد بباجة، وابن سليم بشذونة وغيرهم الكثير على مختلف مناطق الأندلس خارج قربطة. فقد ظلَّ الأمير عبدالله يقارب هذا الطرف وبهادن ذلك حتى توفي سنة 300هـ وبنهايته يكون عصر الولاية بعد عبد الرحمن الداخل قد انتهى ليبدأ عبضاً جديداً سيمهد انتعاشًا واضحًا لدولة الأمويين كما سرى في الفصل القادم.



الفصل السادس

- الخليفة الأموية في الأندلس
- عبد الرحمن الثالث خليفة في قرطبة
- سياسة عبد الرحمن الثالث
- علاقات الخليفة مع الدول الأوروبية
- المظاهر الحضارية في قرطبة
- الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله)
- الأخطار التي واجهت قرطبة
- علاقة الخليفة مع الدولة الإسبانية

الفصل السادس

الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر)

تشير الأحداث التي مرت بها الأندلس في عصر الاضطرابات إلى الشلل الكامل الذي أصاب قوة الإمارة في قرطبة، فاصبحت لقمة سائفة للطامعين والطاغيين بها. لذا، فإن نهاية هذا العهد تتطلب وجود قائد حازم يتولى شؤون الإمارة الأموية المتداعية، ولقد شكل اختيار الأمير عبد الرحمن الثالث كامير لقرطبة الاستئناء الأول للنظام النيع للإمارة في تداول الحكم. إذ أن عبد الرحمن لم يكن ابنًا للأمير السابق عبدالله، وإنما كان حفيده، ووفق لنظام تداول حكم الإمارة لا يمكن للحفيد أن يكون أميراً بوجود عدد من الأعمام. كما أن الأمير عبدالله قد ترك أولاداً كثيرين يستحقون خلافة أبيهم. والسؤال الجدير بالطرح لماذا تخلى الورثة الشرعية - وفقاً لنظام الإمارة - لعبد الرحمن الثالث عن حقوقهم بالإمارة؟

من المعلوم تاريخياً أن والد عبد الرحمن وهو الأمير محمد، قد توفي في حياة أبيه عبدالله، وهناك رواية تشير إلى أن عمداً حاول الثورة على أبيه والانتصار إلى حركة ابن حفصون - الذي أسرنا إلى خطورتها - فامر الأب إلى ابنه المطرف بقتل محمد أخيه. وكان عبد الرحمن وقتها طفلاً فتعهد جده عبد الله بتربية فاحسن التربية واهتم به اهتماماً كبيراً وصار يفضله على ابناته. وهكذا توفر لعبد الرحمن البيئة المناسبة لإعداد رجل يتميز بصفات طيبة أهملت للترشح للإمارة بالإضافة على مواصفاته الفردية واستعداده الفطري للقيادة.

وهناك سبب وجيه لاختيار عبدالرحمن للإمارة هو اضطراب وسوء الحالة العامة التي تعانيها الإمارة الأموية كما رأينا جعلت من أعمامه العزوف عن الطمع في منصب لا يضيف لهم جاهماً ولا مالاً بالإضافة إلى إن هذا المنصب قد يكون نهاية كل منهم. فأتّروا أن يكون عبدالرحمن هو المرشح خدمة للمصلحة العامة كما يشير أحد المصادر الحديثة^(١).

ولقد بدأ عبدالرحمن الثالث عهده بسياسة المصالحة مع جميع أطراف التزاع، إذ أصدر رسالة عامة إلى جميع الأطراف، يدعوهم فيها إلى الموعدة إلى الوحدة ونبذ الفرقة ويعدهم إذا ما استجابوا لطلبه هذا بأن ينحّهم امتيازات مادية ومعنوية كبيرة، وإلا فإن القتال والتشريد ومصادرة الأموال هو عقاب الذين لم يستجيبوا لنداء المصالحة والوحدة. ولقد حظيت دعوة عبدالرحمن بترحيب عام ما عدا أقلية صغيرة كان من بينها بي حفصون، وخصوصاً وأن تأثيرهم قد فقد بريقه بعد موت قائدتهم عمر بن حفصون، واستطاع عبدالرحمن من هزيمتهم. وخلال سنوات قليلة استطاع عبدالرحمن أن يوحد الأندلس ثلاثة تحت قبة قرطبة المركزية ويعيد لها السيادة الإسلامية.

وهنا يثار سؤال عن السر في هذا التحول الجديدي في مركز الإمارة وبهذه المدة القصيرة؟

والجواب على هذا السؤال هو إننا نرى أن عبدالرحمن الثالث لا يملك عصاً سحرية للوصول إلى هذه الانتصارات الباهرة، يقدر ما كانت الظروف الموضوعية والذاتية لأطراف التزاع مهيأة لمبادرة عبدالرحمن، الذي استغل الوقت المناسب لإصدار رسالته. وهو وقت قد ملأ الناس فيه من كثرة الحرروب والكُرْ والفرْ التي شهدتها حروبهم الطاحنة على طول عهد الأمراء الثلاثة في عصر الاضطرابات. كما أن جهود أمراء عصر الاضطرابات قد انصبت جميعها على مقاومة وقتل المشغّلين مما أدى إلى إضعاف قوتهم. واستطاع عبدالرحمن بعقله الراجح من قراءة هذه العوامل

(١) د. أحمد بنخبار العبادي، في التاريخ العباسى والأندلسى، ص 277.

مجتمعه والوصول إلى اتخاذ قرار المصالحة الذي كان الحل المناسب لجسم التزاعات بعد أن ضمن حقوق جميع الأطراف. فما أرادوه في الحرب ولم يتحقق بشكل كامل، قد حصلوا عليه عن طريق السلام والعودة إلى طاعة السلطة المركزية في قرطبة.

عبدالرحمن الثالث خليفة في قرطبة

على عكس سيرة أسلافه في حمل لقب الأمير والتي بدأت منذ عهد عبدالرحمن الداخل، فقد رأى هذا الأمير الشاب أن يتقلد لقب (خليفة)، مظاهراً بذلك الخلفاء العباسيين، وهو أمر لم يجرأ عليه أحد سواه، إذ أن الأمراء الأمويين في قرطبة قبله كانوا قد اكتفوا بلقب أمير وأنقطعوا الدعوة إلى العباسين على مبارهم^(١)، وبعلن د. أحد مختار العبادي على هذا التحول بقوله: (ينبغي أن تنفك هنا وقفة قصيرة لمناقشة البواعث الخفية والظاهرة التي جعلت عبدالرحمن يُقدم على إقامة خلافة سنية جديدة في غرب العالم الإسلامي رغم وجود خلافة أخرى قدية بالشرق وهي الخلافة العباسية، لقد سبّت الإشارة إلى أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر.. اكتفوا بتلقيب أنفسهم ببناء الخلافة.. غير أن مصلحة العمل وتغير الظروف السياسية بعد ذلك، حُتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه عمل الاجتِهاد، ومن ثم أجاز السنّيون لأنفسهم بتعدي الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقتضي بذلك. واعتبروها بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين. وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحل المosityة من أن الأندلسيين أنفسهم قد طلبوا من الأمير عبدالرحمن الثالث أن يكون خليفة ويأيده على ذلك، وحلّلوه على حل هذين الاسميين: أمير المؤمنين والناصر لدين الله، وصاروا يخاطبونه باسم خليفة قبل إعلانه رسميًا، وكل هذا يدل على أن نظرية الخلافة السنية قد تكيّفت تكيّفاً جديداً تبعاً للواقع وللحاجة إلى السياسة

(١) لقد أوضحنا سبب هذا الاختيار عند حديثنا عن عهد عبدالرحمن الداخل.

ومصلحة المسلمين. والنظريات الناجحة هي التي تمعن الواقع وتتأثر به⁽¹⁾. الواقع إن هذا التفسير يدو صالحًا لتبرير قبول الفقهاء في قرطبة لهذا التحول في اختيار لقب خليفة من قبل الأمير عبدالرحمن الثالث ولكنه غير ملزم للخلفاء والفقهاء العابسين العلوين، لأنهم لم يرتضوا أصلًا بفكرة وجود إمارة أموية خارج سلطانهم في بغداد، لولا وجود عوامل عديدة مررنا عليها سابقاً. ثم إن الدكتور العبادي يشير إلى أن الأمير (قد أقدم على أمر خطير وهو تلقيه بلقب خليفة) فما هو وجه الخطورة إذا كان هذا الأمر جاء متوافقاً مع المرونة الشرعية في نظرية الخلافة الستة؟ ثم أن العديد من المصادر التاريخية ومنها ابن عذاري الذي ذكره العبادي⁽²⁾ تشير إلى أن عبدالرحمن هو الذي قرر هذا الأمر بنفسه بعد أن دانت له جميع المناطق خارج قرطبة إذ يقول ابن عذاري (أنه في سنة 316هـ / 929م قرر عبدالرحمن بن محمد أن تكون الدعوة له في خطاباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم، فهدى إلى أحد بن بقي القاضي صاحب الصلات بقرطبة، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك. وفي اليوم التالي، ذي الحجة سنة 316هـ أصدر الخليفة الجديد مثثراً عاماً إلى عمالة في الكور والمدن الأندلسية يقول فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا، ورودوها علينا كذلك، إذ أن كل مدعو بهذا الاسم غير متصل له ودخول فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناء، واسم ثابت أسلقناه، فامر الخطيب بوضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله). وبهذا المرسوم الصادر من عبدالرحمن الثالث، أصبح الأمير خليفة للمسلمين، ولو أمعنا النظر في قراءة هذا المرسوم الصادر من عبدالرحمن الثالث سجد الأسباب التي دعته لاختيار هذا القرار. فهو يرى أن لقب الخليفة هو حق ثابت للأمويين غادروا في تركه وإضاعته، فهو إذ يستعيد حقاً لا أن يجهد فقهياً لسايرة تغيرات جديدة. ولا يكتفي

(1) د. أحمد العبادي، في تاريخ العباس، ص 379-380.

(2) نفس المصدر، ص 378.

عبدالرحمن بهذا الحق المستعاد بل إنه قد حصره به وحده فهو الخليفة الشرعي للMuslimين، وغيره هو متاحل ومنصب للقب الخلافة، ولا يستثنى من هذا الخلافة العباسين أنفسهم. وهذا أمر يدل على معرفة عبدالرحمن بضعف الخلافة العباسية التي تناهيتها الأهواء التركية في أيام المقتدر. كما أن لقب الأمير كان بالنسبة لعبدالرحمن بمثل مرحلة ضعف المكانة السياسية للأمويين في الأندلس. سواء إزاء العباسين أولاً، وإزاء أهل الأندلس ثانياً. فلابد من استعادة هيبة الحكم ولا سيما بعد أن نجح في القضاء على مناوئيه. لذا نرى أن قضية لقب الخلافة قد كانت قضية سياسية بالدرجة الأولى، نضجت لها كل الظروف في عهد عبدالرحمن الثالث واستطاع استغلالها على الوجه المثل. والدليل على أن الخلافة سياسية فقد كان النظام في الخلافة الأموية الأندلسية يقوم على أساس الوراثة بشرطها السياسي وليس الديني. ولكن الحق يقال، أن الخلافة الأندلسية قد اتسمت بقدر معقول من الحرية في مناقشة الخليفة أو تعرضه للنقد من قبل رجال الدين على عكس الخلاف العباسية التي كانت في أرجح قررتها تتمد من الدين مكانتها السياسية، فالخليفة العباسي في العصر العباسي الأول كان خليفة الله في الأرض^(١)، وبعدها بلغ الخليفة العباسي هارون الرشيد من المظمة وهو يخاطب غيمة في السماء (يقول: أذهبني أينما شئت فخرأجك لي). فإذا كان العباسين في أمر السماء هكذا فكيف سيكون حالم مع رعية الأرض ٤١١

فالخلافة الأموية في الأندلس اتسمت بهامش الحرية وما تذكره المصادر التاريخية أن الخليفة عبدالرحمن قد شهد معارضه شديدة تزعّمها قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطى، بعد أن بني الخليفة مدينة الزهراء، وأخذ القاضي يُعرض بالخلافة في مسجد الزهراء أيام الجمعة، حتى أن الخليفة قد شكا لولده الحكم من هذه المعاشرة قائلاً (والله لقد تعذّنني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف على وأفطر في تقريري، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعضاه يقرعني)، ثم أقسم الخليفة بالآيات على وراء المنذر في صلاة الجمعة أبداً، وغَوْل للصلوة وراء أحد بن مطرف صاحب الصلاة في

(١) مثلما كان يقول أبو جعفر المنصور (إنما أنا سلطان أرضه).

قرطبة⁽¹⁾. وهذا يدل على تساهل الخليفة وليرته أيام معارضيه ونقاده. وأن الخلافة الأندلسية لم تقم على أساس الحق الطبيعي الموروث الذي سلكته الخلافة اليمانية.

سياسة عبد الرحمن الثالث (الناصر)

لقد واجهت الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر عدة مخاطر خارجية هددت مستقبل الخلافة حتى كادت تطيح بها. استطاع الخليفة من التعامل معها بعقلية سياسية راجحة سوف تتعرض لها بعد قليل. وتکاد المصادر التاريخية والحديثة تجمع على إيجاز هذه المخاطر على النحو التالي:

1. الخطر النورماندي.
2. الخطر الفاطمي.
3. الخطر المسيحي الإسباني.

الخطر النورماندي

بعد هذا الخطر إلى أيام الأمير عبد الرحمن الثاني، إذ قام النورمانديون بغارات نهب وسلب وقتل⁽²⁾ في مناطق عديدة من الأندلس. وما قام به الأمير من الاهتمام بالصناعة البحرية البحرية. فقد تابع عبد الرحمن الناصر ومنذ بدء خلافته بالاهتمام بالقوة البحرية وبناء الأساطيل وينذر ابن خلدون في هذا الشأن: (اتهني في أيامه إلى مائتي مركب أو نحوها)⁽³⁾. وبذلك، استطاع الخليفة أن يجهز الموانئ بالسفن والعتاد والجنود، وأصدر أوامره إلى هذه السفن بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق، ومنع وصول الإمدادات من ساحل أفريقيا الشمالي إلى التأثير الأندلسي ابن حفصون الذي تحالف مع الدولة الفاطمية في المغرب. وينذر ابن عذاري عن هذه الإمدادات الفاطمية بقوله: (في سنة 301هـ الفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب

(1) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 106.

(2) لقد رضينا أ一幕هم في الحديث عن عهد الأمير عبد الرحمن الثاني.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص 278.

في البحر كانت تغيره من العدوة المغربية، فأحرق جميعها⁽¹⁾. أما الخطر النورماندي في عهد الخليفة الناصر فيذهب باحث معاصر⁽²⁾ إلى أن المصادر لم تذكر ما يفيد بأنهم قاموا بعمارات بحرية على الساحل الأندلسية في أيامه. إلا أنه يلاحظ أن الخطر النورماندي اتخذ طابعاً مستقراً ثابتاً حينذاك نتيجة لاتخاذهم قاعدة بالقرب من نفور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية في ولاية نورمانديا غرب فرنسا. وتاريخ هذه القاعدة يرجع إلى سنة 300هـ / 912م، أثناء المنازعات التي فامت بين أفراد الأسرة الكارولنجية، إذ يروى أن ملك فرنسا شارل الثالث، أعطى للزعيم النورماندي رولون هذه الولاية والتي عرفت باسم نورمانديا. ولقد اعتنقت هذا الزعيم المحبة وغير اسمه إلى روبرت.

وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدنماركية خطراً كبيراً على الأندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تنطلق من موانئها وتقوم بالغزو جنوباً على السواحل الغربية، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا لغزو الشعور الأندلسية الشمالية. إلا أن ابن عذاري يشير إلى أن الغزوات النورماندية على سرقسطة كانت على عهد الخليفة عبدالرحمن الثالث، إذ يقول: (وسجل أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر ليحيى بن محمد بن عبد الملك على بريشتر والقصرين في سنة 330هـ / 942م، فكان بها إلى أن أسره المجووس الذين خرجوا إلى ثغر لاردة وسرقسطة، في يوم السبت لثمان مدين من شوال من العام المأذخر 330هـ فقاده رجل من التجار بالف مقال، وقدم مجني إلى سيدة أمير المؤمنين عبدالرحمن، فامر للذى قيادة بضعف ما أداء فيه، وصرفه إلى بريشتر فدخلها سنة 331هـ)⁽³⁾، ويبدو أن غزوات النورمانديين على الأندلس في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر قد انخذلت طابعاً برياً.

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 247.

(2) د. أحمد البادي، في تاريخ الأندلس، ص 411.

(3) ابن عذاري، ص 72.

الخطر الفاطمي

بعد أن تأسست الدولة الفاطمية في المغرب، متخلةً من المذهب الشيعي منهجاً لسياساتها، بفضل جهود الداعية أبو عبد الله الشيعي المؤسس الأول للدولة الفاطمية بال المغرب. بعد أن سبقه إلى المغرب دعاةً أحدهما يُعرف بالحلواني وأخر يُعرف بأبي سفيان، إذ يروى أن الإمام جعفر الصادق أوفد همّا إلى المغرب وقال لهم: (إن المغرب أرض بور فاذها واحرثها حتى يجيء صاحب البذر). وبعد أن استقر الأمر للخلافة المهدية في المغرب صار هدفه غزو الأندلس لجعل المغرب الإسلامي كله خاضعاً للشيعة الفاطمية⁽¹⁾ حتى يصبح العالم الإسلامي مقتسماً إلى قسمين قسم شرقي تابع للخلافة العباسية وغربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية⁽²⁾. الواقع أن وجود خلافتين إسلاميتين مختلفتين في المذهب ومتجاورتين جغرافياً لا بد أن يشكل سبباً في صراعهما. وهو ما حدث فعلاً، إذ قام الفاطميون للتمهيد للمذهب في الأندلس، مستخددين الجوايس والدعاء الذين كانوا يقصدون الأندلس متخفين تحت ستار التجارة أو السباحة أو طلب العلم، وكان هؤلاء الرجال مواهب متميزة وخبرة في التعامل مع شرائح المجتمع الأندلسي وقدرة على التأثير. ولقد كانت مهمة هؤلاء بتقديم تقارير وافية عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكان من أشهر هؤلاء الجوايس أبو اليسر الرياضي وابن هارون البغدادي وابن حرقن النصيبي الذي تسرّ بالتجارة عند دخوله الأندلس، إذ يطلق عليه ياقوت الحموي بالناجر الموصلي⁽³⁾، ولقد اهتم ابن حرقن بدراسة مصادر الطبيعة الزراعية والمعدنية في الأندلس، ورفع تقريراً إلى الفاطميين بذلك مع إشارته إلى ضعف أهلها وعجزهم

(1) وهم من فرقة الشيعة الإمامية.

(2) لزيادة الاطلاع على وصول المذهب الشيعي إلى المغرب، انظر، د. أحمد العبادي، في تاريخ الأندلس، ص 313 وما يليها.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 348.

عن الدفاع عنها، ويشجع مولاهم العز الدين الله الفاطمي لغزو الأندلس. ولقد جاء في تقريره: (وليس جليو لهم حلاوة في العين، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانيتها، وإن شجعت أنفسهم، وعرفوا القتال، فإن أكثر حروفهم تصرف على الكيد والخيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فارة أو برذون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قوائمهم..، ومن أعجب هذه الجزيرة يقاومها على من هي في يده، مع صغر أحالم أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأئم وأبطال، وعلم مواليها عليهم السلام بمحلها في نفها ومقدار جياتها ومواقع نعمها ولذاتها). ولقد قام ابن سعيد بالرد على ابن حوقل واتهمه بالظلم والتغيب^(١). ولاشك أن تقرير ابن حوقل كان مجاناً للصواب لما لدنه في وصف أهل الأندلس بهذه الصورة البائسة. لذا، فإنه لم ينجح في مساعه ولم تأخذ السلطة الفاطمية بتقريره. ولكن الفاطميين قد أصابوا بعض النجاح في كسب تأييد أنصار لهم مثل ابن أبي المنظور قاضي إسماعيل المتصور، وابن هانى الشاعر الذي التحق بخدمة العز و كذلك عمر بن حفصون الذي ثار بمنوب إسبانيا ضد الحكم الأموي أواخر القرن الثالث المجري. واعترف بزعامة الخليفة عيد الله المهدي الفاطمي (297-322هـ) ودعاه في مساجد بلاده. وهناك القائد علي بن حدون الجذامي المعروف بابن الأندلس الذي جاء من الأندلس إلى المغرب واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم وقد كلفه القائم ببناء مدينة المليلة والتي سميت بالحمدية. ثم ولأه على الزاب في جنوب المغرب الأوسط.

وما زاد في خطورة الدولة الفاطمية على الأندلس هو امتلاكها لقوة مجرية منظمة في المغرب وصقلية إذ ورثتها عن الأغالبة، ثم عملت على تطويرها، وقد بني

(١) المقري، نفح، ج ١، ص 197.

الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقس مدينة المهدية والتي أشادت المصادر التاريخية بقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها.

ولكن الخليقة الأندلسية لم تقف متفرجة تجاه هذا الخطر الفاطمي فكان لها جواسيسها الذين انتشروا في أنحاء المغرب. وقد ساعده وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ووهان، وتونس وبوبة، وبجاية، ومرس الدجاج في نجاح مهمة هؤلاء الجواسيس، لا سيما وأن هذه الجاليات، قوية التمكّن بعقيلتها السنّة، وشديدة الكراهة للمذهب الشيعي. ولقد تلخصت سياسة الخليفة الأندلسي في مقاومته للخطر الفاطمي بالطرق الآتية⁽¹⁾:

1- قام الناصر بالتلقيب بلقب الخليفة والناصر لدين أمير المؤمنين، لفرض سلطته وهيته داخل الأندلس وخارجها، ولقد ذكرنا سابقاً أن هذا الأمر هو تحدياً لسلطة العباسين المتهاكلة في الشرق. ونجد هنا أنه كان أيضاً تحدياً للخلافة الفاطمية في المغرب والتي رأت في لقب الخليفة الذي اختاره عبدالرحمن الأموي تعدياً على حقوقهم، ولذلك فرضوا القتال، واستحلال دمه واستحلال دمه وهو ما جاء في خطاب الخليفة المعز الفاطمي إلى أهل الأندلس قاتلاً: (وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحالة، ونحن نقول: إتنا أهل ذلك دونه ودون سواه⁽²⁾، ونرى أن فرض الله علينا عمارية من انتحل ذلك دوننا وادعاءه، مع ما بين أسلفنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وأباء، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجامالية).

2- قام الخليفة عبدالرحمن الناصر ببث الذور الفتنة والشقاق بين قبائل البربر في بلاد المغرب لزعزعة الأمن الداخلي وإضعاف الدولة الفاطمية من الداخل، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدوة، وملوك زناتة، فوالله موسى بن أبي العافية صاحب

(1) انظر د. السيد سالم، المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 287 وما يليها. كذلك د. أحد العبادي، في تاريخ الأندلس، ص 396 ما يليها.

(2) إشارة واضحة للخلافة العباسية.

المغرب، وأمده عبد الرحمن بالخلع والأسوال، فظهر أباً موسى واجتمع له انصار كثيرون من البربر فتغلب على مدينة جراوة. كذلك استول الخليفة الناصر على معبري الأندلس، سبتة وطنجة ومليلة، واستطاع بذلك السيطرة على الملاحة في مضيق جبل طارق، واهتم عبد الرحمن بتحصين سبتة، فبني سورها بالحجر الكذان، وكان أسطوله بقيادة أحد بن محمد بن إلياس، ويونس بن سعيد، قد استطاع عبور مرسى الجزيرة واحتلال العدوة وعاصمة محمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس. ونجح قاسم بن محمد قائد أسطول عبد الرحمن في إخضاع بقايا الأدارسة، وعقد الخليفة الصلح مع أبي العيش بن عمر الذي أرسل الوسطاء الأدارسة إلى قرطبة.

3- كما عمل الخليفة على تحصين سواحله ولا سيما في المنطقة الجنوبيّة التي كانت معرّضة لغزو الفاطميين، وتشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة وأشرف على الأعمال الدفاعية في طريق الجزيرة الخضراء^(١). وقام في الجزيرة الخضراء داراً لصناعة الأساطيل. وكان من قوة البحرية الأندلسية تصديها للحملة التي شنتها الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي على مدينة المرية الذي استطاع أن يحرق السفن الراسية بالبيضاء وأسر العديد من سكان المدينة، فقام الأسطول الأندلسي بقيادة غالب بالردد على هذه الحملة، فشن هجوماً في ستين سفينة على سواحل أفريقيا وبالذات على مرسى الفرز ودمّر منطقة سوسنة بالكامل.

4- سعى الخليفة عبد الرحمن إلى تشجيع الدوليات المغربية من خلال توطيد علاقته بها حتى وإن كانت مختلفة مع الخلافة الأندلسية من ناحية المذهب، كدولة بني دستم الخارجية في تأثرت وتشجيع الثازرين على الخليفة الفاطمي أمثال أبي بزید مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار.

5- سعى الخليفة عبد الرحمن إلى توطيد أواصر الصداقة بأعداء الفاطميين، فتحالف مع ملك إيطاليا الذي كان ناقساً على الفاطميين الذين دمروا ميناء جنوة. كما تعاون مع إمبراطور بيزنطة الذي كانت لديه طموحات في استرجاع صقلية من

(١) لا نزال آثار القصر الذي بناه الخليفة في طريق باقية إلى الآن.

قبضة الفاطميين، كذلك سعى إلى توطيد علاقته بالأختidiين في مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لغرض محاربة المذهب الشيعي، ومن هؤلاء الفقهاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

وهكذا استطاع الخليفة بواسطة هذه السياسة من تجنب خطر الفاطميين الذين انصرفوا عن غزو الأندلس إلى فتح مصر.

الخطر المسيحي الإسباني

بعد انتصار المسلمين إبان فترة الفتوحات الأولى على الإسبان، اتجه قسم من الإسبان إلى المناطق الشمالية الغربية لاخذها قاعدة لمقاومة المسلمين، وكانت منطقة جليقية وهي إقليم جبلي وعر قاحل بارد هي بؤرة هذه المقاومة منذ زعامة بلاي لها ثم أخذت تنمو وتبعد وفاته ولا سيما في عهد حفيده الفونسو الأول، الذي استول على مدينة ليون وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية⁽¹⁾ – وتقع على ضفاف نهر دويرة أي على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة لحدود المسلمين –، سلسلة من القلاع والمحصون لحماية تلك الحدود. وقد أعدت هذه القلاع في القرن الرابع الهجري في إمارة عرفها العرب باسم قشتالة ومعناها القلاع. ولقد امتدت حركة المقاومة المسيحية على سفح جبال البرتات شرقاً ومن أهمها مملكة نبرة. وقد ساعد هذه المقاومة المسيحية حدودها الشمالية المتاخمة لأوروبا وكانت على اتصال بفرنسا والبابوية الأمر الذي أمنها بالمساعدة المادية والروحية ضد المسلمين في الجنوب. ولقد استغلت المقاومة الانقسامات والشقاق بين المسلمين لتمتد نحو السهول المجاورة بعد أن كانت تقيم في المناطق الشمالية الغربية فقط.

وعندما تولى الخليفة عبدالرحمن الناصر الخلافة وجد نفسه أمام خطر الحلف المسيحي المعقود بين ملك نبرة شانحة الأول وبين ملك ليون أردون الثاني، إذ أن أردون الثاني قد جهز جيشاً سنة 914 م وقصد مدينة يابرة فاستطاع احتلالها وقتل العديد من

(1) وصارت تُعرف بـ مملكة ليون.

سكانها وقتل في هذه المعركة حاكم المدينة مروان بن عبد الله، كذلك في 917 دارت معركة بين جيش المسلمين بقيادة أحد بن محمد بن أبي عيدة مع جيوش الفتناليين قرب شت أشتبن هزم فيها المسلمين وقتل القائد⁽¹⁾. عندها قرر الخليفة بعد هذه التطورات الخطيرة أن يجهز جيشه ويكون بقيادته، ففي سنة 308هـ / 920 قاد عبدالرحمن الجيش وسار به إلى جليلة ونبرة وخاصة طويلاً طويلاً مع المسيحيين انتهت بانتصاره، وهم حصن قاشتروموش والمحصون المجاورة ولقائهم دروساً قاسية، كما أنه استعاد مناطق كثيرة كانت تحت سيطرة المسيحيين مثل أوسماء وتطليمة. وفي هذه الأثناء مات الملك أردون الثاني سنة 924م، وخلفه أخوه فلوبير الثاني الذي توفي بعد عام واحد، فصار مكانه أخيه أذفونتش الرابع⁽²⁾ الذي تنازل عن الحكم لأخيه رامIRO الثاني وكان هذا الملك شجاعاً عيناً وطموحاً، استمرت الحرب بينه وبين عبدالرحمن الناصر زمناً طويلاً، استطاع أخيراً هزيمة جيش المسلمين هزيمة قاسية وتسمى هذه الواقعة بواقعة الخندق، وكانت في سنة 327هـ / 938 قرب مدينة شمنقة أو شت منكش. قُتل فيها قائد عبدالرحمن نجدة الصقلي وفر الخليفة الناصر باقل من حسين فارساً بعد نجاته من الموت بأعجوبة إذ يقول المصادر أن عبدالرحمن (لم تكن له بعدها غزوة بنفسه)⁽³⁾، وينذهب البعض إلى أن سبب هذه المهزيمة هو أن جيش عبدالرحمن كان مكوناً من العرب والبربر والصقالبة، وإن العرب قد غضبوا من تقديم صقلي لقيادتهم ففقررت همّتهم في القتال، وتركوا الصقالبة لوحدهم في المعركة⁽⁴⁾. وبعد ذلك أخذ الخليفة عبدالرحمن يحتمط في حربه ولم يخرج للقتال بنفسه. وعاد الجيش الإسلامي لتحقيق انتصارات مهمة ما أدى إلى عقد هدنة معهم بعد أن بعثوا إليه السفراء والمديا طالبين الصلح. ففي

(1) ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 255.

(2) ويعرف بالمدونات الإسبانية باسم الفونسو الراهب، انظر د. السيد سالم، المسلمين وأثارهم، ص 289.

(3) أخبار لمجموعة، ص 155.

(4) انظر التحليل الموسع لسبب المهزيمة عند د. أحد العادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 407 .410-

سنة 344هـ / 955م حضر إلى قرطبة رسول الملك أردون الثالث طالباً السلم فعقدت معه معاهدة صلح. وكذلك وفدت إلى قرطبة سنة 347هـ / 958م الملكة طوطة يرافقها حفيدها شانجة المعروفة بسانشو السادس الذي عزله نبلاء ليون وتنحى عن عرش نبرة وليرن، وتولى مكانه أردون الرابع الملك. وكان سبب زيارة الملكة وحفيدتها هو الطلب من الخليفة مساعدة سانشو لاسترداد عرشه الذي اغتصب منه مقابل تنازله للخليفة عن بعض المحسون، فوافق الخليفة بعد أن استقبلهم في قصر الزهراء وأكرمهما. وجذبهم بجيش سار إلى ليون وأعادت لسانشو العرش سنة 349هـ. ولكن سانشو لم يفو بوعده للناصر. ومهما يكن من الأمر فهذا يدل دلالة واضحة على قدرة الخليفة عبدالرحمن على بسط نفوذه في الشمال المسيحي وصار له أن يتدخل في شؤون ملوكه فينصب من يشاء ويعزل من يشاء.

هكذا سار عبدالرحمن الناصر بسياسة الحكمة للتخلص من الأخطار التي حاقت بخلافه الأندلسي وهي كما ذكرنا قد تجلت في الخطر النورماندي والفاراطي والمسيحي في شمال إسبانيا، فتوطدت أركان خلافته واستقر له الأمر وصار سيداً على إسبانيا.

علاقات الخلافة مع الدول الأوروبية

بعد أن وطّد الخليفة عبدالرحمن الناصر علاقاته مع دول وملوك الشمال الإسباني، راح يتطلع إلى علاقات دبلوماسية متينة مع إمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير الذي يذهب بعض الباحثين⁽¹⁾ إلى أن هذه العلاقة قد جاءت نتيجة للغاريات البحرية التي كان يشنها الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، فإن أوتو الكبير اعتبر حينها أن الناصر هو المسؤول عن أعمال القرصنة والتخريب التي يقوم بها البحارة الأندلسيون وأرسل إلى الخليفة رسالة شديدة اللهجة ردّ عليها الخليفة برسالة عマّلة سنة 339هـ / 950م. وبعد رسائل عديدة متشنجّة ورسل فشلوا في تحقيق السلام والصلح. أرسل الخليفة

(1) انظر: د. أحمد العبادي، في تاريخ الأندلس، ص 412-413.

سفريراً إلى الإمبراطور أوتو واختار لهذه المهمة رجلاً يجيد العربية واللاتينية والذي يسمى ربيع بن زيد إذ استقبله الإمبراطور وأكرمه وأجابه إلى كل ما اقترحه، وهكذا تم الصلح بين الجانبين.

وتنذر المصادر التاريخية إلى مراسيم استقبال الخليفة رسائل الملك الذين وندوا إلى قرطبة بالوصف التالي: (فقد الناصر على سرير الملك بقصر الزهراء لدخولهم عليه، بعد أن أمر باستقبالهم بالعدد والأجناد. واستوى الناصر على سريره في بهو المجلس الزاهر، وقعد على يمينه ابنه الحكيم، وقعد سائر أولاده عن يمينه ويساره، فقد الوزراء والمحجّب على منازلهم صفرقاً. فدخل الرسل وقد قدموها المدّايا بين أيديهم، وقد دُهشوا خوفاً ما عاينوه من جلالة الملك ووفر الجمع، فصعقوا بين يدي الخليفة، ف وأشار إليهم أن لا، فدعوا إليه كتاب مرسليهم قسطنطين. وكان الكتاب مصبوغاً بنون سماوي مكتوباً بالذهب) ^(١).

وهذه المراسلات والوفود ومحاولات الصلح تدل على سعة أفق الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي كما تشير هذه الواقعية كان محترماً وممقوياً من قبل الملك والأباطرة في دول أوروبا. وهذا جانب مهم لاستقرار الأحوال في قرطبة.

المظاهر الحضارية في قرطبة

لقد شهد عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر نهضة حضارية شاملة. وكانت العاصمة قرطبة أهم الحواضر التي احتضنت معطيات النهضة الحضارية بوصفها المدينة الأم، ومقر الفنون والأداب والعلوم والعمارة. وقبل استعراض الجوانب الحضارية التي شهدتها قرطبة سقوناً أولاً بتوصيف لجغرافية وتاريخ هذه الحضارة الإسلامية في الأندلس ^(٢).

(١) المفري، نفح الطيب، ج ١، ص 324.

(٢) اعتمدنا بشكل أساسي في استعراض هذه المعلومات على مصادرين هما: د. أحمد ختار البادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 414 وما يليها. د. السيد سالم، المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 292 وما يليها.

تقع قرطبة على سفح جبل العروس من جبال (سيرامورينا) أو الجبال السوداء، وتحل سهلاً ف silica يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير، وفي هذا الوادي يزرع الزيتون وتحتلت أنواع الشمار والأشجار، لا سيما وأنا رأينا شغف الأمويين بزرع وجلب مختلف الأنواع من الأشجار من بلاد الشام كما حصل في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل. فكان نهر قرطبة (مكتنفاً بديجاج المروج، مطرزاً بالأزهار، تصدق في جنباته الأطياف وتتعزّر الواقع ويسير النوار)⁽¹⁾. وتحت عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادي الذي ينحدر في مجراه الخناء طفيفة نحو الغرب مؤلفاً أهتم طبيعى في جنوب إسبانيا. أما مصادر ثروة قرطبة فهي الزراعة أولاً وأهم محاصيلها الزيتون الذي يستخدم في العديد من الصناعات كاستخراج الزيت. ومن محاصيل قرطبة الزراعية الفواكه وعلى الأخص الرمان السفري. وتحتل المعادن المصدر الثاني لثروة قرطبة، فيها النحنة والزنبق وحجر الشاده الذي يستخدم في التذهيب، وفي جيابها يكثر الرخام الأبيض الناصع والخمرى.

أما من الناحية التاريخية، فمدينة قرطبة اشتهرت في العصور الوسطى وصارت ثقراً بمدينة القسطنطينية. وهي مدينة قدية يرجع الدكتور السيد سالم أصلها الأبييري بحسب وجود التمثال البرونزية الأبييري التي كشف عنها البحث الأخرى، بالإضافة إلى اسم أبييري وهو اسم محرف من كردويا وهو اسم أبييري. كما ورد اسم قرطبة في الحرب البوئية الثانية [يان الصراع بين روما وقرطاجنة. بعدها دخلت قرطبة سنة 206 ق.م. في ذلك الإمبراطورية الرومانية وأصبحت عام 169 ق.م عاصمة لإسبانيا الجنوبيّة أو السفلى المعروفة ببليطة. وازدهرت قرطبة في عصر الحاكم الروماني مركوس كلوديوس الذي بني فيها روانع المنشآت العمارة، والأسوار المنيعة التي اشتهرت بها العمارة الحربية الرومانية.

ثم انقسمت إسبانيا الجنوبيّة في عهد القيصر أغسطس إلى إقليمين وهما: لشданبة وباطقة، وانخذلت قرطبة عاصمة لهذا الإقليم. وأصبحت أحد المراكز الفضائية الأربع

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 146.

مع قادس وأشبيلية واستجه، وعندما حدثت غزوات الرنداles والسواف والألان إلى شبه جزيرة أيبيريا عام 409م، استولى الرنداles على إقليم باطقة، وجعلوا أشبيلية عاصمة لهم. أما قرطبة فقد ظلت تحت الفروذ البيزنطي إلى أن نجح ليوريفي خلد من الاستيلاء عليها سنة 568م وجعلها مركزاً أسيفياً، ثم أخذت تتفهقر مكانة قرطبة أمام طليطلة التي تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع حتى مطلع القرن الثامن الميلادي عندما افتحتها المسلمين سنة 712م.

وأصبحت قرطبة منذ أن استقر فيها أيوب بن حبي اللخمي سنة 997هـ / 715م داراً للإماراة الإسلامية، واستعادت مكانتها من مدينة طليطلة. وعندما تولى المعاشر بن مالك الحولاني 100هـ / 719م على قرطبة جعلها حاضرة ترقى إلى مصاف الحواضر الكبرى، إذ بني قنطرتها الشهير، وعندما جاء عبد الرحمن الداخل أعاد بناء سورها سنة 766م على هيئة السور الروماني القديم، وكانت قنطرة قرطبة تنتهي ببرج يعرف ببرج الأسد ويسمى الآن بالقلعة الحمراء.

وتالت قرطبة منذ أن اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له ولأبنائه وأحفاده من بعده، وأصبحت في عهله مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن الفلسفة والشعراء ومركز الفنون والأداب وكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً فقد بلغت في عهد الدولة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة والتي كانت تغطي سباتاً عميقاً ويبلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها وهو عصر عبد الرحمن الناصر نصف مليون نسمة وفقاً للإحصائيات التي قام بها المستشرقون. ووصفها الحجازي في المذهب بالقول (كانت قرطبة في الدولة الرومانية قبلة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام بها استقر سرير الخلافة الرومانية، وبها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتف بدبaggio المروج، مطرزاً بالأزهار..) وقال عن قرطبة أيضاً الحجازي⁽¹⁾ (حضرت قرطبة منذ افتتحت الجزيرة، هي كانت في متاهي الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أولي النفل

(1) المفري، تفح، ج 2، ص 10.

والنقى، ووطن أولى العلم والنهى، وقلب الإقليم، وبنبع متجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضررة الإمام، ودار صوب العقول، وستان ثمر الخواطر، وبحر درر الخواطر، ومن أنقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والثر، وبها أنشئت التاليفات الرائعة، وصنفت المصنفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقدماً على سواها من أفهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب).

وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتبأً وأهلها أشد الناس اعتماداً بخزان الكتب كما ذكر ابن سعيد. وقد أغرم أهل قرطبة باقتناه الكتب حتى كانت الكتب من أشهر وأدروج تجارة فيها. وبذلك قالوا: (إذا مات عالم في أشبيلية فاريد بيع كتبه حلت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حللت إلى أشبيلية)⁽¹⁾.

كما ذكر ابن غالب الأندلسي في فرحة الأنفس نفلاً عن أحد الرازي أن (قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن، وقرار الخلافة، ودار الملك، تحني إلية ثمرات كل جهة، وخيارات كل ناحية واسطة من الكور، وموفقة على شاطئ النهر، مشرقة رائعة موئنة، نهرها ساكن في جريه، لين في انصبابه، يقيتها بطاخ سهلة، ومجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس، المغروس بالكروم وسائر الأشجار وأنواع الأزهار).

ولقد اشتهر عصر الناصر بالرقي والإزدهار الداخلي وبيناء المنشآت المعمارية العظيمة التي تمت في عهده. فهو من هذه الناحية يوصف بأنه أعظم ملوك العالم في العصور الوسطى.

في مجال العمارة كان جامع قرطبة مركزاً للحج في الأندلس وقد وصفه إبراهيم بن صاحب الصلاة الوليبي بالقول⁽²⁾: (ولاني شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله مندرج الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع قدس الله بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه، قد كسي ببردة الإزدهاء، وجل في معرض البهاء، كان شرفاته

(1) المترى، نسخ، ج 1، ص 147.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 90-91.

فلول في سنان، أو اثر في السنان، وكانت ضربت على سماهه كلل، أو خلعت على ارجائه حلل، وكان الشمس خلقت فيه ضياءها، ونسجت على انفطاوه آفياها، فنرى نهاراً ند أحدق به ليل، كما أحدق بريوة سيل، ليل دامس، ونهار شاسس، وللنيل بالتألق كتضيضة الحياة، أو إشارة السبابات في التحيات.. والشمع قد رفعت على المثار رفع البندو، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلي طلاقة روائحها الفريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد...). ويصف قباب الجامع وغرابه بالقول: (وظهور الكتاب موللة وبطونها مهللة، كانها تيجان، رُصع فيها ياقوت ومرجان، قد قوس عرابةها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كانه بالمرة مقرطن وبقوس فرح منقط، وكان اللازورد حول وشومه، وبين رسومه، تنفس من قوادم الحمام، أو كف من ظلل الغمام).

ولقد مرّ بناء جامع قرطبة بعدة مراحل كانت أولها في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل الذي بناه عام 169هـ / 785م، وبعده عبدالرحمن بن الحكم سنة 206هـ / 822م، الذي أضاف إلى الجامع بلاطين جانبيين ثم مذ بلاطات الجامع كلها جنوباً مسافة 26 متراً، أما المرحلة الثالثة فكانت في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي قام بتوسيع الفناء، واقامت مئذنة ضخمة من الحجر سنة 340هـ / 951م، وإلى جانب جامع قرطبة كان فيها مساجد أخرى ثانوية بلغ عددها نحو 3877 مسجداً وقيل 1600 مسجداً⁽¹⁾، ولم يبق من هذه المساجد الآن سوى ثلاث مآذن هي اليوم أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانتا ياجو.

واشتهرت قرطبة بقصورها الفخمة والتي كانت تقام عادة في الضواحي خارج المدينة فيما عدا قصر الإمارة وهو القصر الذي فيه (البدائع الحسان والرياض الأنيقة والمياه العذبة والمخلوية من جبال قرطبة في قنوات الرصاص التي تصب في البحيرات البديعة، والصهاريج، وأحواض الرخام العجيبة)⁽²⁾.

(1) نفح الطيب، ج 2، ص 79.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 13.

ومن قصور قرطبة قصر الرصافة وقصر دمشق وقصر الزهراء وقصر الراحلة والقصر الفارسي وقصر حير الرجالي. وكما اشتهرت قرطبة بالحمامات العامة الكثيرة ولم يبق منها سوى بقايا حمامين: الأول يقع في شارع الحمام والثاني في شارع كوميدياس. ويتألف الحمام الثاني من قاعة وسطى، بها عقود مفرطحة ومتجاورة تحملها عشرة أعمدة، وكانت تعلو هذه العقود قبة لم يبق لها وجود اليوم بعد أن تحولت القاعة إلى صحن يضم حفنة الغرف المجاورة بقوتها، وبهذا الحمام غرفة تعلوها قبة كانت تتخللها مضاوي لتفاذ الضوء سُدّت جيّعاً اليوم. ولقد كانت قرطبة مكتظة بالمعمران وكانت دورها تقرب من 213077 داراً وهذا يدل على اتساع المدينة وضخامتها.

ولقد كان لجامع قرطبة دوراً كبيراً في نهضة قرطبة العلمية بالإضافة إلى روعته العبرانية. فهو جامعة لتدريس علوم الدين واللغة يتعلم فيه الطلاب المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وكانت قرطبة في القرن الرابع المجري تنقسم إلى جانبين كبيرين، جانب شرقي كان يعرف بالشرقية وجانٍ غربي. وهو نفس التقسيم الروماني القديم وكانت تضم بالإضافة إلى قصر الإمارة والجامع الكبير والقياصرية والحمامات والأسوان. أحياءً تعرف بالحمامات منها حومة باب الفرج، وحومة الرزاقين قرب باب أشبيلية أو العطارين، وحومة البخاريين، وحومة عن فرقـد شرقي قرطبة وحومة غدير بنى ثلبة، وحير الرجالي خارج باب اليهود وكان من أبدع المواقع وأجملها.

ولقد بلغ عدد ضواحي قرطبة أحد وعشرين ضاحية (ربضة)، فالمدينة القدمة بعدها النهر فيها ضاحية شقندة ومنية عجب، وأما الغربة فتشمل تسع ضواحي هما: حوانيت الريحان والرفاقين، ومسجد الكهف، وبلاط مغيث، ومسجد الشفاء، حمام الإلبيري، ومسجد السرور والروضة والسجن القديم. وأما الشمالية فتشمل ثلاث ضواحي هي: باب اليهود، ومسجد أم سلمة، والرصافة. والشرقية تشمل على سبع ضواحي هي: شبلاد (وهي تسمية لاتينية تعني الأرض الرملية)، وفرن برييل، والبرج، ومنية عبدالله، ومنية المغيرة، والراحلة، والمدينة العتيقة.

وأن بعض هذه الضواحي المحيطة بالمدينة الوسطى التي كانت تعرف بالقصبة كانت تبعد عنها كثيراً كضاحية الزاهرة والرصفة وها اسماً لقصرين، كما أن الكثير من هذه الضواحي كانت تقع على امتداد نهر الوادي الكبير حيث قام الميناء والقصور. ولقد كانت هذه الضواحي بلا أسوار ويدرك ابن غالب بأنه هناك خندق يدور بجميع الضواحي وماكنتها لم تقدر أمة من الأمم على عمل مثله. وتجمع المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبة ينفق وموقع العاصمة القديمة⁽¹⁾ للإقليم الروماني المعروف باسم باطقة، وهي مدينة قرطبة نفسها أو القصبة أو المدينة الوسطى⁽²⁾ بوصفها واقعة وسط خمسة مدن أخرى، وكان يحيط بهذه المدينة في جميع العصور سود من الحجر الجيري، وكان هذا السور موضع اهتمام الولاة والخلفاء الأمويين، ولم يبق من هذا السور إلا أجزاء متatterة، ولكن بقي من سور الروماني جزء يمتد على جانبي باب أشيلة الذي يعتبر هذا الباب من أبواب قرطبة في العصر الروماني أو عصر القوط الغربيين.

وكان سور مدينة قرطبة الوسطى على شكل متوازي الإل怙اع لا يتتجاوز عيشه أربعة كيلو مترات، وهو ما يتفق مع تقدير ابن حوقل الذي يقول: (ودرت في قرطبة في غير يوم قدر ساعة)⁽³⁾. كما تجمع المصادر التاريخية العربية على أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب⁽⁴⁾ أهمها: الباب الجنوبي المعروف بباب القنطرة، لأنه يؤدي إلى قنطرة مقامة فوق الوادي الكبير وكذلك يسمى بباب الوادي الكبير ويطلق عليه أيضاً باب الجزيرة لأن مجراه غمر هذه المدينة أو يسمى بباب الصورة بسبب تمثال كلاسيكي كان يقوم فوق عقد هذا الباب ونبي المسلمين إلى العذراء مريم. وكان هذا الباب ينتهي بالرصيف الأعظم المتعد على طول الضفة الشمالية للنهر. وقد

(1) المدينة العتيقة.

(2) كما يطلق عليها الإدريسي.

(3) القرى، نفح، ج 2، ص 9.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 59.

وصف الحميري الرصيف فقال: (وتحت القنطرة يعرض الوادي برصف مصنوع من الأحجار والعدم الجافية من الرخام)⁽¹⁾، وينفتح في السور الشرقي بباباً وهما: الجنوبي وهو الباب الجديد ويقع قرب النهر ويعرف هذا الباب باسم باب سرقسطة⁽²⁾. أما الباب الثاني فيعرف بباب عبدالجبار نسبة لعبدالجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموي مروان بن الحكم، ويقع هذا الباب شمالي السور الشرقي، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب طليطلة بسبب اتجاهه إلى هذه المدينة، وسمى كذلك رومية نسبة إلى السكة العظمى⁽³⁾ وهو الطريق الروماني الموصوف الذي كان يبدأ من قادس ويتهيأ بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة ويقول عنه الحميري (وكانت المحجة العظمى عليها من باب نزيونة إلى باب بيارا إلى باب قرطبة)، وأشار إليه ابن بشكوال بقوله: (وباب ابن عبدالجبار هو باب طليطلة وباب رومية، وفيه تجتمع الثلاثة الرصيف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمنة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة في الأرض الكبيرة)⁽⁴⁾.

أما السور الشمالي فكان يفتح فيه باب يُعرف بباب ليون أو باب طلبرية أو باب اليهود، وقد كرهوا اسم باب اليهود فسموه باب المدى، ويشرف هذا الباب على حير الرجال، وظل هذا الباب يُعرف حتى سنة 1903 م باسم باب أوساريو نسبة إلى مقبرة كان يؤدي إليها، تُعرف في العصر الإسلامي باسم مقبرة أم سلمة.

أما الجانب الغربي من السور فكان فيه ثلاثة أبواب: الأولى: شمالي يعرف بباب عامر القرشي وينسب هذا الباب إلى عامر بن عمرو القرشي، وكانت له مقبرة خارج هذا الباب فأمر الخليفة عبد الرحمن بفتح هذا الباب في شعبان 302هـ / 916م، لتيسير الذهاب إلى المقبرة.

(1) الحميري، ص 158.

(2) المترى، نفع، ج 2، ص 13.

(3) أو المحجة العظمى.

(4) المترى، ج 2، ص 13.

والباب الثاني يتوسط هذا سور ويُعرف بباب الجوز أو باب بطليموس، والباب الأخير يقع جنوب سور الغربي ويُعرف باسم باب أثيلية، وكان يسمى بباب العطارين. ولقد عمل الخليفة عبدالرحمن الناصر على تخصيص أبواب مدينة قرطبة فبني لها أبواباً داخلية توازيها سنة 301هـ لسهولة الدفاع عنها، وإتاحة الفرصة للحراس لضاغطة الحراسة. وكانت تنبع من هذه الأبواب شوارع تتولف في الداخل شبكة من الدروب والأزقة. وذكرنا أن طريقاً كبيراً كان يشق قرطبة تسمى المصادر العربية المحجة العظمى، وكان هذا الطريق العظيم يمتد من باب القنطرة شمالاً مارياً بين المسجد الحرام وقصر قرطبة ثم يميل شرقاً نحو باب عبدالجبار، وخرج من هذا الباب ويتجه نحو الشمال الشرقي يخرج من باب عباس أحد الأبواب الثلاثة التي كانت تنفتح في سور ضاحية الشرق المعروف بالشرقية أما البابان الآخرين فهما باب الفرج وباب الجديد.

وكان يلتقي بهذا الطريق الأعظم طريقان أحدهما غربي يمتد من باب عامر، والثاني شمالي يمتد من باب اليهود، حيث يتألف من تقابيل هذه الطرق الثلاثة شكل صليب كان هو النظام الرئيسي في تنظيم المدن الرومانية. وكان يتفرع من هذه الطرق الرئيسية شبكة من الطرق والأزقة، ويدرك ابن القوطية دريأً بقرطبة من زمن عبدالرحمن الأوسط اسماء بدر بن شراحيل، نسبة إلى محمد بن شراحيل المعاوري فاضي قرطبة^(١) ويدرك الخشني أن جده عمر بن شراحيل المعاوري، كان يعيش في قرطبة بدر بن الفضل بن كامل الواقع قبلة مسجد أبي عثمان، وهذا في زمن الأمير عبدالرحمن الداخل، ويدرك ابن الفرضي اسم دربين آخرين بقرطبة أحدهما درب أبي الأشهب والأخر درب بني فطيس. وكان يقوم بحراسة كل درب من هذه الدروب حارس يسمى درب على نحو ما كان متبعاً في المشرق إذ أن خطة التحول الليلي للدروب أو المس في الأندلس تشبه خطة أهل المشرق في الحراسة.

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 58.

ويذكر ابن سعيد المغربي بأن (بلاد الأندلس لها دروب ياغلاق تعلق بعد العتمة، ولكل زفاف باتت فيه، له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم، واعيائهم في أمور التلصص، إل أن يظهروا على المباني المشيدة، ويفتحوا الأخلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً أن يقر عليهم، أو يطالهم بعد ذلك)^(١). ومن هذا النظام الدقيق للحماية نتاج أهمية الdroub ودورها الكبير في حياة السكان. لأن للدروب مغذ واحد وهذا يسهل عملية الدفاع على بيونهم. وشوارع قرطبة تشبه في تسمياتها الشوارع العربية القديمة مثل شارع الرنيقة وشارع المونسة أي الصابون، وشارع القيسارية، وشارع الخطاطين، وشارع المزرة أي الحبر الأحمر. كما أن بعض شوارع قرطبة في الوقت الحاضر ما زالت تحفظ بأقواسها التي كانت تعلق فيها المصايب.

ولم تقتصر المظاهر الحضارية في قرطبة على هذا الثراء العماني والهندسي الرائع؛ فإن المجالات الأخرى مثل الآداب والموسيقى والعلوم والفنون هي الأخرى شهدت انتعاشًا كبيراً استطاعت أن تشكل لوحة متعددة الألوان للحاضرة الأندلسية قرطبة. ففي الأدب نبغ أبو عبدالله محمد بن مسعود القرطي وأبو بكر مجىء بن سعدون عام الأزدي القرطي وأحمد بن مسعود بن محمد المخزرجي القرطي، وأبو جعفر أحد بن شطرية القرطي. كما اشتهر في حقل القضاة أبو الرويد أحد بن رشد وفي المجال العلمي بالإضافة إلى دور الجامع الكبير في قرطبة شهدت نشاطاً علمياً لم تشهد أية مدينة أخرى حتى أصبح اسم قرطبة يقترن بالعلم والعلماء وقد اختصر الشاعر عظمة العلم في قرطبة في هذين البيتين:

بأربع فاق الأمسكار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتسان ثستان والزهراء ثلاثة والعلم أعظم شيء وهو رباعها

(١) المقرري، نفح، ج ١، ص 204

ومن أعمال الخليفة عبدالرحمن الناصر في مجال العمارة هو إعادة بناء مدينة سالم التي تقع شمالي مدريد بحو 153 كم في الطريق بين مدريد وسرقسطة وهي الآن جزء من مقاطعة سوريا. وقد عرفت هذه المدينة قديماً في العصر الروماني باسم أوسيس، ولما فتح المسلمون إسبانيا، قام باعمارها الزعيم المغربي سالم بن ورعمال المصمودي الذي كان من قادة الرعيل الأول للفتحات في إسبانيا، ومن ذلك أخذت المدينة اسمها. وكانت الفتن التي حدثت في أيام عبدالله الأموي قد خربت المدينة، ولما تولى الزعامة عبدالرحمن الناصر أعاد بناءها وجعلها ثغراً حربياً لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة، وأشرف على بنائها مولاه غالب وغيره من قواد الشور، فنقلوا إليها البنائي والآلات وأصبحت مدينة سالم منذ ذلك الوقت قاعدة للنهر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة النهر الأدنى، وسرقسطة قاعدة النهر الأعلى.

وهكذا كانت قرطبة تشهد أيامها النبوية في عهد عبدالرحمن الناصر الذي توفي سنة 350هـ / 961م عن عمر ناهز الثالث والسبعين، بعد حكم دام نصف قرن. ويرغم عهده الطويل زمنياً والمليء بالأحداث الكثيرة تشير بعض المصادر إلى أنه قال عبارة وكلها بنفسه مفادها أن الحياة السعيدة التي تعم بها حفناً كانت أربعة عشر يوماً فقط^(١).

ومن مبلغ المكانة التي احتلتها الخليفة الناصر في الأندلس وخارجها يشار إلى أن الملك الإسباني أوردونيو الرابع ملك ليون عندما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر، سأله عن مكان قبر الخليفة وذهب لزيارته مبدياً آيات الاحترام الكبير للخليفة في قبره، تقديرأً لسيرته وتاريخه الطويل الحالف بالإنجازات الكبيرة.

الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله)

لقد تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة الناصر وتلقب بالمستنصر بالله. وهو في عمر تجاوز الخامسة والأربعين، وهذا يرجع إلى طول فترة حكم أبيه. ولكن هذا الخليفة كان

(١) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 233.

مساهمًا في إدارة الحكم ولم يكن عاطلاً أو متفرجاً، فقد أشرك الخليفة السابق في تدبير شؤون الخلافة، كما كلفه بالإشراف على بناء مدينة الزهراء، وقد أظهر كفاءة وخبرة في عمله، أهلهه لتسيير دفة أمور الخلافة في عهده. ولقد عُرف بشخصيته العلمية وحده الشديد للقراءة واقتناء الكتب والمراجع النادرة، والبحث عنها في كل مكان. ويقال أن لديه علماء في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن كلّفهم بشراء الكتب أو نسخها وبإي شمن؛ ومن الرويات التي تؤكد ولعه الغريب بجمع المراجع من البلاد البعيدة، أنه عُلم إن أبي الفرج الأصفهاني يؤلف كتابه الشهير الأغاني فأرسل إليه ألف دينار لشراء الكتاب قبل أن يصدر في الشرق. وبما أن أبي الفرج من مواليبني أمية السابقين، فقام بإرسال الكتاب قبل أن يقرأ في الشرق إلى قرطبة.

وكان حصاد الخليفة من الكتب أن ازدهرت في القصر الملكي بمدينة الزهراء مكتبة ضخمة متفرعة المصادر بلغ عددها 400 ألف مجلد⁽¹⁾. ولم يكن شغل الخليفة هو جمع الكتب فقط، بل أولى العلماء أهمية خاصة، فحرص على جذبهم ومحالستهم وتشجيعهم على البحث الابتكار، وكان من أبرز العلماء الذين ظهروا في عهده، العالم اللغوي أبو علي المقالي⁽²⁾ الذي وصل الأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر سنة 330هـ وأصله من العراق وقد نال الاحترام الشديد والحظيرة العظيمة في عصر الناصر وال الخليفة الحكم المستنصر، كذلك يربز المؤرخ القرطبي الشهير أبو بكر محمد ابن القرطبة وهو من نسب امرأة قوطية إسبانية وهي الأميرة سارة حفيدة الملك غبطة من أحفادها. وله مؤلفات عديدة أهمها كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) الذي يورخ لفترة الفتح الإسلامي لإسبانيا حتى وفاة عبدالله الأموي سنة 912م. وله كتاب آخر

(1) يقال أن كل كتاب كان يحمل هواوش الخليفة دليل قراءته لكل الكتب ويقدر المبالغة في الأمر إلى أنها تدل على اهتمامه ورعايته للكتب والعلماء والأدباء.

(2) نسبة إلى مدينة فالي في ديار بكر ومن أهم أعماله كتاب الأمالى.

مهم في التحرر وهو (كتاب الأفعال)، ومن العلماء في عهد المستنصر العالم المغربي محمد بن حارث الحشني الذي انتقل من القبران إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الذي كلفه بكتابة تاريخ القضاء الأندلسي، وسمح له بدخول المكتبة الملكية للاستعانته براجعتها الثمينة وفعلاً كتب الحشني كتابه الشهير (كتاب القضاة بقرطبة)، والذي تضمن معلومات هامة عن الحياة في الأندلس.

بالإضافة إلى مؤلاء فقد برع علماء غير مسلمين كانوا موضع عناية الخليفة ورعايته، فقد قرب إليه الأستاذ المترعرع ربيع بن زيد الذي كان مهتماً بدراسة الفلسفة والعلوم الفلكية. ولقد كان الخليفة الحكيم يجمع في شخصيه بين حب العلم والأدب والعلماء وحب رعيته وتصدقه على الفقراء وحثّهم على طلب العلم بشكل مجاني. ويذكر مصدر تاريخي عنه بالقول⁽¹⁾: (ومن مستحبات أفعاله، إخاده المؤذنين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع، وبكل ريض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهد والتضحى ابتناء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرين مكتباً، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقياً في كل ريض من أرباض المدينة). وهناك دار أنشاء الخليفة يسمى بدار الصدقة في الجانب الغربي من الجامع الأموي لتوزيع الصدقات على المحتاجين.

وكان للخليفة نصب في الأعمال العسراوية في قرطبة ومن أهمها التحسينات والتوسيعات التي أجرأها على جامع قرطبة من جهة القبلة سنة 961م لمواجهة مشكلة الزيادة السكانية في قرطبة وضيق الجامع أمام كثرة المصليين، كما أوصل الماء العذب إلى سقيايات الجامع، والمساكن اللتين على جانبيه، وقد جاء بالماء من عين بجبل قرطبة، حفر له الأرض، ويجري في قناة من حجر أودع في باطنها أنابيب من الرصاص لضمان نقاوة الماء.

(1) ابن عناري، البيان، ج 2، ص 240-241.

الأخطار التي واجهت قرطبة

لم يختلف المستنصر في سياسة عن أبيه كما لاحظنا في موضوع الاهتمام بشؤون الحكم وتطوير الخلافة وإعمارها. كذلك كانت سياسة مع الأخطار والتحديات والتي واجهت الخلافة في عهده وهي نفس المصادر التي كانت تهدد خلافة الناصر في عهده.

١- الخطير الفاطمي

لقد أبدى المستنصر فطنة مبكرة في إدراك الخطير لفاطمي المعاظام في أفريقيا، إذ أنه كما يشير ابن عذاري، أن الخليفة ذهب سنة 353هـ من قرطبة على ثغر المرية لنفاذ قواته هناك والاطمئنان على حصون الجبهة الشرقية المواجهة للفاطميين، ولقد أشرف على المقاتلين الذين يتبعون مجاهدة أي هجوم فاطمي عليهم. ولقد حدثت بوادر الخطير الفاطمي عندما أرسل الخليفة العزيز بالله الفاطمي رسالة إلى المستنصر الأندلسي يهجهوه فيها، وقد رد عليه الخليفة المستنصر بجملة وجيزة ومعبيرة في معناها بالقول: (قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك)، ورغم أن الخطير الفاطمي قد ضعف في بلاد المغرب الأقصى نتيجة لانتقام المغرب على نفسه بعد أن تمكنَت قبله صنهاجة أو بمعنى آخر الدولة الزيرية، من فرض سيطرتها باسم الفاطميين على النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة فكان تحت سيطرة زناتة وحلفاؤها الأمويون. وهذا الوضع قد أحدث نوع من التوازن على سطوة المغرب وبذلك خفت سيطرة الشيعة الفاطميين على المغرب الأقصى والأندلس^(١).

إلا أن الخليفة المستنصر كان له رأي آخر فهو يرى أن الخطير الفاطمي لا زال موجوداً ويؤكد على ضرورة سيطرته على مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلة ومن خلال هذه القواعد تستطيع الأندلس أن تضمن نفوذها إلى قلب المغرب. إلا أن سياسة المستنصر هذه لقيت

(١) انظر: د. أحد خثار العبادي، في التاريخ المغربي والأندلسي، ص 424، وما يليها.

متاوية أمراء الأدارسة من بني محمد الذين كانوا يستمدون لاسترداد مواقعهم في الجهة الشمالية للغرب، فقاموا بثورة كبيرة سنة 361هـ / 972م بقيادة قائدتهم الحسن بن جنون، وخرجوا من طاعة الخلافة، إذ قطعوا الدعوة لبني أمية على منابرهم، وقاموا باحتلال طنجة وتطوان وأصيلا، وكافة المنطقة الجبلية الممتدة شمالي وادي المكوس، وأقاموا موقعاً لقيادتهم في قلعة شاهقة الارتفاع في شمال شرق القصر الكبير تسمى حصن الحجر أو حجر السر دلالة على ارتفاعها. ولقد سبّت هذه الثورة الإخراج للخلافة الأموية على المستوى الشرعي والسياسي، فقرر الخليفة أن يغير سياساته السابقة والقائمة على الخفاء وإثارة الفتن من وراء الستار، على الجبهة العسكرية كما صمم من قبل كما رأينا، ورأى أن يستخدم السبب الديني للتدخل في المغرب وذلك لحماية الإسلام والشّلة فيها من المراطفة الشيعية على حد قوله، فقام بإرسال الأساطيل والجيوش عبر المضيق لاسترداد سيطرة الخلافة هناك. وأرسل قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلس الذي عبر المضيق إلى مسبتاً في سنة 361هـ وكانت الأساطيل بقيادة القائد البحري عبدالرحمن بن رماحس قد لحقت بالوزير وتمكنت القوات الأندلسية عند وصولها إلى مسبتاً، فشتّوا هجوماً على طنجة برأ و مجرأ، وكان في الجانب الآخر الأمير الحسن بن جنون لقيادة قوات الأدارسة الذي نشل في جنوبية قوات الخليفة رغم محاولته لرفع معنويات جيشه، إلا أنه ترك المدينة هارباً واستسلمت طنجة بعد أن خرج شيخهم ابن الفاضل مع وجهاء طنجة وهم ينادون (الطاعة لله وللأمير المؤمنين الحكم)، فأعطياهم القائد عبدالرحمن بن رماحس الأمان ودخل طنجة في شوال سنة 361هـ / 972م، أما القائد محمد بن القاسم بن طلس، فاستمر بقواته البرية بملاحقة جيش الحسن بن جنون المتقهقر على الساحل المحيط الأطلسي، ثم احتل مدينة أصيلا، ودخلها وأمر بإحراق معالم الولاء الذي وجدوها في جامع المدينة وهي مرسومة على المبر باسم الشيعي معد بن إسماعيل (المعز للين الله). ولكن الأدارسة لم يرضخوا للأمر الواقع وتقبل المزيمة، فنراهم ينظمون صفوفهم ويوردون شملهم من جديد بقيادة الحسن بن جنون وبهاجون الجيش الأندلسي بشكل مباغت في مكان يسمى بفحص مهران بضواحي طنجة ويلحقون به هزيمة قاسية أدت إلى مقتل القائد الأندلسي محمد بن

القاسم بن طملس سنة 362هـ / 972م وهزمه بقياً المقاتلين إلى سبعة طالبين العون والمدد من الخليفة الحكم.

وقام الخليفة على الفور بعد سماعه أبناء الجزيرة الساحقة بجيشه ومقتل قائد، باستدعاء وزيره والقائد الأعلى للقوات غالب بن عبد الرحمن من ثغر مدينة سالم. فاتَّ قبل القائد مع قواته إلى قرطبة سنة 362هـ وأمده الخليفة بجيش كبير وأمره بالسير إلى ثالٌ الحسن بن جنون قاتلاً له: سُرْ سير من لا إذن له في الرجوع حياً إلا مصوراً، أو ميَّة فمعذوراً، وابسط يدك في الأتفاق، فإنْ أردت نظمت لك الطريق يبتنا قطار مال⁽¹⁾.

كما أمر الخليفة قائد الأسطول المرابط في طنجة عبد الرحمن بن رماحس والقائدين اللذين معه سعد وقيصر، وقواده بمدينة أصيلا⁽²⁾. بعدم التفاوض مع الحسن بن جنون وعدم القيام بأي عمل عسكري ضده إلى حين وصول القائد غالب وجيشه، وسيكون عملهم قبل وصول غالب تأمين المعلومات الضرورية عن حركة الحسن من خلال استخدام الجواهير. ولقد أبى القائد غالب مع قواته من الجزيرة الخضراء أقصد طنجة في سنة 362هـ، ولكن الظروف الجوية السيئة وهبوط عاصفة شديدة قد اضطرته للانتظار أيامًا لعبور المضيق إلى طنجة ثم إلى أصيلا، وعندما وصل إلى طنجة، أسرع القائد عبد الرحمن بن رماحس لتحريك أسطوله من طنجة إلى أصيلا كي يكون عوناً وشريكاً للقوات الأندلسية بقيادة غالب، وهذه الخطوة باركتها الخليفة المستنصر بالقول: (إن اجتماع الأسطولين فيه صواب التدبير).

واستدعى الخليفة كذلك القائد عبي النجبي من قاعدته سرقسطة مع قواته وأرسله إلى المغرب لتعزيز القوات الأندلسية هناك بقيادة غالب، كما أرسل معه الشراء والقضاة والأمناء ليقوموا ب مهممة الإسناد المعنوي للمقاتلين وكذلك تزويدهم بالمعلومات المهمة عن معسكر الأعداء، فقد أرسل الخليفة الشاعر محمد بن حين

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 365-367.

(2) مثل عبد الرحمن بن أرمطيل، ورشيق بن عبد الرحمن.

السيمي المعروف بالطفي⁽¹⁾ إلى هناك لمعرفته بأخبار المغرب وسكانها وخبرته في شؤونهم، كما أرسل قاضي أشبيلية وصاحب الشرطة محمد بن عامر الذي سلمه الخليفة قضاء المغرب وجعله عيناً على الجيش وأمر قواده وعماله بالعمل بمثورته.

وبهذه التدابير العسكرية والسياسة الصارمة استطاع المسلمون من تثبيت الحصار حول حصن محمد بن جنون المعروف بمحجر النمر، الذي استسلم نتيجة لهذه الجهود الكبيرة التي قامت بها قوات الخليفة، وطلب الأمان فاستجيب طلبه، ودخل القائد غالب الحصن وصلى في مسجده صلاة الجمعة مع الأمير الإدريسي محمد بن جنون، وأعيدت الدعوة من التبر إلى الخليفة المستنصر بالله في 29 جمادى سنة 363هـ / 973م⁽²⁾.

وبعدها عاد القائد غالب مستصحيحاً الحسن بن جنون وأقربائه الأدارسة، فدخلوا مدينة الزهراء في يوم مشهور بفخامة الملك وكثرة الجموع.

وهكذا استطاع الخليفة من إخراج أكبر خطر يهدده ويضمن بذلك السيطرة على مضيق جبل طارق، وأن يعمي بلاده من أي خطر شيعي أو زيري يهددها من جانب منطقة المغرب. وبعدها حرص الخليفة الحكم إلى أن يستخدم أميراً إندلي الأصل حاكماً على هذه المنطقة وهو الأمير جعفر بن علي بن حدون المعروف بعاداته للزبرين وقد اشتراكه معه شقيقه يحيى في حكم المنطقة بالتعاون مع زعماء قبائل زناتة من مغراوة وهي يفران.

وتشاء الأقدار وصاحب الخليفة يفرض اشتدع عليه وأدى إلى فقدانه السيطرة على تسيير أمور الخلافة وألت السلطة إلى الوزراء والخاشية والنساء، فساءت الأحوال واضطربت وأخذ ضغط الإسبان يشتد على الجهات الشمالية لذلك قرر الوزير جعفر بن عثمان المصيحي إعادة القائد يحيى بن محمد التجيبي من المغرب، ولقد حضر

(1) نسبة إلى مدينة طينة شرق الجزائر.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 4، ص 365.

فعلاً إلى قرطبة سنة 365هـ وأرسله على الفور إلى سرقسطة لحماية الشعور الأندلسية، ثم قام الوزير المصحفي بخطوة غير مدرورة وهو إخراج الأمير الإدريسي الحسن بن جنون واصحاته من الأندلس حتى يتخلص من الإنفاق عليهم، فاذن لهم بالرحيل إلى المشرق بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بعدم نزولهم في بلاد المغرب، فخرجوا من ميناء المرية وعبروا البحر إلى مصر، وهناك استقبلهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وصاروا في رايته كلاح يتمكن استخدامه ضد الأمويين في المغرب الأقصى عندما يحين الوقت المناسب.

2- الخطر النورماندي

بعد أن وطّد النورمانديون موقعهم على السواحل الغربية الأندلسية من خلال إقامة قاعدة ثابتة لهم بالقرب من هذه السواحل، أصبحوا خطراً يهدد ثغور سواحل الأندلس، وهذا ما أثار هواجس الخليفة المستنصر، وتروي المصادر التاريخية أن دوق نورمانديا ريكاردو الأول حفيد رولون مؤسس هذه الولاية، أمر أسطوله بالتحرك صوب إسبانيا، فخرجت من مواقع نورمانديا على شكل جماعات واتجهت نحو السواحل الغربية الإسبانية، غير أن الخلافة الأندلسية في ذلك الوقت كانت على استعداد تام لمقاومة هذه الأسطول من خلال متابعة أخبارهم وتقصي تحركاتهم منذ انتلاظهم من الموانئ وحتى وصولهم، إذ أن الخليفة المستنصر بالله كان يرسل الجوايس إلى مدينة شنت ياقب في أقصى بلاد أعدائه في جليقية⁽¹⁾ لتقصي أخبار القراءنة النورمانдинيين والذين يطلق عليهم العرب اسم الجيوس كما رأينا سابقاً. كما أن الخليفة قد تناقض مع بعض الحكام الإسبان في الغرب من جليقية وكان له عوناً بإمداده بأخبار تحركات النورماندين في الوقت المناسب. وقد حدثت مثل هذه المعادة الاستخبارية في سنة 360هـ / 970م، إذ أرسل الحاكم الإسباني وفداً إلى الخليفة يخبره بظهور النورماندين في شواطئ إسبانيا الغربية.

(1) شمال غرب إسبانيا.

وتروي المصادر التاريخية⁽¹⁾ أيضاً أن الخليفة المستنصر ولزيادة الخطة والاستعداد الكامل لمواجهة خطر المغوس، أنه أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المغوس وقد أطلق الأندلسيون اسم الفراقر على مراكب المغوس وقالوا إنها مراكب عظام تجري إلى أمامها وإلى خلفها بقلمون مربعة.

ولقد وضعت هذه المراكب الجديدة في الوادي الكبير إلى جانب الصوائف البرية والبحرية التي كانت تتجه إلى الساحل الغربي الأندلسي، في صيف كل عام، وتتجول فيه برأ وبحراً استعداداً لقتال القراءسة التورمانند وقصصي تحركاتهم في الناحية الغربية والتي اعتادوا الظهور منها، وكان على رأس هذه القوات البرية والبحرية قواد أكفاءً أمثال الوزير غالب بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن رماحش، وصاحب الخيل زيادة بن أفلح، وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان وغيرهم.

وهناك ثلاثة توارييخ للغارات النورماندية على الأندلس في عهد الخليفة المستنصر حصرها المؤرخون الأندلسيون وهي 355هـ / 966م، و 360هـ / 971م، و 361هـ / 971م⁽²⁾ ويشير ابن الخطيب⁽³⁾ إلى غزوة غير ناجحة قام بها النورمانديون على حصن القبطة من حصن المرية في شرق الأندلس. إلا أن كل المصادر تتفق على أن غارات التورمانند كانت على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الأطلسي.

فقد كان الهجوم الأول سنة 355هـ للتورماندين على منطقة قصر أبي دانس في جنوب البرتغال، وفي سهول لشبونة والتي شهدت معركة عنيفة قتل فيها الكثير من الحاتين إلا أن الأسطول الأندلسي المرابط في أنسيليةتمكن من تعقب الأسطول النورماندي حتى لحق به عند مصب وادي ثلب، واستطاع تحطيم معظم سفنه واسترداد الأسرى المسلمين الذين قُتلوا على ظهر الأسطول بعد معركة لشبونة⁽⁴⁾،

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 356.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 356، المقربي، فتح، ج 1، ص 360.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 41-42.

(4) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 356.

وكان الأسطول النورماني مكوناً من ثمانية وعشرين سفينة، تحتوي كل منها على ثمانين مقاتلاً، أي أن مجموع المقاتلين النورمانديين كان 2240 مقاتلاً، لم يصدوا أمام قوة الأسطول الأندلسي. وأما الغارات التالية والتي حدثت في سنة 360، فأنها لم تستطع أن تنزل إلى الشاطئ الأندلسي وهذا يعود إلى البقotte التي تتمتع بها القوات الأندلسية وكذلك قوة الأسطول الذي هزم النورمانديين وفرق شملهم في المعارك السابقة. وكان لهذه الانتصارات في عهد الخليفة المستنصر أن جنبت الأندلس الخطر النورماني، كما كانت من عوامل الاستقرار والذروء في المجتمع الأندلسي، والذي انعكست آثارها على الحياة الفكرية والأدبية فتنى الشعراء في هذه الانتصارات وأشاروا بفضل الخليفة وقادته.

علاقة الخليفة مع الدول الإسبانية

لقد ذكرنا سابقاً سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر إزاء الخطر الميحي بأن الخليفة قد استقبل الملك سانشو السمين الذي وفد إلى قرطبة مع الملكة طروطة، وكان سانشو قد تُرِّزَلَ من منصب، فساعد الخليفة باستداد العرش على ملكة ليون مقابل عدة حصون إسبانية يتنازل عنها للخليفة، ولما توفي الخليفة الناصر لم يفر الملك سانشو بوعوده وأخذ يماطل الخليفة المستنصر معتقداً بأنه رجل علم وفلسفة ولا شأن له بالحروب، غير أن الخليفة المستنصر كان على غير ما يعتقد سانشو فقد قرر أن يأخذ الحصون بالقوة، ولقد استعد لهذا الأمر جيداً، وب فيما كانت استعدادات الخليفة للحرب جارية، وصل إلى قرطبة الملك أوردنينو الرابع الذي خلعه الناصر، فكان ورقة راجحة بيد المستنصر ضد سانشو ولقد استقبله الخليفة المستنصر استقبلاً مناسباً، ووعده باستداد العرش من سانشو، وعندما وصلت الأخبار إلى ملكة ليون تغير موقف سانشو خوفاً على مستقبل عرشه، فعاد للاتصال بالخليفة المستنصر مبدياً استعداده الكامل لتنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه أمام عهد الناصر، فأوقع الخليفة المستنصر في حيرة من أمره، في اختيار أي الملكين لضمان حقوقه وأمن الخليفة.

ولكن موت الملك المخلوع أوردنير الرابع أزال هذه المشكلة، ولكن سانشو عندما علم بموت غيريه عاد لنقض وعوده واحتفظ بالمحصون، ثم أخذ يجهز لمقاتلة المسلمين وقد عقد حلفاً مع مملكة نبرة وتحالف أيضاً مع إمارة قشتالة التي كانت حديثة التكوين آنذاك. ولكن الخليفة المستنصر استطاع أن يواجه هذا الخطر وقام بغزو الدول الشمالية وانتصر عليها بفضل قوة جيشه ووجود قادة مميزين على رأس هذا الجيش. ولقد انتهت الحرب باستسلام المحصون وضمّها إلى سيطرة الخليفة.

بعدها توفي الخليفة المستنصر سنة 366 هـ بعد أن استمر بالحكم خمسة عشر عاماً، خلفاً ولده هشام الثاني عن عمر لا يتجاوز عشر سنوات، ولقد كان المستنصر يعلم بضرورة مهمة ولده القاصر، فقرر قبل موته أن يجمع المسؤولين عن الدولة، وأنزل عليهم العهد بالإخلاص ومؤازرة وتأييد وللي عهده بعد موته. ولكن الأمور لم تخرب كما يتنبأ الخليفة وهو ما سرّاه في الفصل القادم.



الفصل السابع

- الخليفة هشام الثاني وأفراد الخلافة
- ملحة عن تاريخ بني عامر
- عهد المنصور ابن أبي عامر
- سياسة المنصور العسكرية
- منجزات المنصور العمرانية والإدارية
- نهاية عهد المنصور
- عبد الملك بن المنصور (المظفر)
- عبدالرحمن بن المنصور ونهاية الدولة العامرة
- المهدي وعهد الفتنة
- المستعين بالله خليفة قرطبة
- عودة المهدي إلى قرطبة
- المستعين يعود إلى قرطبة وخلافة هشام الثالث
- عهد آل حمود
- علي بن حمود ملكاً على الأندلس
- القاسم بن حمود الملائون
- يحيى بن حمود المعتلي بالله
- عبدالرحمن بن هشام المستظاهر بالله
- محمد بن عبدالرحمن المستكفي بالله
- هشام بن محمد المعتمد بالله ونهاية الخلافة الأموية
- آراء المؤرخين في نهاية عهد الخلافة الأموية في الأندلس

الفصل السابع

ال الخليفة هشام الثاني وأفول الخلافة

لقد كان الخليفة السابق المستنصر ياصراره على ولادة العهد لولده القاصر وتحطبه لأخوته الثلاثة الأقرياء⁽¹⁾، قد حفر قبر الخلافة بيده، إذ شهدت قرطبة انتقامات حادة في الرأي حول من هو الأقدر على خلافة المستنصر. نكان الوزراء وأتباعهم يرون أن تفيذ وصية الخليفة السابق بتولية هشام هو الصواب، لأن ذلك سيجعلهم الحكام الفعليين للدولة. بينما يرى آخرون أن المغيرة هو الجدير بالخلافة لأن هشاماً قاصر وضعيف ولا يليق أن يكون على رأس الجيش والخلافة. والفريق الثالث التزم الحياد، بينما كان العامة وفقراء الناس لا شأن لهم بشخص محمد إلا ما يقوم به من مراعاة لصالحهم وتحسين أوضاعهم المعيشية.

ولكن فريق الوزراء قد انتصر بجامعة الصبي هشام بالخلافة، وتشير المصادر التاريخية بأن مبادئه كانت بفضل وزير أبيه محمد بن أبي عامر وال حاجب جعفر ابن عثمان الصحفي، وغالب مولى الحكم وحاكم مدينة سالم، إذ قام هؤلاء بقتل المغيرة أخ الحكم والمرشح للخلافة⁽²⁾. وهناك رواية تصف أزمة الخلافة بالشكل التالي: (وكان الناس يومئذ أربعة: صنف همّ الدنيا التي ينالها بسب الولد هبّة بالغاً أو طفلاً في المهد، وهم صنائع الحكم وكل ذي علاقة به، وصنف يؤمل أمراً ويرجو من القرابة

(1) وهم الرجال الأقرياء عبد العزيز والإصبع والمغيرة.

(2) المقرى، نفح، ج 1، ص 372.

الراجحة زيداً وعمرها.. وصف من الديوان راضٍ بمحظه من الزمان لا يشوق إلى المزيد ولا يغدر من التقصان فقد تساوت في الدول أحواله، فإن تعين الطفل أو الكهل لا يهمه فهو هادن ساكن وإلى فتنة العاذية راكن، وصف من أهل الدنيا والآخرة قدروا أهل الخل والعقد اجتهدهم وسألا الله توفيقهم وسدادهم.. وصف غارم (فقير) لا هم له إلا فین يخفف عسره، وهؤلاء أرباش السوق وحقق ما لهم من خلاق.. وصف همه الآخرة بعيد عن الدنيا لا يتكلم في مثل هذا ولا يتكلم معه، إنما مشغول برئه خاصة وهذا جيل قليل، إنما لا تخالوا الأقطار منهم..⁽¹⁾.

وهكذا استترت الخلافة لشام وصار الحاج محمد بن أبي عامر وصيّاً عليه بعد أن أثبتت جدارته وتفوق على زميله جعفر الصنفي.

وكان خلافة هشام صورية فقط. ومن المفيد أن نذكر هنا إن هشاماً ابنًا بخاري بشكنته من نبرة اسمها صبح وكان الخليفة يسميه جعفر، وكانت مغبة عنده، وولدت منه هشام فصارت أم ولد استطاعت بذكائها وحب الخليفة لها أن تسيطر وتمتنع بفوذ واسع في قصر الخلافة. وهي التي كانت مسيطرة في البداية على ابنها حتى ظهرت شخصية موهوبة وهو محمد بن أبي عامر⁽²⁾ الذي استطاع أن يسيطر على الخليفة وأمه معاً وصار هو الحاكم الفعلي أما الخليفة فكان أشبه بالمعتوه لا يهتم إلا بالأشياء السخيفة التي يجيئها إليه المشعوذون، كما يصفه ابن الخطيب بالقول: (كان متدرجاً في كتف كافله الحاجب المنصور، محبت لا يُنْبَتُ إِلَيْهِ تَدْبِيرٌ، وَلَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ تَلِيلٌ وَلَا كَبِيرٌ، إِذَا كَانَ فِي نَفْسِهِ وَاصِلَ تَرْكِيهِ مُضِعِفًا مَهِيَّا مَشْغُولاً بِالْتَّرْزَهَاتِ، وَلَعْبِ الصَّيَانَ وَالْبَنَاتِ، وَفِي الْكَبِيرِ بِمَحَالَةِ النَّاسِ، وَمَحَادَثَةِ الْإِمَاءِ، يَحْرُصُ بِزَعْمِهِ عَلَى اكْسَابِ الْبَرَكَاتِ وَالْآلاتِ الْمُسَوِّبَاتِ، فَقَدْ كَانَ بِخِزَانَتِهِ مِنَ الْلَّوَاحِ تَعُودُ إِلَى سَفَيَّةِ نُوحٍ، وَمِنْ قَرْوَنَ مَنْسُوبَةٌ إِلَى كَبِشِ إِسْحَاقِ، وَمِنْ حَوَافِرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى حَارِ عَزِيزٍ، وَمِنْ ضَفَافِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى نَاقَةِ صَالِحٍ، لَمْ يَسْتَرِبْ فِي تَعْدِدِهَا.. إِلَى مَصْلِيَاتِ مَنْسُوبَةٌ

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 44-47.

(2) والذي لقب فيما بعد بالمنصور.

لعبد، وأولاني وضوء متارثة عن زهاده: بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلة من المجازر والمعاطي، ملتفة من أيدي المخابث^(١)، وبهذه الشخصية المزبطة لل الخليفة الشرعي، أصبح الحكم الفعلي في الأندلس يد الأسرة العامرة وليت بيد الملك، وصارت هذه الأسرة تتبدل بالحكم وتُصرف شؤونه ببارادتها التامة، وهكذا رأينا الخليفة الأموية تقط في الأندلس لفتح المجال لمهد الدولة العامرة والتي كانت ممثلة في الحاج المتصور بن أبي عامر ولولديه المظفر وعبد الرحمن.

لحمة عن تاريخ بنى عامر

يرجع تاريخ هذه الأسرة إلى عرب اليمن، وكان جد ابن أبي عامر وهو عبد الملك المعافري من رجال العرب الأوائل الذين اشتراكوا مع طارق بن زياد في الفتح الإسلامي الأول لإسبانيا، وقد أبدى شجاعة وبسالة عاليتين في فتح قرطاجنة، وبعدها استقر بنو عامر في مدينة طرش بعد الفتح، واستمرت العائلة في خدمة الدولة الإسلامية في الأندلس.

فخدم أبو عامر بن الوليد وابنه عامر في عهد الدولة الأموية، وكان عبدالله بن عامر والد المتصور رجلاً اهتم بالدين وانصرف إلى الحياة الدينية. وهكذا نشأ ابنه محمد دارساً للحديث والأدب واللغة على يد أبي علي البغدادي، وعلى أبي بكر بن القروطية، ودرس الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي. أما ابن أبي عامر فقد اخذ مهنة الكتابة فافتتح دكاناً عند باب القصر يكتب فيه للخدم ومرافق الخليفة ما يريدونه من رسائل أو غير ذلك. حتى وصل خبره إلى زوجة الخليفة صاحبة بشكتبة وتطورت علاقاتهما حتى أصبح كاتبها فأعجبها كثيراً ونقلت إعجابها إلى الخليفة الحكيم وأوصته بأن يهتم به فولاً، فضاء بعض المراضع في رية، وأثبت كفاءة عالية ترقى بعدها إلى مناصب الزكاة المواريث في أشبيلية، ولقد أصبح له موقع متميز في

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 58.

قلب صعب لما قدمه لها من التحف والخدمات ما لم يتمكن به غيره⁽¹⁾ وذكر الروايات أنه صنع قصراً من الفضة لصبح أم هشام وحمله على رؤوس الرجال حتى أن الخليفة الحكم قال عنه: (إن هذا الفتى قد خلب عقول حرماتنا بما يتحفهن به). وقال عنه ابن بسام: (فعلت حاله، وعرض جاهه، وعمر بابه في حياة الحكم، وهمة ترتقي به ما وراء ما يناله أبعد مرمى، وهو في كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح، ويختص به ويتحقق نصيحته، إلى أن أحظاه الجلد، وساعدته القضاء)⁽²⁾. ويدرك مصدر تاريخي آخر الأسباب التي أهلت ابن أبي عامر لتبوأ هذه المكانة في قربطة وفي نفس زوجة الخليفة الحكم صبح بالقول: (حسن الخدمة وموافقة المسرة وسعه البذل في باب الإخاف والمهاداة، حتى استهراها وغلب على قلبها، وكانت الغالبة على مولاها، وابن أبي عامر يجتهد في برّها والمثابرة على ملاطفتها، فيبدع في ذلك، ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها.. وقال الحكم يوماً لبعض ثقاته: ما الذي استطلف به هذا الفتى حزمنا حتى ملك قلوبيهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يضعن إلا هداياه، ولا يرضيهم إلا ما أتاهم، إنه لامر عليم أو خادم البيت، وإنني لخائف على ما يديه)⁽³⁾، ولقد صدق ظن الحكم بهذا الرجل الذي استطاع إثناء حكم الأسرة المالكة وابتداء تاريخ جديد لحكم الأسرة العاميرية في الأندلس، وما يذكر عن الحظيرة التي كان بها مؤسس الدولة العاميرية عند الخليفة الحكم هو أنه عندما مات عبد الرحمن الابن الأصغر للخليفة، قام الخليفة بتقليله وظيفة جديدة وهي أن يكون وكيلًا لشام ولبي العهد، وهذا المنصب الجديد أدى إلى ارتفاع مكانة ابن أبي عامر في الدولة، وإمساكه بالخيوط المهمة لتسير دفة الحكم فيما بعد. ولقد أظهر هذا الرجل سياسة راجحة في كسب التأييد له من خلال هذا المنصب، فسعى إلى التعامل مع الرعية بأخلاق رفيعة وسهل عليهم مقابله وجعل داره داراً للضيافة والكرم ولم يقلل من شأن منافسه

(1) المقري، نفع، ج 1، ص 376.

(2) ابن بسام، الذخيرة، المجلد 4، ص 43.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 375.

جعفر بن عثمان المصحفي وهو يغدو إلى داره ويختص به⁽¹⁾. كما أصبح ابن أبي عامر صاحباً للشريعة الوسطى سنة 361 هـ ثم قاضي القضاة بالمغرب، وقد كلفه الخليفة الحكم بأخذ البيعة لشام سنة 365 هـ فقام ابن عامر بتوزيع قرار البيعة على الناس جميعاً رعية ومسؤولين. وبعد موت الخليفة الحكم، قام ابن أبي عامر بالتكثير عن أبياته واستخدام أسلوب التصفية الجدية لكل الطاععين إلى موقع الخلافة حتى ولو كان رجل بوزن المغيرة آخر الخليفة الحكم. ولقد نفذ فعله هذه التصفية بقيامه بقتل المغيرة خفأ⁽²⁾ وإقصاء أكبر المنافسين واستباب الأمر كله له في الحكم الفعلي.

عهد المنصور ابن أبي عامر

بعد أن انتصر هذا الرجل بعابدة الفتى القاصر هشام للخلافة، وبعد يومين فقط تسلم منصب الوزارة تاركاً الحجابة لأبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي، وهنا بدأ الصراع المحتفي بين الرجلين، فكانت سياسة الحاجب تقوم على الاستئثار بالأعمال، واحتجاج الأموال⁽³⁾، أي أنه كان يفرد في شؤون الدولة، ويوزع المناصب على أقاربه وفه نشير المصادر التاريخية بأن جعفر (مجرد للعليا)، وتفرد في طلب الدنيا، حتى بلغ المني، وتسوغ ذلك الجنى، فسما دون سابقة، وارتقى إلى رببة لم تكن لليمن بمطابقة، فاتاح في أبناء الخلفاء، وارتاح إليها بعطشه كثوان السلافة، واستوزره المتتصرون عنه قد كان يسمع وبه يصر، فادرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك واقتني واحد آخر، وزرئي بمن سواه وسخر⁽⁴⁾. ولقد كان المنصور له بالمرصاد فعارضه في هذه السياسة مستغلًا علاقته بام الخليفة صبح إذ كان المنصور (يمكر به ويضرب بين

(1) ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 365.

(2) ابن الخطيب، عمال الأعلام، ص 58.

(3) ابن سام، الذخيرة، القسم الرابع من المجلد الأول، ص 42.

(4) انظر البد سالم، المسلمين وأثارهم، حاشية رقم (2).

حملته، وبنافضه في أكثر ما يعامل الناس به، ويستعمل إليهم بالبذل وقضاء الحوائج، ويتقدم من المعالي إلى ما يحجم جعفر عنه، يستضم الرجال وجعفر يدفعهم⁽¹⁾

ولم يكن طريق المنصور معبداً تماماً للوصول إلى رأس السلطة العليا، إذ أن وجود منافقين له في الداخل والخارج شكّل هاجسه الأول، فاستطاع أن يطيح بهم بالدهاء والمكر، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصيحي أبرز خصومه السياسيين، ومن الحوادث التاريخية التي استغلها المنصور للإيقاع بمعنفه، هي غارة القشتالين على قلعة رياح بعد وفاة الحكم بزمن قصير والتي كانت قاسية على أهل التغور الذين لم يصدوا أمام القشتالين، وجاءوا صوب قرطبة يطلبون العون والنجد، وقد خذلهم الحاجب جعفر، ولم يقاتل القشتالين، رغم وجود جيش قرطبة القوي مع المال الوفير، فقام المنصور بتهيئة الجيش للجهاد وإعداد السلاح والمعدة المناسبة للقتال، وقاد المنصور هذه القرارات بعد اكتمال استعدادها للقتال، فمارسته سنة 366هـ / 977 م قاصداً التغور الجبوري إلى جلية، فاجتاز وادي آنة ثم عبر نهر تاجو وحصن الخامية⁽²⁾، وافتتح ضواحيه، وحصل على غنائم كثيرة، ثم رجع بالغنائم والسبايا إلى قرطبة إذ استُقبل بحفاوة وتكريم، وحظي بتقدمة المقاتلين لشجاعته فالتفتوا حوله⁽³⁾، وبهذه الحادثة أخذت أهمية الحاجب جعفر وشعبيه تنخفض أمام صعود نجم المنصور، ولقد تابع المنصور سياسة للإيقاع بالحاجب فانتهز فرصة العداء بين الحاجب جعفر وأبي قاتم غالب الناصري حاكم مدينة سالم القائد العسكري المحنك، فاستعمال غالب جانبه وتزوج ابنته أسماء فاصبح الجيش بيده، وأخذ المنصور بامتداح غالب وإعلاه منزلته عند اليدة صبح أم الخليفة هشام، حتى تبع في تقليد غالب من قبل الخليفة منصب ذي الوزارتين، وأمره بالاجتماع مع المنصور لتدير شؤون الجيش، حيث يكون جيش

(1) ابن سام، ص 43.

(2) يقع هذا الحصن في مديرية سلمقة ويقابل بلدة بانيوس على حدود إقليم ليون وأستراليا، وعلى السفح الغربي ليرا جريروس حيث يطلق على قمتها اسم مكان المنصور العربي.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 2، المقري، نفع الطيب، ج 4، ص 86-87.

قرطبة تحت إمرة المنصور وجيش التغور يامرة غالب⁽¹⁾. فشار ابن أبي عامر في سنة 366هـ / 977م بالصافة الثانية واجتمع مع غالب بمدينة مجريط، وتم الانفصال على الإطاحة بالحاجب جعفر المنصور المهزوز المكانة لدى الخليفة، وسارا بجيشهما صوب وادي الرمة. وافتتحا حصن موله، وغنموا الكثير، فعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنايم والسبايا مستفيداً من الانتصار العسكري الذي كان يرجع بالدرجة الأولى إلى غالب الذي قال له وهو يودعه: (سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلكم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتقلدتها دونه)⁽²⁾.

وكان طلما ما أراده، فقام الخليفة بعزل جعفر عن رئاسة الشرطة والمدينة وتقليدها لابن أبي عامر⁽³⁾، ولقد أظهر ابن أبي عامر كفاءة عالية ونزاهة في إدارة شؤون الشرطة والمدينة، حتى أنه (سَدَّ بَابَ الشَّفَاعَاتِ، وَقَعَمَ أَهْلَ الْفَسْقِ وَالرَّعَارَاتِ حَتَّى ارْفَعَ الْبَأْسَ، وَأَمْنَ النَّاسَ). وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلاه جلداً مبرحاً كان فيه حِيَّاماً، فانقضى الشر في أيامه جلة⁽⁴⁾. وكان جعفر قد اتبه إلى هذه المؤامرة ضده، فسعى إلى مبادرة للمصالحة مع غالب، وخطب أسماء ابته لابنه عثمان، ولكن ابن أبي عامر أفسد هذه الخطبة، وتزوج أسماء كما ذكرنا، وبعدها خرج مع صهره غالب للغزو فالتقيا في طليطلة وافتتحا معاً حصن رينق، واستوليا على ضواحي سلمونة وعاد ابن أبي عامر بعادته إلى قرطبة بالغنايم فعمظمت منزلته عند الخليفة⁽⁵⁾ وقدله منصب ذي الوزارتين،

(1) المقري، ج 4، ص 88.

(2) ابن عماري، ج 2، ص 396.

(3) كان هذا المنصب محظوظاً من قبل جعفر منذ عهد بعيد إلى ابنه محمد.

(4) ابن سام، الذخيرة، المجلد الأول، القسم الرابع، ص 47.

(5) الحقيقة أن المنصور لم يكن مهتماً بمنزلته عند الخليفة لأن الخليفة أصلاً غير معني تماماً بشؤون الخلافة، ولكن الهم عند المنصور هو منزلته في قرطبة والتي ستساعده على القضاء على خصومه.

بينما قُلد غالب الحاجة بالاشراك مع جعفر، ولقد بلغ ابن أبي عامر منزلة رفيعة عند الخليفة أو بالحقيقة عند أمه، فامر أن يكون زواج المتصور في قصر الخلافة، ولقد مضى إلى الإيقاع بمعشر الحاجب حتى بعد أن كفت هذا عن معارضه وأخذ يسايره، إلا أن ابن أبي عامر استطاع أخيراً من إفساد علاقته بمركز القرار في الخلافة نهائياً، وأدى إلى عزله عن الحاجة سنة 367هـ / 978م، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده، وسجنهما في سجن المطبع بالزهراء، وطالبهما بالأموال التي تصرفوا بها، وأوكل إلى ابن أبي عامر حمايتهم، فأخذ يمارس القسوة معهما ويصفي أمواهم، ويتهك حرماتهم، فقتل هشام ابن أخي جعفر في المطبع، وبأيام ابن أبي عامر قصر الحاجب السابق جعفر في الرصافة، وكان من أعظم قصور قرطبة، واستمرت مخيبة جعفر ستين يفوج عنه حيناً ويعاد إلى السجن حيناً آخر، وأخر ينقله المتصور معه في غزواته، حتى أودع سجن المطبع بالزهراء، وقضى في سجنه الأخير عدة أيام، ثم أخرج ميتاً وسلّم إلى أهله، وليس على جسده شيء بواريه غير كاء خلق بعض البوابين⁽¹⁾. وعا يذكر أن جعفر المصحفي كان شاعراً فكتب إلى الخليفة يسأله العفو بقوله:

هي أيّات فَإِنِّي عَفْوُكَ الْأَذْعَانُ وَالسَّدْمُ
إِذْ قَادَنِي مُحَكَّمُ الْأَذْعَانِ وَالسَّدْمِ
بَا خَيْرٍ مِّنْ مُدْتَلِي الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا
تَرَثَي لِشِيخِ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْقَلْمَ
بَالْغَلَتِ فِي السُّخْطِ فَاصْفِحْ صَفْحَ مَقْتَدِرٍ
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا سَأَرُوهَا رَحْوًا⁽²⁾
كَمَا يَنْقُلُ عَنِّهِ قَوْلَهُ:

لَا تَأْمُنُ مِنَ الزَّمَانِ تَقْلِبًاً
إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقْلِبُ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارِ
وَأَخْلَافِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الشَّعْلَ

وهكذا طوى ابن أبي عامر صفحة خصمه اللدود جعفر، وأخذ يستعد لتصفية شخصية قوية قد ينزعه الحكم وهو صهره غالب أمير الشغور وحاكم مدينة سالم

(1) نفس المصدر، ص 50-53، المقرئ ج 2، ص 124، 125.

(2) ابن العذاري، البيان، ج 2، ص 286.

القائد العسكري الشجاع، الذي كان السبب الخامس في انتصارات ابن أبي عامر وحليفه القوي ضد جعفر.

فرسم المنصور خطة حكمة لاحتواء نفوذ صهره غالب قتلت بالاستعنة بقائد عسكري يشار له بالبنان وهو جعفر بن علي بن حدلون المعروف بابن الأندلسي، وهو من أصل أندلسي، قد انضم جده والده إلى دولة الفاطميين في المغرب ولما رحل الفاطميون إلى مصر تركوا على حكمها الزعيم الصنهاجي يوسف بن بلkin بن زيري، مما أدى إلى غضب جعفر بن حدلون الذي كان يطمع بهذا المنصب، فترك المغرب وجاء إلى الأندلس هارباً، حيث جا هو وأخوه يحيى إلى الخليفة الحكم المستنصر، الذي رحب بهما وجعلهما حُكاماً للمغرب. بعد أن قمع حركة الحسن بن جنون كما مرّنا سابقاً، وهكذا استدعا ابن أبي عامر هذا القائد من المغرب، فاستجاب لدعوه وجاء مع جنوده البربر إلى الأندلس بعد أن ترك الأمر لأنجيه يحيى في المغرب.

ولقد قابلهم المنصور بالحفاوة والتكرير وأطلق على هذه القوة الجديدة اسم جند الحضرة أي جيش العاصمة، وأغدق عليهم بالأموال حتى صاروا قيد إرادته، وبهذا حقق المنصور عامل التوازن بين قوة جيش التغور بقيادة غالب وجيشه العاصمه بقيادته، ولقد ضاق غالب بهذا التصرف وغيرها من التصرفات التي يتبعها المنصور في الانفراد بكل شؤون الدولة العسكرية والإدارية، فتوترت العلاقة بين الخليفين بالأمس، لا سيما وأن منصب الحجاجة كان مشتركاً بينهما، لكن المنصور استبد بالسلطة وسيطر على الخليفة وحجر عليه، معتمدًا على القوة البربرية الجديدة التي استخدمها خير استخدام، فرتب منهم جنوده واصطنع أولياء، وانخذل فريقاً من القبيان الصقالبة عزماً بالخلافة، كما سعى إلى تقديم البربر في المناصب على العرب فتم له الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر⁽¹⁾ ولم يكفي بسيطرته على قرطبة بل سعى إلى اقتحام معلم صهره غالب الذي كان مسؤولاً عن الغور، والمشاركة معه في

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 2، ص 147-148.

الحروب الشمالية حتى يكتب الجولة كاملة ويصح البساط من قدمي غالب في التغور أيضاً. وسار إلى الشمال والتى في حصن أنتية في الثغر الشمالية بالقائد غالب، ودار بينهما نقاش وعتاب في وليمة أقامها له صهره غالب، تطورت هذه المصادمة إلى معركة كلامية جارحة، أقدم غالب على استلال سيفه ضارياً المنصور عماولاً قتله لكن المنصور نجا باعجوبة من هذه المكيدة. بعدها أعلنت العداوة العلنية بين الرجلين. فأخذ غالب يتعذر لواجهة انتقامية محتملة من قبل المنصور وقواته البربرية فسعى للتحالف مع بعض ملوك الدول الإسبانية الشمالية، التي كانت ترحب بمثل هذه التزاعات في الدولة الإسلامية الأندلسية. وفي سنة 371 هـ وقعت المعركة الخامسة بين المنصور وغالب استطاع غالب أن يظهر شجاعة وبراعة في ميدان القتال لا تتناسب مع كبر سنه الذي قارب الثمانين عاماً، ولكن سقط في الأخير من فرسه ميتاً من غير أثر لطعنة أو خرية سلاح فقيل أن قربوس سرجه أصاب قلبه، وقال آخرون غير ذلك، ولم يتلقوا في تحديد السبب الحاسم في موته.

ويمرت غالب أزاح المنصور أكبر عقبة كانت تقع في طريقه للانفراد الكامل في السلطة، ولم ينس أن يتخلص من قائد الأندلسى من البداية خافة أن يستمر انتصارات قوته البربرية ليتحول إلى طامح جديد ومنافس للمنصور الداهية في المكر والتخليص من حلفائه في لحظة الانتهاء من خدماتهم لبلوغ مأربه الخاصة، فهو لم يتورع باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على خصومه النعلىين أو المحتimpl ووجودهم كما هو الحال مع القائد الأندلسى الذي جاء من المغرب ليكون الساعد الأيمن للمنصور في القضاء على عدوه القوي القائد غالب، فما كان جزاءه غير إيقاعه في مكيدة من خلال دعوه إلى حفلة متداة، تعمد المنصور الرصوول بالقائد إلى حد الشمالة والسكر، وبعد انصراف ضيفه أرسل له من يقتله في الطريق إلى منزله. وهكذا كان جزاء المنصور لصاحبه. وفي هذه الحالة استب الأمر كاماً لابن أبي عامر في سنة 371هـ / 981م إذ تلقى بالمنصور (ودعى إليه على المنابر به، استيفاءً لرسوم

الملوك، فكانت الكتب تقدّم عنه: من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان، وأخذ الوزراء بتقبيل يده ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية، فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب. ولم يجعل فرقاً بينه وبين (الخليفة) إلا في الاسم في تصدير الكتب عنه، حتى تأمت حالة من الجلالة وبلغ غاية العز والقدرة⁽¹⁾.

ولقد وصف ابن الخطيب سياسة المنصور الذي اتسمت بالدهاء والمكر والخداع وصولاً على هذه الحالة من الجاه العالي بقوله (كان آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصالحة - أصحاب الحاجب جعفر المضحي - على الصفالة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصالحة حتى قتلهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلس على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى هلكه. ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر، هل من مبارز؟ فلما لم يجد، حل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعدته. واستقام له أمره منفردًا بسابقة لا يشاركه فيها غيره)⁽²⁾. والحق فإن ابن الخطيب قد أوجز ببلاغة عالية سيرة المنصور التي قطعها حارباً لمنافيه في السلطة حتى بلوغه ذروة الجد على رأس الدولة العاريين، بعد أن أنهى سلطة الخليفة حتى الثكلة.

سياسة المنصور العسكرية:

بعد أن وطّد المنصور أركان حكمه داخل الأندلس، سعى إلى العمل على متابعة الفتوحات الخارجية، معتمداً على مبدأ الجهاد في سبيل الله لكي يكتب عمله الشرعية الدينية لضمان تأييد الناس له، فبدأ بغزو المالك الميسجية الشمالية قائداً للجيوش الإسلامية بنفسه، ولقد كثُرت هذه الغزوات حتى زادت على الخمسين غزوة، وكان له في السنة غزوتان في الربيع وفي الشريف (الصوائف والشواطي) رغم إصابته بمرض التقرس الذي كان يعالجه بالكتي على رجليه ويديه. ولم تسجل له أية هزيمة في غزوته خلال فترة حكمه التي بلغت خمسة وعشرين عاماً، ويروى عنه أنه

(1) ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 379-380.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 77.

كان يجمع الغبار العالق على وجهه في غرواته، فكان الخدم يحفظون غبار وجهه بالمتاديل. في كل غزوة حتى صار منه صرة ضخمة، أوصى بأن تكون حنوطاً له عند موته، وكان يحمل هذه الصرة أينما سار مع كفنه تحسباً للموت في أي لحظة⁽¹⁾، وهذا يدل على أن النصّور قد خاض قتالاً في جبهات كثيرة مع الدول المسيحية الإسبانية، فقد شهدت قشالة ولوبن، ونبرة، وقطالونيا صولات النصّور وجيشه الذي أنزل بهذه المدن الخسائر الفادحة ووصل فيها إلى ما لم يصل إليه ملك من المسلمين من قبل، واستطاع أن يسيطر على جميع إسبانيا شمالاً وجنوباً.

وكان غزوته على برشلونة وقطالونيا قد خرجت من قرطبة وأخذت ميرتها على طرق البيرة وبسيطة ثم مرسي، ومن هناك اتجهت شمالاً في الطريق الساحلي الشرقي المطل على البحر المتوسط حتى بلغت برشلونة بعد شهرین تقريباً، فاستطاعت أن تقتل المدينة ولم يجرؤ حاكها بريل الثاني على مواجهة جيش النصّور. ومن أهم غزوات النصّور التي زادت على الخمسين، غزوته الرابعة وفيها وصل إلى مدينة سحورة سنة 371هـ / 981م، وهزم ملوكها ردميرة الثالث وهدم المدينة واستباحها⁽²⁾، وعلم النصّور بعد ذلك أن الملوك المسيحيين عقدوا حلفاً ضد الإسلام في الأندلس، وأن هذا الحلف يتألف من ردميرة الثالث، وتؤمن قشالة غرسيه وملك بنبلونة شاغلة، فأسرع النصّور للسير إلى طليطلة، ووصل إلى وادي دويرة الأوسط حيث كان تجتمع القوات المسيحية، والتجمّع الجيშان في رويدة في مقاطعة بلد الوليد على بعد 25 كم جنوب غرب شنت مانكش، وانتصر فيها جيش النصّور.

وتعد حلة جلية وهي الغزوة الثامنة والأربعون من الغزوات المهمة، والتي كان غرفتها هو غزو مدينة شنت ياقب أبي القديس يعقوب أو سان جاك، أحد الحواريين الثاني عشر ومن أخص الناس بيسوع المسيح حتى اعتبره المسيحيون أخاه للزوجه إياه. ويرى المسيحيون أن هذا القديس كان أسفقاً لبيت المقدس وأنه كان داعية في

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 288.

(2) ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام.

الأراضي لدين يسع المسيح حتى مات هناك ودُفن فيها، وأقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة هي كنيسة سانتاجو. يجع إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم، ولا تزال مدينة شنت ياقب هي القاعدة الدينية لإسبانيا، والمسيحولوجيا الإسبانية تشير إلى أن سانتاجو، كان بمخرج للمحاربين الإسبان على شكل ملاك يده سيف، ويعطي فرساً أبيض ليعاون المقاتلين المسيحيين في حروبهم ضد المسلمين، حتى يكتب لهم النصر، وهذا أطلقوا عليه لقب قاتل المسلمين.

ولهذا نرى^(١) أن هدف النصর هو الوصول إلى كنيسة سانتاجو ودمها لتحطيم أسطورة سانتاجو المريءة، لطعن الإسبان في صميم زعامتهم الفرعية والروحية.

وقد اشترك في هذه الغزوة الأسطول الأندلسي الذي حل المأمة والأسلحة والأرزاق واقلع من ميناء قصر أبي دانس على ساحل غرب الأندلس وانげ خور الشمال، بينما سار المتصور برأ على رأس قواه البرية مخترقاً الأراضي الإسبانية شمالاً حتى بلغ نهر دويرة، وهناك التقى بأسطوله الذي دخل النهر وعقد منه جراً لعبر الجند ثم زحف المتصور بقواته مخترقاً بلاد العدو حتى بلغ مدينة سانتاجو، فوجدها خالية لقرار سكانها فأمر المتصور بدمير المدينة وكتبتها، وعاد عملاً بالأسرى والغنائم والتي كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها والتي استخدمت في تسييف الجزء الذي زاده في جامع قرطبة، كما استعمل التوابيت ثريات للمسجد. وكان من نتائج هذه الحملة أن اكتب المتصور شعية كبيرة بين المسلمين وزادت هيئه وسطوره داخل البلاد وخارجها وفي هذا الباب يقول عبدالواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب بالقول: (وملا الأندلس غنائم وسيماً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم؛ وفي أيامه تغالي الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والخليل والدور، وذلك لرخص اثمام بنات الروم، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به، ولو لا ذلك لم يتزوج أحد. بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من

(١) انظر د. خثار العبادي، في التاريخ المغرب والأندلس، ص 248، وما يليها.

عظماء الروم بقطرة، وكانت ذات جال رائع، ظلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية).

ومن ميراث المتصور في غزواته نرى أنه لم يكن ورعاً للجهاد في سبيل الله، بقدر ما كان سفاحاً سبانياً لا يرى في أعماله غير ثبيت سلطنته بارتقاء مختلف الأقواء، ولقد اختلفت آراء الباحثين في قيمة وأهمية غزوات المتصور ونشاطه العسكري الضخم، فيعده باحث معاصر⁽¹⁾ بأنه مفخرة من الفاخر الإسلامي، لم تشغله أمور الدولة عن الجهاد وأن المتصور غرس في قلوب أعدائه الرعب والملع، فيما يرى باحث آخر إن عهد المتصور قد عُرف بنشاط عسكري ضخم، ييد أن التتابع كانت هزيلة، ويبرر ثالث⁽²⁾ أن المتصور كان دموياً في تعامله مع منافسيه، ومع أعداء الدولة من الشوار. ولعل من غرائب التفاسير في سيرة المتصور ما يورده الدكتور حسین مؤنس⁽³⁾ بقوله: (وربما تخاضى الناس عن جرائم المتصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ولا نسى أتنا في العصور الوسطى، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حب، ولها الحق في أن تصل إلى الملك، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش). وكان خروج الحاكم من بيت ملك أو نسب قرشي سيعفيه من المسائلة التاريخية في دراسة التاريخ موضوعياً دون تحنيطه بالظروف الأحادية السائدة في ذلك العصر.

ولم يكتفى المتصور بنشاطه العسكري في الأندلس، بل امتد إلى المغرب، مقلداً سياسة خلفاء بني أمية مثل عبدالرحمن الناصر والحاكم، والتي تقوم على ضرورة الاحتفاظ بالجبهة المغاربة لتكون خطأ دفاعياً أمامياً ضد الخطر الشيعي من الجهة الجنوبية. فأول هجوم واجه المتصور من المغرب كان في سنة 369هـ / 979م، بقيادة

(1) السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 331.

(2) د. محمد عبد حاتمة، الأندلس، التاريخ والحضارة والمعنى، ص 408.

(3) حسین مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 345، رغم أنه يشير إلى غزوات المتصور بأن لها دوی عظيم ونتيجة قليلة، ص 342.

الأمير بلکین بن زيري الصنهاجي ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط، ولكن المنصور استطاع أن يعده له جيشاً كبيراً في منطقة سبتة وعندما رأى هذا المغربي جيش المنصور من أعلى الجبال المطلة على سبتة، اقتنع أن سبعة جيشه ولت ذنبها حذاءنا أصبحت كالحية التي قررت ابتلاعه فقال لأصحابه: (إنما سبعة جيشه ولت ذنبها حذاءنا وفترت فاما نخونا)، فانصرف راجعاً إلى وطنه.

وفي سعي المنصور للسيطرة على المغرب جهز جيشاً في سنة 375هـ / 985م، وبعثه إلى (العدوة المغربية، فحاصر حسن بن جنون (جنون)، الشريف الحسني، كان قد حاول الخروج من الدعوة المرابطية واجتمع إليه خلق من أهل المغرب، وظهره أمره⁽¹⁾) وعندما وصل الجيش إلى المغرب لم يجد ابن جنون طريقاً سوياً للإسلام وطلب الأمان، فأجابه قائد الجيش، وجاء به إلى قرطبة، فأمر المنصور بقتله ليلاً في الطريق بعثاً وتعدياً⁽²⁾، واستمرت نشاطات المنصور العسكرية في المغرب بالانتصارات على مناوئيه في المغرب إلى أن نجح في ذلك نجاحاً باهراً لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد، إذ أدخل للطاعة الأموية كل بلاد المغرب المتدة إلى سجله سنة 370هـ وإلى ولابي تلسان وتأهرت شرقاً سنة 381هـ.

ولقد أثار مقتل الحسن بن جنون غضب واسطاء العلوبيين من المنصور، فأخذوا يتقدونه في مجالهم ويهجونه في أشعارهم، ومنها قول الشاعر إبراهيم بن إدريس الحسني:

فيما أرى عجب لمن يستعجب أنني لا كذب مقتلي فيما أرى أيكون حباً من أمية واحد	جلت مصييتنا وضاق المذهب حتى أقول غلطت فيما أحب
--	---

(1) المتربي، فتح الطيب، ج 1، ص 398.

(2) ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 279-280.

تشی عاکرهم حوالی هوج
أعوانه فيهن قرد أشہب
أبني أمیة ابن اقمار الدجا
منكم وما لوجوها لا تنتسب
وبيدو أن الشاعر يخاطب المنصور بالأحدب، وهذا ما يقوله عنه صهره غال
عندما كان يخاطبه (بصفه بالأحدب الملعون دلل على أن المنصور كان أحدباً فعلاً).

ولعل من أبرز المخاطر التي واجهت المنصور في المغرب هي ثورة الزعيم المغربي زيري بن عطية الزناتي عام 386 هـ / 996م. وكان الزناتي حليفاً للمنصور في إنتهاء ثورة الحسن بن جنون العلوية، على هذا أقامه المنصور حاكماً على بلاد المغرب، ولقد اتسمت علاقتهما في البداية باللود والصفاء، إذ كان الزناتي حريصاً على إظهار الولاء للدولة الأموية بقيمه بإرسال أخدياً الثمينة إلى المنصور، لكن هذه العلاقات اتخذت طابع الفتور والتوتر بعد أن طمع الزعيم المغربي بالاستقلال عن الأندلس، وتحتفل المصادر التاريخية في تحديد أسباب الخلاف بين الزعيم المغربي والمنصور، فيشير أحدهما إلى أن زيري بن عطية استقل العطاء الذي كان يخصمه له المنصور كل سنة، ويقال أن الزناتي قد استخفَّ بلقب الوزير الذي لقبه به المنصور عندما ولأه على المغرب، واستذكره عندما ناداه أحد رجاله بالوزير قائلاً له: (وزير بالكع، لا والله إلا أمير بن أمير، واعجاً لابن أبي عامر وخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له ما ليوماً⁽¹⁾). كما تشير رواية أخرى إلى أن الزعيم المغربي قد استاء من معاملة المنصور لل الخليفة، ومخالف مع السيدة صبح أم هشام التي ساءت علاقتها بالمنصور، وسعت إثر ذلك إلى إرسال الأموال إلى المغرب بحلب جيوش للفضاء على المنصور، فأخذت الأموال من بيت المال في القصر الحلافي بالزهراء، ووضعتها في جرار على شكل هدايا إلى حليفها الجديد المغربي زيري بن عطية، ولكن المنصور اكتشف المؤامرة فاستولى على الأموال، وقام بنقل بيت المال من مدينة الزهراء إلى مدينة الراحلة التي بناها كبديل لمدينة الخلافة واحتذها مقرًا لحكمه⁽²⁾.

(1) ابن خلدون، العبر، ج 2، ص 41.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 302.

ومهما تكن أسباب الخلاف بين الزناتي والمتصور فقد أعلن الزعيم المغربي القطبعة مع الأندلس إذ أقدم على طرد عمال الخلافة من جميع البلاد المغربية سنة 386هـ / 996، ما عدا القواعد الأموية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلية، وكان قد اخذ شعاره المغربي بعبارة (هشام يا منصور) ولقد قابل المتصور هذه الإجراءات بان عزل الزعيم المغربي عن الوزارة وقطع ما كان يعطيه من راتب، وأعلن براءته منه، واستعد له بجيش جهزه بقيادة مملوكه واضح الصقلي قائد مدينة سالم، وسار الجيش إلى المغرب عابراً المضيق سنة 387هـ / 997 ونزل في مدينة طنجة إذ انضم إليه الموالين للمتصور من قواد البربر ومقاتلיהם، بعدها سار واضح الصقلي بالجيش إلى مدينة فاس ولكنه لقي مقاومة شديدة من جيش الزعيم المغربي فاضطر للانسحاب إلى طنجة ولا وصلت أخبار هزيمة جيش المتصور إلى الأندلس، لم يقف المتصور مكتوف لأيدي، بل قام بتجهيز قوة عسكرية ضخمة، إذ أنه ضم جميع جوش الأندلس وسار بها إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى سبتة، وقام بتقليد ابنه عبد الله المظفر بقيادة الجيوش وعزل واضح الصقلي، وبقي المتصور في الجزيرة الخضراء لرابة ناتج المعركة عن قرب.

وعندما علم الزعيم المغربي بالقوات الأندلسية الكثيرة العدد، قام بالاستجادة في جميع قبائل زناتة في أنحاء المغرب، فلبت قبائل زناتة نداءه، فاستعد للقتال، وشهد وادي مني في طنجة وقائع المعارك الشرسة بين الطرفين وكان فيه القتال سجالاً تعادلت كفهما ولم يستطع أحدهما أن يحقق نصراً نهائياً على الآخر، إلا أن حدثاً دراميكيّاً قد أدخل بميزان القوة لصالح الجيش الأندلس، إذ تشير الرواية إلى أن غلاماً أسود اسمه كافور بن سلام، كان الزعيم المغربي قتل أخيه من قبل، استطاع أن يصل إلى خيمة الزعيم ويطعن طعنة نافذة في رقبته ثم هرب إلى معسكر عبد الله بن المتصور ببشره بقتل زيري، ولكن مصدر آخر ينسب محاولة قتل زيري إلى ابن عميه الخير بن مقاتل الذي طعنه في ظهره وهرب^(١). ومهما يكن، فقد أحدث هذا الفعل اضطراباً في الجيش المغربي فقام عبد الله باستغلال الفرصة الذهبية، فحمل على

(١) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 421.

جند زيري بن عطية واستطاع هزيمتهم والاستيلاء على مالهم وسلاحهم. ثم استولى على فاس وتادلا وسجلماسه وغيرها من المدن المغربية المهمة، واستطاع أن يسطّع نفوذه على المغرب لأقصى، بعدها عاد عبد الملك بن المتصور إلى الأندلس، بعد أن تم تعيين واضح الصقلي حاكماً على المغرب من قبل المتصور سنة 389هـ / 999م.

أما الزعيم المغربي فقد توفى متأثراً بجراحه وخلفه في زمامنة ابنه المعز الذي اتبع سياسة المصالحة مع دولة الأندلس، وتم الصلح بعد أن دخل في طاعة المتصور، وبهذا يكون المتصور قد بسط نفوذه ثانية على معظم المغرب الذي صار يدين للدولة الأندلسية بالولاء.

وكان المتصور بعد هذا قد جنّد الكثير من البربر والممالئ⁽¹⁾، وأكثر من الاعتماد على هؤلاء وخاصة البربر حيث قدمتهم وآخر رجل العرب وأسقطتهم عن مرأتهم⁽²⁾ وهذا ما سيكون عاملاً لبقاء البربر فيما بعد.

منجزات المتصور العمرانية والإدارية:

إن الحديث عن سياسة المتصور الدعوية في الجانب العسكري واستخدامه كل الوسائل لتصفية خصومه السياسيين، لا يلغى الحديث عن المتصور كرجل دولة استطاع استغلال حالة الفراغ السياسي في دولة الخلافة الأموية، للوصول وبسرعة إلى هذه المكانة الشخصية، مستغلًا كل الظروف الماتحة وأهمها ضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه وإصراره على تولي ابنه القاصر هشام للخلافة من بعده كما أشرنا سابقاً. كما أن المتصور استطاع من بناء دولة قوية مهيأة. لما يتمتع به من مواهب وقدرات قيادية لا يُنكر، كما تشهد الرواية التاريخية على حرصه الشديد للإمساك بكل شاردة وواردة في الحكم. إذ أجاب مرة أحد خدامه في ليلة أطال فيها السهر، عندما قال له الخادم: (قد أفرط مولانا في السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا التوم، وهو يعلم ما يحركه عدم

(1) التري، تفح، ج 1، ص 397.

(2) نفس المصدر، ج 1، ص 397.

النوم من علة العصب). فأجابه المنصور: (إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة)⁽¹⁾. فكان لهذا القائد إسهامات عمرانية شهدتها الأندلس في عصره ومنها بناء مدينة الزاهراة والتي جعلها البديلة لحكمه عن مدينة الزهراء التي يقيم فيها الخليفة، وقام أيضاً بتوسيع بناء المسجد الجامع في قرطبة سنة 377هـ / 987م، لكي يتسع لعشرات الآلاف من المسلمين الذين توافدوا على قرطبة وخصوصاً البربر من شمالي أفريقيا والتي (ضاقت الأرياض وغيرها، وضاق المسجد الجامع على حل الناس)⁽²⁾. ويذكر أن الزيادة في المسجد كانت من جهة الشرقية مما اضطر المنصور إلى هدم الدور والمنازل القائمة في هذه الجهة بعد تعويض أصحابها عيناً أو مادياً، وقد استخدم الأسرى الإسبان في بناء الزيادة على المسجد الجامع وقد استغرق العمل فيها عامين ونصف وقت في سنة 380هـ.

كما أنشأ المنصور قطرة على نهر الوادي الكبير⁽³⁾، وقد استغرق بناؤها نحو ستة ونصف، حيث بدأ العمل فيها سنة 378هـ / 988م، وتم الانتهاء من بنائها سنة 379هـ / 989م⁽⁴⁾، وقد أنفق على هذه القطرة مائة وأربعين ألف دينار كما قام ببناء قنطرة أخرى على نهر شيل لدى مروره بمدينة أستجة الذي تقول المصادر التاريخية عنها (فتشجّم لها أعظم مؤونة، وسهل الطرق الوعرة، والشعب الصعبة)⁽⁵⁾ ولم تقتصر سياسة العمران في عهد المنصور على الأندلس، بل شملت أيضاً البلاد الميسحة التي غزاها ولا سيما القرية منها للحدود الإسلامية، شأنه في ذلك شأن أي ديكتاتور قديم أو معاصر في المسahمة في البناء وأعمال البلاد الذين يحكمونها لاعتقاده بدور الملك له على كل هذه البلاد! كما كان للمنصور إسهامات إدارية في الجانب القضائي

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 298.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 287.

(3) نهر قرطبة الأعظم.

(4) المقري، فتح، ج 1، ص 408.

(5) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 288.

والأمني وتنظيم القوات المسلحة، فعلى مستوى القضاء حرص المنصور على سير العدالة بصرامة شديدة، وهناك روايات كثيرة تشير إلى هذا المنهج وهذه الصرامة برأينا لا تدل على محنة العدل الحقيقة طالما أن المنصور كان فوق كل قانون ولا يطاله الأحكام العادلة التي يصدرها القضاة بحق الرعية ولو كانوا من المقربين له !!

وفي الجانب التنظيمي للجيش أعاد المنصور هيكلة النظام العسكري فقد كان الجيش قبل عهده يتكون من نظمتين:

1. نظام عسكري دائم يُقيم في العاصمة ويتناقض أفراده رواتب ثابتة، وقتلهم فرقة الحرس النظامية المعروفة باسم الصنفالية وهي قتيل في العصر الحديث الجيش النظامي المخترف.
2. النظام الإقطاعي العسكري والذي قتله القبائل العربية والمغاربية والتي توزع على أنحاء المدن الأندلسية بعد التفتح العربي، وأبيح لها حق استغلالها وجباية عطائها من أمرها، في مقابل المساهمة في الحروب وهي تشبه تشكيلات الجيوش غير النظامية أو الاحتياط الذين يدعون في حالة اندلاع الحروب.

فعمد المنصور إلى إلغاء هذا النظام يجعل الجيش كله وحدة نظامية متماضكة خاضعة لسيطرته، فالغنى العنصري في الجيش، كما الغنى النظام الإقطاعي العسكري، بل وحدة الجيش في فرق نظامية، وكل فرقة تتألف من عناصر المجتمع الأندلسي كافة كالعرب والبربر والصنفالية، وكل جندي يتناقض راتبه شهرياً من الدولة حسب رتبته. ولقد كان هذا النظام قد ساعد المنصور في تحقيق انتصاراته العسكرية ورفع درجة الولاء للحاكم المركزي في عهد قوله، ولكنه سيتحول إلى عامل تمزيق للدولة بعد ذلك كما سرى فيما بعد. كما اشتهر المنصور بحبه للعلم والعلماء وعلى أثر ذلك استوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الرباعي اللغوي البغدادي الذي له كتاب سماه: التصوص على كتاب النزادر لأبي علي الفالي، وكان المنصور يعقد كل أسبوع جلساً يجتمع فيه أهل العلم للمناقشة بمعرفته من كان مقيداً بقرطبة، كما قام المنصور بإحراق ما كان في خزائن الحكم من الكتب الفلسفية.

نهاية عهد المنصور

لقد دام حكم المتصور سبعة وعشرين عاماً، وتوفي في 27 رمضان 392هـ / 1002م عن عمر ناهز الخامسة والستين عاماً، جمع خالما المتصور تقاضي الطابع البشرية في التعامل مع الأصدقاء والخصوم. وخلفه وراءه دولة قوية ولكنها تحمل في ثياتها بذور الفرقة والشقاق. وأوصى المتصور بالملك لابنه عبد الملك، ولقد اختلفت الروايات في سبب موته، رغم اتفاقها على أنه توفي بعد عودته من آخر غزواته على إمارة قشالة. فالرواية العربية تؤكد أن موته نتيجة اشتداد المرض عليه، إذ يذكر ابن حيان: (إنه اقتحم أرض جليلية من تلقاء مدينة طبلطة، ومرره مئف وقوتاً وشقلاً وقتاً، ونفذ إلى عمل بني غومس إلى أرض قشالة.. فقربت عليه العلة هنالك، فأخذ له سرير خشب وضع عليه أعضاءه، وسوى مهاده متطاول الشكل ويعكّه الاضطجاع عليه متى خارت قواه)⁽¹⁾ وظل هكذا حتى توفي في مدينة سالم التي دفن فيها. أما الرواية التي تذكرها بعض المصادر الإسبانية فتقول أن المتصور جرح في هذه الغزوة عند بلدة هناك في قشالة تسمى قلعة السور، وأنه مات متأثراً بجرحه، استناداً على مثل شعبي إسباني يقول ما معناه: في قلعة النسور مات المتصور وقد طبله⁽²⁾.

ولاشك أن وفاة المتصور قد أحدثت في الأوساط المسيحية موجة من الفرح والدليل على ذلك أن الحوليات اللاتينية التي كان يكتبها الرهبان في الكنائس والأديرة، قد اهتمت بتسجيل هذا الحادث، فكتبت تقول: (في سنة 1002 مات المتصور وذهب إلى جهنم). ودفن المتصور في قصره في مدينة سالم وقد نقش على قبره الآيات الشعرية التالية:

أشاره تنبيك عن أخباره حتى كانك بالعيون تراه
تافه ما ملك الجزيرة منه حقاً ولا قاد الجيوش سواه

(1) ابن سام، الذخيرة، المجلد الأول القسم الرابع، ص 55.

(2) أنظر، د. مختار العادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 266.

ويشير باحث معاصر⁽¹⁾ إلى أن الروايات الإسلامية أجمعـت على التحدث بعـاشر المـنصور دون أن تخفي جرائـمه وـمعظمها يصفـه بالـتفـوى.. والـحقيقة أن رـجالـاً من طـراز المـنصور كانـوا لا يـتورـعون عن الجـرـائم في سـيـل سـلطـانـهم، أما خـارـج السـلـطـان وـبعـدـا عن منافـسـاته فلا مـانـع أن يكونـ ذـي عـاطـفة دـينـية وـاحـتمـام بـشـؤـون العـبـاد.

عبدالملك بن المـنصور

تـسلـم الـخلافـة بعد مـوت أبيه وقد حـصـل من الـخـلـفـة هـشـام الـثـانـي عـلـى تـقـوـيـض يـنـحـه السـلـطـات الـتي كانـ يـجـوزـها المـنصـورـ في حـيـاته، وـكان عمرـه آنـذاك 28 سـنة، وـقد لـقـبـ بالـمـظـفـر سـيفـ الدـولـة، ولـقـد اـخـتـلـفـ المؤـرـخـون في تـوصـيـفـ سـيـرةـ هـذـاـ الرـجـل وـسيـاستـه في الـحـكـمـ. فـيـذـمـبـ ابنـ الخطـبـ علىـ أنـ عبدـالـمـلـكـ قد اـفـتـحـ عـهـدـهـ بـإـسـقـاطـ سـدـسـ الـجـبـاـيـةـ عنـ جـيـعـ الـبـلـادـ، ثـمـ حـرـصـ عـلـىـ إـظـهـارـ الـعـدـلـ، وـحـيـاةـ الـشـعـبـ، وـنـصـرـ الـمـظـلـومـ، وـقـعـ أـعـدـاءـ الـدـيـنـ، وـالتـقـرـبـ مـنـ الـأـوـلـيـاءـ الصـالـحـينـ، فـاجـتـمـعـ النـاسـ عـلـىـ حـيـهـ، وـلـمـ يـدـاهـنـواـ فـيـ طـاعـتـهـ، فـانـشـرـ قـلـبـهـ، وـخـلـصـهـ اللهـ مـنـ الفـتنـ⁽²⁾، فـيـماـ يـشـيرـ مـصـدرـ آخرـ إـلـىـ أـنـ الـمـظـفـرـ كـانـ مـنـكـاـ علىـ شـرـبـ النـيـزـ مـسـتـغـرـقاـ فـيـ الـلـذـاتـ⁽³⁾ وـيـقـدـ بـاحـثـ مـعـاـصـرـ⁽⁴⁾ أـنـ عبدـالـمـلـكـ لمـ يـكـنـ مـؤـهـلاـ لـلـوقـوفـ فـيـ وـجـهـ الـعـقـبـاتـ الـيـ لـابـدـ لـهـ مـنـ تـخـطـيـهاـ إـذـ كـانـ يـنـقـصـ الـعـمـقـ الـإـنـسـانـيـ وـالـتـكـوـينـ الـفـكـريـ، وـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ غـيرـ جـنـديـ جـاهـلـ تـرـبـيـةـ وـسـطـ الـجـنـودـ دـونـ أـنـ تـكـونـ لـدـيـهـ مـوهـبةـ الـقـيـادـةـ، فـكـانـ طـوـالـ حـكـمـهـ القـصـيرـ نـهـيـاـ بـيـنـ رـجـالـهـ وـأـهـمـهـمـ صـقـبـلـيـ مـنـ مـوـالـيـ أـبـيـ يـسـمـيـ (ـطـرـفـةـ) وـوزـيرـ مـناـورـ وـخـدـاعـ يـسـمـيـ (ـسـعـيدـ بـنـ الـقطـاعـ) بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ إـسـرافـهـ فـيـ الشـرـبـ، وـسـمـاعـهـ وـشـايـاتـ الـوـشـأـ، فـقـتـلـ بـمـوـلـاهـ طـرـفـةـ ثـمـ قـتـلـ سـعـيدـ الـقطـاعـ فـيـ مـجـلـسـ شـرابـهـ عـلـىـ أـسـوـاـ صـورـةـ.

(1) د. مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 351.

(2) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص 81.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 3.

(4) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ، ص 381-382.

ونرى أن من أسباب ضعف شخصية عبدالملك بالإضافة إلى حدة تغريته بالحكم وصغر سنه، هو أن شخصية والده المنصور القوية والقافية المتبدلة وخلال حكمه الطويل نسبياً لم يترك لأحد أن يظهر كفاءة ولا ممارسة في الحكم وخصوصاً لولده وخليفته لتجعل منه رجلاً مجرباً قادرًا على تولي المسؤولية، كما ان مراكز القوى العديدة والتي استطاع المنصور قهرها بالقوة والخليفة والدهاء كثرت عن أنيابها في عهد عبدالملك الذي لم يجر المتصور في شخصيته وقدرته على التعامل مع الظروف المختلفة في سياسات مناسبة، لكن شبه الإجماع التاريخي كان على أن عبدالملك سار على نهج أبيه في القتال ومع أنه لم يمت مسدده، ولم يجعل موضعه، وكان يراوح بين عود^(١)، وقد حقق بعض الانتصارات في غزواته التي قادها، والتي فارقت السبع غزوات على حد بعض المصادر التاريخية.

وكانت أولى غزواته سنة 393هـ / 1002م، وقد استعد لها جيداً، وتنابع المسلمين للمساعدة فيها من الأندلس وخارجها، وتكاملت الخشود في قربطة وتحييز القوات بالمعدات والأسلحة الكافية، إذ أن عبدالملك قد أمر (خازن الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف منفر على طبقات الأجناد الدراعين في جيشه)^(٢)، وترجم بهذا الجيش إلى طليطلة ومنها إلى مدينة سالم، وإلى سرقسطة ومنها واصل زحفه شمالاً وتمكن من فتح الحصون (أخذوا كثيراً منهم، وملكونا عليهم وأبناءهم، وصاروا فيما للمسلمين)^(٣). واستمر عبدالملك في غزواته التي لم تخلو من المهارة ولكنها كانت على طراز غزوات أبيه، أي أنها طلعات عسكرية قصيرة الأمد فغزا قطلونية وبرشلونة سنة 393هـ / 1003م، وارغم أميرها رامون بوريل الثالث على طلب الصلح. وفي صيف 395هـ / 1005م غزا أرض ليون، وفي صيف 396هـ / 1006م غزا مملكة نبرة واحتل ببلونة، وفي 397هـ / 1007م غزا كرتية فثالة، ثم

(١) د. حاملة، الأندلس التاريخ والحضارة، حاشية رقم 7 ، ص 415.

(٢) ابن عباري، البيان، ص 4.

(٣) نفس المصدر، ص 6.

غراها مرة ثانية في العام التالي، وأراد أن يخرج للنزو للمرة الثالثة إلا أن المرض اشتد عليه وتوفي في عام 1008م / 399هـ. وهو في الرابعة والثلاثين من عمره.

و قبل أن نتطرق إلى الروايات المختلفة لموته وسبب هذا الموت، نذكر أن نشاط عبد الملك العسكري لم يقتصر على غزواته ضد المدن والممالك الإسبانية، فلقد كان له صولة في بلاد المغرب والذي جعل زعماء قبائل زناتة يسارعون إلى مبايعته والدعاء له وللخلافة هشام على المأمور. وقد كافأهم المظفر بأن استخدمهم في جيشه كما كافأ المعز بن زيري بن عطية بان ولاه حكم المغرب بدلاً من القائد الأندلسي ملوك المنصور واضح الصقلي الذي أعاده إلى الأندلس. كذلك عمل عبد الملك المظفر معبني زيري بن مناد الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية في أفريقيا على عهد الفاطميين، بانتقال فرع منهم برئاسة زاوي بن زيري إلى الأندلس واستقروا بمناطقه.

والآن لننتقل إلى المصادر والروايات التاريخية ونعرف منها مدى التباين الذي تقدمه على موت عبد الملك المظفر كما اختلفت في سيرته في حياته.

يشير مصدر إلى أن حكم عبد الملك المظفر لم يستمر أكثر من سبع سنوات، وأصابته ذمة صدرية أودت بحياته سنة 399هـ / 1009م.

فيما يذكر مصدر آخر مؤكداً تاريخ الوفاة سنة 399هـ / 1008م ويحدد بالضبط مدة ولاته التي امتدت ست سنين واربعة أشهر وسبعة أيام⁽¹⁾ وإنه مات مسموماً ويورد مصدر آخر تفاصيل سبب موت عبد الملك المظفر فيقول: (أن أخي عبد الرحمن سمه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سمه أحد جانيها فتناول أخيه ما يلي الجائب المسموم، وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فأكله بمضرته، فاطمأن المظفر، وأكل ما بيده منها فمات، فلما توفيولي بعده أخوه عبد الرحمن)⁽²⁾. في حين يؤكد د. حسين مؤنس دون الإشارة إلى مصدر تاريخي بأنه توفي رعايا بسبب التهاب رئوي نتيجة

(1) ابن عذاري، اليون، ج 3، ص 4.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 83-84.

لأنهملك عبدالمالك في ملذاته، واستهتاره بصحن وترعشه للبرد وإسرافه في الدهر حتى أعني جده⁽¹⁾.

في حين يرى باحث آخر أن موت عبدالمالك حاكم الأندلس كانت ميتة غامضة، بعد أن يربهن على أنه حاكم كف، وقاد عسكري من الدرجة الأولى وأن لم يبلغ شأن أبيه⁽²⁾.

من الواضح أن هذا التخطي في نقل الواقع التاريخية على مستوى المصادر التاريخية أو الاستنتاجات المعاصرة، تدل على اضطراب الوضع السياسي والاجتماعي العام في قرطبة العامرة حكماً واقعاً وخلافة أمورية صورية معطلة. فإذا ما قلنا سابقاً أن الخلافة قد سقطت مع دولةبني عامر وكان عهد المنصور العامري يمثل صحوة الموت في تاريخ الأمويين في الأندلس، فإن عهد عبدالمالك القصير كان مرحلة الإنعاش الاصطناعي لقب الأمويين المعطوب.

عبدالرحمن بن المنصور ونهاية الدولة العامرة

بعد موت عبدالمالك المظفر تولى الحكم أخيه أبو المطر عبد الرحمن بن المنصور، الملقب بشنجول ويدرك ابن الكردوبيوس أن العامة لقبه بشنجول ومعناه الأحق⁽³⁾، بينما يشير مصدر تاريخي آخر إلى أن شنجول هو تصغير لشاغفة الميحي ملك بنبلونة، وكان هذا الملك قد أهدي ابنته للمنصور فتزوجها وحسن إسلامها، وكانت من خيرات نسائه دينياً متناءً، وحباً أصيلاً، وأولاد منها عبد الرحمن⁽⁴⁾ وأمه اسمها عبده كانت ترتديه في صغره شنجول تحيياً وتذكره منها لاسم أبيها شاحنة خاصة وأنه كان شديد الشبه بجده⁽⁵⁾: المهم أن عبد الرحمن اخْذ منصب أخيه وجلس في مجلسه

(1) حين مؤنس، معالم تاريخ، ص 352.

(2) مونتموري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 96.

(3) ابن الكردوبيوس، تاريخ الأندلس، ص 66، حانية رقم 4. د. حاتمة، الأندلس التاريخ والحضارة، ص 419.

(4) ابن الخطيب، ص 103.

(5) ابن عماري، اليان، ج 3، ص 38.

(ودخل بيده، غزاه الخليفة في أخيه، وأقام عنده برهة ثم انصرف، وقد خلع عليه خلعاً سلطانية، وقلدَه الحجابة)⁽¹⁾. وكما رأينا في سيرة أبيه وأخيه أن وجود الخليفة وأوامر السلطانية كانت مجرد شكليات، والحقيقة أن الحكم الحقيقي يد الحاجب، وقد سار على نهج أسلافه في الحجر على الخليفة والاستبداد عليه، والاستقلال بالملك دونه⁽²⁾. وتلقب بالناصر ثم بالمؤمن وكان يدعى بالحاجب الأعلى، المؤمن، ناصر الدولة. ولاشك أن هذه الألقاب ومن غير فعل ملموس تدل على غرور عبد الرحمن المتصور بنفه فهو لم يلتقط إلى التاريخ للاستفادة من تجربة أسلافه، بل كان على عكس أبيه وأخوه تهوراً وإسرافاً من أخيه المظفر في التهالك على الملذات والمليالي الحمراء الصاخبة فقد افتح عهده (بالمخلاعة والمجانة، فكان يخرج من مية إلى مية، ومن متره إلى متزه مع الخبابين والمضحkin، مجاهراً بالفتوك وشرب الخمر)⁽³⁾.

ولم يكتف شجاعول بما أغدقه عليه الخليفة من الألقاب الشكلية كالمؤمن والناصر، بل صار ينطليع إلى الخلافة والقضاء على الدولة الأموية في الأندلس، وبعد شهر ونصف من توليه الحجابة أرسل إلى الخليفة المؤيد من يهدده شرعاً إذا لم يجعلهولي عهده⁽⁴⁾ ويدرك أبو مروان بن حيان بهذا الخصوص:

(وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاحل بدعوى الخلافة عجرافية من غير تأويل ولا عقيدة، وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة، لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة، بل جبرها بالعجلة). وقد استجاب الخليفة لطلبه لضعفه المعتاد فولاه عهده في ربيع الأول من سنة 399هـ / 1008م، وينهض ابن عذاري في ذكر هذه الحادثة بأن عبد الرحمن خرج مع الخليفة هشام إلى قصر الزهراء، فأقاما هناك يومين، ثم تحرك الخليفة في اليوم الثالث إلى منية

(1) المقري، نوح، ج 1، ص 424.

(2) نفس المصدر.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 39.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 84.

جعفر برفقة حاجبه، الذي اشتد به عجبه، وأخذ شنجول يتقرب من الخليفة ويعتلي به، فاطملاً به الخلوة هذه اللبلة حتى استدنى منه بالخزولة، إذ كانت أمّاها بشكتين^(١)، ثم خرج عبدالرحمن يزعم أن الخليفة نص على توليته عهده صراحة، وأنه اختاره للخلافة دون بيبي عمه وذويه، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته، ولكننا نرى أن عبدالرحمن لا يحتاج إلى مثل هذا التلطف والتقارب ل الخليفة ضعيف ومحجور عليه منذ زمن المنصور العامري. وأنه لم يخرج على الناس بالرغم في توقيع المعهد، فهي حصلت فعلاً، وقد أحضر الخليفة الأموي بنفسه مع أهل الشوارى، وأهل الحال والعقد وأمام هؤلاء وغيرهم من احتشدوا في يوم توقيع شنجول ولاية عبد الخليفة وقرأ على الجميع ما كتبه كاتب الرسائل، أبو حفص أحد بن برد وما جاء في الرسالة (هذا ما عاهد به هشام المؤيد بالله أمير المزمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطيه به صفة يمينه بيعة ثانية، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخاراة. وبعد أن قطع الأوامر، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجرد أن يوليه عهده، وبفوض إليه الخليفة بعد، لفضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته وعلو منصبه، مع تفاته وعفافه، ومعرفته وحزمته، من المؤمن الغيب، الناصح الحبيب، أبي المطراف عبدالرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفقه الله..).^(٢) وبهذا المعهد ظن شنجول أنه صار وارثاً للخلافة دون منازع، فقام مراسيم خاصة، لتهنته من قبل رجالات دولته و(اذن خاصته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه، فأفاضوا في ذكر تهنته بما أكرمه الله بها، والدعاء له بيدونه في غيره، وقلوبهم منكرة عليه)^(٣) وقامولي العهد الجديد بتنصيب ابنه عبدالعزيز الحجاجة، وعلى المستوى الخارجي أمر بإرسال الكتب إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب لإشعارهم بولاية العهد له ويأمرهم بالدعاء له على المنابر بعد الدعاء لل الخليفة. وعندما استب

(١) ابن عذاري، البيان، ص 42.

(٢) هناك نص كامل لمعهد الخليفة في أكثر من مصدر تاريخي، المترى، نفح، ج ١، ص 424-425 مثلاً.

(٣) ابن عذاري، البيان، ج ٣، ص 46.

الأمر له وهو أمر لم يجرؤ أبوه أو أخوه من قبله على التفكير به لما يحمله من مخاطر تزيد من معنده دولةبني عامر. فسار في سياسة حمقاء قوامها الاستهثار بمقدرات الرعية والانصراف إلى الملذات ومعاشرة سوق الناس ورداع المجتمع، وإذلال الأشراف، وانتهاك الحرمات وتشجيع الدعاارة والزنا (ثم تجاوز ذلك كله إلى أن حمل بعض أصحابه على بعض بخстрته، وفي مجلس شرابة وخلوته)⁽¹⁾. وأحاط نفسه بجاشية من أصحاب الروء حتى أنه اصطحب معه في غزوه إلى جليةة رجلاً (من س قال أهل قرطبة يقال له ابن الرسان جعله صاحب شرطة وأدنه منه)⁽²⁾.

ولقد جوبت هذه السياسة بالرفض من قبل أمراء بني أمية والأستقراطة في قرطبة ومن أهالي قرطبة. فقد قرر الباكون من بني أمية انتهاز فرصة ابعاد شنجول عن قرطبة لخروجه إلى غزوة في جليةة مع جيشه للثورة عليه، وكان في مقدمة الأمويين الثوار محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وقد ساعدهم (الذلفاء) أم عبد الملك شقيق شنجول والذي اتهمه بقتل ولدما في السم، ففقدت عليه وسعت إلى اغتياله⁽³⁾ وسخرت للمهمة رجلاً من الصنالة كان موالي للأمويين، فاتصل بالأمويين ودعاهم لاسترجاع دولتهم بمساعدة الذلفاء التي شترط القضاء على شنجول والثأر لولدما عبد الملك، وفعلاً أرشدوا الصقلي إلى محمد بن هشام بن عبدالجبار الذي كان عبد الملك المظفر قد قتل أيامه، وقالوا للصقلي أن هذا الرجل (حرآن) ثائر جسور مخاطر، وقد بلتنا أنه تطلب هنا الأمر منذ قتلت أيامه، وتآلف من شرار الناس كثيراً، وشيّتنا تلقاه وتؤمله، فليس لكم غيره⁽⁴⁾، واتصل به الرجل ونقل إليه رسالة الذلفاء فوقاً على الأمر وكان الأمويون في هذه الفترة (كلمتهم يومئذ في بغضه العارميين متفقة، ونقوسمهم من مخافهم مختلفة، فلاذوا بمحمد بن

(1) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 47.

(2) نفس المصدر، ص 42.

(3) نفس المصدر، ص 52.

(4) نفس المصدر، ص 52.

هشام وبابعره سراً). واتفق الثائر محمد بن هشام مع اتباعه الأمويين وأهل قرطبة الناقفين على شجول بالانتظار حتى يصل مع جيشه إلى أراضي النصارى لكي يقوموا بالثورة، لأن جيش عبدالرحمن سيكون أمامه مسيرة شهر لكي يستطيع العودة إلى قرطبة ستكون كافية للسيطرة على الأمر من قبل الثوار حتى لو سمع بثورتهم. وبالفعل نفذوا ثورتهم في 16 جادى الأول 399هـ / 1009م. وبدأوا بالهجوم على قصر فرطبة وقتلوا صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر، كما كسروا باب سجن العامة (فانطلق جميع من كان فيه من اللصوص والدغّار وأصحاب الجرائم فسارعوا إلى محمد فاستuhan بهم، وتداعى بنو عم محمد الناصريون وغيرهم إلى نصر محمد، واستهضوا الناس لمعونته، ولتوا دعوته)⁽¹⁾، وهكذا بوضع محمد بن هشام بالخلافة واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولی عهده، وأجبر هشام الثاني على التنازل عن الخلافة، فتنازل عنها بعد أن قضى فترة 33 سنة خليفة بالاسم فقط. وكان هنا في 17 جادى الأول 399هـ / 1009م ويروى أن الخليفة هشام في تلك الأثناء كان في قصره، وقد أمر بإغلاق أبواب القصر عليه، ثم صعد إلى سطح مرفوع (وأشرف على العامة بين مصطفين يحملهما خادمان له، وأشار إلى من تحته من العامة بالسكون بيده، فصاحوا به: لا حاجة لنا بك، وليس الملك من شائك، وهذا أولي منك به، يعنيون محمد بن هشام، فلما سمع ذلك منهم ولی منصرفًا إلى داره، وأمر خدمه إلا يقاتلا أحداً منهم، ولا يرموا بهم ولا حجر عليهم حتى يقضى الله قضاءه)⁽²⁾. وتصف الرواية كيفية دخول الأموي الغالب على الخليفة المغلوب بالقول (هاجم ابن عبد الجبار قصر الخلافة وكان حرسه يتقهرون أمام المهاجمين ولم ينفِ أحد من أهل الزاهرة لنجد الخليفة الذي بادر عندئذ إلى مراسلة ابن عبد الجبار يسأله الكفت عنه على أن يعينه وبني عمه على ما نعموا عليه، ويقصي آل عامر عنه، ويقلده عهده، وبشركه فيأمره). غير أن ابن عبد الجبار لم يستجب للخليفة رافضاً عروضه، وأصر أن

(1) المقرى، فتح الطيب، ج 1، ص 426.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 56.

يدخل القصر بعد أن يخله الخليفة فجعل الخليفة وأخلي القصر، فدخل الأموري الغالب قصر الأموي المنلوب الذي بادر بالتخلي عن الخلافة أيضاً. أما عبد الرحمن شنجول فقد وصله خبر ثورة قرطبة فتخلى عنه معظم الجيش ونصحه مولاً واضح الصقلي حاكم طليطلة أن يبقى في مكانه ولا يذهب إلى قرطبة، لكن شنجول الأحق كان يعتقد أن وصوله إلى قرطبة سيخرج الناس مرحباً به، فسار نحوها بعد أن رفض زعماء البربر وخاصة (محمد بن علي الزناتي) على اتحام قرطبة بالقوة، ووصل عبد الرحمن إلى منزل هانئ في أدنى الأماكن إلى قرطبة في آخر جادى الآخر سنة 399 هـ / 1009م، وكان جنود البربر قد تخلوا عنه ولم يبق معه إلا قلة من الحاشية والغلمان وقد شعر بحالة الضعف فبدأ ينادي الناس بالتنازل عن ولاء العهد ويدعو لإرجاع الخليفة هشام ولم تخدي كل عمولاته فسار إلى قرطبة ليلقي حتفه حيث قبض عليه الحاجب بن ذوى مولى الحكم هو وصاحب ابن غموس وقتلهم. ثم حلت جثتيهما إلى قرطبة تعلقاً على أبوابها. وانتهت دولة بنى عامر ومعها الخلافة، وتسلم محمد بن هشام الخلافة ولقب بالمهدى.

المهدى وعهد الفتنة

لقد استقبل أهل قرطبة ولادة المهدى بالفرح العارم لما عانوه من بطش الدولة العاميرية وخصوصاً في أيام شنجول كما رأينا، وقاموا بتدمير مدينة الراحلة العاميرية تدميراً شاملأً (عفا رسماها فأصبحت بلقعاً كان لم تفن بالأمس)⁽¹⁾ دلالة على حقدتهم على بنى عامر، وتصف المصادر التاريخية فرحة أهل قرطبة بانقضاض عهد العاميرين بأنهم (أخذوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائهم وأعراضها، وداموا على ذلك أيام تباعاً يتقللون من موضع إلى موضع بالمزامير والملاهي زاجين تمام املهم، وانتظام أمرهم)⁽²⁾. وكان لهم الأمل الكبير في إعادة الخليفة الأموية إلى عصورها الراحية،

(1) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 62-63.

(2) نفس المصدر، ص 74.

ولكن محمد بن هشام المهدي لم يكن بمستوى الظن والأمل به، ولم يقم بشيء سوى الانتقام من العارمين والاستمتاع بمحقق الخلفاء. وكان طائعاً قليلاً التفكير سوقي للتزعيات، لطول ما عاش في الأحياء الفقيرة متكرراً بين رعاع ترطبة، ولذلك أحاط نفسه بطائفة من كانوا على شاكلته، لا يحسنون غير النهب والسرقة فآذوا الناس أذى شديداً⁽¹⁾، كما أن المهدي لم يتورع من الإساءة إلى أقرب الناس إليه وهو سليمان بن هشام بن عبد الرحمن الناصر ولبي عهده إذ قام بسجنه. كما قام بسجن بعض وجوه قريش، وسعى إلى إهانة البربر وزعمائهم عقاباً لهم لتأييدهم السابق لبني عامر. وأظهر المهدي نزعة واضحة لتفك الدماء وإذلال أكبر وأشراف الناس وترك العامة في حالة فوضى، وكان الأخرى به أن ينكح مقاليد النظام ويرجع الأمور إلى نصابها بعد فترة الانقلاب وسيادة الفراغ الأمني. لكنه لم يمتلك الحكمة ولا الخزم في معالجة اضطراب الأحوال في ظرف حرج كالذي مررت فيه قربطة آنذاك.

ومن حفاقاته التي مارسها بحق البربر وهو قوة ضاربة في الجيش الأندلسي لم يحسن استثمارها، فقد روی أنه أهان شيخهم زاوي بن ذيري الصنهاجي ووضع من دخول القصر وأهين.

كما ارتكب حفارة نادرة بحق الخليفة المعزول هشام والسبعين في قصره، إذ قرر التخلص منه فاخترجه من القصر (وأسكه في دار الحسن بن حبي) وشخص به مثله رجلاً نصرياً وقيل يهودياً ميناً كان يشبه المؤيد، وأدخل الوزراء والخدم عليه، فعاينوه ميناً ولم يشكوا أنه المؤيد⁽²⁾ وكان هذا الأمر قد تم في 399هـ / 1009م. ودُفن هذا الرجل بحضور القاضي أبي العباس بن ذكران. ولقد سخر الناس في قربطة من هذه الحفارة لأنهم كانوا يعرفون الحقيقة التي لم يستطيعوا ذكرها أمام المهدي، وهي أن هشاماً لم يمت وهذه مكيدة.

(1) د. حسين مؤنس، معلم تاريخ، ص 354.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 84.

وهكذا اجتمع للمهدي أعداء من كل حدب وصوب في قرطبة. فبالإضافة إلى بني عامر الذي قتل منهم نحو سبعة آلاف⁽¹⁾، كان البرير الأكثر فاعلية في التحضير للخلاص من المهدي، فقد ألقوا عليهم قوة خارج قرطبة في فحص السرادق⁽²⁾، وقرروا اقتحام قرطبة بعد أن اختاروا لهم خليفة وهو هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر بعد أن وجدوا فيه الرجل المناسب لواجهة المهدي، فقصدوه في بيته وأخرجوه من داره (وابياعوه، تلقب بالرشيد)⁽³⁾ وبدأت تحركاتهم سريّة أول الأمر إلا أن أمرهم انتشر بين الناس دون أن يتمكنا من إكمال استعداداتهم الكافية، ولكنهم قاموا باقتحام قرطبة واستطاعوا من الوصول إلى قصر المهدي وحاصروه يوماً وليلة، غير أن المهدي أغوى بهم السواد الأعظم، وهزمهم، وشتت شملهم بعد أن قتل الرشيد⁽⁴⁾، واشتعلت نيران الفتنة في قرطبة بين البرير وعامة أهلها، فاضطربوا البرير إزاء هذا الوضع من الخروج من قرطبة إلى الشغر⁽⁵⁾.

ولم تكن هذه المزية القاسية للبرير سباً في نكوصهم، بل إنهم أعادوا تنظيم قواتهم وصفوفهم وراحوا يبحثون عن قائد أمري ليتولى قيادتهم من جديد للقصاص من المهدي، فوجدوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، الذي وافق بالانضمام إليهم فاجتمعوا له (وابياعوه بالخلافة في شعبان سنة 399) في موقع يعرف بصلب الكلب. وكان أهل قرطبة قد أطلقوا على سليمان أيام البرير، ولقد تلقب بلقب المعين بالله. ولم يكن البرير هذه المرأة قد اعتمدوا على قوتهم العسكرية فحسب، فقد قرروا الاستعانة بمساعدات خارجية فعمدوا إلى الاستعانة بشائحة بن

(1) غير الذين هاجروا إلى شرق الأندلس واستقروا هناك.

(2) وهو أحد متزهّمات قرطبة المشهورة، يقصده الناس للتزهّ.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 83.

(4) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 427.

(5) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 81.

غرسيه بن فرذلند، قومس قشتالة⁽¹⁾، بينما يذكر ابن خلدون والمقربي أن البربر استجدوا بابن الفونسو (أذفونش) فخف لنجلتهم⁽²⁾، ومهما يكن فقد أصبح في البلاد خليفتان: واحد في قرطبة هو المهدى والآخر على رأس البربر وهو سليمان الذي كان مقيناً بشقنته حين قتل الرشيد في قرطبة، فتوجهت إليه قلول البربر المسحة من قرطبة وبايجه ونهضوا به إلى نهر طليطلة⁽³⁾، وعقدوا العزم على إنهاء عهد المهدى بآي ثمن وإسقاط قرطبة بأيديهم، وقد شعر المهدى بخطرهم، فأرسل إليهم رسولًا عند وصولهم إلى قلعة رياح في طريقهم إلى الثغر الأوسط، يدعوهم للعودة إلى قرطبة ورسول المهدى هو عباس البرزاوى الذى جوبه برفض قاطع من البرير وقالوا له: (الولا أنك رسول وتاجر لقتلكما، وسيجازيه الله بما فعل)⁽⁴⁾، واستمروا في طريقهم ووصلوا إلى وادي الحجارة حيث قابلوا صاحب المهدى على طليطلة وضاح الصقلي ودخلوا المدينة بالقوة، واستباحوا أهلها، ثم تحولوا إلى مدينة سالم ولكنهم لم يستطيعوا دخولها، وقاومهم وضاح وفرض عليهم حصاراً مادياً إذ أرسل إلى جميع الثغور بأن لا يتعاونوا مع البرير ولا يرسلوا إليهم أي مؤونة أو طعام وجاء في إعلانه: (من حل شيئاً من الطعام إلى محله البرير فقد أحل ماله ودمه)⁽⁵⁾، وبقوا على حالة الحصار هذه لمدة خمسة عشر يوماً ويقال إنهم ظلوا يأكلون الخيش والبنات الطبيعية في الأرض، وعندما اشتدت الصعوبة على حياتهم أرسلوا إلى شانجية بن غرسية قومس قشتالة المعروف عند المؤرخين العرب باسم ابن مامه دونه (وهذا الاسم تحرير من اسم جده شانجية وأم فرذلند غند التي كانت تسمى موما دمنا)⁽⁶⁾، ولم يتردد شانجية الذي كان يتابع عن كثب ما يجري، لا سيما وأن المهدى قد

(1) نفس المصدر، ص 13.

(2) المقربي، نفح الطيب، ج 1 ص 428.

(3) ابن عذارى، اليان، ج 3، ص 83.

(4) نفس المصدر، ص 82.

(5) نفس المصدر، ص 86.

(6) انظر د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 349 حاشية رقم 6.

أرسل إليه الرسل والمدابا لغرض عقد المصالحة بينهما، لكن آثر مناصرة البرير للقضاء على أعدائه المسلمين، بعد أن وعده باعطائه ما يختار من التغور في حالة مساندتهم والانتصار على خليفة قرطبة المهدي. فأرسل إليهم ألف عجلة من الدقيق والعاقير وأنواع الأطعمة، وألف ثور، وخمسة آلاف شاة، ثم سار إليهم بنفسه على رأس جيش كبير، وفي موقع قلعة عبدالسلام في وادي شربة، دارت معركة حامية في سنة 400 هـ انهزم جيش واضح، وتقدم البرير يعقبونه نحو العاصمة، حتى وصل إلى أرملاط، وكان المهدي الذي يأس من مساندة النصارى، خرج ليلتقي بجيش البرير عند ملتقى وادي أرملاط بالوادي الكبير⁽¹⁾، ولقد شهد هذا الوادي معركة فاصلة انتصر فيها البرير على جيش المهدي، قتل خلالها أكثر من ثلاثين ألفاً من المسلمين، وتشير المصادر التاريخية على هذه المعركة بأنها (كانت أول نارات المشركين على المسلمين)⁽²⁾، وأول واقعة قتل فيها (أخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين)⁽³⁾، ولقد اختلفت الروايات في هذه المعركة من حيث موقعها وعدد القتلى والكثير من التفاصيل، فيقال أن المهدي كان يحسن أبواب قرطبة وأفواه الضواحي والأسوار، ويوزع الجنود وقوادهم على مراكز معينة، وأمر بمحفر الخنادق حول الضواحي والأسوار، قبل لقاء الجيшиين، وأن خسائر قرطبة كانت عشرة آلاف وليس ثلاثين ألف. ويقال أيضاً أن المهدي حاول أن يستميل البرير أثناء المعركة فأظهر له خليفة السابق هشام لأنهم كانوا يترحون على أيامه ويطالبون بهمه، إذ أجلسه في شرفة على باب القنطرة، وكان البرير قد أعلناه الوفاء للأموي خليفة المسلمين بالله، وقالوا لرسول المهدي، القاضي ابن ذكران بتهكمهم الواضح: (سبحان الله يا قاضي)، يموت هشام بالأمس وتصلني عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه، وجعلوا يتضاحكون منه)⁽⁴⁾ وعندما

(1) في مدينة قبيش إلى الشمال الشرقي قليلاً من بلدة القليعة.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 84-85.

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص 193.

(4) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 89.

شعر المهدى باليس من مقاومة المستعين بالله وحيث فهرب من قصر الخلافة ليلاً واختفى في المدينة أياماً، ثم رحل متكرراً إلى طليطلة في جادى الأول سنة 400 هـ إذ استقبله واضح الصقلى الذى ظلَّ وفياً للمهدى مع أهل طليطلة الذى يحكمها.

وتصف المصادر التاريخية فرار المهدى من القصر واختفاءه من دار إلى دار بأنه كان لا يصحو من سكر ولا يزع من فرق⁽¹⁾، وأخيراً حلَّ في بيت صديقه سليمان بن عيسى الذى وسى به إلى صاحب الشرطة، ولكن المهدى أدرك المكينة فهرب إلى طليطلة.

وبعد هروب المهدى من القصر بايع الناس المستعين بالله بالخلافة في يوم الثلاثاء الموافق 17 ربيع الأول 400 هـ / 1009 م، ولقب بالظافر أيضاً وبدأ بعمارة سلطاته القانونية ك الخليفة في الأندلس.

المستعين بالله خليفة قرطبة

بعد أن بايع أهل قرطبة المستعين بالله، درج كعادة الحكماء على إرسال وفوده وكبه إلى سائر أخاء الأندلس، لدعوتهم لإظهار الطاعة والولاء له. ولكنه قد بالغ كثيراً في التهديد والوعيد لمن تولى له نفسه الخروج عن طاعة مركز الخلافة. فقد توعد الخارجين عن الطاعة باستباحة دماءهم مما أثار مشاعر الناس تجاهه. ولقد تصرف المستعين في مدة حكمه القصيرة بشكل لا يدل على كفادة وبعد نظر، فكان عهده قد شهد أياماً (كانت كلها شداداً نكبات، صعباً مثؤمات، كريهات المبدأ والفالحة، قبيحة المتهى والخاتمة)، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الميبة، وارتفاع الفتنة، واعتلاء المعصية، وطعن الأمان وحلول المخافة...)⁽²⁾. كما أن اعتماد المستعين على البرير وإعلاه، شائهم من باب الإنفاق فهم الذين جلبوه إلى سدة الحكم، قد أثار حفيظة أهل قرطبة، إذ انتقل بجيش البرير إلى مدينة الزهراء، حتى يبعدهم عن أهل

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 485.

(2) ابن سام، الذخيرة، القسم الأول، ص 25.

قرطبة، فكان تصرفه هذا قد (أجلب لنقار القلوب، وقرف اللذوب وبُعد الشرود، ونبش الحقود، لما وتر جيدهم بالحادنة في قرطبة)، فاستشعروا بعده، وانقادوا لكل من عانده، ورد أمره من عبد أو حرب... فكان ذلك سبباً في تفرق البلاد وتملك أصحاب الطوائف⁽¹⁾. ويبدو أن المستعين أحسن بهذه المناقضات في الولاء والتي سببها أصلاً هروب المهدي إلى طليطلة فاعده الأممية، فقرر أن يمضي بنفسه لتصفية عدوه اللذوذ المهدي هناك بعد نفاد الدبلوماسية معه.

وقد كانت طليطلة موالية للمهدي، فقد استقبله أهلها، وأيدوه، كما ذكرنا، إلا أن المستعين أراد أن يستعمل الطريق السليم، فأرسل وفوده لاقناع واضح وأهل طليطلة بتسليم المهدي، لكن المؤشرات السياسية في قرطبة وغضب أهلها من المستعين جعلت من طليطلة أكثر صموداً من تهديدات المستعين، عندئذ قرر المستعين أن يستخدم الحل العسكري فحاول المجوم على مدينة سالم فلم يفلح كما يشير ابن عذاري (فنزل على مدينة سالم في وقت ضيق من البرد والثلوج وقلة الميرة فلم يكث بها، ورجع فكان وصوله قرطبة لثلاث بقين من شعبان)⁽²⁾، وكان واضح قد خرج من مدينة سالم ومضى إلى طرطوشة قريباً من الحدود الفاصلة بين مدينة سالم وإقليم قطالونية، واتفق مع قوم برشلونة ريموند بوريل الثالث، وأخيه آرمنجول⁽³⁾ على أن يقدموا له العون العسكري مقابل تخليه عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط، فوافقا على مساعدة واضح وقدموا له فرقة عسكرية عاد ليحارب البربر بها ولكن بشروط قاسية منها: (أن يلتزم كل رجل منهم دينارين في كل يوم بالإضافة إلى ما يقوم به من الشراب واللحم وغير ذلك، وأن يجري على القوم في كل يوم مائة دينار وما يقوم

(1) نفس المصدر.

(2) البيان، ج 3، ص 93.

(3) يسمى العرب أرمقدن.

به من الطعام والشراب، وأن يستولوا على كل ما في معسكر البرير من سلاح ومال غنيمة لهم، وأن يستحلوا نساء البرير ودماءهم وأموالهم⁽¹⁾.

وكان لابد من قبول القائد واضح لكل الشروط، فسار مع جيش المقاتلين سرقطة، وبعدها إلى طippleلة حتى يضم إليهم المهدي. وعند تكامل القوات، رحفل الجيوش إلى قرطبة بقيادة المهدي. وتذكر المصادر التاريخية على أن مجموع المقاتلين⁽²⁾ الذين زحفوا إلى قرطبة يقدر بنحو 39 ألف فارس، بينهم تسعة آلاف من النصارى⁽³⁾. فيما كان على الطرف الثاني المستعين الذي تخلى عنه أهل قرطبة لإفراطه في إهانتهم وغلبة البرير عليهم. فسار بجيش من البرير لللاقة أعداءه حيث التقى الطرفان في موقع يقال له عقبة البقر أو دار بقر وهي بلدة صغيرة تقع إلى الشمال من قرطبة. وتحديداً على بعد 20 كم شمال قرطبة. وحدثت معركة طاحنة أدت إلى هزيمة جيش المستعين والبرابرة بعد أن ثبت البرير شجاعة فائقة استطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً من النصارى ومن بينهم الملك أرمقند، وتقهقر المستعين وجيش البرير إلى الجزيرة الخضراء، إذ فرّ المستعين ونجا بنفسه إلى شاطبة. ولقد انتهز أهل قرطبة هزيمة البرير فانقضوا على مدينة الزهراء، ودخلوها ونهبوا ما وجدوا من تحف ودخلوا المسجد الجامع وجردوه من كل محتلكاته حتى المصاحف والأبواب⁽³⁾.

عودة المهدي إلى قرطبة

ولقد أحدثت هزيمة المستعين رجوع المهدي إلى قرطبة وبايده أهلها ثانية، لكن هاجس مطاردة البرير لم يفارقه، حتى أنه اقسم على أن لا يستقر له حال إلا إذا أنه خطر البرير والمستعين تماماً، ولقد تعاون معه أهل قرطبة فقدموا له المال وانضم إليه مقاتلين من العبيد بأعداد هائلة، كما انضم إليه قيادي بي عامر أمثال عنبر وخيران

(1) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 94.

(2) نفس المصدر، ص 96.

(3) نفس المصدر، ص 95.

الذين قدموا من شاطبة⁽¹⁾، فسار المهدى على رأس هذه الجيوش التي شملت أهل قرطبة والبرادى والإفرنج⁽²⁾، وكان لقاومهم مع جيوش البرير عند نهر وadi (أيده) بالقرب من الرندة في 6 ذي القعدة سنة 400هـ / 1010م، وأسفرت نتائج هذه المعركة عن هزيمة جيوش المهدى واضح الصقلي ومن معهم من القوات المسيحية، هزيمة كبيرة وقتل من الإفرنج وحدهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل بالإضافة إلى أعداد الغرقى⁽³⁾. وكان من بين القتلى الوزير اليهودي لملك الإفرنج ريموند بوريل، واستولى جيش البرير على أموالهم ومعداتهم العسكرية من سلاح ودواب. وعلى أثر هذه الهزيمة انسحب المسيحيون إلى بلادهم بعد أن رفضوا فكرة المهدى لمساعدة القتال. ولم تكن قوات المهدى كافية لاستئصال القتال فقرر أن يكتفى بمحفر خندق حول قرطبة، كما قام بناء سور خلف هذا الخندق⁽⁴⁾. بينما انسحب الصقالبة العامريون إلى شاطبة وشرقي الأندلس.

وعلى أثر هذه الهزيمة لجيوب المهدى وحلفائه، أحسن البرير بنشرة الانتصار، فاستولوا على جبل بيشت، وأخذوا بالإغارة كل يوم على نواحي قرطبة.

أما عن مصير المهدى الذي اهتز موقفه بعد فشله الذريع أمام البرير، فما كان من حاجبه واضح إلا السعي إلى قتلها، وفعلاً قتله في سنة 1010م وبعث برأسه إلى سليمان المستعين، طمعاً في كسب ودة وإرضاعاً للبرير بعد أن أعاد المؤيد هشام إلى الخلافة، ودعا المستعين والبرير للدخول في طاعة الخليفة بوصفه الحاكم الشرعي، لكن هذه المحاولات لم تجدي نفعاً ولا سيما أن واضحاً الصقلي قد أظهر خيانة لقائده، جلبت له مشاعر السخط وعدم الثقة بهذا الرجل الذي خان وغدر بقائده المهدى.

(1) لقد كان هؤلاء الفتى يساعدون المهدى في الظاهر ولكنهم يضمنون له سوء النية على ما فعله بعد الرحمن شجول العامري.

(2) د. عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 354.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 98.

(4) ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، ص 135.

وعلى هذا الأساس أصر البرير على دخول قرطبة، عبر قيامهم بسلسلة من غارات القتل والتروع لأهلها الذين خذلوكهم وانتصروا للمهدي، ثم دخل البرير إلى مدينة الزهراء سنة 401هـ / 1010 م وشددوا الحصار على قرطبة، وقطعوا عنها المؤن والأغذية، وسار جيش منهم إلى جيان ومالة والبيرة والجزيرة فادخلوها في طاعة المستعين. ولقد اشتدت الأمور سوءاً نتيجة لشحة المواد الغذائية وهدم السيرول جلوانب كثيرة قرطبة، فقد حاول واضح أن يهرب من قرطبة إلا أنه وقع في قبضة وداعمة القرطبي الذي قتل سنة 402هـ / 1011 م، وازداد الضغط على قرطبة مما اضطر أهلها إلى الاستسلام وطلب الأمان، إذ خرج القاضي ابن ذكون مع بعض الفقهاء إلى المستعين ورؤساء القبائل البربرية، لهذا الغرض، فاستجيب لطلابهم بعد دفعهم أمراً كثيرة⁽¹⁾.

المستعين يعود إلى قرطبة وخلافة هشام الثالثة

وبحكذا دخل المستعين قصر قرطبة في سنة 403هـ وأحضر هشاماً المؤيد الخليفة، الذي اعتذر علني له وخلع له ولادة العهد، بينما صار هشام خليفة للمرة الثالثة في جيان البائسة. وتذكر المصادر التاريخية أن المستعين قد اغتال الخليفة خفياً⁽²⁾.

ولم تكن مدة خلافة المستعين التي بلغت ثلاث سنوات كافية لاستباب الأمر في قرطبة، إذ أن الفتنة بدأت تدخل طوراً خطيراً، فادت الفوضى في البلاد، ولم يكن المستعين بهذا القدر من الذكاء والخبرة للقضاء على هذا التداعي الذي استشرى على جميع مرافق الحياة، بعد أن ذهب المستعين مع جيشه البريري إلى مدينة الزهراء. وترك مراكز القوى الناشطة أن تستقر بعيداً نوعاً ما على مركز الخلافة، فقد أقام بنو حمود العلويون في شققده، كما أن المستعين قسم مناطق الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية لكتب ولائهم، فاستقر في البيرة لجوس بن ماكين الصنهاجي وقيلته، واستقر في سرقسطة مندر بن يحيى التجبي الذي ساعد المستعين في فتح قرطبة، وأعطي المستعين

(1) ابن عذاري، البيان ج 1، ص 112.

(2) المفري، نفح الطيب، ج 1، ص 404.

جيـان لـبني بـرـزال وـبـني يـفـرن، وـشـذـونـة وـمـورـور لـبني دـمر، وـلـقـد خـصـ المـسـعـين عـلـيـاً بـنـ حـودـ وـلـاـيـةـ سـبـتـةـ، وـالـقـاسـمـ بـنـ حـودـ وـلـاـيـةـ طـنـجةـ وـأـصـيـلاـ وـالـجـزـيرـةـ الـخـضـرـاءـ⁽¹⁾ـ. وـهـكـذـاـ أـصـحـ الشـهـيدـ السـيـاسـيـ يـشـرـ إـلـىـ اـخـتـالـ مـواـزـينـ القـوـىـ فـدـ صـبـ بـحـمـلـهـ لـصالـحـ الـبـرـيرـ، وـهـوـ حـقـ لـمـ كـمـ نـرـىـ بـعـدـ أـصـحـ الـخـلـافـةـ وـمـرـكـزـ الـخـلـافـةـ بـمـرـدـ رـمـزـ اـفـقـدـ إـلـىـ شـرـعـيـةـ الـدـيـنـيـةـ (ـالـرـوـحـيـةـ)ـ أـوـ الـعـمـلـيـةـ. فـدـ تـائـيرـ الـبـرـيرـ وـأـصـحـاـ وـأـخـذـواـ يـمـضـونـ ثـمـارـ اـنـصـارـتـهـمـ وـيـتـقـمـونـ لـوـضـعـهـمـ السـابـقـ فـيـ عـهـدـ الـمـهـدـيـ، كـمـ اـسـتـمـرـواـ فـيـ الـسـيـطـرـةـ عـلـىـ أـخـاءـ الـأـنـدـلـسـ فـحـلـ بـادـيـسـ بـنـ جـبـوسـ فـيـ غـرـنـاطـةـ، وـالـبـرـزـ فـيـ قـرـمـونـةـ، وـالـيـفـرـنـيـ فـيـ رـنـدةـ وـخـرـزـونـ فـيـ شـرـيشـ⁽²⁾ـ.

وـفـيـ ضـوءـ هـذـاـ الرـوـضـ اـشـتـدـ طـمـوحـ الـبـرـيرـ إـلـىـ الزـعـامـةـ الـمـلـقـةـ عـلـىـ الـأـنـدـلـسـ، فـتـشـيرـ الـمـصـادـرـ التـارـيـخـيـةـ إـلـىـ تـحـركـ بـعـضـ الـعـامـرـيـنـ وـالـمـوـالـيـ وـالـصـنـاعـيـنـ إـلـىـ أـمـيرـ سـبـتـةـ عـلـيـ بـنـ حـودـ وـسـلـمـرـهـ وـثـيقـةـ مـنـوـيـةـ إـلـىـ هـشـامـ الـزـيـدـ وـمـغـفـلـةـ عـهـدـ فـيـهاـ بـالـأـمـرـ بـعـدهـ إـلـىـ عـلـيـ بـنـ حـودـ⁽³⁾ـ، وـمـهـمـاـ يـكـنـ مـنـ أـمـرـ صـحـةـ هـذـهـ الـوـثـيقـةـ مـنـ عـدـمـهـ، فـإـنـ الـأـمـرـ يـدـلـ عـلـىـ تـحـالـفـ مـسـتـرـ ظـهـرـ لـلـسـطـحـ لـلـإـطـاحـةـ بـالـمـلـكـيـنـ، لـاـ سـيـماـ وـأـنـ جـبـوسـ الصـنـهـاجـيـ حـاـكـمـ الـبـرـيرـ، وـخـيـرـانـ الـعـامـرـيـ حـاـكـمـ الـمـرـيـةـ قـدـ طـمـانـاـ عـلـيـ بـنـ حـودـ عـلـىـ سـهـولـةـ الـاسـتـلـاءـ عـلـىـ مـرـكـزـ الـخـلـافـةـ فـيـ قـرـطـةـ، فـارـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ تـحـتـ ذـرـيـعـةـ الـإـفـراجـ عـنـ الـخـلـافـةـ هـشـامـ⁽⁴⁾ـ، ثـمـ اـتـجـهـ إـلـىـ الـمـرـيـةـ وـالـقـنـىـ بـأـنـصـارـهـ الـعـامـرـيـنـ وـعـلـىـ رـأـيـهـمـ خـيـرـانـ الـعـامـرـيـ، وـمـنـ هـنـاكـ سـارـ بـالـجـيـوشـ صـوبـ قـرـطـةـ وـكـانـ أـخـوـهـ الـقـاسـمـ قـدـ جـهـزـ نـفـسـهـ لـتـقـديـمـ الـمـسـاعـدـاتـ عـنـ الـضـرـورةـ.

وـلـقـدـ وـصـلـتـ أـبـيـاءـ هـذـاـ التـحـالـفـ إـلـىـ الـمـسـعـينـ، وـوـصـلـتـ أـبـيـاءـ الـحـشـودـ الـزـاحـفةـ إـلـىـ قـرـطـةـ كـذـلـكـ، فـخـرـجـ بـمـاـ تـبـقـىـ لـهـ مـنـ أـنـصـارـ مـلـاقـةـ جـيـوشـ تـحـالـفـ الـبـرـيرـ بـقـيـادـةـ عـلـيـ بـنـ

(1) ابن عذاري، ص 113.

(2) المفري، نفح الطيب، ج 1، ص 429.

(3) ابن عذاري، اليان، ج 3، ص 113.

(4) ابن عذاري، اليان، ج 3، ص 113.

حود، وكانت نتيجة المعركة هريرة المستعين في سنة 407 هـ، ودخول علي بن حمود وأنصاره إلى قرطبة. بعد أن قبضوا على المستعين. ولقد قام بن حمود بالبحث عن الخليفة المؤيد مظاهراً بعد معرفته بمورته حتى يؤكد شرعية ثورته على المستعين، ولكن الشهود في قرطبة أكدوا له موت الخليفة وأرشدوه إلى قبره، فأخرجه وتعرف على جنته، ثم أعاد دفنه، وقرر على الفور قتل المستعين وقتله بيده، ثم قتل شقيقه عبدالرحمن، ثم قتل أحدهما الشيخ، وجعل رؤوس الثلاثة في طست وأخرجت من القصر إلى الجملة ينادي عليهم: هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد⁽¹⁾.

عهد بنو حمود وسقوط الدولة الأموية

لقد كان من أسرار قوة الخلافة الأموية في الأندلس هو استحواذها على السلطتين الشرعية والواقعية، ورأينا كيف تبدلت هذه القراءة وخصوصاً في زمن الحاجب المنصور والدولة العامرة، وأصبحت فيما بعد الخلافة خرقاً بالية منذ خلافة هشام المؤيد. وجاء بنو حمود ليكملوا مشوار التدهور والانخراط والصراعات والفتنة بين البربر والصقالبة وأهل قرطبة.

وبنوا حمود هم من الحسينيين الذين قدموا من المغرب إلى الأندلس، إذ يرجع نسبهم إلى علي بن أبي طالب⁽²⁾، وتزعم الروايات التاريخية أن الخليفة هشام المؤيد قد عهد إلى علي بن حمود بولاية عهده لرفعة بيته وبُعد صبيته⁽³⁾ وكان علي بن حمود هو أول سلاطين بنو حمود الذين بُويع بالخلافة بعد قتل المستعين في باب الستة من قصر قرطبة سنة 407 هـ / 1016 م.

علي بن حمود ملكاً على الأندلس

بعد مبايعته بالخلافة تلقَّب بالناصر لدين الله، ويكتنِي بأبي الحسن، ولقد شهدت فترة حكمه الأولى محاولات لتوحيد البلاد تحت قيادة الخلافة من البيت الأموي

(1) ابن سام، الذخيرة، القسم الأول، ص 29.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 284.

(3) ابن عذاري، اليان، ج 3، ص 120.

الذى قاد الأنجلوس أكثر من قرنين ونصف، وصلت فيها إلى قمة الازدهار الحضارى، غير أن هؤلاء الأمويين كانوا على درجة من الضعف، بات التعويل عليهم أمراً غير منطقي، وينذهب الدكتور السيد سالم^(١) على أن علياً كان موقفاً في بداية عهده، إذ كان حكمه يقوم على إرهاب البرير وتشدده في معاملتهم، حتى أطاعه كل عاصي، ويشهد بذلك ابن حيان الذي يقول: (وكان يجلس - علي بن حمود - بنفسه لظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر، يقيم الحدود مباشرةً بنفسه، لا يجاشي أحداً من أكابر قومه، فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل، وروخاً السعر) وهذا يعني أن بداية عهد علي بن حمود قامت على العدل وإنصاف المظلومين لذلك فتن به أهل قرطبة وأحبوه^(٢).

ويرجع سر هذا الحب من أهل قرطبة إلى تشدد مع البرير إذ يروى ابن حيان (بأنه) كان يقيم الحدود بنفسه، وضرب لذلك مثلاً فقيل: إنه قدمت إليه عصابة من البربر الأكابر في جرائم تجاوزت حد الكمال، فامر بضرب أعنفهم وعشائرهم يتظرون خيفة، لا يبنون، ولا يجسرون عليه في شفاعة).

ولم يكن علي بن حمود الناصر قاسياً على البرير فقط، وإنما كثراً أستانه على أهل قرطبة وكما يشير ابن عذاري بأنه (انقلب عن التجمل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وأغرمهم من المغامرة، وغرم على إخلالها وإيادة أهلها)^(٣) والانتصار إلى حزبه البريري وتفضيله لهم ثانية، ويعود السب في هذا الانقلاب المفاجئ على أهل قرطبة هو ظهور أحد الأمويين في شرق الأنجلوس وهو المرتضى عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر سنة 407هـ والذي كان ظهوره بيعاز ومساندة من خيران العامري بعد أن تنصل العامري عن بيعة بن حمود وخرج من طاعته، وذلك لسببين: أو همَا (أنه كان طامعاً أن يجد المؤيد هنام حياً فلم يجد...) والثاني (لقل إلهي أن علياً

(١) د. سيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 308.

(٢) ابن عذاري، ص 122.

(٣) البيان، ج 3، ص 121.

الناصر يزيد قتلها^(١) ولقد كان أهل قرطبة قد أظهروا التأييد للأموي المرتضى الذي بايعه خيران وعدد كبير من أنصاره، وأصبح خيران العامري من أشد المؤيدين للمرتضى، إذ قام بإرسال الوفود إلى أمير سرقسطة والثغر الأعلى متذر بن يحيى التجبي، كما راسل أهل شاطبة وبلينسية وطرطوشة والبونت، لحملهم على مبايعة الأموي المرتضى، وقد أجابوه بالموافقة والخروج عن طاعة علي بن حمود^(٢)، وصار لهذا الأموي أتباع من خارج قرطبة وداخلها إذ أن وجهاء قرطبة كانوا قد اجتمعوا في مكان يعرف بالرباحين وأقرّ الفقهاء والشيوخ بيعتهم للأموي في عيد الأضحى من سنة 408هـ / 1017م^(٣). وهكذا تهياً للمرتضى جيشاً سار به إلى غرناطة للاستيلاء عليهما من أمرها زاوي بن زعيري، فوقعت بينهما معركة أدت إلى هزيمة المرتضى، وكانت الخزيمة على أثر خلافات بينه وبين متذر بن يحيى وخieran العامري، وكانت نهاية المرتضى الأموي على يد خieran الذي جعل عليه عيوناً (لثلا يختفي أثره)، فللحقوه بقرب وادي آش، وقد امن على نفسه، فهجوموا عليه، فقتلوا، وجاءوا برأسه إلى خieran في سنة 408هـ / 1017م^(٤).

ولم تكن نهاية علي بن حمود بآحسن من غريم المرتضى، فقد قُتل وهو بصدّ المسير إلى شرق الأندلس لقتال خieran والعامريين، إذ تذهب المصادر التاريخية إلى أن الجيش قد تجمع في قرطبة بانتظار علي بن حمود ولكنه أبطأ (فلما طال على الناس انتظاره بخنو عن أمره، فدخلوا عليه، فرأوه مقنولاً فعاد العسكر إلى البلد)^(٥).

ويذكر ابن عذاري على أن متذري القتل كانوا من خدمه وفتانه من صفالحة بني مروان، وكانوا ثلاثة صبيان (سدوا عليه باب الحمام، وتسللوا فلم يحس أحد بهم،

(١) نفس المصدر، ص 121.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 285.

(٣) نفس المصدر.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 285.

(٥) نفس المصدر، ص 285-286.

فاستطاع نساؤه بقاءه، فدخلوا عليه ودمه يسيل فصحَّ خبر مقتله⁽¹⁾. وتولى خلافته أخيه القاسم.

القاسم بن حمود المأمون

وهو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس الحنفي، تلقب بالمامورون ويكنى أبو محمد وأمه البيضاء القرشية⁽²⁾، بويغ بالخلافة في 4 ذي القعدة سنة 408 هـ وكانت بداية عهده قد شهدت الاستقرار وانتشار الأمن في ربوع الأندلس، إذ أن القاسم قد أحسن إلى الناس وأنصفهم بعده ولاقاهم (واجل مواعيدهم، وأخرج النساء في أقطار البلد ب أيام الأحر والأسود)، وبيراء الذمة من تسرُّع على أحد)⁽³⁾. وتمكن القاسم من تطبيق القصاص على قاتلي أخيه ثلاثة بعدهما أثروا بجرائمهم فامر بقتلهم (وتسم الناس روح الرفق، وبashروا ظل الأمن، واطمأن بهم الدار.. وأفرَّ القاضي والحكام والعمال على منازلهم).

كما قام القاسم بعد استقرار الحكم له بمراسلة العاملين، وولى زهير العامري على جيان، وقلعة رياح وبإيه، وراسل خيران واستماله وجاء له راجتمع به ثم عاد إلى المرية، ونذكر المصادر التاريخية عن اعتناق القاسم المذهب الشيعي. لكنه على ما يبدو لم يجهز ذلك، ولم يجبر أحد على تغيير مذهبه وعاداته، لكن حالة الاستقرار في عهد القاسم لم تدم طويلاً، إذ أنه قد وقع تحت سيطرة البرير والقتيان العامرية القائمين على شرق الأندلس، فضعف أمره وتلاشى سلطانه وحقد عليه أهل قرطبة وعلى سياساته الجديدة، وكان القاسم قد ولّى السودان بالغ عنايته إذ (قودهم على أعماله إلى أن ضعف أمره)، حتى تسلطوا عليه واحتقروه، مما دفعه إلى مراسلة متذر ابن يحيى التنجي سراً، يدعوه لتأصيله على البرير إلا أنه لم يتمكن من ذلك⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 122.

(2) نفس المصدر، ص 124.

(3) نفس المصدر، ص 130.

(4) ابن عذاري، ج 3، ص 130.

ولقد برز عامل آخر ضد سياسة القاسم وهو ظهور يحيى وإدريس ابنا أخيه المقتول، إذ أخذوا بخبطellan للاستيلاء على قرطبة، وقد كان يحيى مقيماً في سبئ، بينما كان إدريس في مالقة، وكانتا يظهران اليعنة للقاسم بالظاهر، لكنهما كانا يعملان على خلع عميمها، فاتفقا على أن يتول إدريس أمر سبئ وان يتول يحيى أمر مالقة، ما كاد يحيى يمتاز جبل طارق إلى مالقة استقر الأمر له واستخفَّ بهم القاسم الذي تخلى البرير عنه. ووجدوا في التنافس بينه وبين ابن أخيه فرصة للاضعاف الرجلين^(١) فتجمع ليحيى جيشاً من البرير وزحف بهم إلى قرطبة، فأدرك عمه القاسم أن المواجهة لم تكن بصالحه ففر إلى إشبيلية في 22 ربيع الثاني سنة 412 هـ، ودخل يحيى قرطبة. فدعى الناس إلى بيته فأجبوه وكان يحيى يعتمد بشكل مباشر على البرير الذين آذروه وانضموا لقواته إذ إنهم هم الذين ضبطوا له قصر قرطبة.

يحيى بن حمود المعتلي بالله

لقد بايعه أهل الأندلس من البرير وأهل قرطبة بالخلافة في أول جادى الأول سنة 421 هـ وتلقب بالمعتلي بالله، وقام باتباع سياسة متوازنة لا تميل إلى العصبية، واتبع طريق العدل والإنصاف بين الناس في أول عهده، مستخدماً سيرة أبي الناصر ثموزجاً يهتمي بها في سياسته، ولكن لم يستمر المعتلي بهذه السياسة إذ ركب الغرور واستبدل به الإعجاب بنفسه فنامت حاته وكما تشير الرواية على أنه (إلا العجب والكثير شاناً خصاله إلى أن خلط وتبأله)، وغرس عفاريت زنانة فضيقت عليه في التكاليف، حتى اقتصر بعد ما قصر، وأخذ الإعجاب منه فكانت عاقبة أمره خسراً^(٢).

ولقد شهد عهد يحيى ظاهرة وجود خليفة في الأندلس، وهو (أمر لم يُسمع بأذل منه، ولا أدل منه على إدبار الأمور)^(٣). فقد كان هو الخليفة في قرطبة وعمه القاسم خليفة في إشبيلية. وقد استمر القاسم هذا الانقسام في الولاء للخلافة

(١) نفس المصدر، ص 131.

(٢) نفس المصدر، ص 132.

(٣) ابن عذاري، ج 3، ص 132-133.

فاستعن بعض البربرة واستطاع أن يشكل منهم قوة تمكن بها من مهاجمة قرطبة، والتي قام البربر فيها بخلع المعتملي في 12 ذي القعدة سنة 413 هـ واستدعوا القاسم وجددت له البيعة للمرة الثانية في 18 ذي القعدة سنة 413 هـ فدخل القاسم قرطبة، وغادرها يجئ متوجهاً إلى مالقة. وصار يسمى بأمير المؤمنين⁽¹⁾. فيما سار المعتملي إلى الجزيرة الخضراء واستولى عليها، أما إدريس آخره فقد استولى على طنجة، وفي ظل هذه الظروف المشابكة والمساعدة، أخذت كفة الموارزين تشير إلى ضعف كفة القاسم، إذ أن أهل قرطبة تعاضدوا على خلعه بعد أن تسلط البربر على شؤون الدولة، واستبدادهم بالأمر وظلم أهل قرطبة، فشاروا عليه وخلعوه في 21 جمادي الآخرة سنة 414 هـ وحاصروه في قصره أيامًا حتى أرغموه على مغادرته إلى الضاحية الغربية هو وجيشه البربري، وأغلقوا أبواب المدينة كلها طوال خمسة أيام، بعد أن اضطروا إلى قتال البربر قتالاً شديداً وهزموهم هزيمة شنعاء⁽²⁾.

غادر على أثرها القاسم مهزوماً إلى إشبيلية وكان فيها ولداه محمد والحسن، أما البربر الذين كانوا معه فقد تخلوا عنه (ولحقت كل طائفة منهم ببلد واستولوا عليه)⁽³⁾. ويبدو أن القاسم كان يعتقد أنه مُرجحاً به من قبل إشبيلية كسابق عهده، ولكنهم خيروا ظنه فقد (غلق أهل إشبيلية أبوابها دونه لكرامتهم البربر، وأخرجوا له ابنه من قصرهما ومن كان معهما من البربر وضيّعوا بلدهم)⁽⁴⁾، وقد قام أهل إشبيلية بتنصيب أو اختيار - على وجه الدقة - ثلاثة من وجوه القوم وأكابرهم وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل اللخمي، ومحمد بن بريم الألماني، ومحمد بن الحسن الزبيدي، لقيادة أمر الحكم في إشبيلية والذي استقر أخيراً للقاضي اللخمي.

(1) نفس المصدر، ص 133.

(2) ابن سام، الذخيرة، المجلد الثاني، ص 14.

(3) المترى، نفح الطيب، ج 1، ص 432.

(4) ابن الأنبار، الكامل، ج 7، ص 287.

ولم يجد القاسم طريقاً إلا الهروب إلى شريش، بينما تخلى البرير عنه، ولما علم يحيى بن حود بوجود القاسم هناك، زحف إليه في شريش مع ما انضم إليه من البرير الذين تخلوا عن القاسم، واستطاع حصار شريش وأسر القاسم إذ يقول المقرى (فحضروه ثم أخذوه أسريراً، فجده يحيى فيق في جسه إلى أن توفى يحيى وملك آخره إدريس، فلما ملك قتله)، وقيل: بل مات حتف أنه، وحمل إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه)⁽¹⁾.

أما في قرطبة فقد قام أهلها باختيار ثلاثة من أمراء الروانية وهم سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار. وتم اجتماع في جامعة قرطبة في 4 رمضان سنة 414 هـ لكافة متويات وطبقات أهل قرطبة لانتخاب واحد من الثلاثة وبايعته بالخلافة، فكان الاختيار الأولى لسليمان بن المرتضى لإنهاء حالة الفراغ السياسي في قرطبة بعد نهاية المعلى بالله والقاسم. ولكن هذا الاختيار لم يصمد أمام قدوم عبد الرحمن بن هشام بن عبدالجبار مع شرذمة من رجاله، شاهرين سيوفهم لغرض القتال إذ لم تم البيعة لصاحبهم عبد الرحمن، فبُويع عبد الرحمن (وكثُط شيخ قرطبة الذين كانوا يسعون لخلافة سليمان اسم سليمان من البر، وكتبوا مكانه اسم عبد الرحمن بن هشام)⁽²⁾.

عبدالرحمن بن هشام المستظہر بالله

وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وكتبه أبو المطر، وهو من أم روبيه اسمها غالية⁽³⁾، تولى الخلافة وعمره اثنان وعشرون سنة، واتخذ لقب المستظہر، ولقد حاول هذا الرجل أن يتسلم الحكم من قبل هذه المرة إذ أنه (قد كان هم بالوثوب على الخلافة عند انفراط سلطان القاسم بن حود بقرطبة، بينما ظلّ هو متخيناً)، ولا عجب أن نرى كيف انقضت هذه المرة على الخلافة

(1) المقرى، فتح الطيب، ج 1، ص 432.

(2) ابن عذاري، اليان، ج 3، ص 135.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 287.

وانتزاعها من أهل قرطبة غصباً كما رأينا قبل قليل في وقت كان سليمان المرتضى قد حصل على الموافقة الأولى من أهل قرطبة (وكان أول من وافق منهم سليمان المرتضى في أئمة دلت على أن المراد فيه، فدخل والسرور بايد عليه، فقدمه أصحابه في البهور، فأجلس على مرتبة لا تصلح لسواه وهو جذلان لا يشك في تسمة الأمر له)⁽¹⁾.

وهكذا استقر الحكم للمستظہر، الذي كان (فطنًا لوعياً يقطنًا لبياً أدبياً فصيحاً الكلام جيد القرىحة مليح البلاغة)⁽²⁾، إلا إنه بعد أن استأمن الناس والوجهاء في قرطبة على أنفسهم، نكث وعوده، معتمداً برأيه إلى درجة الغلو، فقام بسجن جماعة من وجهاء قرطبة لاتهامهم بالليل إلى سليمان المرتضى، وكان من بينهم ابن عمران وهو شديد الكراهة له، ولكن الوجهاء استطاعوا أن يتصلوا بصاحب المدينة الذي استجاب لطلبهم هو مع جماعة من أهل قرطبة فهاجروا السجن وأخرجوهم كما ثاروا على الخليفة ومن بين أسباب ثورتهم هو أن المستظہر قد أكرم وفداً من البربر قدم إليه، فصاح الناس: عاد شر البربر جدعاً، وهاج الناس وماجوا وقتلوا الضيرف البرابرة وحاصروها القصر، وكان من بين الساخطين ضد الخليفة أبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله بن عبدالرحمن الناصر، الذي قاد الثوار فقلدوه الخلافة وبإيعوه. واستمرروا بالمجوم على قصر الخلافة حتى سبي المهاجرون بعض نساء المستظہر (وحلوهن إلى ممتازهم علانية، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة)⁽³⁾. أما المستظہر عندما شعر بأنه أصبح في قبضة المهاجرين بعد أن احاطوا بالقصر من كل جهة، فهرب إلى الحمام وتغريد من ثيابه حتى يقى في قميصه، واستخفى في أتون الحمام، وقد غُثر عليه لاحقاً (وقد انطوى انطواء الحبة في مكان حرج في قميص سود بحال قبيحة، وجيء به إلى محمد بن عبدالرحمن، فبطش به بعض

(1) ابن عذاري، ج 3، ص 136.

(2) ابن عذاري، ج 3، ص 139.

(3) نفس المصدر.

الرجال القائمين على رأسه فقتلوه⁽¹⁾، وكان ذلك في 3 ذي القعدة سنة 414هـ / 1023م، وقد انتهت خلافة المستظر والي دامت سبعة وأربعين يوماً فقط⁽²⁾.

محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله

بوبع بالخلافة وتلقب بالمستكفي بالله، ويكتنأ بأبي عبدالرحمن، بدأ عهده بقتل الخليفة السابق وواصل بداية عهده الدموي بقتل ابن عمه محمد بن العراقي خلفاً سنة 415هـ فكان هذا الخليفة سبع الخلق، عاهرًا، عاطلاً من المصالح والقضاء، منتصراً إلى اللهو والعبث⁽³⁾، تشبه المصادر التاريخية بال الخليفة العباسي المستكفي بالله لاشتراكيهما في صفات مشتركة (واستظهرا هما بالفتق، واعتداء كل منها على ابن عمه.. ومن العجب أنهما اتفقا في الأخلاق والعهر واللعبة، وأن كل واحد منها عاش اثنين وخمسين سنة، وكل واحد منها ملك ستة وسبعين سنة وسبعين شهر، وكل واحد منهمما ترك أبواه صغيراً، وتوفقا في اللقب، وباجملة فهمما رذل قومهما)⁽⁴⁾، وكان المستكفي بالله (همه لا يudo فرجه وبطنه، وليس له هم ولا فكر سواهما)⁽⁵⁾ وإنه (لم يكن محمد هذا من الأمر في ورد ولا صدر إنما أرسله الله تعالى إلى أهل فرطبة الخاسرين بلية، وكان متذ عرف عطلاً منقطعاً إلى البطالة، محولاً على الجبهة، عاطلاً من طللة تدل فضيلة). كما شهد عهد المستكفي دماراً استد إلى قصور عبد الرحمن الناصر في قرطبة وقصور الرازحة، ولكن المستكفي قد خلف ابنته الأديبة المشهورة ولادة بنت المستكفي⁽⁶⁾، والتي هي أبرز مآثره الحسنة كما نرى. ولقد ظل المستكفي في خلافته (أسير الشهوة عاهر الخلوة) وهو أمر لم يتمكنه أهل قرطبة كثيراً، وبعد ستة عشر شهراً

(1) نفس المصدر.

(2) المقربي، نفح، ج 1، ص 437

(3) ابن عذاري، ج 3، ص 141.

(4) ابن عذاري، ص 141.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 287.

(6) المقربي، نفح، ج 1، ص 437

ثاروا عليه وخلعوه⁽¹⁾. وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجونة لا يصل إليه طعام ولا شراب، ثم نفوه، وتذهب رواية ابن عذاري على أنه لبس ثياب الغانين متنقاً بين امرأتين، لم يميز متهمها. وبعد سبعة عشر يوماً من خلعه وُجد مقتولاً، وقيل مسموماً في قرية من أعمال مدينة سالم، في ربيع الآخر سنة 416 هـ / 1025 م⁽²⁾.

وفي رواية أخرى تقول إنه في 25 من ربيع الأول سنة 416 هـ دخل عليه وزرائه وأمروه بأن يخرج معهم لقتال يحيى بن علي بن حمود الذي زحف إلى مالقة بقصد الاستيلاء على قرطبة. فتظاهر بالقبول وهو يضرس في قراره نفسه النجاة بحياته، فتلل من قصره بقرطبة في ذي غانة بين امرأتين لم يميز متهمها، وخرج من قرطبة مع بعض رجاله، واختلف معهم في الطريق فقتلوه في بلدة أقليج. ومن خلال سير الأحداث في قرطبة كان يحيى بن علي المعتلي بالله، يراقب الموقف ويوثق من منزلته و شأنه في مالقة، إذ كان لا زال يخطب لنفسه فيها بالخلافة، مما كان من أهل قرطبة أن (كتباً إليه)، وخطابوه بالخلافة، وكتبوا له في رمضان سنة 416 هـ فأجابهم إلى ذلك). وقد دخل قرطبة في 16 رمضان سنة 416 هـ مستعيناً خلافته على الأندلس للمرة الثانية. فأقام فيها ما يقرب أربعة أشهر، ثم رحل إلى مالقة في 8 محرم سنة 417، وترك وزيره أبي جعفر أحمد بن موسى على قرطبة، فانتهز جبوس بن ماكين صاحب غرناطة هذه الفرصة فأوزع إلى مجاهد وخيران إلى دخول قرطبة، وعندما اقتربوا من قرطبة وتأكد وصوهما عند أهلها، ثاروا على البرير وقتلوا منهم نحو ألف رجل وذلك في ربيع الأول سنة 417 هـ / 1026 م⁽³⁾. وهرب الوزير الكاتب أحد بن موسى إلى مالقة، وتهبّ يحيى من العودة إلى قرطبة، فقرر البقاء في مالقة.

وتختلف المصادر التاريخية حول رجوع يحيى إلى قرطبة بعد أن كاتبه أهلها ويعده بالخلافة، إذ يشير البعض إلى أن يحيى المعتلي أرسل إلى قرطبة عبد الرحمن بن

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 287-288.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 142.

(3) ابن عذاري، ج 3، ص 143.

عطاف اليفرني واليأ عليها ولم يحضر هو⁽¹⁾. وهكذا يقرر المراكشي بعدم دخوله إلى قرطبة وإنه كان مقيماً بقرمونة.

وقد ظل يحيى في مالقة حتى قُتل خارج أبواب قرمونة في محرم من سنة 427هـ على أيدي رجال إسماعيل بن عباد. وهكذا تنتهي خلافة المعتلي الثانية والتي قاربت الثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً⁽²⁾.

أما خيران ومجاهد العامريان، فأقاما لمدة شهر في قرطبة بعدها حدث بينهما خلاف، أثار بينهما الريبة والشك والخوف، فخرجا من قرطبة، إذ انسحب خيران منها في أواخر ربيع الآخر سنة 417هـ بينما يبقى مجاهد فترة من الوقت بعدها غادر قرطبة إلى دانية.

ولقد شهدت قرطبة فراغاً سياسياً آخر إلى أن (أجمع أهلها على خلع العلوين لمليهم إلى البرير، وإعادة الخلافة بالأندلس إلىبني أمية)⁽³⁾، فاختاروا هشام بن محمد بن عبد الملك أخي المرتضى، الذي غدر به العامريون وقتلوه في وادي آش.

هشام بن محمد المعتمد بالله

بايعه أهل قرطبة وهو في منطقة حصن البنت، وتلقب بالمعتمد بالله، ويكتفى بأبي بكر، إذ أن هشاماً قد فرَّ بعد هزيمة أخيه المرتضى بالقرب من غرناطة والتجأ إلى صاحبه عبدالله بن قاسم الفهري في حصن البنت (البونت) في شرق الأندلس، وقيل كان مقيماً بالشغر في لاردة عند ابن هود⁽⁴⁾. وظل يحكم لمدة عامين وبسبعين شهر وقرطبة تخطب باسمه خليفة، وهي فترة حكم جيدة قياساً إلى ما سبقه من خلفاء

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 288.

(2) ابن عذاري، ج 3، ص 145.

(3) ابن الأثير، ج 7، ص 290.

(4) نفح الطيب، ج 1، ص 413.

عصر الفتنة، وفي عام 420 هـ استوزر رجلاً يعرف بمحكم ابن سعيد الفزار⁽¹⁾. وكان هذا الوزير نذير شؤم على المعتمد بالله، إذ كان مكروراً من أهل قرطبة لاستبداده برأيه وتعصمه بأحكامه، ومخالفته لأراء الوزراء السابقين، كما أنه كان ميالاً إلى البربر، فقد اكرمه وأجزل لهم العطاء. فقام أهل قرطبة بقتله.

فانتهز أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان، أحد أمراءبني مروان، فرصة قتل الوزير، ليحرض العامة على المعتمد بالله سعيًا لإمساكه، وتولي الخلافة، وثاروا وراءه بنو أمية وحاصروها قصر الخلافة في 12 ذي الحجة سنة 422 هـ، وأخرج هشام من قصره هو ونساؤه وأبناؤه، وانزل إلى سباط المسجد الجامع المؤدي إلى المقصورة، وظل هناك أسيراً ذليلاً، يترقب الموت في كل لحظة⁽²⁾، ولكن أمية بن عبد الرحمن لم يبلغ غايته في الرصول إلى الخلافة فقرر أهل قرطبة إخراج أمية مع المعتمد بالله عن قرطبة⁽³⁾ مع أن أمية كان حريصاً للظفر في الخلافة ولم يخطر بباله أن تنتهي الأمور إلى هذا الحال. إذ أن أحد من أهل قرطبة قال له: إن المساعدة قد ولت عنكم، فقال أمية: بايعوني اليوم، واقتلوني غداً⁽⁴⁾. وهكذا انتهت الخلافة الأموية في قرطبة، بل أن الأصوات ارتفعت بضرورة قيام بني أمية بمعادتها، محذراً من يبقى فيها منهم، وتوعدوا من يتواطأ معهم.

وفي ذلك يقول ابن الخطيب (ومشى البريد في الأسواق والأرباض بآن لا يقى أحد بقرطبة من بني أمية، ولا يكتفيهم أحد)⁽⁵⁾، ولقد اجتمع شيخوخ قرطبة والوزراء برئاسة ابن حزم بن جهور، واتفقوا على خلع المعتمد بالله، وإبطال مرسوم الخلافة

(1) ويكنى بابي العاص.

(2) ابن عذاري، ص 151.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 290.

(4) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص 192 وما بعدها.

(5) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص 192، وما بعدها.

جلة. وابن حزم كان من وزراء الدولة العامرة، قديم الرياسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيءٍ من الفتن.. بل كان يتصاون عنها⁽¹⁾.

وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبه بالحكم الجمهوري عُرف في كتاب التاريخ بحكم الجماعة⁽²⁾.

آراء المصادر التاريخية في نهاية عهد الخلافة الأموية في الأندلس

بعد خلع هشام الثالث الأموي المعتمد بالله سنة 422هـ / 1031م، وإعلان الوزير ابن حزم انتهاء عهد الخلافة، انقسمت الأندلس إلى دولات صغيرة متازعة، واستقل كل أمير بناحية، وأخذت من نفسه ملكاً عليها فدخلت الأندلس في عصر جديد هو عصر الملوك والطوائف، وكان سقوط الخلافة هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى انفراط عقد الوحدة الأندلسية ووصولها إلى مثل هذا الحال، حتى بلغ عدد الأسر الحاكمة في الأندلس الذي كان موحداً إلى عشرين⁽³⁾ أسرة مسلمة من عشرين مدينة أو مقاطعة، وقد أدت هذه الأوضاع والتشتت والفرقة إلى عجز هؤلاء الملوك من الصمود أمام الملك المسيحية التي أخذت تتوحد في شمال الأندلس وتزحف نحو الجنوب وتستولي على البلاد سعيّة للقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس عامة.

وهكذا تدهورت أنور الأندلس كله وتداعىت القواعد الراسخة والوطيدة التي وضعها خلفاء بني أمية وأمراؤهم. وخاصة عبدالرحمن الداخل والناصر والحكم.

فقال ابن خلدون يصف أحوال هذه الفترة (صار ملكها في طوائف من المولاي والوزراء وأعياض الخلافة وكبار العرب والبربر، واقسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها، وتغلب بعض على بعض، واستقل بأمرها ملوك استفحلاً)⁽⁴⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 290.

(2) د. العابدي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 274.

(3) وقبل ستة عشر دولة مسلمة، انظر د. عبدالفتاح الفتبي، كيف ضاع الإسلام، ص 255.

(4) المقري، فتح الطيب، ج 1، ص 438.

ويقول ابن عذاري (فمن هذا التاريخ 422هـ) كثرت الفتنة، وغادي وانتزى كل أحد في موضعه، واستبد رؤساء الأندلس وثاروا فيما بين أيديهم من البلاد والمعاقل وبغي بعضهم بعض، ولله الحول والقوة⁽¹⁾.

ويذكر ابن الكرسوس بعد أن انقطع اسم الخلافة من الجزيرة.. دارت الدوائر المبررة، وفسد حال الرائس والمؤروس، وارتفع كل خامل وخبيث، وثار الثوار، واشتغلت بكل مكان النار). وستنقى نظرية عامة على هذا العصر لأننا نعتقد وفق منهج دراستنا هذه أن الإسلام وحضارته في الأندلس قد انعدمت فاعليتها على العطاء الإنساني والحضاري منذ أن فصلت سلطة الخلافة وأقصيت من التأثير في المشهد السياسي وصار الخليفة لعبة يد الحاجب المنصور بن أبي عامر وأولاده، الذين انتزعوا من الخليفة كل سلطاته الواقعية. ولا شك أن الفصل بين السلطتين الواقعية والروحية، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأمورية الإسلامية في الأندلس. لذا فإن عصر ملوك الطوائف جاء نتيجة منطقية وتحصيل حاصل لما حصل للخلافة في قرطبة بعد أن حسم أهلها أمر الخلافة كما رأينا.

ولقد شهد عصر ملوك الطوائف انقسام الأندلس إلى عدة إمارات، هي إمارة الجهاورة في قرطبة التي أسسها أبو حزم الأجهوري دام حكمها نحو أربعين عاماً (422هـ - 461هـ)، وكانت هذه الإمارة بمثابة عمدة الروح لدولة بني أمية عند احتضارها، فكانت متميزة في نهجها ولقد شملت هذه الإمارة العديد من المدن في شمال قرطبة وامتدت حتى حدود إمارة غرناطة وكان حكمها يستند إلى مجلس استشاري مكون من خيرة الرجال لا سيما رجال الدين والفقهاء وقادة الجيش، ولكنها انتهت كحال إمارات المالك الأخرى. إذ انتهت بعدها قرطبة وقدرت أهميتها تماماً، وانتهى حكم بني جهور وأصبحت قرطبة مدينة في إمارة إشبيلية العابدية. وإمارة طليطلة التي حكمها أبناء ذي النون الذين يعودون في أصولهم إلى أصول بربيرية قدية في الأندلس. وإمارة إشبيلية والتي حكمها بنو عباد، وإمارة سرقسطة وهي من أعظم إمارات الطوائف التي

(1) البيان، ج 3، ص 152.

ظهرت على الساحة السياسية في الأندلس بعد سقوط الخلافة، من حيث سعة رقعتها الجغرافية وموقعها، وحكمها بنو هود وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هو الخذامي^(١)، وبعده آلت السلطة إلى أبي جعفر أحد.

وهناك إمارة بطليوس، وإمارة بلشية وإمارة المربية، وإمارة ولية وشلطيش، وإمارة مارسية، وإمارة باجة وإمارة شلب، وإمارة غرناطة. ومن هنا العرض السريع لتعاونين الإمارات. يذهب أكثر من باحث معاصر^(٢) إلى أن هذه الإمارات أو الدوليات الطائفية قد انضوت تحت خيمة ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على السيطرة الأندلس، الحزب الأول: يمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم الزمان وانصهروا في نسيج المجتمع الإسباني وصاروا أندلسيين رغم اختلاف أصولهم، فمنهم العربي والمغربي والصقلي والإسباني وقد عُرف هؤلاء بأهل الجماعة. وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون في إشبيلية، وبنو جيور في قرطبة وبنو هود في سرقسطة، وبنو صادق في المربية، وبنو يرزال في قرمونة، وبنو خزرون في أركش، وبنو نوح في مورورو .. الخ.

والحزب الثاني يمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس، وخصوصاً قبيلة الصنهاجية الذين استقروا في الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر، ومن زعماء هذا الحزب زيري الصنهاجي في غرناطة.

وأما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس. وكان هؤلاء الصقالبة في الأصل بعيداً من سي الشعوب السلافية والذين باعوهم إلى عرب الأندلس، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة، ثم توسع استخدام هذا الاسم ليشمل كل الموالي الذين جلبو من مختلف البلاد الأوروبية، بما في ذلك شمال إسبانيا

(١) نسبة إلى قبيلة بني جذام العربية الملالية.

(٢) انظر، د. العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 275، وما يليها.

المسيحي. وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية، شارك هؤلاء الصقاليبة في الثورات والمؤامرات التي قامت في قرطبة وغيرها من أقاليم الأندلس.

و عملت هذه الأحزاب والأهراء إلى إنتاج حكام مثلوا المهد الضعيف سياسياً واجتماعياً، فبالغوا في التلقيب بالقاب الخلفاء وتقليد خلفاء الشرقي في حياتهم وبذخهم، مقابل نهضة شاملة للدول المسيحية في إسبانيا. ومساندة فرنسا والبابوية، أدت إلى احتلال الإسبان لملكة طليطلة قلب الأندلس. وملوك الطوائف يقاتلون بعضهم البعض، حتى أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية جاءته رسالة من الملك الفونسو السادس وعليها لقب (إمبراطور جميع إسبانيا)، أو ذو المئين (الإسلام والمسيحية)، فقام المعتمد بشطب هذا اللقب للملك وقال للرسول غاضباً: (الملمون أحق بهذا الاسم)، ولكن احتجاج المعتمد لم يكن له قيمة على أرض الواقع، لأن الأحوال في الأندلس بلغت في ذلك الوقت أقصى درجات الضعف والفساد حتى قيل بعض الأندلسيين أن العالم على وشك الزوال وأن الزمان على آخره^(١).

وسوف نتناول في الفصل القادم الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة، وانهيار الدولة الأموية الإسلامية في قرطبة.



(١) ابن عبانون، رسالة الحبة، ص 251. د. مختار العبادي، ص 284.

الفصل التامن

- أسباب سقوط المخلافة في قرطبة
- المعالم الحضارية في الأندلس
- العمران الديني
- العمران المدني

الفهيل الثامن

أسباب سقوط الخلافة في قرطبة

في عام 422هـ / 1031م، سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها دشام الثالث المعبد بالله، وطرد من تبقى من آل مروان من قرطبة. وقد كان إعلان مجلس أعيان وشيخ قرطبة وكبيرهم الوزير أبو الحزم بن جهور بانتهاء الخلافة لعدم وجود من يستحقها تأكيداً على اقسام الأندلس لإمارات مستقلة وذهب حكم الخلافة المركزي في قرطبة إلى غير رجعة.

والحقيقة أن سقوط الخلافة لم يكن ولبداً لقرار قرطبة، بل كان نتيجة جملة من الأسباب الكامنة في كيان الدولة الإسلامية في الأندلس. بدأت عندما تحول الخليفة من رمز للوحدة السياسية والدينية للبلاد إلى مجرد يد الحاجب حتى تحول إلى مركز تقوم بصنعه ثلاثة فئات رئيسية في قرطبة، هي: عامة قرطبة، والبربر، والصقالبة⁽¹⁾. ولقد كان قرار إلغاء الخلافة هو الحدث الوحيد في تاريخ الدولة الإسلامية في الشرق والغرب، إذ لم يبق لأية جماعة أن تقدم على هذا القرار⁽²⁾، فقد ظلت الخلافة العباسية رغم ضعفها وزوال القوة الفعلية للخلافة، قائمة كرمز ديني لوحدة المسلمين في الشرق حتى بعد سقوطها في بغداد على يد المغول عام 656هـ إذ قام المصريون بإعلان الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ ومن بعدهم العثمانيون في الأستانة.

فهـ هي الأسباب الحقيقة التي أدت إلى انهيار وسقوط الخلافة الإسلامية في قرطبة؟

(1) مونتمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة: د. محمد رضا المصري، 97.

(2) مأساة الفردوس المفقود، د. عبدالفتاح الغنمي، ص 255.

هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط منها ما يتعلق بطبيعة التركيب السكاني للمجتمع الأندلسي في أواخر عهد الخلافة، ومنها ما يتعلق بطبيعة النظام السياسي الإسلامي في الأندلس، ومنها ما يتعلق بجغرافية هذه البلاد وغيرها الكثير وسوف نذكر أهم الأسباب التي ساهمت وفعّلت عملية سقوط الخلافة في قرطبة كما نعتقد:

1- لقد كان المجتمع الأندلسي يتكون من خليط سكاني غير متجانس قوامه العرب والذين كانوا يشكلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في عهود الفتوحات الأولى وما تلاها قليلاً، والبربر والصقالبة والملوكيون والمغاربة واليهود. وبالتالي فإن هذا النسيج غير المتجانس يولد الميل إلى الاستقرار والتكتل في مناطق عمرانية خاصة بكل عصر، فبالإضافة أن قرطبة استقطبت غالبية العنصر العربي، بينما استقر في إشبيلية وطبلطلة غالبية المولدين، بينما كان غالبية البربر يستوطنون غرناطة وقرمونة ومالقة⁽¹⁾، وهذا التوزيع السكاني للأندلس شجع على الاستقلال والخروج عن السلطة المركزية ولا سيما في فترة تدهورها وضعفها.

2- العامل الجغرافي، إذ يرى باحث معاصر⁽²⁾ أن أهل الأندلس كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم في شبه الجزيرة وإن هذا أدى إلى تعزيز البلاد بسهولة، وهو سبب واقعي إذا ما عرفنا أن امتداد سلاسل الجبال من الشرق أو الشمال الشرقي إلى الغرب أو الجنوب الغربي في طبيعة الأندلس الجغرافية قد عمل حواجز من الصعب اجتيازها في ذلك الزمان، وقسم الأندلس بذلك إلى أقاليم تكاد تكون مفصولة وقد ساعدت هذه الطبيعة الوعرة والمتباينة إلى ميل البلاد إلى التزعة الانفصالية، لا سيما أن الإسبان وقوات المقاومة للمحكم الإسلامي قد اتخذت من هذه المناطق أوكاراً لها لشن الهجمات على المسلمين كما رأينا في دراستنا هذه.

(1) انظر د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ص 364.

(2) د. حسين مؤمن.

3- السياسات المتخلفة التي اتخذها الحكام المسلمين في التعامل مع المجتمع الأندلسي المتعدد الأطیاف المرقية وذلك لتغليظهم عنصراً على آخر في الحكم. مما يجعل السيادة يد عنصر واحد يقوم باستبداده واضطهاد بقية عناصر المجتمع الأندلسي، وهو ما حصل لعبدالرحمن الداخل عندما أساء معاملة زعيم القبائل اليمانية أبي الصابح بن يحيى اليعصي مما أدى إلى ثورة اليمنية عليه، كذلك ما حدث لعبدالرحمن الناصر عندما خذله القادة العرب وذلك لتفريبه الصقالبة والفتيان وإبعاده العرب⁽¹⁾ () والذى تذكر المصادر التاريخية عن الناصر بالقول: (ولكته عفا الله عنه مال إلى اللهو، واستولى عليه العجب.. وأغاظ الأحرار بإقامته الأنذال كنجدة الحيري وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره، وفوض إليه جليل أموره، وأجلأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقف عند أمره ونهيه، وحال نجدة حال مثله في غيره واستخفافه وركاكة عقله، فتوطاً أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم من الغزو التي غزاها عام 326هـ وسمّاها غزوة القدرة، لاحتلاله فيها وعظيم مشهدها، فهزم فيها أربع هزيمة، وأنبعهم العدو أيامًا يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة..). وكذلك ما شهدنا من تاريخ الحكام المسلمين والحوادث التاريخية التي ألمت بهم من جراء تغريبيهم البربر أحياناً على الآخرين أو العرب على الآخرين. وهذا ذكرناه في دراستنا التي استندت من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافة في قرطبة فرأينا كيف أن الحاجب المنصور بن أبي عامر قد اعتمد في جيشه على عنصرين فقط هما البربر والصقالبة، وذلك محاولة منه لازالة العصبية العرقية في الجيش لضمان الولاء، لكنه اعتمد على البربر بالدرجة الأساس إذ قام بجلب الكثير منهم إلى قرطبة من المغرب وأفريقيا حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها⁽³⁾،

(1) في موقة شانت مكشن الشهيرة بمعركة الخندق سنة 327هـ.

(2) أخبار الجموعة، ص 155-156.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 428.

ويذكر ابن الخطيب إلى أن عدّة الفرسان من البربر الغرباء في ديوان ابن أبي عامر بلغ ثلاثة آلاف فارس.. وهكذا اعتمد المتصور في جيشه على عنصرين فقط هما البربر والصقالبة مع ميل واضح للبربر وأهمال رجال العرب، إذ يذكر المقري (أنه - الحاجب المتصور - استدعى أهل العدوة من رجال زناته والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطناع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومفراوة وبين يعزون ومكناة.. وقدم البرابرة وزناته وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مرابتهم)⁽¹⁾. وبهذا الإقصاء للعنصر العربي الذي شكل قيادة الجيوش الإسلامية في الغالب قد قضى على عنصر المغالبة والممانعة على حد تعبير ابن خلدون والتي لا تستند إلا على التعرّة والعصبية فتى ما فدت العصبية انهارت السلطة المركزية، ولاحظنا أن انفراضاً العصبية العربية بعد زوال الدولة العامرة من أسباب انهيار الخلافة الأموية.

4- أساليب القسوة والبطش والتكميل التي أتبعها الولاة والأمراء والخلفاء بحق معارضيهم من المجتمع الإساني قد أدت إلى حصول فجوة واضحة بينهم وبين عامة الناس ساهمت على مر الزمن بإنشاء الحواجز بين الحكام والرعية وأفضت في الآخر إلى هذا السقوط المريع لآخر الخلفاء في قرطبة⁽²⁾. فكما يقول ابن خلدون (فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منصباً عن عورات الناس، وتعدد ذنوبيهم، شملهم الخوف والذل، ولادوا منه بالكذب وال欺ك والخدعية، فتخلقاً بها، وفدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن المروب والمدافعت ففسدت الحماية بفساد البنيات، وربما أجمعوا على قتلته لذلك، ففسد الدولة ومخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية، وإذا كان وفيقاً بهم متتجاوزاً عن سيئاتهم، استلاموا إليه، ولادوا به، وأشاربوا بحث، واستماتوا دونه في محاسبة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب)⁽²⁾. ولقد شاهدنا صحة هذا التحليل في مسيرة الإسلام في الأندلس ومقدار ما تغيره سياسة

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 374.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 189.

اللين والاعتدال مع الرعية من استقرار كما حصل في عهد عبد الرحمن الثاني والحكم المستنصر مثلاً من سيادة الطمأنينة والرخاء. على عكس ما تثيره سياسة العنف والبطش من فوضى واضطراب وهو ما شهدناه في أغلب فترات الحكم الإسلامي وخصوصاً بعد عهد الإمارة الأموية في الأندلس.

5- استشراء الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين عناصر المجتمع الإسباني وحكامه، وانقسامهم وتشريذهم إلى أحزاب، إذ استخدمت كل الوسائل للإيقاع ببعضها وتنصيب الحاكم الذي يرونون صالحًا لتنفيذ مآربهم وأدى هذا التاجر إلى الاستعنة بالقرى الأجنبية للاتصال على خصومهم الأندلسيين⁽¹⁾ ولقد رأينا أثناء دراستنا كيف أن الخلفاء والحكام المسلمين قد استعنوا بالسبعين الإسبان في الشمال لنجدتهم من خصومهم المسلمين في الأندلس مقابل التازل لهم عن بعض المصالح أو الحصون، وهذا كان عاملًا من العوامل التي ساهمت في إضعاف الإسلام في الأندلس، لا سيما وأن النصارى قد استثمروا هذا الجانب وبدعوا بالتدخل في شؤون الأندلس الإسلامية بغية استرداد ما احتله المسلمون من أراضيهم وهو ما حصل فعلًا.

6- هناك عامل يتعلق بالجانب الاقتصادي والتراث الذي ازداد كثيراً في عهد عبد الرحمن الثالث وجعل المستوى الاقتصادي ل معظم السكان مرتفع، مما جعل المجتمع الأندلسي ينظر إلى الأمور نظرية مادية وهذا الأمر أدى إلى الحسد من المواطنين المستعدين للتضحيات في سبيل وحدة البلاد، وما تطلبه من مبدئية وإيمان وجihad في سبيل الله.

7- يرى باحث غربي⁽¹⁾ إن هناك خلل أساسى ما في الحضارة الإسلامية أو بُنى العصر الوسيط الاجتماعية، إذ يقول: أن هناك إخفاق في تكيف الأفكار الإسلامية مع مشاكل معاصرة، وعدم وجود طبقة متوسطة راسخة الأساس مهمتها الحفاظة على حكومة مركزية فعالة. وبطبيعة الحال على الرغم من اشتهره بأنه دين سياسي، لم يكن ناجحاً بشكل جليٍ في أفكاره السياسية، ويرى أن الأمور سارت على ما يرام في عهد النبي محمد، لأنه كان قادرًا على تكيف الأفكار

(1) موتغمرى وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد المصري، ص 98 وما يليها.

والمؤسسات الموجودة مع حاجات جماعته الثانية، إلا أنه والخلفاء الراشدين من بعده ظلوا عملياً حبيسي المفاهيم السياسية المرتبطة بالقبيلة العربية. ويرى أن هذه المفاهيم قد أثبتت فاعليتها على أساس قبلي إذ أن جماعة المسلمين كانت قبيلة مسيطرة والجماعات غير الإسلامية هي بثابة قبائل خاضعة لها. ولكن هذا الفهم لم يقصد كثيراً أمام التوسعات المتأخرة للإمبراطورية الإسلامية، ولا سيما التواحات الإسلامية في بلاد فارس، مما اضطر الحكم المسلمين إلى (فرض اقتباس أفكار فارسية في فن الحكم، كانت على عهد أمويي الشام محاولات متعددة، ثم ما لبثت أن شهدت في عهد العباسيين، إقبالاً لا تحفظ عليه). وكانت بعض هذه الأفكار الفارسية في فن الحكم قد وصلت إلى إسبانيا أيضاً، ولكن الباحث يتساءل عن جدية الحكم المسلمين في تطبيق نهج محمد في التعامل مع أهل الذمة، عندما يكونوا أبناء مسيحيون يتمتعون باستقلال مطلق من دون أن يعوا الفوارق الطبيعية الناتجة من الفهم المختلف لهؤلاء الأشخاص في التعامل مع رعاياهم النصارى؟ ويخلص إلى أن الأفكار السياسية، التي عمل المسلمون بموجبها في الأندلس، لم تكن مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمبادئ الإسلام من حيث هو دين، فقد استقل العمل السياسي عند الدين. ووافق الحكم المسلمين على الخضوع للأعراف المحلية الإسبانية في إدارة الحكم. لذلك مال الناس بسبب ذلك إلى مراعاة مصالحهم الخاصة، أو مصلحة الدولة العليا، ونتيجة لهذا أصبح أي نظام يوجد في الحكم همة الأول الحافظة على ذاته دون الاهتمام بالمصلحة العامة ومستقبل المجتمع. وهو ما كان أحد العوامل التي أدت إلى انهيار الخلافة.

8- يذهب الباحث (وات) إلى تأكيد مسألة مهمة ساهمت في فشل المسلمين في التوسع في شبه جزيرة إسبانيا أو حتى الاحتفاظ بما كانوا يحتلونه منها، وهي أن الحكم يرغم استبدادهم البربر الجدد والصقالبة لتؤمن إخضاع الأسراء النصارى، والتتوسع في شمال أفريقيا، لكنهم لم يمتلكوا العناية الدينية للحفاظ على الكيان الإسلامي السياسي في مجتمع يضم كل عناصره عبادة الله في حرية.

إذ أنهما تخططا في الخلط بين الدين والسياسة (فالسياسة لها استقلالها الخاص، والنشاطات السياسية ينبغي أن تخضع لاعتبارات سياسية). ولقد جاء هذا الخلط في

الممارسات السياسية من قبل الحكام المسلمين وذلك من خلال إخضاع الممارسات السياسية للمنظور العقائدي الدينية، لإيجاد المبرر الديني للعمل السياسي، وبعد زوال مثل العقيدة والدين وهو الخلقة في آخر عهد الخلافة أو من خلال وجوده الصوري في المرحلة السابقة عليها. كانت السياسة غير قادرة للمضي وحدها دون وجود مبرر ديني كالجهاد مثلاً. وبهذا تعطل الفعل سواء أكان سياسياً أم دينياً ليكون فوهة فاعلة في حياة المجتمع الأندلسي. لوجود هذا الازدواج بين الدين والسياسة في ظرف غابت فيه الإرادة في كلا المحتلين وأصبحت مقاومة لشروط لاغرين غير مهورة.

9- لقد أدى الاختلال الحاد في التوازن الطيفي للمجتمع الأندلسي إلى وجود طبقتين هما: طبقة عليا وطبقة دنيا، وتكون هذه الطبقة من كادحى المدن والأرياف، بينما تشكل الأولى، الحكام والموظفين المدنيين وقادة الجيش وملوك الأرضي وكبار التجار. وهذا يدل على انعدام وجود طبقة وسطى ليس على المستوى الاقتصادي فقط - رغم أهميته - فلقد انعدمت فاعلية هذه الطبقة اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن المعروف أن الطبقة الوسطى هي الضمانة الأكيدة للحفاظ على وجود الدولة المركزية لارتباط مصالحها وولائها أفقاً وعمودياً في الحكم المركزي والتبسيج الاجتماعي العام. فعلى المستوى الديني كان فقهاء السنة ومثلهم الرئيßen قد وفروا على الحيد بل أصبحوا تابعين لسلطة مركز الحكم. الأمر الذي ساهم في تقristي الطبقة الوسطى، وتعزيز وجود الطبقة العليا والتي نادرًا ما كان حافظ هذه الطبقة في حياة المجتمع أساسه الدين أو مصالح الناس بقدر ما كانت الخوازف الدينية هي المحرك الأساس لها. ففي الوقت الذي تستخدم السلطات الحاكمة الأفكار الدينية، مثل الجهاد، لحثّ العامة على الخروج للفتوحات، تدرك الطبقة العليا أن القصد من وراء هذه الأعمال العسكرية هو لزيادة سلطان الحكام وليس إخضاع النصارى ونشر الإسلام، وهنا توسيع الفجوة بين الطبقة العليا والحاكم، وأخفق المفهوم الديني لدور الطبقة العليا في حياة الأمة الإسلامية، أي أن العلاقة بين الحاكم الإسلامي والطبقة العليا لم يعد يحكمها غير المصلحة الخاصة لكليهما وانتهى العامل الديني في تحديد خط

هذه العلاقة. لذا فقدت الطبقة العليا ولأنها لم تكن الحكم المركزي، في الوقت الذي يمثل الولاء الديني ثابت بنوي قوم عليه الأمة. وعلى هذا الأساس أصبحت الطبقة العليا غير معنية في تحمل مسؤولياتها للمحافظة على بقية المجتمع الأندلسي. وانصرفت إلى تحقيق مآربها الخاصة. لذا فإن الطبقة الدنيا هي الأخرى قد فقدت ولائها للسلطة بمثابة ما نالها من الجحود والظلم والاضطهاد، إذ كانت هي حطب الحروب ووقودها الدائم من دون أي غاية تتحققها على المستوى الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي. وهذا الفراغ الطبيعي (إذا جاز التعبير) في عدم وجود طبقة وسطى ساهم في انهيار النظام السياسي للخلافة الإسلامية، بعد أن اجتمع كل الظروف لاقصاء وتهييش دور هذه الطبقة الحيوى في الحفاظ على تمامك النظام السياسي والنبيج الاجتماعي للمجتمع الأندلسي.

مكنا انهارت الخلافة الأموية في قرطبة وانتهت صفة الدولة الإسلامية المركبة في الأندلس وتحولت إلى دويلات متاثرة ومستقلة. وهكذا انتهت وحدة الدولة الإسلامية في الأندلس التي لم تشملها الدولة الأموية والتي امتدت من ضفاف نهر دورو شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شواطئ البحر الأبيض المتوسط شرقاً، حتى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً دامت زمنياً زهاء ثلاثة سة، دولة مركبة عاصمتها الأخيرة قرطبة.

المعلم الحضاري في الأندلس⁽¹⁾

لم يكن الوجود الإسلامي في إسبانيا وجوداً عسكرياً محضاً، بل إنه حمل فيما حمله من نوايا نشر الدعوة الإسلامية لهذه البلاد القصبة عن مركز الخلافة الإسلامية في الشرق. لذا، فإن الفتوحات الإسلامية افترست بإنشاء مراكز عمرانية إسلامية كان الغرض منها أولاً أن تكون قواعد حربية ومراعز للجيش من جهة، وصبيح البلاد المفترحة بالصبغة العربية الإسلامية من جهة أخرى. ولقد كان ليه الأندلس الخصبة من طبيعة جغرافية متعددة، وقربها من المغرب وأفريقيا، ومناخها المتوسطي الذي لم

(1) انظر، د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثاره، ص 375 وما يليها.

يختلف كثيراً عن الماخ الشرقي العربي والإسلامي، أثراً كبيراً على التأقلم السريع للمل慕ين مع البيئة الأندلسية، أضف على ذلك الامتداد الرمزي للدولة الإسلامية. قد ساهم كله في نشأة حضارة تعددت اشكالها وتنوعت بين الفكر والمعارف والعلوم والأدب والصناعات والحرف... الخ.

و بما أن العمران يشكل أهم المعالم الحضارية التي لا زالت شاهدة على تلاعج الوجود الإسلامي مع المجتمع الأندلسي في إسبانيا وبحدود ما اقتضته دراستها فندرس المنشآت العمرانية في الأندلس والتي انقسمت إلى عدة أقسام وأهمها:

العمارة الدينية والعمارة المدنية.

العمaran الدينى

المساجد

لم تكن المساجد الإسلامية أماكن لأداء الفرائض الإسلامية فقط، وإنما صارت النواة الأولى لعمار المدينة التي يبني فيها أي جامع مسجد إسلامي، فالجامع الإسلامي يصبح بمورور الزمن مركز المدينة وقلبه النابض، منه تنبع الطرق المؤدية إلى أبواب المدينة، وحول ساحتة تقام الأسواق، والخدمات والفنادق، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع الرؤية الجيش، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية، فليس غريباً أن يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية^(١).

* لذا فإن وجود جامع إسلامي يعني أساس العمران الديني، فإن لم يجدوا عذرًا لإقامة المساجد يشاركون النصارى في كنائسهم، كما فعلوا سابقاً في الشام حين شاركوا نصارى دمشق في كتبة يوحنا المعدان. أو كما فعلوها في الأندلس، فشاركروا النصارى في كنائسهم بناءً على اجتهد الخليفة عمر بن الخطاب. وفي قرطبة تحديداً بناوا لهم جامعاً غير متنظم التخطيط داخل كتبة قرطبة العظمى. إذ يترکوا المقرى (أسس حشن الصنواني وأبو عبد الرحمن الجبلي التابعان قبلة بأيديهما، وترکوا

(١) نفس المصدر، ص 376.

النصف الآخر للنصارى، يقيمون فيه شعائرهم الدينية⁽¹⁾، وكذلك أقيم جامع الجزيرة الخضراء على يدي عبدالله بن خالد على أنقاض كنيسة، كما أُسس جامع طليطلة على أساس كنيسة قديمة. لذا، فإن المسجد الإسلامي كان مركزاً عمانياً بالإضافة إلى دوره الاجتماعي والاقتصادي حتى صار المسجد نقطة تحول في الدراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الإسلامية⁽²⁾.

ومن أهم المساجد التي بُنيت في عهد أمراء آل أمية في قرطبة وغيرها هي:

1- جامع قرطبة

وهو من أعظم المساجد التي عرفها الأندلس، ويعود من أروع التحف الفنية في العمارة الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط، وقد تال اهتماماً كبيراً من قبل مؤرخي المغرب والأندلس، لما اشتمل عليه من أساليب العمارة الأندلسية التي مُزجت في برونقها أذواقاً عديدة، حتى استطاعت أن تعيّر عن العمارة الأندلسية الخاصة والمحببة.

كما يعد جامع قرطبة من الجانب العلمي، أكبر مدرسة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية، إذ تستقبل الطلبة على مختلف دياناتهم وأصولهم العرقية للدراسة فيها. ويقول المقري عن جامع قرطبة: (الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه)⁽³⁾. ويصفه الحميري بالقول أنه (الشهر أمه، الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة، واحكم صنعة، وحال هيبة، وإن كان بنية، تهمّ به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة.. حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يختار فيه الطرف، ويعجز عن حسنة الوصف، فليس في مساجد المسلمين مثله تميّزاً وطولاً وعرضًا)، ولقد شهد هذا الجامع عدة تطويرات منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل

(1) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 96.

(2) د. البد سالم، تاريخ المسلمين، ص 377.

(3) المقري، ج 2، ص 8.

الذى وسع الجامع فاصبح يشمل تسعة أروقة عمودية على جدار القبلة والرواف الأوسط وهو أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتتألف الأروقة من صفوف متوازية من أحد عشر قوساً على شكل حدوة الفرس، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها، ويتناوب في هذه الأقواس الأجر الأخر، وقطع الحجارة الصفراء، مما يكتب المسجد مظهراً زخرفياً بطيأ، وتقوم هذه الأقواس على أعمدة رخامية تعلوها تيجان قديمة من الكنائس الخيرية في قرطبة، وتعلو الأقواس صفوف أخرى من أقواس نصف دائرة، قائمة على دعائم مربعة، وظيفتها حمل الأسفف، وتتند جدران المسجد من الخارج ركائز قوية تضفي على المسجد مظهر القلاع.

وكان فناء المسجد مغروسًا بالأشجار، شأن بقية الجرائم في الأندلس. ولقد توسع المسجد الجامع أيضاً على عهد هشام بن عبد الرحمن الذي بني مئذنة الجامع. وفي عهد عبد الرحمن الثاني وسعه بزيادة روافين جانبين إلى الأروقة التسعة السابقة. وقام عبد الرحمن الناصر ببناء مئذنة كبيرة، وجاء ابنه المستنصر ليتوسيع ويطور الجامع بزيادة عدد أقواسه وإقامة قبة كبيرة إلى جانب القبة الأصلية. وقد زين المسجد بالقباب وخاصة بجانب المحراب وأجرى الماء إلى سقيايات الجامع، وأقام منبراً مركباً.

أما في عهد المنصور بن أبي عامر فقد شرع المنصور عام 377هـ / 987م، في تطوير وتوسيع المسجد الذي ضاق بالمصلين. فكان أول عمل قام به هو هدم الدور القائمة شرقى الجامع والتي أدخلها في زيادته، وتعويض أصحابها بالمال والعقار، إذ يقول ابن عذاري (أول ما عمله بن أبي عامر قبل قيامه باعمال الزيادة - تطيب نفوس أرباب الدور والممتلكات الذين اشتريت منهم للهدم هذه الزيادة يتصفون من الشمن أو بمعارضته..⁽¹⁾). وبدأت أعمال التوسيع في الناحية الشرقية وامتدت على بلاطات تند بطول المسجد من أ قوله إلى آخره، فأصبحت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجاهًا⁽²⁾.

(1) ابن عذاري، اليان، ج 2، ص 429.

(2) القرى، نفح، ج 2، ص 136-137.

ولقد استغرق العمل في هذه الزيادات عامين ونصف العام، واستخدم المنصور الأسرى المبحرين في بناء الجامع كما يقل المقربي أنه (من أحسن ما عاشه الناس في بيان هذه الزيادة العاهرة إلأاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون في البيان عوضاً عن رجال المسلمين إذلاً للشرك وزعة الإسلام)⁽¹⁾. كما أن المنصور قد جعل نوافيس الكنائس التي غنمها ثريات في جامع قرطبة. (في حين أن عمر بن الخطاب لم يجرؤ لإقامة الصلاة في كتبة في فلسطين حتى لا تكون ستة يتعهدها المسلمون من بعده).

وأصبح المسجد يتالف بعد تطويرات المنصور من تسعه عشر بلاطًا. فقد المسجد الجامع تناسقه وازانه وتعادل أجزائه، وأصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع في محور الجامع⁽²⁾. كما قام المنصور بهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يبدأ في التوسيع. وفتح في الجدار الشرقي بيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل الزيادات الجديدة وبيت الصلاة القديم، أما الجدار الشرقي الجديد للجامع فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب، فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت الصلاة ستة عشر باباً. يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على مجنحات الصحن، فيكون مجموع أبواب الجامع التهانية إحدى وعشرين باباً. ويجعلها مطممة بالتحاصن الأصفر والمخرمة تحريراً وإنعاً. وتمثل الصالة العمارية في قباب المسجد وقوامها يكمل من الأقواس البارزة، تتقاطع فيما بينها، بحيث ترك فراغاً تشعله قبة مفتوحة، وقد انتشر نظام الأقواس في القباب في إسبانيا المسيحية انتشاراً واسعاً.

ولقد حافظ جامع قرطبة على شكله هذا طيلة العصر الإسلامي، ولم يشهد أي تغير في نظام هندسة بنائه، سوى الترميمات وبعض الإصلاحات الفضفورية في عصري المرابطين والموحدين. ولكن سقوط قرطبة على يد الملك فرناندو الثالث ملك

(1) المثري، نفع، ج 2، ص 84. نقلًّا عن المخاتير رقم 1 ص 397. د. البد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس.

(2) يقع محور الجامع من القبلة جنوباً إلى باب الغفران شمالاً، ماراً بالبلاط السادس ابتداءً من غرب الجامع.

في الثالثة عشر 1236، تحول هذا المسجد الجامع إلى كنيسة حلت اسم (سانتا ماريا) العثماني. ولقد شهد بناء الجامع في أواخر القرن الخامس عشر، إضافات وتغييرات أساسية أجراها الإسبان أدت إلى القضاء على الوحيدة العمارة. ثم أقيمت كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع شوهرت البناء القديم وقد أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس المعماري هرنان رويث ثم خلفه ابنه هرنان ولم يتم بناء الجامع من الداخل مصليات عديدة اتخذت طابع عصر النهضة في بناها، مثل مصلى لوس سيماس نكاس ومصلى سان بايلو. وفي عام 1682 أقام الأسقف فراري التوسودي، مدينة المصلى المعروفة بلاكتوبثيون وزنته بتماثيل رائعة، قام بفتحها النحات الغرناطي بدرودي مينا، وفي عام 1705 أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تيرزا، أو مصلى الكلاردينال سالازار، وفي القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشية، بعد أن تأكّلت بفعل الزمن، وأقيم بدلاً عنها قبور جصية في جميع بلاطات الجامع.

وخلال القرن التاسع عشر أجريت في الجامع عدة إصلاحات أولها ما قام به دون بدرورتيفيا عام 1826 من ترميم المحراب، ثم أعلن المسجد الجامع عام 1882 أثراً قومياً إسبانياً، ولقد أجريت عدة ترميمات آخرها عام 1909 وقد عهدت الحكومة الإسبانية إلى مهندسين مختصين بالعناية به وترميمه عند الحاجة.

ولقد كان لهذا الجامع المسجد في قرطبة تأثير على فن العمارة الإسلامية والمسيحية. فمنه أخذ نظام القباب ذات القلعوي، ومنه اشتقت هندسة البلاطات المتوجهة عمودياً على جدار القبلة ومن تخطيطه اشتقت تخطيطانها. وكان جامع ابن طولون في مصر قد تأثر في جامع قرطبة، فمثذنة جامع ابن طولون تحمل عقوداً من النوع الشائع في جامع قرطبة، وإن القنطرة التي تصل بين الجامع تستند على عقود متباينات على الطراز القرطي، وبأسفل القنطرة كوابيل من نفس نظام كوابيل عقود جامع قرطبة، كما امتدت التأثيرات الأندلسية القوطية إلى مدينة طرابلس حيث ظهرت واضحة في بعض الآثار مثل عقود المدرسة البرطانية⁽¹⁾.

(1) هذه التأثيرات توصل إليها الباحث د. سيد عبدالعزيز سالم، وهو ما اعتدنا عليه بشكل أساسي، في كتابه تاريخ المسلمين وأثارهم في هذا الموضوع.

اما تأثير عمارة الجامع على العمارة المسيحية فهي واضحة في إسبانيا إذ ترى في الكنائس المسيحية مثل كنيسة المزان بقشتالة وفي الكنائس المستعربة بجليقية مثل سانتا جو دي بنيالا وغيرها، كما امتد تأثيره إلى مقاطعات فرنسا الجنوبية مثل كنيسة جاسكونيا ولانجروك وغيرها.

2- جامع عمر بن عدبس

ويقع في إشبيلية، وهو من المعالم المعمارية المهمة في الأندلس. ولقد أمر الأمير عبدالرحمن الثاني في سنة 412هـ / 829م، القاضي عمر بن عدبس بتشييد هذا الجامع. وسجل تاريخ إنشاء الجامع في نقش كوفي على عمود من رخام⁽¹⁾ جاء في نصه (يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهدي الأمر بيبيان هذا المسجد على يدي عمر بن عدبس قاضي إشبيلية....). ولم يتمتع هذا الجامع إلى آية تطورات أو إضافات واحتفظ بمساحته الأولى حتى ضاق بعد مضي ثلاثة قرون من إنشائه بالمصلين. فقام الموحدون جامع القصبة الكبير بإشبيلية لاستيعاب الفالقين من المصلين، ويكون هذا الجامع من أحد عشر رواقاً عمودياً على جدار القبلة، وكان الرواق الأوسط أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وطول جدار القبلة يتراوح ما بين 48-50م. ومئذنة المسجد تستند على الجدار الشمالي للجامع، وتبرز خارج هذا الجدار قليلاً، وصنعت مئذنة الجامع من الأحجار التي خلفها سور الرومانى القديم الذي تهدم عند الفتح الإسلامي لمدينة إشبيلية⁽³⁾.

وكان صحن الجامع مزدرياً بأثجار البرتقال والتارنج، توسطه نافورة على شكل محارة، ولكن هذا الجامع تعرض إلى حرق سقفه أثناء هجوم النورمانديين على إشبيلية سنة 230هـ / 844م بعدها تعرض الجامع سنة 472هـ / 1079م إلى زلزال عنيف هدم الجزء الأعلى من المئذنة، فجدد المتمد بن عباد بناءها، ثم تصدعت

(1) وهذا العمود محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي في إشبيلية.

(2) حاشية رقم 1 من كتاب السيد سالم الساين، ص 401.

(3) لقد عثر بين أحجار المئذنة على حجر عليه نقوش لاتينية.

الجدران الغربية، وتأكلت ركائز سقفه، حتى أصلاحها الخليفة الموردي أبو يوسف يعقوب المصوّر في سنة 592هـ / 1195م، وبني له ركائز قوية تند جدرانه من الميل. وقد كان معاشره المتنبي يشيد جامع قرطبة، كما أن مصبه يشهد صير جامع قرطبة الذي تحول أيضاً إلى كنيسة اسمها (سان سلفادور) بعد سقوط إشبيلية على يد فرناندو الثالث سنة 1246م.

3- مسجد الباب المردوم

ويقع في طليطلة، ويعتاز بصغر مساحته قياساً إلى مسجدي قرطبة وإشبيلية، لكنه مع ذلك يمثل أهمية خاصة لاشتماله على نسخ قباب، قائمة على الفسلخ المتقطعة، مثل أولى مراحل التطور التي مررت بها قباب جامع قرطبة. وقام ببناء هذا الجامع أحد بن حذيفي^(١) من ماله الخاص، وقام ببنائه موسى بن علي. وشيد المسجد من الحجر الجرانيتي والأجر، وهو مربع الشكل على نظام الكثافات البيزنطية لا يتتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار. ويتألف من ثلاثة أروقة طويلة، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية، بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أسطبلين، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قرطبة قديمة، يتفرع منها اثنا عشر قوساً على كل شكل حدوة حصان. ويعلو كل أسطوان من الأسطبلين التسعة قبة تقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأينا في جامع قرطبة، والقبة الوسطى أكثر القباب ارتفاعاً. وهذه القباب تظهر تطوراً لقباب قرطبة من ناحية الزخرفة. وتطلّ واجهة المسجد الرئيسية على الطريق المؤدي إلى باب مردوم ثلاثة عقود، في أعلىها نقش كوفي يتألف من قطع من الأجر بارزة على سطح البناء داخل إفريز بين صفين من الأستنات البارزة، ويسجل هذا النقش تاريخ البناء سنة 390هـ. والقوس الأيمن من هذه الأقواس متتجاوز على شكل حدوة حصان على نقط أقواس جامع قرطبة. والقوس الأيسر مقصص، أما الأوسط فهو حديث. ويعلو الأقواس الثلاثة التي تعد أبواباً كيت الصلاة، أقواس صغيرة متقطعة. والواجهة التي تطلّ

(١) وهو ناضي طليطلة، وهو من أسرة معروفة، تولى الوزارة أيام إسماعيل بن ذي النون ملك طليطلة.

على صحن المسجد تألف من ثلاثة عقود متباينة بمحاذة أبواب، تعلوها ستة أبواس، يتراوب اللونان الأبيض والأحمر فيها. نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أبواس جامع قرطبة.

العمران المدنى

ـ القصور

أخذ المسلمين عند دخولهم الأندلس المبني والقصور الإسبانية كمقر للحكم والسكن، وكانت هذه القصور توجد في المدن القديمة الإسبانية، ولم يبدأ المسلمون في بناء قصورهم الخاصة إلا في عصر بني أمية، وهو العصر الذي شهد ولادة الفن الإسلامي المعماري في الأندلس، الذي جاء مصاحباً لمظاهر الترف والهالة التي أحاط الأمراء الأمويون فيها أنفسهم. ولقد بدأت الحركة العمرانية في عهد عبدالرحمن الداخل، ونشطت وتوسعت في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، الذي شهد ازدهاراً رفيعاً، كما شهدت الأندلس حركة معمارية نشطة في عهد المستنصر والمتصور ابن أبي عامر.

وعلى الرغم من كثرة القصور والمتاحف العمرانية التي بناها أمراء بني أمية وخلفائهم، فلم يبق منها إلا آثار قصور مدينة الزهراء، ويرجع السبب في هدم القصور وإزالة آثارها إلى عوامل متعددة يرجع د. السيد سالم العامل الدبيبي، لأن الإسلامي يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء، كما يرى. وأن (مَنْعِ الدِّينِ) قلل والآخرة خير لمن أتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء⁽¹⁾.

كما أن فقهاء المسلمين كانوا لا يوفدون الخلفاء على ما يذهبون إليه من المبالغة في الإعمار والفاخمة والبهرجة⁽²⁾. ويقال أن القاضي متذر بن سعيد قد ثبَّتَ الخليفة

(1) المقري، نفح الطيب ج 2، ص 106.

(2) ولكنهم في الواقع لا يتكلون أبداً سلطنة على ردح هؤلاء الخلفاء في العبث بالأموال العامة سوى إساءة النصيحة في غير محاجتها، إذ أن بناء الجواجم والشواهد العمرانية هي خير من نفقات خلقاء المسلمين على الجواري والاليالي الحمراء ومتاجر الأبيهات التي لا تتفق مع وجود طبقة دنيا في المجتمع تعيش على الصدقات !!

عبدالرحمن الناصر بعد أن فرغ من بناء مدينة الزهراء وما صرفه عليها من مال وجهد، حتى أنه عطل صلاة الجمعة في المسجد ثلاثة مرات متالية. وحذره من الانصراف إلى أمور الدنيا، وحثه على اعتزامها، وخوّفه من الموت ودعاه إلى الرهد، حتى أبكي الخلية. وتغنى الشعرا في ما أشاده الناصر من قصور فقال أبو عثمان بن إدريس:

يُشَهِّدُ مَا أَبْقَيْتَ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ مُضِيًّا وَقَدْ مَكَنْتَ لِلَّدِينِ وَالدُّنْيَا
فِي الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالْتَّقْوَى وَبِالْزَّهْرَةِ الْزَّهْرَاءِ لِلْمَلْكِ وَالْعِلْمِ

فأجابه القاضي سذر بن سعيد مذكرة الخليفة بعواقب التصدق بالدنيا وأثارها الزائلة قائلاً:

يَا بَانِيَ الزَّهْرَاءِ مُسْتَغْرِقًا أَوْقَاتِهِ فِيهَا أَمَا تَهَلِّ
لَهُ مَا أَحْسَنَهَا رَوْنَقًا لَوْمَ تَكُنْ زَهْرَنَهَا تَذَبَّلِ

واهتم المنصور بن أبي عامر ببناء القصور، فأسس مدينة الزاهرة ذات القصور الشاسعة مثل مدينة السرور والعامرة، ولكنها لم تعمّر طويلاً بعد أن طالها اللب والنوب وعمّها الغراب وقيل أن مسرورات هذه القصور قد يُبعث في بغداد وغيرها من البلاد الشرقية. (ويذكر ابن سام: أن قصور بني أمية الرفيعة تهدمت على يد رجل يدعى ابن باشة، فقد باع آلات هذه القصور من المرمر والعمد الرخامية والأختاب والنحاس والخديد والرصاص).^(١)

ومن المفيد أن نذكر أن مدينة الزهراء قد ظلت قرونًا مطمورة في جوف الأرض، حتى جاء الآثاريون الإسبان واكتشفوها ثانية. فما هي قصة هذه المدينة؟

لقد كان الخليفة عبد الرحمن الناصر مولعاً ببناء القصور الفارهة على نحو ما رأينا، فأراد أن يؤسس مدينة تليق بخلافته، فبني مدينة الزهراء على بُعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة، ويبدو أن خيال المؤرخين كان حاضراً في قصة بناء

(١) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص 111-112.

المدينة فيذكر المقري (أن الناصر مات له سرية، وترك مالاً كثيراً، فامر أن يفك بذلك أسرى المسلمين، وطلب من بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جارته الزهراء: اشتهدت لو بنت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي، فبنها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة ثلاثة أميال أو نحو ذلك)⁽¹⁾). ويرى د. سالم، أن اسم المدينة الزهراء سمي نسبة للصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة أو بسبب غرسه على جبل قرطبة الذي تقع المدينة على سفحه، بينما ولوزاً، وفتح الأشجار زمان الأزهار⁽²⁾. وهذا تعليل في بعض الغرابة.

ولقد بدأ العمل في المدينة الزاهرة في عرم 325هـ / 936م. إذ جلب الناصر إليها عبدالله بن يونس كبير البناءين، وحسن القرطي، وعلي بن جعفر الإسكندراني، وجاء بالرخام الأبيض من المرية، والرخام المجزع من رية، والرخام الوردي والأخضر من أفريقيا. بهذه المواد أسس قصره الحلفي، وقيل أن من كان يعمل في بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف رجل والف خمسةمائة دابة. إذ يقول المصادر التاريخية أنه (ولما بني الناصر قصر الزهراء المتأهي في الحاللة والفارخة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والتجل مختلفه من ملك وارد ورسول وافقه وتجاهر وجهه، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والغفطة، إلا وكثيرون قطع أنه لم ير له شبهاء، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه)⁽³⁾.

كما بني الناصر مسجداً لمدينته يتكون من خمسة أروقة، كان الأوسط أكثرها اتساعاً، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمري اللون، تتوسطه نافورة، وكان ارتفاع المنذنة أربعين ذراعاً وهي تشبه منذنة الأمير هشام بجامع قرطبة، أما مئذن الجامع

(1) نفح الطيب، ج 2، ص 65.

(2) السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 101.

فقد جاء في متني الجمال، وأقيمت حوله مقصورة من الخشب⁽¹⁾. كما أقام الناصر حدائق للحيوانات وسارات للطيور مظللة بالشباك. كما أقام في مدينة الزهراء دوراً لصناعة الآلات الحربية والخلي للزينة وغيرها من المباني.

وتوفي الناصر ولم يكمل بناء المدينة، واستمر العمل في البناء في عيد الخليفة الحكم المستنصر فقام بناء المدينة سنة 365 هـ ولكن هذه المدينة لم تنعم طريراً بالحياة، إذ أن سقوط الخلافة في قرطبة، قد جعلها أثراً منياً وفيها يقول الشاعر السيسري:

وقفت بالزهراء مستبراً معتبراً أندب أستاننا
قتلت: يا زهراء الا فارجعي قالت: وهل يرجع من ماتنا
فلم أزل ابكي وابكي بيهات هيهات يُغنى الدمع هيهاتا

ولقد انتبهت الحكومة الإسبانية في أوائل القرن العشرين إلى أهمية هذه المدينة التاريخية بعد أن ظلت لفترة طويلة عجرأً لاستخراج الأحجار والرخام ومواد البناء. وقامت بحملات استكشافية أثرية أدت إلى اكتشاف قصر الحكم المستنصر، كما تم العثور على آثار قصر الناصر سنة 1943.

2- الأسوار والحسون والقلاء

لقد كان اهتمام الأمويون بتوسيع المدن واصحاؤها، فاجتهدوا في إقامة الأسوار والحسون في كافة المدن. وأول هذه المدن هي قرطبة التي تهدمت أجزاء متعددة من أسوارها إبان الفترات الإسلامية، وخاصة سورها القبلي والغربي. فأصبحت مدينة مفتوحة حتى تمكن الأمير عبدالرحمن الداخل سنة 150 هـ من ترميم سورها الغربي وبناء سور قرطبة⁽²⁾، وما زالت بقايا سور الأمير الداخل قائمة ابتداءً من المستشفى العسكري في قرطبة. وظل سور قرطبة الروماني موضع رعاية الأمراء والخلفاء، حتى

(1) نفس المصدر، ص 100.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 313.

بعد أن اتسعت قرطبة، ولقد سبق الحديث عن هذا الموضوع في دراستنا عن قرطبة وعمرانها. كما أن أسوار إشبيلية هي الأخرى تضررت بعد ثور العمران والتلوّح بها، وقد استغل هذا التورمانديون عندما هاجروا إلى إشبيلية غير المزورة جيداً فدخلوها دون أن تعرّضهم الأسوار واستباحوها سبعة أيام. فقام الأمير عبد الرحمن الثاني بتحصين إشبيلية، فأسس سورها بالحجارة، ثم تهدم هذا السور ثانية بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 301هـ / 913 على يدي ابن السليم.

كذلك أسس عبد الرحمن الداخل حصن المدورة بالقرب من قرطبة والباقية آثاره لحد الآن. كما اهتم عبد الرحمن الناصر بتحصين المدن الساحلية تحسباً للخطر الفاطمي. فأسس مدينة المرية، وأحاطها بأسوار متينة، كما أنشأ برجاً يقلعمة طريف سنة 349هـ / 960م، وما زالت هذه القلعة تختفظ بشكلها لحد الآن. وشهد عصر المستنصر إقامة عدداً من الأبراج والمحصون في مناطق الأندلس المختلفة جنوباً وشمالاً. على المرتفعات المطلة على الطرق المؤصلة بين المدن، ولقد بقي من عصر الحكم حصن يدعى عقبة البقر، في الطريق المؤصل بين قرطبة وفحص البلوط، كما أقام قواد الحكم المستنصر، غالب ويعسى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي الثون حصن غرماج سنة 354هـ / 965م وكان هذا الحصن (مفتاحاً دفاعياً حقيقياً للخط الاستراتيجي الدفاعي بين أوسما ويرلانجا)، وما زال يقف اليوم مرتفعاً إلى عنان السماء كما لو كان حارساً لا يغفل.. عدداً على مسافة تبلغ نحو كيلومتر واحد، والحصن مزود بنقش كتابي يؤكّد الحقائق التاريخية⁽¹⁾.

3- القنطر والجسور

لقد كانت القنطر موضع اهتمام أمراء بني أمية وكذلك الجسور. وأهم القنطر الباقية، قنطرة قرطبة التي تصل بين مدينة قرطبة وضاحية شقادة، وهي من بناء الإمبراطور أغسطس، وقد وجدها المسلمين مهدمة عند الفتح، ولم يبق منها سوى

(1) حاشية رقم 3، د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 414

دعائهما الراكة في النهر⁽¹⁾. فجدها السمح بن مالك الخولاني مستخدماً أحجار السور المتهدم 101هـ. ثم تعرضت القنطرة سنة 161هـ لليل جارف سد حنابها وخدم بعضها وزلزلها⁽²⁾، فأعاد ترميمها الأمير هشام وبعدها تعرضت القنطرة إلى أكثر من سيل حتى تلجمت سنة 331هـ في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي قام بإصلاحها. كما عمل المتصور العامري على تخفيض الضغط عن قنطرة قربطة، عندما أمر ببناء قنطرة أخرى على نهر قربطة سنة 378هـ وأكمل بناؤها سنة 379هـ.

وأما قنطرة طليطلة فقد كانت تربط بين المدينة وبين ضاحيتها الواقعة على الضفة المقابلة للمدينة من نهر تاجة، وكانت تتألف من قوس واحد تضممه فرجتان من كل جانب، وطواطمها ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعاً⁽³⁾. وقد أقر الأمير محمد بهذه القنطرة سنة 244هـ انتقاماً من أهلها الذين ثاروا عليه، وظللت على حالها حتى أعاد بناءها خلف بن محمد العامري حاكم طليطلة بأمر من المتصور العامري سنة 387هـ / 957م. ثم هدمت بعد سقوط طليطلة بيد القشتالين. وفي بناء الجسور عمل الأمويون على تقليد الرومان في تشييدها، والتي كانت تحمل المياه من الجبال في أنابيب دقيقة إلى المدن. وقام عبد الرحمن الناصر سنة 329هـ (بنيان القناة الغربية الصناعية التي أجرأها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قربطة إلى قصر النافورة غربي قربطة في المنصور المنهضة، وعلى الحنابيا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصور بدبيع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان هما وميض شديد، يجوز لهذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيسجه في تلك البركة من فيه، فيغير الناظر مجده وروعة منظره.. فتسقى من حجاجه جنان هنا القصر على سعنها، ويتشيس على ساحتها وجنباته... فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملك في

(1) المقري، ج 3، ص 26.

(2) ابن عذاري، ج 2، ص 83.

(3) المقري، ج 1، ص 153.

غابر الدهر، لبنة ماقتها، واختلاف مالكها، وفخامة بيتها، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعلىها^(١) ولم يبق من هذه الجسور آية آثار مادية تذكر.

4- الحمامات

لم يبق من حمامات قرطبة سوى آثار حامين أحدهما يقع في شارع الحمام والآخر في شارع لاسي كوميدياس بجوار الجامع، وهذا الحمام الأخير ما زال يحتفظ بقاعته الوسطى، وبها عقود مفرطحة وأخرى متجاورة على شكل حدوة حصان تحملها عشرة أعمدة، تيجانها من نوع التيجان الخلافية. وكانت تعلو هذه العقود قبة لم يبق منها أي آثر الآن. إذ تحولت هذه القاعة إلى صحن مكشوف للهواء، بينما احتفظت الغرف المجاورة بقبوتها، ولهذا الحمام غرفة تعلوها قبة كانت تخللها مضاوي لتنفيذ الضوء، سدت جميعها الآن. كذلك تبقى من طليطلة حمام يرجعان إلى عصر الخلافة.



(١) المغربي، ج ٢، ص ١٠١-١٠٥.

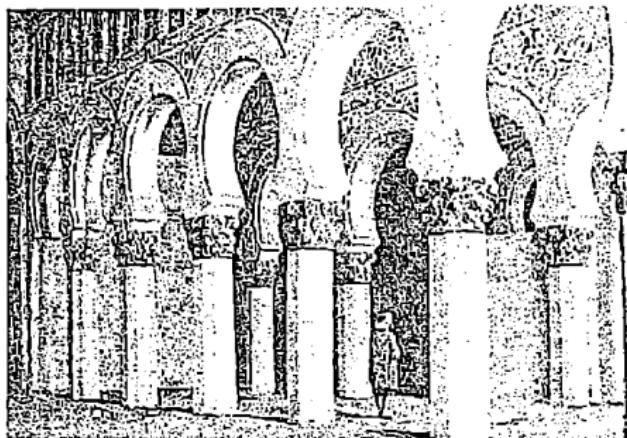
صور وخرائط



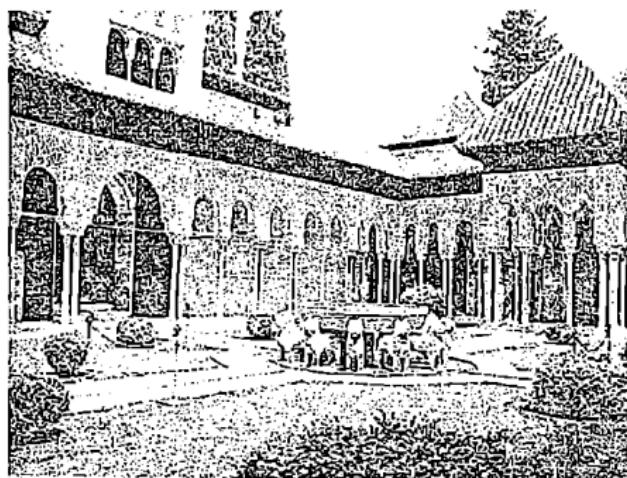
سوق الشواشين (الطرابيش) التي اشتهر الأندلسيون بصنعها بعد وصولهم إلى تونس مغربين من إسبانيا بعد عام 1609



يظهر في الصورة التأثير الأندلسي في تونس وهي مدينة سidi بومعبد الساچحة من المعاصرة تونس



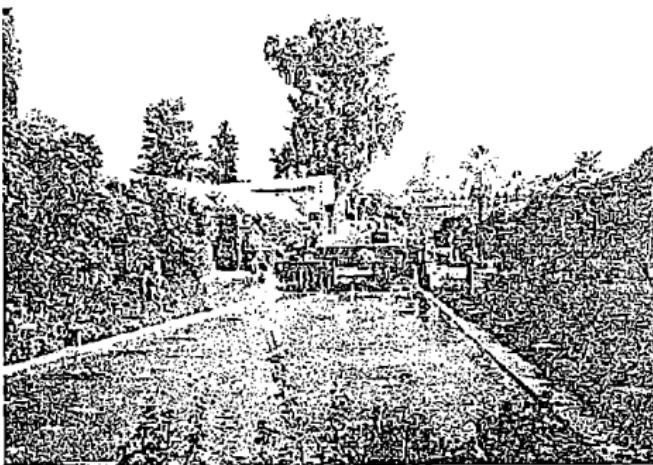
لوحة داخل كبس في طبطة رسمها الفنان هاينريش هنن



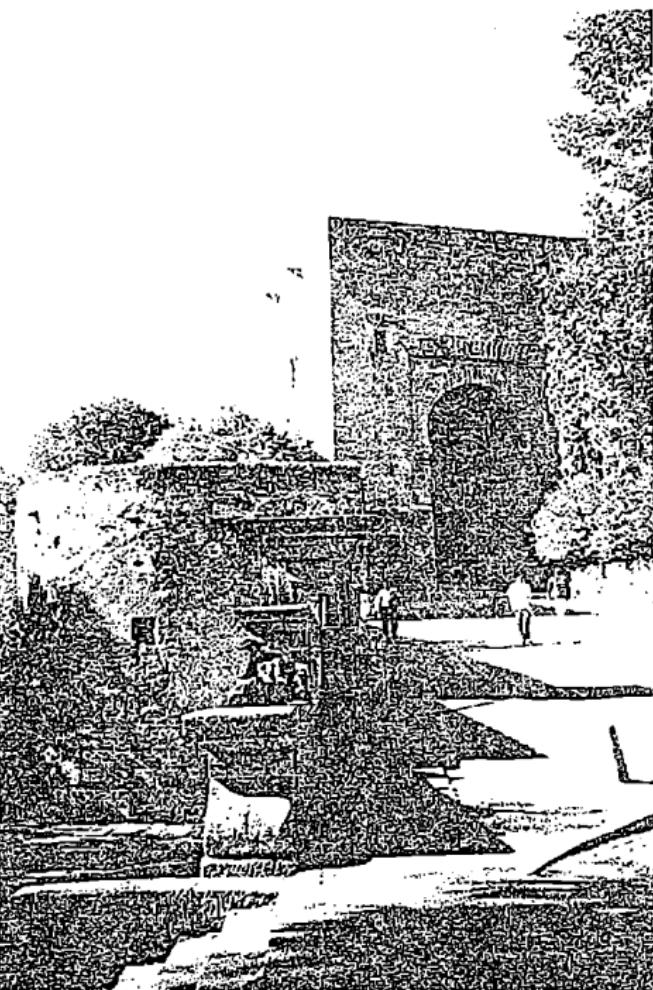
صحن المساجد في حراء فرناطة



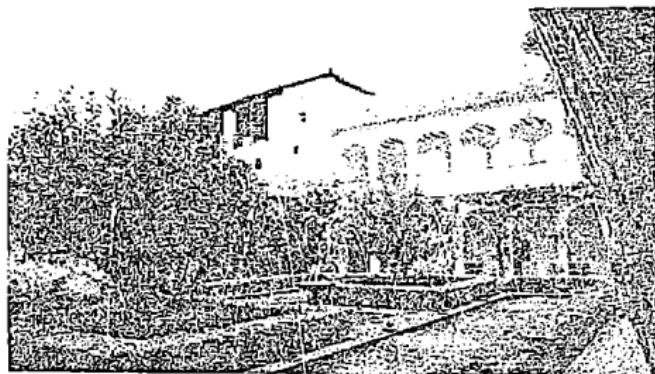
منظر عام لمدينة طريفة



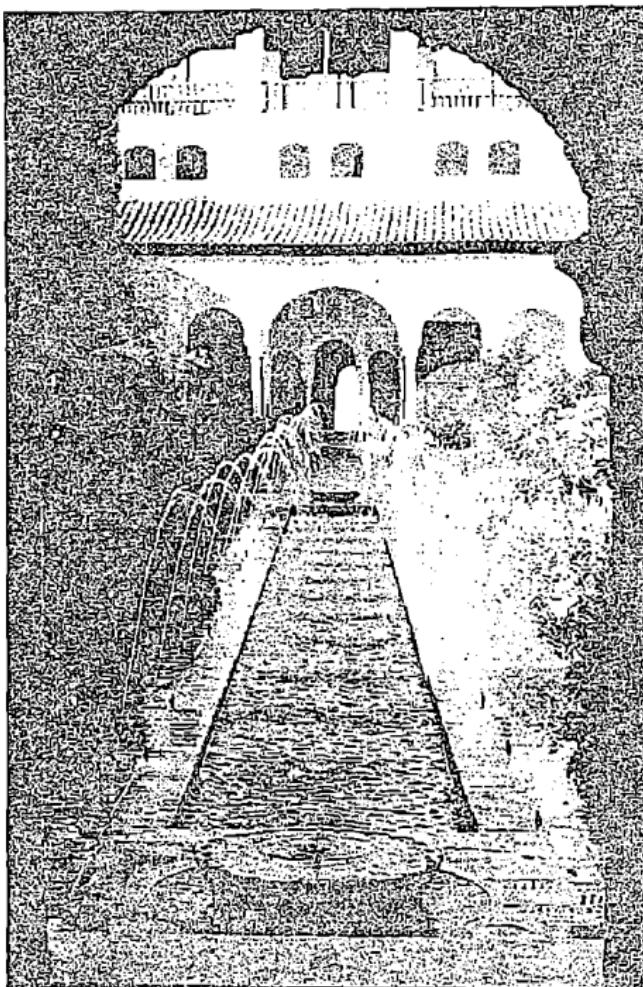
حدائق قصر عجمة التحقين في طريفة



براءة قصر الحمراء (غرناطة)



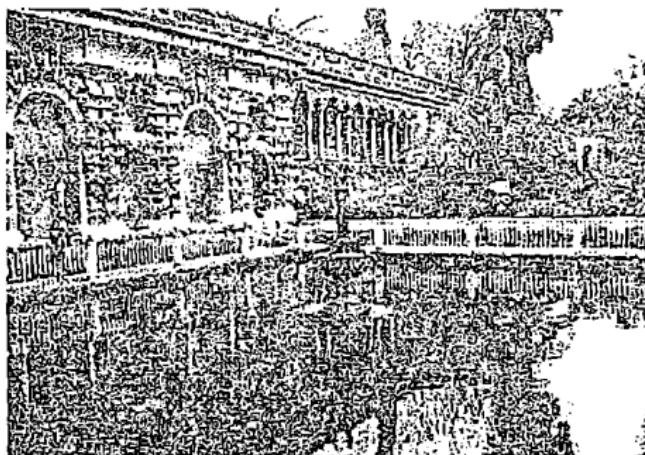
نصر الحمراء في غرناطة (الأولى من الأعلى)، ناعورة على نهر الوادي الكبير في قرطبة، أطلال قرطاجنة مدينة هنبعاً



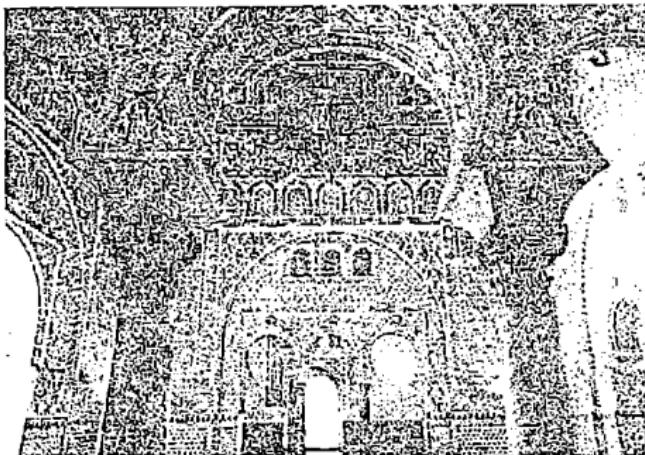
الترازة في قصر الحمراء (غرناطة)



القصر: صورة من مشارق الْجَنَانِ



حدائق القصر



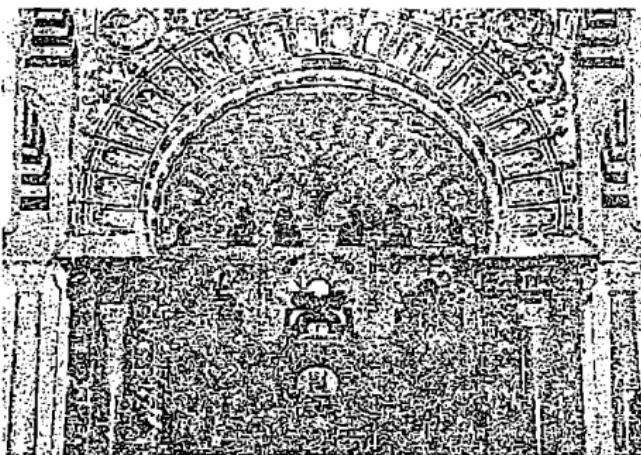
قاعة النساء - القصر - إشبيلية



مدينة الهراء: عقود القصر



مدينة الزهراء: بعد بنازها



منبر جامع فرطبة بعد ترميمها وتحويلها إلى جرار



غلال ابن وشد في قرطبة



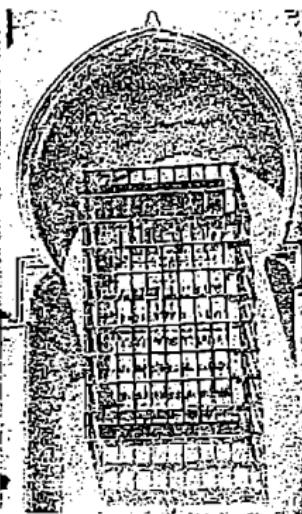
غلال مسروقيوس في قرطبة



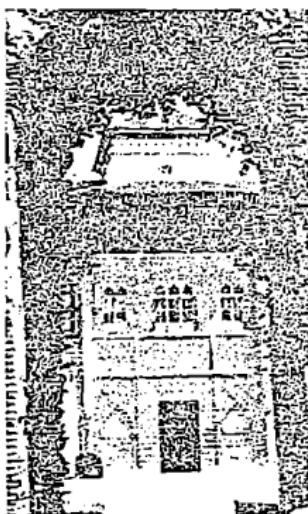
قرطبة - مدخل من سور المدينة



نصب يرمز إلى الصدقة العربية الإسلامية



أحد أبواب جامع إشبيلية قبل تأهيله ثم صدت



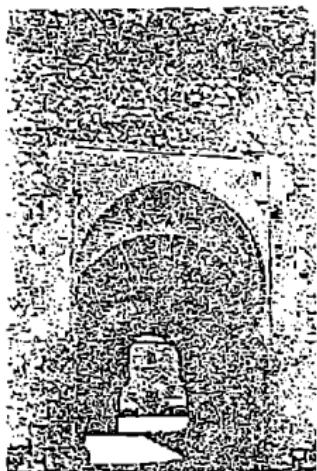
مدخل القصر - إشبيلية



قلعة جابر (بالقرب من إشبيلية): إحدى البوابات



قلعة جابر (بالقرب من إشبيلية): أحد الأبراج



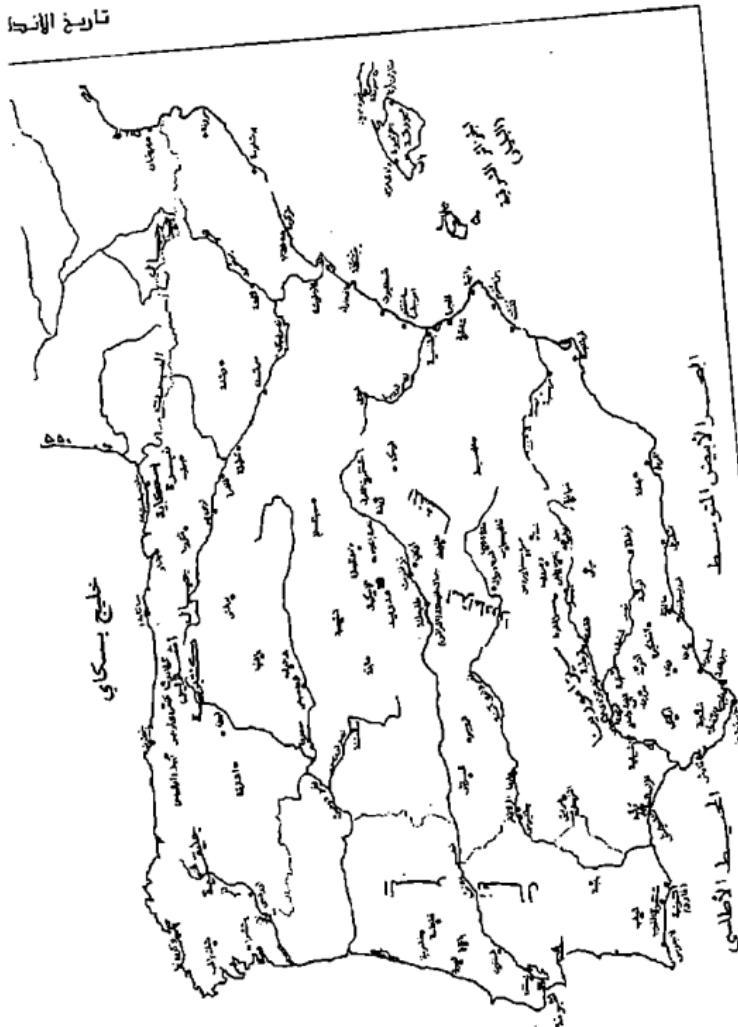
باب غرناطة بترمونة

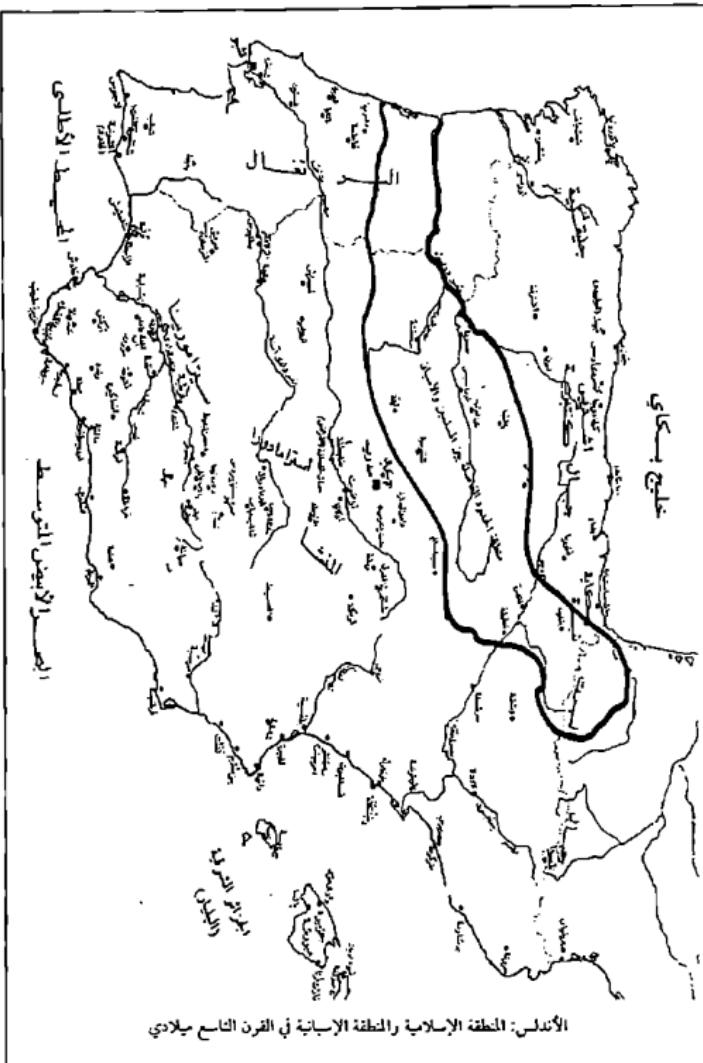


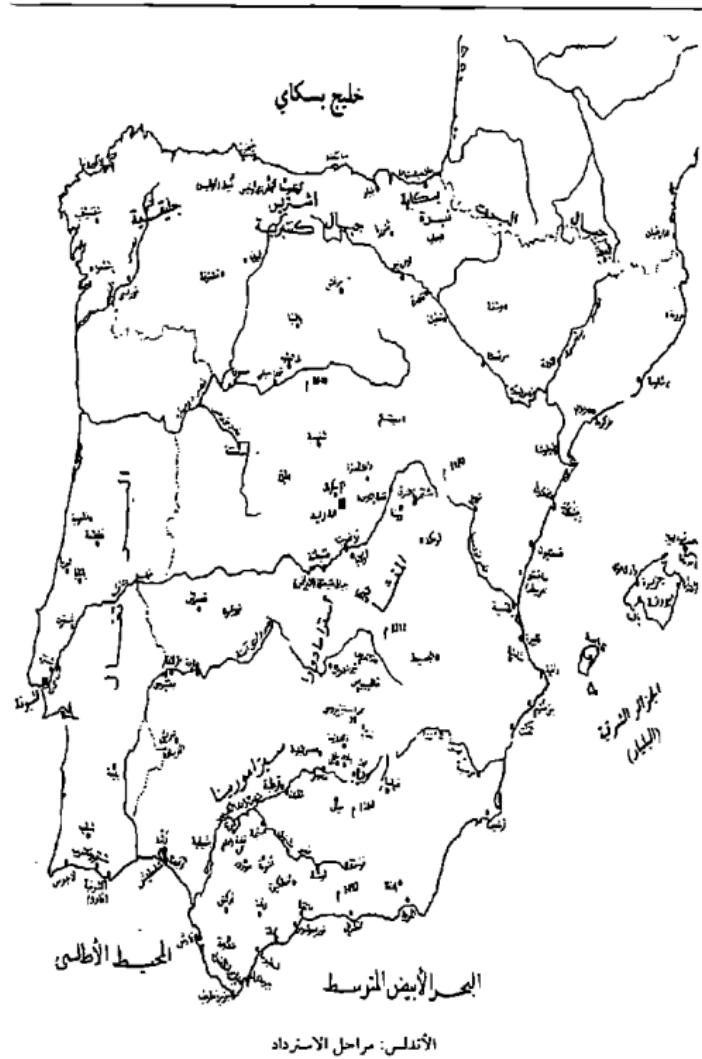
فطرة قرطبة الرومانية بعد ان املحها العرب

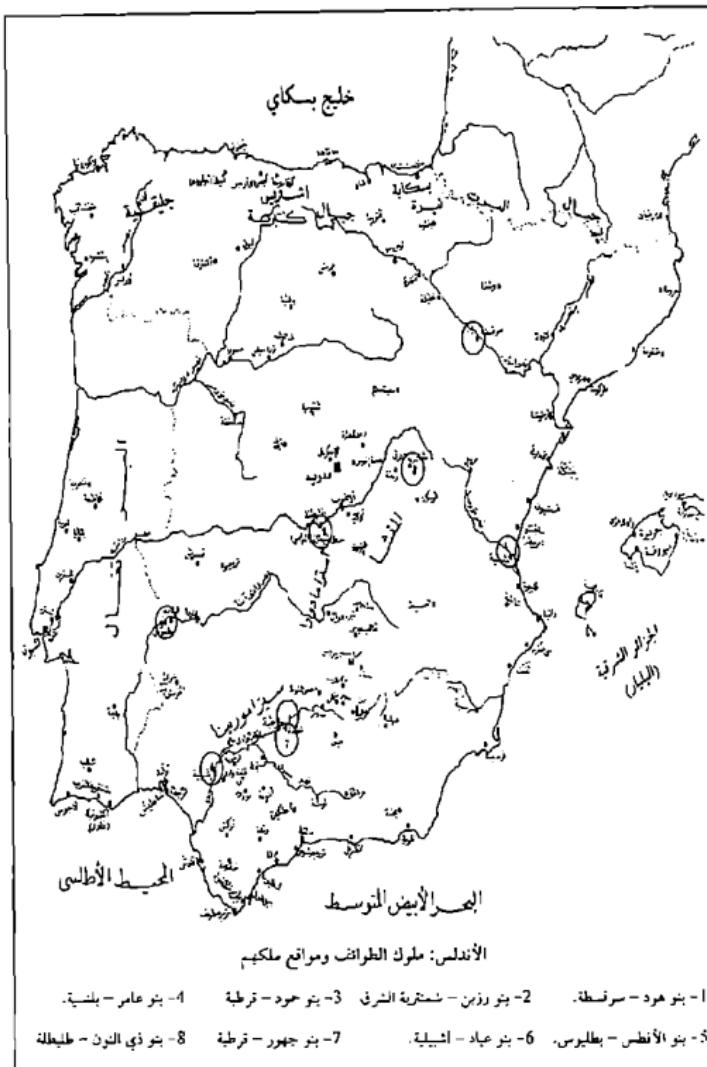


خطط قرطبة في القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي









مصادر الكتاب

اولاً: المصادر العربية القديمة

1. ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم)، كتاب الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1978.
2. ابن الخطيب (السان الدين): كتاب أعمال الأعلام فمن يويع قبل الاحلام من ملوك الإسلام. نشره ليفي بروفنسال، 1956.
3. ابن القوطية القرطبي (أبو بكر بن محمد)، تاريخ افتتاح الأندلس متبعاً بقصة فتح الأندلس لابن قتيبة وأخبار الفتح من الرسالة الشريفة، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1994، تحقيق د. عبدالله أنيس الطباع.
4. ابن بام (أبو الحسن علي الشتربي)، كتاب الذخيرة في حماسن أهل الجزيرة، القاهرة، 1945.
5. ابن حيان (أبو مروان بن خلف)، المتبين في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت، دار الثقافة.
6. ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد)، المقدمة، المكتبة التجارية مصر.
7. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر، بيروت، 1960.
8. ابن عبدالحكم (عبدالرحمن)، فتوح إفريقيا والأندلس، الجزائر، 1947.
9. ابن عذاري المراكشي (أبو عبدالله محمد)، كتاب اليان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشره ليفي بروفنسال وكولان، بيروت، 1950.
10. ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم)، الإمامة والسياسة.
11. الإدريسي (الشريف)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره دوزي، 1866.
12. البكري (أبو عبيدة بن عبد العزيز)، كتاب الممالك والممالك، تحقيق عبد الرحيم الحجي، بيروت، دار الإرشاد، 1968.

13. البكري، كتاب المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر، 1911.
14. الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبدالنعم الحميري)، الروض المغطار في خبر الأقطار، ترجمة ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937.
15. مجھول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس.
16. المعودي (أبو الحسن علي)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، 1983.
17. المقري (أحمد بن محمد)، فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، 10 أجزاء، القاهرة، 1949.
18. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله)، معجم البلدان، بيروت، 1960.

ثانياً: المصادر العربية المعاصرة

1. أرسلان (شكيب)، خلاصة تاريخ الأندلس، بيروت، مكتبة الحياة، 1983.
2. أرسلان (الأمير شكب)، تاريخ غزوات العرب، مصر، 1933.
3. أرسلان، الحلل السندينة في الأخبار والآثار الأندلسية، 3 أجزاء، المغرب، 1997.
4. د. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة، الإسكندرية، 1997.
5. أحد العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
6. د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلس، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1960.
7. د. إبراهيم بيضون، الدولة الأموية وللمعارضة، بيروت، 1980.
8. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1980.
9. د. إبراهيم طرخان، دولة القرطاجيين الغربيين، القاهرة، 1958.
10. إبراهيم طرخان، المسلمين في أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، 1966.

11. أمين توفيق الطبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية لل الكتاب، 1997.
12. د. اليد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1997.
13. السيد سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000.
14. السيد سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998.
15. السيد سالم، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998.
16. عبدالحميد العبادي، الجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، 1958.
17. د. عصام الدين الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1990.
18. د. عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، 1987، ط. 3.
19. عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، القاهرة، 1964.
20. عادل بشاوى، الأمة الأندلسية الشهيدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.
21. عاشر سعيد عبدالفتاح، أوروبا في العصور الوسطى، جزان، القاهرة، 1961.
22. عنان محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرفين، القاهرة، 1966.
23. د. عنان، محمد عبدالغفار، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1969.
24. عنان، محمد عبدالله، دولة الطوائف، القاهرة، 1399هـ.
25. د. عبدالعزيز العتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
26. مؤنس، د. حسين، فجر الأندلس، القاهرة، 1959.
27. مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947.

28. مؤنس، معالم تاریخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار المستقبل العربي، 1980.
29. مؤنس، رحلة الأندلس، القاهرة، 1963.
30. د. محمد حاتمة، ملامح حضارية في الأندلس، عمان، 1999.
31. محمد حاتمة، الأندلس التاريخ والحضارة والمعنى، مطابع الدستور التجارية، عمان، 2000.
32. د. محمد عبد المنعم الشرقاوي، د. محمد محمد الصياد، ملامح المغرب العربي، الإسكندرية، 1959.
33. محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، 1981.
34. محمد عي الدين المشرفي، إفريقيا الشمالية، الرباط، 1950.
35. د. محمد صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الكيالي، إربد، 1988.
36. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، 1997.
37. د. خالد الصوفى، تاريخ العرب في إسبانيا، عصر المصور الأندلسي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1975.
38. د. خالد الصوفى، تاريخ العرب في الأندلس، عصر الإمارة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، 1971.
39. خالد محمد القاسمي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، دار الثقافة، الشارقة، 1998.
40. خليل إبراهيم السامرائي، طه عبدالواحد دنوت، ناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2000.
41. كمال أبو مصطفى اليد، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1997.
42. كمال أبو مصطفى اليد، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

43. فارس بوز، تاريخ العرب في الأندلس، جامعة دمشق، دمشق، 1994-1995.

ثالثاً: المصادر المُترجمة

1. ليفي بروففال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبدالعزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1958.
2. ليفي بروففال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة نوفان خرطوط، بيروت، 1965.
3. رينهارت، دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د. حسن جيشي، القاهرة.
4. رينهارت دوزي، المسلمين في الأندلس، ج 2، ترجمة د. حسن جيشي، الخبطة المصرية العامة للكتاب، 1994.
5. رينو، جوزيف، تاريخ غزوات العرب، ترجمة شكيب أرسلان، القاهرة، 135 هـ.
6. جوستاف لوبيون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعتر، القاهرة، 1364 هـ.
7. مونتموري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد المصري.



تاریخ الأندلس

من الفتح الإسلامي حتى
سقوط الخلافة في قرطبة



النشر والتوزيع: al-malika@netsa.net
العنوان: ٢٣٦ شارع محمد بن عبد الله بن مطر، حي العزيزية، قطاع غرب،

القاهرة - مصر
الهاتف: ٠٢٥٣٩٢٢٧٧٧ - ٠٢٣٣٧٤٤٦٥٥ - ٠٢٣٣٧٧٧٧٧